محمد المنسي قنديل

فريق
متميزون
E-BOOK

وقائع عربية

دار الشروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

وقائع عربيـة

محمد المنسي قنديل

عن الكتاب..

تُغيِّب القبور الأجساد ولكن الأرواح تظل حية، طليقة، تملأ الأثير من حولنا وتتسرب إلى لحظاتنا المعيشة لتروي قصصها. التاريخ لا يموت، ولا تكف أطيافه عن التشكل، ملوك وأمراء وفرسان شعراء، عشاق لنساء فاتنات، وفلاحون لا يتوقفون عن الزرع والقلع، يحيطون بنا أحيانًا كالقيد، وأحيانًا أُخر يلهموننا الرؤية بشكل أعمق. التاريخ هو شغف، خلاصة التجربة الإنسانية، إدراك أن الحياة لا تنتهي والأمل لا ينقطع.

هذا الكتاب يستنطق أرواح الأسلاف ويقدم سلة مليئة بحكاياتهم الشائقة، لا تنتمي للتاريخ الكبير بوقائعه المشهودة، ولكنها تغوص خلف تفاصيل التاريخ الصغير؛ تاريخ الناس الذين يعملون في صمت، ويموتون دون أثر من أجل استمرار مسيرة الحياة؛ وكلها ترسم صورة مرحة أحيانًا ومأساوية أحيانًا أخرى لكل العصور العربية، وتقودنا في النهاية إلى مصر أمِّ التاريخ التي عاشت كل طبقاته ودفعت ثمن وجودها غاليًا. هذا كتاب موهوب للمتعة الخالصة، لصفاء النفس واستخلاص العبر، حكايات كنبض القلب، وأسلوب يختزن روح الشعر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

فذلكة لا بدَّ منها

اعلم - أبقاك الله - أننا نعيش مثقلين بأسفار التاريخ العربي، وأن الصدق والكذب فيه قد تشابها علينا، وأن التاريخ الحقيقي مكتوب بمداد لا يُرى بين السطور، يحكي قصة البسطاء الذين صعدوا دون بريق وماتوا بلا ضجة، ولكنهم كانوا دائمًا وقود الحروب، وزارعي الأرض وقت المجاعة، وباذلي قوتهم اليومي من أجل أثر يخلد ملكا من ملوكهم بينما يمضي ذكرهم دونما أي أثر.

واعلم - أيدك الله بنصره - أن ذاكرة التاريخ العربية ضعيفة، وأننا نخوض التجربة في كل مرة كأنها المرة الأولى، ونلغو كثيرًا عن حكمة السلف الصالح دون أن نستحضرهم في داخلنا، ورغم أن التاريخ يعيد نفسه فهو يفاجئنا كل مرة ونحن على أبواب الانتحار أو اليأس. وبدلا من أن تجمعنا الشدة المشتركة تفرقنا أيدي سبأ، فانظر حالنا - رحمك الله - كيف أن قوما لهم كل هذا التاريخ وهذه الأزمنة ومع ذلك لا يعتبرون حين يفيد الاعتبار.

ولكن.. هل نحن حقًّا - لا أحوجك الله إلى شيء - في حاجة إلى التاريخ، في حاجة لتلك النصائح المدسوسة تحت ركام الأحداث، المكتوبة بمداد باهت على صحائف صفراء، أن نرهق ذاكرتنا بوقائع الماضي الميت، بينما نحن غارقون في فظاظة الحاضر؟ أجل، نحن بحاجة إليها لا كنصيحة جامدة، ولكن كتجربة دفع آباؤنا ثمنها سلفا، دفعوها حين عبرت أفواجهم رمال الصحراء يحملون للعالم القديم رايات الخلاص، ودفعوها حين استكانوا تحت السياط حتى تمر العاصفة ويواصلوا صنع الحياة؛ لذلك فالتاريخ العربي ليس في حاجة فقط للقراءة، ولا اقتباس المأثورات، إنه في حاجة لكي يعاد بناؤه من جديد، أن نزيل غبار الزمن ومداد السلطة، وخرافات العجائز ودس الأعادي؛ حتى نعيده لصناعه الأصليين لنرى لماذا فعلوا كل هذا.. لماذا ثاروا حين ثاروا، ولماذا استكانوا حين استكانوا، وكيف عاشوا الحياة في لحظة الحب، ولحظة الحرب، في لحظة الغزو ولحظة الذل، في لحظة الانتصار ولحظة الانكسار، في لحظة الخوف، وفي لحظة الشجاعة؟

فهل يمكن - أعانك الله - أن تفعل ذلك؛ أن تعيد بناء الوقائع العربية من جديد وأن تكمل السطور الناقصة في كل الكتب الصفراء، أن نزيل الأسطورة ونستحضر السلف الغائب لعله يدعم حضورنا المهدد بالغياب؟

لعمري إنها لمهمة صعبة، ولكن - لحاك الله - من يا ترى يقوم بها غيرنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

عقل الأمة

كان السؤال غريبا، لا يتناسب مع مجلس أنس تتصدره قنينة مغنية وضارب دف وعازف عود، لكن ابن المقفع رفع يده فتوقف الغناء وانصرم حبل المزاج، قال لهم في جدية:

- أي الأمم أعقل؟

ونظر ضيوفه في «دار النيروز» بعضهم إلى بعض، كان أول ما خطر ببالهم أن ابن المقفع أراد أن يعلو عليهم بأصله الفارسي، ولم يكن أحد يعلم على وجه اليقين إن كان ابن المقفع قد اعتنق الإسلام حقًّا أو أنه ما زال على دين المجوسية القديم، ولكن رفض الرد على سؤاله كان محرجا؛ فقد بالغ في إكرامهم هذه الليلة، ومن ناحية أخرى فهم لا يعرفون بالضبط أي الأمم أعقل، وأسرع واحد من الضيوف - كان قد أكل كثيرًا وشرب أكثر - وقال:

- إنهم الفرس بطبيعة الحال.

ولكن ابن المقفع هز رأسه نفيا وهو يقول:

- ليتهم كانوا كذلك؛ لقد ملكوا الأرض، وسادوا الخلق، وارتفع ذكر ملوكهم، ونفذ سهم قادتهم، ولكنهم ما استنبطوا شيئا بعقولهم ولا ابتدعوا ما يبقى بعدهم.

ودهش الضيوف من كلماته الصريحة وتبدد أثر الطرب من رءوسهم، وأسرع واحد آخر يقول:

- إنهم الروم.

قال ابن المقفع: وليسوا الروم، فإنهم حكموا القوة على العقل، وطلبوا الطاعة بالدم، وأنشئوا القوانين لهم وظلموا بها غيرهم فلم يعدلوا في الحالتين.

تساءل ضيف آخر: أهل الهند؟

قال ابن المقفع: تفلسفوا كثيرًا حتى انقسموا، وانقسموا حتى تفتتوا؛ فهم شذرات، والشذرات لا عقل لها.

قال ضيف آخر: فهم الصين إذن؟

قال ابن المقفع: ما أشد غموضهم وما أكثر ما يبطنون وأقل ما يظهرون، وما أكثر طرائفهم وقلة أفعالهم، قوم ينحنون كثيرًا لا يستقيمون طويلا.

قال ضيف: هم السود؟

قال ابن المقفع: أصحاب شراسة وعنف، والشراسة غريزة ممجوجة، والعنف لا عقل له.

قال ضيف: فالخزر؟

قال ابن المقفع: بقر سائحة في سهوب باردة، تجمعها الغارات العابرة، ويفرقهم التناحر الدائم.

قال الضيوف جميعا: لم يبقَ إلا أن تقول أنت.

قال: العرب.

ضحكوا جميعا وهو يهمسون لبعضهم البعض، كنا نجامله وهو الآن يجاملنا، ولكن ابن المقفع واصل كلماته في جدية:

- ما أردت أن أعارضكم ولكنى أردت ألا يفوتني حظي من المعرفة، فالعرب حين حكموا الأرض لم يكن لهم مثل يحتذونه، ولا قواعد يسيرون عليها، كانوا أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وخيام، يجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده، ويضعف كل شيء بعقله فيكون قدره، ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم ورفعتهم همتهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم، وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم شرف الذكر، وختم لهم بملك الأرض على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى يوم الحشر.

آه يا ابن المقفع، يا صاحب الحكم البليغة، والحيوانات الفصيحة، لو رأيت حال العرب اليوم، فالفرس قد اشتعلت نارهم، والصين سادت حكمتهم، والهند أضيئت عقولهم، والسود ازداد بأسهم، ولم يبقَ في أسر الوهن والعجز إلا نحن أمة العرب، فهل تبقى شهادتك كما هي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زرقاء اليمامة

كان قوم «زرقاء اليمامة» من قبيلة جديس بأرض نجد، يحسون بندم قاتل، في ضربة واحدة فقدوا كل شيء؛ الأرض وعيون الماء وكل ما يملكون، وأهم من ذلك كله فقدوا عينيَّ زرقاء اليمامة؛ العيون الزرق الحادة التي طالما وهبتهم الأمان، كانت ترى الشعرة البيضاء في قصعة اللبن، وترى الراكب في الصحراء على مسافة ثلاثة أيام، وكانت تحذرهم قبل قدوم أي أعداء، ولكنهم وقعوا جميعا ضحية خدعة؛ غطى الأعداء أجسادهم بأغصان الشجر، وحين صرخت في قومها أن الشجر يتحرك لم يصدقها أحد، سخروا منها، وظلوا يسخرون حتى اجتاحهم الأعداء من قوم حمير، وتحولت الأغصان إلى سيوف تهوي على أعناقهم، ثم استدار الأعداء إلى زرقاء اليمامة، لم يريدوا أن يكشفهم أحد بعد الآن، ففقئوا عينيها، لم يقتلوها، تركوها جالسة عاجزة بين قومها كشاهد قبر، امرأة جليلة، فارعة الطول كنخلة، ولكن حدقتيها فارغتان، لايملؤهما إلا بقايا الكحل ومرارة الهزيمة.

في وسط طقوس الندم، صاح طفل صغير من أطفال الآباء المهزومين: لماذا لا نعالج عيون زرقاء اليمامة؟ لماذا لا نذهب للسحرة حتى يردوا البصر إليها؟

كانت فكرة بسيطة، كيف لم تخطر ببالهم من قبل؟ تسلل بصيص من الأمل إلى قلوبهم، ربما عندما تستعيد زرقاء اليمامة عينيها، يستعيدون جزءا من قوتهم ومنعتهم، ويحسون ببعض من الأمان يخلصهم من ذلك الندم الذي يفتك بأرواحهم.

قال لهم أحد العرافين، إنه يعرف كاهنا في صنعاء، درس الحكمة في معابد مصر المعبقة بالمر والبخور، وعاد إلى اليمن ليكون كاهنا ونطاسا، يمتلك القدرة على مزج قوة الأعشاب بطلاسم التعاويذ فيفعل المعجزات، كانوا بالفعل في حاجة لمعجزة، نهضوا جميعا أخذوا بيد زرقاء اليمامة يقصدون صنعاء. لم تقاومهم، كانت روحها تختنق داخل جسدها المظلم، تقدمتهم عبر الجبال والطرق الوعرة، وهم جميعا خلفها، لا يبدو على وجهها أي مشقة أو ألم، لم تحس حتى بأقدامها الدامية وهي تطأ الأحجار الحادة، كأنها حين فقدت بصرها فقدت الإحساس ببقية جسدها، ورغم ذلك ظلوا يدفعونها كلما توقفت لتلتقط أنفاسها، كانت هي فرصتهم الأخيرة، كأنها لم تكن الفرصة التي ضيعوها، تواصلت الرحلة ليلا ونهارا كانت صنعاء بعيدة ولكن لا بد منها وإن طال الزمن، فجأة اقترب منها واحد من الذين يتبعونها، سألها:

- يا زرقاء، إذا استعدت بصرك، فهل تستطيعين التعرف على من دلَّ الأعداء عليك حتى أمسكوا بك وفقئوا عينيك؟

وكانت زرقاء اليمامة في تلك اللحظة بلا بصيرة، فهتفت في تأكيد:

- أجل، لم يغب عن ذاكرتي.

وتواصلت الرحلة، ولكن عندما جاء صباح اليوم التالي كان عدد التابعين لها قد تناقص قليلا، تعلل بعضهم بالمرض وبالشيخوخة وبصعوبة الرحلة، ولكن زرقاء اليمامة ظلت تسير في المقدمة لا تراهم ولا تريد أن تراهم، كانت تحمل في داخلها عالما من الرؤى المظلمة والكوابيس المتواصلة، وبعد أن اجتازوا عدة جبال هتف بها واحد آخر:

- يا زرقاء اليمامة، هل تستطيعين التعرف على الذين قادوا الأعداء إلى مسارب بلدتنا وطرقاتها؟

كانت زرقاء اليمامة فاقدة العقل، هتفت في تأكيد:

- أجل، أحفظ وجوههم تمامًا.

وتواصلت الرحلة، لكن العدد تناقص أكثر في اليوم التالي، خفتت الضجة التي كانوا يحدثونها خلفها في أثناء السير، لم يعد أحد يتحدث أو يتوقع ماذا سيحدث، هبط عليهم صمت متواصل كأنهم في موكب طويل من مواكب الأسر.

وقبل نهاية الطريق سألها واحد ثالث:

- يا زرقاء، هل تستطيعين التعرف على من تخاذل أمام الأعداء وهرب من القتال؟

كانت زرقاء شديدة الحماقة، فهتفت:

- أجل، أعرفهم واحدا واحدا.

وتواصلت الرحلة، ولكنها استيقظت ذات صباح ولا شيء سوى الصمت، لم تسمع أصواتهم، ولم تحس بأنفاسهم، دارت وهي تتحسس الصخور، فلم تجد أحدا، لا أمامها ولا خلفها، ظلت تصيح وتنادي عليهم بلا صدى، وتبكي دون عزاء، وحيدة.. عمياء.. ضائعة في مفازات الجبال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الملوك الطيبون

كان بنو كندة يتغنون دوما بذكر الملك العادل «قتيبة بن كلثوم» الذي اختطفه الجن من بينهم، وعندما يغيب الملوك فإن ذكرهم يصبح طيبا.

ورغم مرور سنوات ثلاث على غيابه فإن عبق أيامه الماضية لم يتبدد، وقتها كان السحاب يأتي طائعا وتهمي الأمطار على جبالهم في الأوقات المناسبة، والنجوم لا تنام ولكن تنير ليلهم الطويل، ولم يكن أحد يجرؤ على ظلم جاره أو سرقة زوجته، كانوا في ليالي السمر يذكرون أشعاره وهو يتفاخر بقومه، وفي لحظات القتال يستشهدون بالغزوات التي خاضها من أجلهم. ويذكرون دوما تلك اللحظات التي ودع فيها الجميع وهو يخرج في طريقه إلى الحج، ثم انقطعت أخباره منذ ذلك الحين، ولأن الطريق في موسم الحج يكون آمنا، فلم يعتقد قط أن أحدا قد جرؤ على التعرض للملك، ثم شاعت الأخبار أن الجن قد اختطفته وأخذته إلى عالمها الخفي، وهو عالم يفتقد إلى العدل وإلى الحكمة؛ لذا أرادوا من هذا البشري الفاني أن يحكمهم بعدله ويفيدهم بحكمته، وكان بنو كندة بعد أن يفرغوا من سرد كل هذه الأخبار يتساءلون:

- تُرى هل نجح في عالم الجن؟ هل سادهم بالعدل كما سادنا؟

ولكن لم يكن هناك أحد من الجن ليجيبهم عن هذا السؤال.

ثم جاء إلى القبيلة رجل غريب شاعر صعلوك يدعى «أبو الطمحان»، سأل عن ملك القبيلة فدلوه على الملك الحالي، كان ابن أخ الملك الغائب، وعندما وصل الغريب إلى مجلسه كشف عن الكفل الموضوع على ناقته، كانت هناك كلمات محفورة بالسكين، غائرة في ثنايا الخشب، مكتوبة باللغة الحميرية التي لا يعرفها غير أهل اليمن، واصفر وجه الملك وهو يتمتم:

- يا رب الكعبة..الملك قتيبة ما زال حيّا.

وأومأ أبو الطمحان برأسه في تأكيد، وأخرج لفائف مطوية، حين فردها كانت ممتلئة بأشعار كتبها الملك بخط يده، لم يمت، ولم يذهب إلى عالم الجن، ولكنه طوال هذه السنوات أسير في قبضة «بني عقيل»، الذين لم يبالوا بحرمة موسم الحج فوثبوا عليه وأسروه. كانت أشعار الملك تستنجد بملوك كندة لإنقاذه، إما بإعلان حرب طاحنة على بني عقيل، وإما بدفع فدية قدرها ألفان من النوق الحمر.

وانتشر الخبر كعاصفة أطاحت بأوهام الأسمار وحكايات الجن، وهبَّ ابن العم غاضبا يحاول أن يجمع كل بطون كندة، إنها الحرب ولا شك، ولكن بني كندة كانوا قد حاربوا كثيرًا حتى أمضهم القتال، حاربوا من أجل ناقة ضالة، أو بئر ناضبة، أو مرعى يابس، أو جارة مغتصبة، ولم يعد في القوس منزع، ولم يجد ابن العم حماسة لدى أحد لعبور الصحراء حتى يقاتل قبيلة مجهولة الموقع، غير معروف مدى قوتها كبني عقيل.

لم يعد أمامهم إلا الحل الثاني؛ فداء الملك بألفي ناقة حمراء، وما أندر النوق الحمر في هذه الأيام؛ فالأمطار شحيحة، والآبار ناضبة، والعشب جاف، والأبكار عقيم لم تلد، والضروع فارغة كجلد متيبس، وأنهى تردد الجميع صوت شيخ عجوز يهتف في حنق:

- كيف أفتديه وهو لم يدفع ما يدين لي به قبل أن يذهب إلى الحج؟

وأيدته امرأة حزينة: هذا الفاجر.. قتل ابني وهو يلهو بصيده.

وهتف رجل عصبي: لقد تقاعس عن ثأر أبي، فكيف أحفل بمصيره؟

وحتى «كاهن تهامة» خبط عصاه وهو يقول: كان ملكا بخيلا.. لم يقدم قربانا واحدا ذا قيمة للآلهة.

نبشوا الذاكرة وحفروا الجروح القديمة وأخرجوا الصحائف المطوية، حتى ابن العم اكتشف هو نفسه أنه ليس متحمسا. وتوصل الجميع في النهاية إلى أنه كان طاغية ظالما لا يستحق مائة عنزة فما بالكم بألفي ناقة؟ وعاد الملك البديل إلى الغريب العابر وهو يقول:

- إذا سألوك فقل إنك لم تمر علينا، أو إنك مررت ولم تعثر على مضاربنا، ولا تذكرنا في أشعارك ولك منا عشرون ناقة.

ورضي الغريب بالنوق؛ فالملوك الطيبون، هم الملوك الغائبون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مكان للسباب

كان هناك مكان محدد يتبادل فيها الجميع السِّباب. كان يسمى «صفي السِّباب» ويقع خارج مكة، بعيدا عن الشعب الحرام والأماكن المقدسة، متسع من الأرض عند منعطف الوادي تم اختياره بعناية؛ لأنه كان مليئا بالحصى الرفيع الصالح للتراشق، ومتسع من الأرض صالح للتشابك بالأيدي وللمبارزة بالسيوف إذا لزم الأمر، أهم ما يميزه أن الغربان لم تكن تفارق تلاله، كانت تترقبهم جميعا في صمت حصيف، وتنتظر من يسقط منهم دون أن تبالي من السابب ومن المسبوب.

في بداية يوم السِّباب يجيء السادة من قريش، سادة بني مخزوم ومناف وقصي بن كلاب وبني أمية، تقف كل جماعة منهم في مواجهة الأخرى، ويبدءون في ذكر أنسابهم للمرة المائة، ويعلون بمفاخرهم على الآخرين للمرة الألف، ثم تأخذ كل جماعة في الطعن في نسب الأخرى وتبالغ في معايبها وهوانها على الناس، وعندما تستبد بهم الحماسة وتعلو نبرة السِّباب ينسون صلات الرحم، وما بينهم من وشائج، تتبدد الكلمات الطيبة التي قالوها لبعضهم حول الكعبة وقصائد الشعر المعلقة على بابها، ينزعون من على أجسادهم العباءات الثمينة ويقفون نصف عرايا، تستيقظ الضواري الرابضة في أعماقهم وتفرد مخالبها، فيشككون في أنسابهم ويرفعون الأقنعة عن أولاد البغايا الذين أصبحوا سادة، وأولاد السادة الذين يسرقون الحجيج من أجل البغايا، وتبلغ المناقشة أقصى درجات احتدامها فيشدون لحى بعضهم البعض، ويوقعون العمائم الكبيرة على الأرض، ثم يقذفون بعضهم بالحصى الرفيع، ويظل الصدى يردد بقايا كلماتهم القذرة حتى بعد انصرافهم.

ثم يأتي الموالي والتابعون وغير المعترف بنسبهم، يقف سديف مولى عتبة بن أبي سديف في مواجهة شبيب مولى بني أمية، وخلف كل واحد منهم بقية العبيد، يلوحون بالسيوف وكل منهم يدافع عن سادته ويعيب سادة الآخرين، كانوا في العادة أكثر انفعالا من السادة، ينفسون من خلال السِّباب عن حنق أيام العبودية الطويلة ومرارة الأسر التي لا تنتهي، وعندما يشرعون السيف يبدأ القتال ضاريا وبالغ القسوة، ويسيل دمهم غزيرا فوق الحصى؛ لأن دم السادة أثمن من أن يسيل هكذا، وفي النهاية يحملون جثثهم وبقايا جرحاهم وأحزانهم الدفينة وينصرف كل مولى إلى سيده.

ثم تأتي الجواري من حبش وروم، يتشاجرن من أجل من أصيب من الموالي وحول من أهين من السادة، حول أيام الخدمة الطويلة تحت أقدام السيدات، الليالي المظلمة حين يأتي إليهن سيد لا يظهر وجهه ويقضي وطره دون كلمة واحدة، وحول اختطافهن وأسرهن ورحلتهن الطويلة بين أسواق النخاسة والمزايدة على لحمهن الرخيص، وحول حلمهن الضائع في بيت واحد ورجل واحد، يتشاجرن حول نظرات الاحتقار وآهات الاحتضار والإحساس الدائم بالانكسار، وتشدّ كل واحدة منهن شعر الأخرى وتمزق ثيابها، وينصرفن داميات الروح والجسد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الشموس

هذه حكاية قديمة، ربما تصلح لزمن آخر، لكنها في زماننا قد تكون بلا معنى، إنها عن العرب البائدة، الذين أبيدوا لقلة عقولهم، وبقينا نحن لرجاحتها. في مكان يدعى «طسم» بأرض اليمامة، تجري فيه الأمور بصورة طبيعية دون إحساس بالخجل، في قبيلة تدعى «جديس» يحكمها ملك يدعى «عميلق»، ولأن الملوك يملكون حقوقا أخذوها خفية عنا، فقد كان من عادة هذا الملك ألا يترك عذراء تتزوج إلا بعد أن يقضي معها ليلة زفافها الأولى، يفتض بكارتها، ثم تذهب بعد ذلك إلى زوجها محملة بمنى الرضا الملكي.

كان الأمر يتكرر كل شهر وأحيانا كل أسبوع، تعود الأهل أن يزفوا ابنتهم إلى الملك وسط الدفوف والأغاني، ويجلسون في عجز على الأحجار التي تحيط ببيته الحجري، ثم تظهر الفتاة في الصباح خافضة الرأس منكسرة العين، تنحدر على التل، وينحدر خلفها أهلها، يتوجهون إلى منزل زوجها في صمت كصمت الموتى. تعودت كل الزوجات أن تتحمل لهاث الملك وعنفه وهو يقتحمها في ليلتها الأولى، وتعود الزوج أن يدخل بزوجته فيجد فرجها رطبا وعلى ثدييها آثار أظافره.

ثم جاءت فتاة مختلفة تدعى «الشموس»، متألقة كاسمها، ولدت قبل أوانها، وصاحت بأعلى صوتها، وعندما شبت عن الطوق لم ترضَ بأي أمر يفرض عليها، كانت تريد أن تختار المرعى الذي ترعى فيه أغنامها، والبئر التي تستقي منها الماء، والرجل الذي تتزوجه، باختصار لم تكن فتاة مريحة لأهلها، ولو أنها وجدت في أيامنا هذه لقلنا إنها متمردة وربما يسارية، ولكنها - كما قلت - كانت من العرب البائدة.

اختارت الشموس الفتى الذي تعشقه، كان راعيا بريّا كالجبال، ولم تبالِ بتاجر العبيد الثري الذي حاول أبوها أن يفرضه عليها، اختارت أيضًا يوم زفافها وخيمتها الصغيرة، ولكنها لم تختر من ستزف إليه في الليلة الأولى من عرسها، مهما كانت قوة شخصيتها كانت سطوة الملك أقوى، لم يفكر أحد - حتى ولو كانت الفتاة هي الشموس - أن يغير من الأمر.

سارت الشموس والقيان يضربن بالدفوف ويغنين:

أبدى بعميلق وقومي فاركبي

ما لبكر عنده من مهرب

لم يكن أمام الشموس أي مهرب، قادوها إلى غرفته، كان رابضا على فراشه، متلمظا لاغتصابها، مضغ أعشاب الصحراء المقوية، وتجرع كل الأشربة التي مزجها الكهان، وعندما قاومته الشموس أثارته أكثر وأكثر، كل العذارى اللاتي يدخلن إليه كن مستسلمات أنصاف موتى، ولكن الشموس كانت فتاة حية أظافرها مشرعة وعضلاتها مشدودة؛ من أجل ذلك ظل يعاود اغتصابها طوال الليل، وانتظر أهلها وزوجها خروجها عبثا فلم تخرج إلا في منتصف النهار، كانت ممزقة الثياب محلولة الجدائل دامية البدن، أكملت هي تمزيق ثوبها، فبدا جسمها جميلا ومهانا وجريحا، حاولوا أن يستروها بعباءتهم فرفضت، أصرت على التجول بينهم حتى تصدم الجميع بعريها، صرخت فيهم جميعا:

لا أحد أذل من جديس

أهكذا يفعل بالعروس؟

كانت هي العذراء الأولى التي تجعلهم يحسون بمدى المهانة اليومية التي يتعرضون لها، وقفت في الساحة التي يوجد فيها بيت زوجها دون أن تدخل إليه، تناوب عليها الليل والنهار وهي لا تأكل ولا تستر عريها وتهذي بالأشعار، ترثي جسدها المغتصب وشرف قومها الممتهن، جعلت الطقس العادي يتحول إلى فعل بشع لا بد من مقاومته، حركتهم، تجمع إخوتها وزوجها الذي لم يدخل بها، أخرجوا سيوفهم الثالمة وشحذوها، صعدوا إلى التل، ووقفوا أمام البيت الحجري دون أن يرتعدوا، اقتحموا الأبواب، وكان عميلق رخوا بعد أن تبددت من جسده كل المنشطات، ذبحوه على نفس الفراش الذي طالما اغتصب عليه بناتهن.

والآن، عَوْدٌ ذو بدء، لا لذة ترتجى، ولا صراخ يصدر، استخذاء المغلوبين، واستسلام الموتى، يفرض عميلق سيطرته على حياتنا، يدنس فراشنا، ويهيل التراب على طعامنا؛ فنمضغ الحصى راضين، ونعيد ترقيع الأغشية التي تمزقت صاغرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نبوءة ملك

كانت هند بنت عتبة وحيدة فوق ناقتها، ليس هناك من يعدلها، أي يجلس على الجهة الأخرى من ناقتها، أو يوقن ببراءتها، حتى أبوها وإخوتها. كانت نسوة بني مناف ورجالها يسيرون حولها، وفي الناحية الأخرى كانت إبل «بني مخزوم»، في وسطهم زوجها السابق الفاكه بن المغيرة.

جبال اليمن ما زالت بعيدة، والرحلة تبدو بلا نهاية، كانت براءتها مستبعدة، كطول هذه الرحلة، لن يثبتها أحد ولا حتى أبرع الكهان، ولكنها ظلت صامتة، تتلقى نظراتهم بصلابة، لو ضعفت لحظة واحدة فسوف يكون الموت نهايتها، تتذكر اللحظة التي دخل زوجها البيت ثائرا وهو يصرخ فيها:

- من الذي خرج من عندك الآن؟

تلقت ثورته بدهشة وأنكرت أنها رأت أحدا، كانت نائمة، كانت تحلم أحلاما غريبة، عن رجال بلا وجوه يضاجعونها وسط سوق مكة، كانت تلهث وتتأوه وتستجدي، ولكن أحدا لم يستمع إليها، كان نصف السوق مشغولا بالمساومة، والنصف الآخر منهمكا في القفز عليها، هل كان الرجل الذي رآه زوجها تجسيدا لهذا الحلم الشبقي؟ أحست بنوع من الذنب الخفي، أو ربما كان رجلا واقعيّا، غريبا دخل إلى البيت بطريق الخطأ وخرج دون أن تراه، من المؤسف أنها لم تره، وإلا لقنت زوجها درسا، لم يصدق الزوج إنكارها، ردها إلى دار أبيها، تركها معلقة على حافة الفضيحة، ولم يكن لديها ما تدافع به عن نفسها وحاصرتها الألسنة والأقاويل، حتى إن أباها نفسه ضجَّ بكل ما يقال عنها في مجالس قريش وصاح بها:

- ماذا أفعل بكِ؟ تكاثرت الأقاويل علينا، إن يكنْ زوجك صادقا دسست له من يقتله فتنقطع الأقاويل، وإن يكن كاذبا حكمته إلى كهان اليمن.

كان من الصعب عليها أن تسترد شرفها بالقتل، فالدم سوف يوسمها ويثبت التهمة عليها، عليها أن تتحمل المخاطرة، جاءت إليها امرأة عجوز من أقاربها الأباعد، بغي قديمة، ما زال على وجهها المتغضن قناع من ألوان التبرج، طلبت منها ألا تخاطر بالذهاب، من منا لم يمر بتجربة جنسية حتى ولو كانت ناقصة؟ سيقتلونها هناك لو أخطأ الكاهن، وما أكثر ما يخطئون، عليها أن تدير ظهرها لكل هذه الاتهامات وتسير معها إلى أحد بيوت المتعة في أطراف مكة، ساعتها ستتلقى الثمن مضاعفا لأنها من بنات الأشراف، وسيتضاعف عدد الرجال الذين يدخلون إليها دون محاسبة، ولكن هند قامت بطردها، ستقبل المخاطرة ولو كان الثمن موتها، سارت إلى أبيها وأقسمت إنها صادقة، وذهب أبوها إلى زوجها وقبِلَ التحدي، واتفقا على الرحيل من أجل إثبات هذه البراءة، وعندما بدت جبال اليمن أخيرًا أحست بأنها ترتجف، فارقها يقينها، أحست بأن هذا الحلم كان فيه شيء من الحقيقة، من الرغبة، من التمني، سينفذ الكاهن إلى داخلها ويعرف مكمن شهوتها، توشك أن تسقط من فوق الناقة، رأى أبوها وجهها الأصفر الشاحب فاقترب منها وهو يقول في همس متوفز:

- إني أرى ما حل بك من تغير الحال، وما هذا إلا لمكروه حل في بدنك.

قالت وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة:

- لا والله يا أبتاه وما ذاك لمكروه، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب.

كانت رحلة مقامرة، الصحراء كلها مقامرة، وعندما جلست بين يدي الكاهن كانت تدرك أنها تقامر إما بالشرف وإما بالفضيحة، كان الكاهن يخور أشبه بجمل عجوز، وعندما رأت هند وجهه ارتجفت، كان يحمل كل وجوه الرجال الذين ضاجعوها في السوق، في الحلم لم يكن وجهه واضحا، ولكنه الآن يبدو جليّا، شبقا ومثيرا للاشمئزاز، كان أبوها يتحدث إليه:

- انظر أمر هؤلاء النسوة، من منهن لها قضية فلتخبرنا عنها.

اندست هند بين النسوة اللائي جئن من بني عبد مناف وهي ترتجف، كانت تتمنى لو أن الأرض ابتلعتها، ماذا لو أن الكاهن قد فضحها؟ أخذ الكاهن يدنو منهن واحدة فواحدة، يضرب كلّا منهن على كتفها وهو يقول: انهضي، حتى وقف أخيرًا أمامها، تمهل، وتقابلت نظراتهما، عرف أنها صاحبة القضية، قال بصوت واضح جلي:

- انهضي، غير رسحاء ولا زانية.. ولتلدي ملكا يسمى معاوية.

ونهضت هند، وانتصبت قامتها حتى طاولت جبال اليمن، تضاءل أمامها كل الذين جرءوا على اتهامها، ومن هذه اللحظة هي أم الملك المنتظر، وعليها أن تصون جسدها من أجل أن تحظى بهذا الشرف، لن تدع رجلا لا يستحق يلمس جسدها، ولن تدع أحلام الشبق تداهم روحها، هذا الوعاء أثمن من أن تدنسه. كان الفاكه بن المغيرة يقترب منها، يمسك يديها معتذرا، ويتوسل إليها أن تعود إلى بيته، ولكنها نزعت يدها منه وقالت بصوت حازم:

- والله إني لأحرص على أن يكون هذا الملك من رجل غيرك.

إذا القوم قالوا مَنْ فتًى؟

كان الملك عمرو بن هند ملك الحيرة يتجول في قصره ليلا عندما شاهد شبح شخص يمرق عبر الأروقة، صاح به أن يتوقف، لم يكن هناك إلا ضوء القمر، ناعم ولكنه فاضح، استطاع أن يتعرف فورا على وجه أخته «خولة» رغم أنها كانت تضع العباءة حول رأسها في إحكام، كانت في الطرف الأبعد من القصر، بعيدا عن مخدعها ومكانها، ولم يكن يعرف أنها من محبي التجول ليلا، وقف كل منهما ينظر للآخر، كانت أكبر منه بسنتين أو ثلاث؛ لذا لم يكن يجرؤ على أن يرفع عينيه ويحدق في وجهها إلا قليلا، لكنه كان يريد أن يعرف ماذا تفعل في هذا المكان الذي لا يضم إلا ضيوف الملك الغرباء. كتم كل مشاعره، لم يكن قادرا على إظهار غضبه منها، قال: ماذا تفعلين هنا يا أختاه؟

نظرت إليه في استنكار، اعتقد بأنها لن ترد عليه، يكفي أن تهز كتفها وتمضي، ولكنها ظلت واقفة ببعض الإصرار: كنت أتجول قليلا، وأطمئن على بعض ضيوفك.

لم يكن هناك إلا ضيفان، في الجناح الأيسر يوجد الشاعر المتلمس؛ شاعر بني بكر، كان قد تعود على أن يأتي ليحل ضيفا عليه كل عام، كان أكبر سنّا وأكثر حكمة، ولكنه في النهاية شاعر، لا أحد يتوقع أفعاله ولا يستطيع أن يمسك لسانه عن البوح. وفي الجناح الأيمن كان هناك شاعر آخر، لم يتعدَّ الثلاثين من العمر، أكثر نضارة وموهبة في اصطياد القوافي والنساء، عربيد حقيقي لا يكف عن

الطواف في الصحاري وإثارة حفيظة الرجال؛ طرفة بن العبد، الابن الأصغر لأخت المتلمس، ورغم هذه الدرجة من القرابة كانا مختلفين حتى إنهما رفضا أن يقيما معًا في الجناح نفسه من قصر الملك، كان حاقدا على أعمامه لأنهم أكلوا ميراثه عن أبيه، ولم يستطع أن ينتزع خاله من سياقهم، كان حاقدا على كل الكبار في قبيلته، وظل يطوف في الصحراء يهجوهم في أشعاره حتى انتهى به المطاف إلى قصر الحيرة، وأخيرًا تخلص الملك من نظرتها الثاقبة وامتلك القدرة على سؤالها: في غرفة مَنْ منهما كنتِ، أم قمتِ بزيارة الغرفتين؟

لم تختلج ملامحها، ولم تخفف من حدة نظراتها، وقالت في صوت بارد: ولماذا لم تقل إننا نحن الثلاثة كنا في غرفة واحدة؟ دع مخيلتك تصور الأمر لك كما تشاء.

واستدارت وتركته سائرة إلى مخدعها، وظل واقفا ينتفض في مكانه، تذكر فجأة أمه هند بنت عتبة وتذكر جده آكل المرار، كلهم جبلوا من جبلة واحدة، صعبة وعصية المراس، ولكنها وضعته في الموقف الأصعب الذي يمكن أن يتعرض له ملك يخاف على شرفه وسمعة عائلته، كان يدرك أن هذين الشاعرين لن يسكتا، ومن الغد وربما من هذه اللحظة سوف يدبجان القصائد في ذكر ما حدث في تلك الليلة، ولن تهتم هي كثيرًا إذا ما شاعت القصائد، فسوف تجعلها واحدة من أشهر نساء العرب، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هو في شرفه المثلوم؟ لن يستطيع أن يقتلها، لن يجرؤ على ذلك ولا أحد يجرؤ، ستكون مسبة وسط العرب وسيتركون مخيلتهم لاستنتاج السبب، ولن يستطيع أن يقتل هذين الفاسقين اللذين لجآ لحمايته، سينسون كل أفضاله ولن يتذكروا إلا أنه قتل شاعرين كانا في ضيافته.

طوال ليلة كاملة لم ينم الملك، ظل يتقلب في حمى من الكوابيس، يبحث عن مخرج يصون له شرفه، ولكنه في الصباح جلس على عرشه هادئا ورزينا واستدعى الشاعرين، جاءا مبتسمين، هادئين، أخذا كفايتهما من النوم ومن بقية المتع الأخرى، لا يتوقعان العقاب، ولكن مكافأة إضافية أخرى، قال: أريد أن أعطيكما مكافأة أنتما تستحقانها، ولكن الجميع يعرفون أنكما كنتما في ضيافتي، وسوف تنصرفان حاملين عطايا الملك، والطريق من هنا للبحرين طويل، وسوف يهاجمكما اللصوص وقطاع الطرق لا محالة، وربما كان القتل مصيركما.

سكت ليسترد أنفاسه، وأحس طرفة بن العبد باليأس، جاء مفلسا وسيعود مفلسا، ولكن الملك عاد يتكلم: ولكني لا أريد أن أعرضكما للخطر، وفي الوقت نفسه لا أريدكما أن تعودا فارغي الأيدي؛ لذلك كتبت لكل منكما رسالة إلى «المكعبر» نائبي على البحرين، هو الذي سيسلمكما المكافأة عندما تصلان سالمين. كانت الرسالتان جاهزتين بالفعل، مغلقتين وعليهما ختم الملك، وبدأ الشاعران رحلة العودة، لم تكن هناك مشكلة عند المتلمس في العودة، فلا ضغائن بينه وبين أي فرد في قبيلة بكر، المشكلة كانت عند طرفة الذي لم يكن يريد العودة إليهم منكسرا ومفلسا. عندما قال معلقته الشهيرة والتي مطلعها: «إذا القوم قالوا مَنْ فَتًى خلت أنني عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلَّدِ»، وعلقت على أستار الكعبة، اعتبرها الجميع أفضل ما كتب من أشعار المعلقات، هذا الفتى الصغير الذي يتيه بنفسه كان عفويًّا ومذهلًا، يمتلك بصيرة ثاقبة لدورة الحياة والعشق والموت، يعيش لحظة نادرة من الإعجاب الغامر بالذات، لا يتفوه بها إلا شاعر يعيش توهج لحظات الاحتضار الأخيرة، كانت مشاعر الموت المبكر راقدة في أعماقه، لا أحد يطارده، ولا أحد يريده أيضًا، قبيلة بكر والتي تسكن على شاطئ البحرين،

التي تتباهى بقدرتها على مواصلة الحروب، هي التي ضيقت عليه الخناق. أخذ أعمامه كل ميراثه، وتركوه هو وأمه يعيشان على الكفاف، اشتغل راعيًا للإبل حتى ضاقت نفسه، وعندما انتشرت قصائده أخذ صغار الشعراء يتطاولون عليه، ويطعنون في أخلاقه، ولم يتقدم أحد ليردهم عنه، تركهم جميعا وأخذ يضرب في الصحراء، لم يجد شيئا يحبه ويتعلق به ويجعله يقيم في مكان، لكنه الآن في طريقه للعودة، ولن يعود إلا محملا بعطايا الملك.

في الطريق وجدا شيخا جالسا في عشة من الغاب على حافة نهر، جلسا يستريحان بجانبه، ولأن المتلمس يحب الثرثرة كثيرًا فقد قصَّ على الشيخ قصة الرسالتين وأراه إياهما، وقال الشيخ: لا أحد يأمن للملوك حتى لو قاربتهم زمنا، افتح الرسالة واقرأ ما فيها.

لم يكن أحد من ثلاثتهم؛ الشيخ والشاعريْن، يعرف القراءة أو الكتابة؛ لذلك وضعا الرسائل أمامهما وجلسا صامتين، لكن الشيخ نهض وعاد بعض قليل وهو يجرّ خلفه غلاما شديد النحافة وأخبرهما بأن هذا الشيء يعرف ما عجزا عن معرفته؛ يستطيع القراءة، وأسرع المتلمس يفض ختم الملك ويعطيها للغلام، كانت كلمات الرسالة مختصرة، ولكنها واضحة ومحددة: «باسمك اللهم.. من عمرو بن هند إلى المكعبر.. إذا أتاك كتابي هذا من المتلمّس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًّا». وأسرع المتلمس بإلقاء الرسالة في النهر، وصاح في طرفة: افتح رسالتك وانظر ما فيها، ولكن طرفة هزَّ رأسه رافضا وهو يقول: ما كان الملك ليفعل بي ذلك. هل كان واثقا من قدره، أم كان راغبا في الموت؟ ظل المتلمس يلح عليه دون أن يستجيب أو يغير طريقه، ظل متجها جنوبا نحو البحرين، ولكن المتلمس أخذ طريقا آخر إلى الشمال، سوف يبحث عن مخبأ له وسط الغساسنة بعيدا عن ظل الموت، بينما واصل طرفة رحلته المميتة بإصرار.

بعد عدة أيام وقف أمام المكعبر الذي أخذ يقرأ الرسالة ويعيد قراءتها حائرا، ثم نظر إلى الشاعر المعفر بالرمل، سأله: لماذا لم تهرب؟ قال طرفة في ثبات: لأنني أريد أن أحصل على مكافأتي.

أي مكافأة، وأي حماقة؟ كان صغيرا وغرّا، لكنه لم يكن قادرا على قتله، كانا من القبيلة نفسها وبينهما قرابة ونسب، بل يحفظ أيضًا بعضا من أشعاره، ولكن أمر الملك يجب أن ينفذ، أمر أتباعه أن يضعوه في السجن وقال لنفسه: سأقتله غدا، ولم يفعل، وفي اليوم الذي يليه لم يستطع، وفي اليوم الثالث أيقن أنه غير قادر، في كل يوم يطل عليه وهو راقد في محبسه هادئا مستكينا، فيسأل نفسه: أي جرم ارتكبه هذا البائس الصغير حتى يستحق القتل؟ وهكذا وجد نفسه لا يستطيع أن يطلق سراحه، ولا يستطيع أن يقتله، وحتى يخرج نفسه من هذا المأزق أرسل للملك يقول: أنا عاجز عن قتله، فأرسل إليَّ من يقتله، وبعد أيام وصل رد الملك، جاء القاتل شخصيًّا، كان هو الموكل بتنفيذ إعدامات الملك، وكان يمارس مهنته بلا شفقة ولا ضغينة، محترفًا بلا تحيزات، دخل على الفور إلى محبس طرفة وقال له: بأي طريقة تريد أن تموت؟ قال طرفة: أفسد دمي. أراد أن يموت ببطء لا يتناسب مع حياته القصيرة، فقال الرجل: اتلُ معلقتك ربما تمنحنا الوقت الكافي. وبدأ دم طرفة ينزف قطرة فقطرة ويقول: «إذا القوم قالوا مَنْ فَتًى خلت أنني عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلَّدِ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مقتل شاعر

ترصدوا له عند عين الماء في أول الحي في ليلة مظلمة، كانت هناك راعية صغيرة تنتظره، ولكنه لم يستطع الوفاء بوعده لها، كان وحده من بني الحارث، خارج أرضه وبطون قبيلته، وكانوا هم تسعة من بني عقيل متحفزين وفي أيديهم الخناجر وصرخوا فيه:

- جئت تفضح نساءنا، ولن تفلت منا حيًّا.

صرخ أنه لم يأتِ إلى أي منهن، ولكنهم قيدوه إلى إحدى أشجار السنط، نزعوا ثيابه حتى أصبح عاريا تمامًا، ضحكوا وهم يشحذون الخناجر:

- سوف نفضحك أمامهن، سنجعلهن يرون مدى عجزك وهوانك، سننتقم منك ومنهن في آن واحد.

قيدوه وحملوه عاريا بين مضارب الحي، توسل إليهم:

- يا قوم لا تفعلوا بي هذا وإلا أصبحت سبة بين العرب، وأقسم ألا أقترب من بيوتكم بعد اليوم.

ولكنهم حملوه مسرعين إلى حيث تجلس النسوة للسمر، ألقوه أمامهن عاريا، نهضت النسوة فزعات، وكان قبل ذلك يأتي سيدا مزهوا يلبس ثوبا يمنيا مطرزا، حملوه إلى نسوة أخريات، نغزوا جسده بالخناجر حتى يبكي أمامهن، وكان قبل ذلك يقف منتصبا يردد أشعار الصبابة والهوى حتى تغور النجوم ويرسم القمر هالته الملونة العذبة، مرغوا وجهه في الطين ثم رفعوه وقد اختفت ملامحه، طلب رشفة من الماء فأعطوه خَلًّا، بكت امرأة من شفقة عليه فأحس بشفقتها جارحة كإهانتهم، استيقظ أطفال الحي وأخذوا يقذفونه بالحصى والأوساخ، وتدخل شيخ عجوز وهو يعتب عليهم:

- يا قوم، هذا جعفر بن علبة الحارثي؛ أشعر بني الحارث، اختارته جن وادي عبقر، وملئوا فمه بالقوافي، سيذكرنا العرب جميعا بالعار لأننا قتلناه.

صاحوا فيه:

- لا يهمنا ما يقول العرب، المهم ألا يفسد علينا أحد نساءنا.

بكى جعفر دون صوت، علم الله أنه لم يكن أكثر من مسامر في الليالي المقمرة، وشاعر تبوع للوجه الصبوح والضحكة الرائقة، وجوَّاب للآفاق وصياد للقوافي، علم الله أن قلبه لم يخفق إلا مرة واحدة لتلك الراعية الصغيرة التي ما زالت تنتظره في مكان ما، تجرأت امرأة وصاحت فيهم وهي ترى جروحه الدامية الكثيرة:

- والله ما رأينا منه إلا كل مكرمة، وما سمعنا من لسانه إلا كل عفة.

ضربها زوجها وحاول أن يدخلها إلى خيمتها، ولكن امرأة أخرى عاودت الصياح بصوت قوي:

- والله لقد كان جليسا وأنيسا.. تحدث إلينا كحرائر وليس كإماء وجوارٍ، واستمع إلى كل ما نقوله في حياء، تعاطف معنا دون شفقة، ونصحنا بلا منة.

استيقظت النسوة وتجمعن، قالت البعض منهن ما يمكن أن يقال، وكتمت الباقيات ما لا يقال، لم تذكر فتاة أنه همس إليها بما كانت تريد أن تعرفه عن كنه العواطف وما تفعله في النفس، ولم تذكر أخرى كيف توسلت إليه ليذيقها طعم القبلة الأولى فمسَّ شفتيها كعصفور، ولم تجرؤ زوجة نافرة من زوجها كيف توسلت إليه أن يضاجعها، ولكنه هدأ من حدة رغبتها وجعلها تحول عواطفها إلى زوجها، انتزع منهن مشاعر الكره والاحتقان، وساعدهن على تحمل جلافة أزواجهن، كان صبورًا وعطوفًا وحييًّا، وكانت كلماته بلسما في أيام حياتهن القاحلة.

لكن الرجال وقد ازداد سعارهم برؤية دمه لم يستمعوا إليهن، حملوه إلى شجرة عجفاء وعلقوه عليها وقال أكبرهم:

- غدا سوف يطلب بنو الحارث ثأره فلا يقتله أحد بعينه.

هوت عليه الخناجر؛ واحد في القلب الذي خفق، وثانٍ في الكبد الذي تقرح، وثالث في الصدر الذي امتلأ بنفخات الشعر، وبكت الراعية الصغيرة لأن أول ميعاد بينها وبين حبيبها قد أخلف، كان الرجال قد تخلصوا منه حقًّا.. ولكن نساءهن كن قد تغيرن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحماة: زبيبة

قبل أن تستكمل عبلة بنت شداد زينتها دخلت خادمتها إلى الخيمة، كانت عبلة تستعد لزفافها على فارس القبيلة والصحراء قاطبة عنترة بن شداد، ترددت الخادمة قليلا قبل أن تقول: سيدتي عبلة، السيدة زبيبة قادمة لمقابلتك.

كان من الصعب على الخادمة أن تلصق لقب السيدة قبل اسم زبيبة؛ فألوان جلدها لا تؤهلها لهذا اللقب، والعبيد يظلون عبيدا حتى ولو شغلوا مجالس السادة، التفتت عبلة إليها: دعيها تدخل.

لم تتحرك عبلة من مكانها وظلت تواصل وضع الكحل حول عينيها الواسعتين البراقتين، ولكن زبيبة دخلت في صمت ولم تجد مكانا تجلس عليه إلا الأرض بالقرب من قدميها، قالت عبلة دون أن تلتفت: هذه الجلسة لا تليق بك بعد اليوم، اختاري أفضل الحشايا واجلسي عليها.

قالت زبيبة: أنا جارية ومكاني دائمًا على الأرض.

عادت عبلة تقول في إصرار: لم تعودي كذلك، بعد قليل ستكونين حماتي؛ أم زوجي؛ لذا يتوجب عليَّ أن أعرفك جيدا.

انتقلت زبيبة وأخذت راحتها فوق إحدى الحشايا، وقالت: لا يوجد ما نخفيه، عنترة ولد طيب، رقيق المشاعر، رغم قسوته في الحرب، ولكن هذه هي الحرب قاسية على الجميع.

قالت عبلة: أرجو ألا يكون قاسيا عليَّ؛ من أجل هذا أريد أن أعرفه أكثر، أعرف أنه حاقد على الجميع، ولو استطاع لقتل جميع بني عبس، وخاصة بني شداد، لا يبالي إن كان ينتمي إليهم أم لا.

احتجت زبيبة: ولكنه أحبك وسيتزوجك، تنهدت عبلة: هو يريد ذلك الآن، أبي وأخي ما زالا يعارضان الزواج بشدة، قالت: ولكنك وافقت، قالت عبلة: خشيت أن يقتحم الخيمة عليَّ ذات يوم ويغتصبني، لن يمنعه أحد، وستصبح هذه مهانة عظيمة لي بين كل نساء العرب.

احتجت زبيبة: ما كان ابني ليفعل ذلك، إنه فارس نبيل من فرسان الصحراء، وإن أباه سيد قومه، قالت عبلة: هذا ما أقوله لنفسي دائمًا، هذا هو الوجه الذي أريد أن أراه، ولكن هناك وجهًا آخر قادمًا من الغابات البعيدة، لا أعرف عنه شيئا وهذا ما أخشاه.

لم تكن زبيبة غبية فقد فهمت تلميحها على الفور، قالت: تقصدين ما أخذه مني، لم أكن دائمًا عبدة، كنت أميرة متوجة في قبيلتي ببلاد الحبشة، وكنت أستعد للزواج بأمير القبيلة عندما هاجم قطاع الطرق موكب عرسي، لقد أسروني أنا وبقية الوصيفات، وتحولن جميعا من حرائر إلى عبدات. العبودية قاسية يا ابنتي، ولكنها تمنحك قدرا هائلا في مخالطة الآخرين، وتجعل كل الأشياء التي نتمسك بها كالشرف والعفة لا معنى لها.

التفتت عبلة لها أخيرًا، جلست على حشية مقابلة لها بحيث تتلامس ركبتاهما أحيانًا، قالت في همس: ماذا تعنين؟ قالت زبيبة بالهمس نفسه: أنتِ حرة حقًّا، ولكن جسدك ليس حرًّا، أنتِ تحتجزينه من أجل رجل واحد، ويمكن أن يكون الموت من نصيبك إذا نظرت لغيره، ولكنني عبدة بلا موانع ولا كوابح

ولا ادعاءات كاذبة، جسدي متاح للجميع حقًا، ولكن أجسادهم متاحة لي أيضًا، في الفراش عندما نخلع جميعا ثيابنا، لا يوجد عبد ولا سيد، كلنا عرايا.

بدأت أنفاس عبلة تتسارع قليلا، طوال عمرها وهي تحلم بالرجال؛ عنترة أو غيره، ولكنها دائمًا تخشى الاقتراب منهم، أصواتهم عالية وقوية كما تسمعها، وجلودهم خشنة كما تعتقد، ويشع منهم وهج غريب يمكن أن يحرقها إذا بالغت في الاقتراب منهم، قالت بفضول الفتاة العذراء: هل عاشرت الكثير من الرجال؟ قالت زبيبة ببساطة: توقفت عن العد، إنهم يملئون العالم من حولك، لا يختبئون ولا يضعون نقابا على وجوههم، ويعبرون عن رغبتهم بصراحة وقوة، وهذه هي الرغبة الوحيدة التي لا يكذب الرجال فيها كما ولا بد أنك تعرفين.

لم تكن تعرف، كانت حدودها ضيقة تمامًا، لا تتعدى صورا من الأوهام عن الرغبة التي تحول الرجال أحيانًا إلى وحوش، وبعض الأحاديث التي تتبادلها مع صواحباتها حول عين الماء، بعض اللمسات والقبلات المختلسة ولكن كلها أنثوية واهية، تتكسر عند أول لحظة تهز الجسد، نشوة ناقصة، دائمًا ناقصة، قالت في لهفة: من كان الأول من الرجال، عمي شداد؟ قالت: ربما كان يعتقد ذلك، ولكنه كان آخر من امتلكني، ولكن بدايتي مع الرجال كانت أبعد من ذلك، إنها حياتي الكاملة بعد أن تحررت من وضعي كأميرة.

تهتف عبلة: تحررت.. ألا تذكرين لقد صرت عبدة؟

قالت زبيبة: جسدي فقط، ولكن روحي ظلت حرة قادرة على الرغبة والاختيار.

قالت عبلة: أي اختيار، لم يكن لك الحق في ذلك؟

ابتسمت زبيبة وهي تقول: هكذا كانوا جميعا يتخيلون. عندما حملتني السفينة للمرة الأولى في حياتي من شاطئ الحبشة إلى زنجبار، كنا كتلة من السبايا محمولة لأسواق العبيد، ولكن قبطان السفينة كان متنمرا، أراد أن يأخذ نصيبه من اللحم الرخيص قبل أن يبيعه للآخرين، وهكذا في كل يوم كان يسحب واحدة منا إلى قمرته في قاع السفينة، كل واحدة كانت تقوم وتصرخ وتعض ولكنه كان ينجح في النهاية في اغتصابها، فعل ذلك معهن جميعا حتى جاء الدور عليَّ. كان رجلا ضخمًا، لحيته كثيفة وعيناه نافذتان تثيران الرعدة في النفس، كان عليَّ أن أقاومه، فعلت ذلك قليلا حتى أثيره، ثم قررت أن أستمتع أنا أيضًا، لا ضرورة لأن تكون عملية الاغتصاب كاملة، ولا ضرورة أن يمتلئ جسمي بالخدوش والعضات، كان من السهل ترويض هذا الرجل الضخم ونزع شراسته، لم أقدم له جسدا غاضبا ومعترضا ولكن جسدا راغبا، يتلقى المتعة برضا ويردها بامتنان. في منتصف الليل توقف القبطان مندهشا، نظر إلى جسدي العاري، تحسسه ومسد شعري المشوش ثم استكان في أحضاني حتى الصباح، أدرك أنني اخترته، وجعله هذا يشعر بالرضا عن نفسه، في الليلة التالية هبط بنفسه واختارني وأصبحت له، حدث نوع من التحول في السفينة وأصبحت أكثر هدوءا ودعة، حتى البحر كفَّ عن الهيجان، وفعلت بقية النسوة مثلي، كل واحدة اختارت بحارها المناسب، وعندما وصلنا إلى سوق العبيد كان الوداع حزينا، وأقسم لي القبطان إنه لو كان يملك ثمني لاشتراني من النخاس، ولكني كنت مبتسمة، قبلته قبل أن أودعه، كانت روحي قد صفت وجسدي قد تحرر، ومهما باعوا جسدي، أو تداولتني الأيدي فإن روحي ستظل حرة.

صمتت زبيبة وظلت عبلة تتأملها في صمت وأحست بأن دموعا تحاول التجمع في عينيها، ثم قالت: فعلت ذلك مع كل الذين توافدوا عليك، ابتسمت زبيبة: مع بعض المقاومة الخفيفة، ولكن عبلة كانت مذهولة، تأملت تجاعيد المرأة العجوز، اكتشفت أنها لم تعش حياتها بعد، أسيرة طفولتها في القبيلة نفسها، وفي الخيمة نفسها، لم تعرف بعد طريق النضوج، ولكن عبلة عادت تسأل في إصرار: ولكن عمي شدادًا كان آخر المطاف بالنسبة إليكِ، لقد استقررت معه وأنجبت منه عنترة.

قالت زبيبة: لم أكن أريد الإنجاب، إنه قيد حاولت الإفلات منه، ولكن جسد المرأة إذا كانت مطلوبة يخونها أحيانًا، وسرعان ما ترتكب غلطة من هذا النوع.

قالت عبلة: ولكن عنترة هو سبب خلاصك، وهو الذي جعل عمي شدادًا يعترف بأنه ابنه ويخلصك من العبودية.

قالت زبيبة في زهق حقيقي: لا تقولي مثل الآخرين، عمك شداد أعجز من أن يستطيع أن ينجب مثل هذا الولد، شهقت عبلة مفزوعة: هل كان هناك غيره؟ قالت زبيبة: كثيرون، ولكن ظلام الصحراء الدامس لم يتح لي الفرصة للتعرف على وجوههم، كان هناك رعاة غنم وإبل، وصعاليك جوَّالون في الصحراء، ولصوص جياد، وهاربون من ثأر، وشباب يعانون من مشاكل رفض محبوباتهن.. قالت عبلة: يعني أنت غير متأكدة إن كان عنترة هو ابنه؟ قالت زبيبة: شداد نفسه غير متأكد. عندما اتهمت سمية زوجة شداد الأخيرة عنترة بأنه حاول مضاجعتها، كانت تكذب بالطبع، ولكن شدادًا وجدها فرصة حتى يقتل عنترة من شدة الضرب أو على الأقل ينفيه خارج القبيلة، ولكن سمية وقد هالها ما حدث لعنترة الذي كان عاجزا عن رد الضرب لأبيه هي التي اعترفت بكذب ادعائها.

قالت عبلة محاولة أن تكون لها الكلمة الأخيرة: ولكنه في النهاية هو فارس بني عبس ومنقذها.

قالت زبيبة بلا مبالاة وهي تستعد للانصراف: أنتم أصلا قبيلة ضعيفة بلا ذكر ولا نسب، هو الوحيد الذي جعل منكم شيئًا يذكر.

وسارت بخطواتها البطيئة إلى خارج الخيمة حيث الشمس الساطعة، وظلت عبلة واقفة في ظلال الخيمة وقد أصبح عقلها في فوضى، هل من الحكمة أن تمضي في استكمال هذا الزواج؟ كل الأوهام التي تغلف فارس الصحراء قد انكشفت الآن، تركته عاريا بلا نسب ولا جذور، شعرت عبلة بأنها عاجزة عن الاختيار، لا يسعها أن تقلد زبيبة ولا يمكن أن ترضى بهذا الزوج، جلست حائرة، خافضة الرأس، ولكنها أحست بظل يملأ باب الخيمة ويحجب عنها الضوء، رفعت رأسها فوجدت عنترة بجسده الضخم يسد باب الخيمة يحدق فيها بنظرة غريبة، تطلعت إليه وهي عاجزة عن الكلام، عاجزة عن المقاومة بينما تقدم هو نحوها بخطوات بطيئة واثقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

صفقة الأعمى

قالوا إن الأعشى يسير في دروب الصحراء الواسعة كأنه يراها، يشم رائحة خضرة الواحات وعبق الزنابق وعطور النساء، ويسمع صوت تلامس قطرات الماء في الآبار النائية وتعتق النبيذ في الأقبية، ويحس بنبض البيوت والمضارب حتى قبل أن تلوح على حافة الأفق. كان العالم محفوظا ومكتملا خلف ظلمات البصر، لم يضل طريقه يوما، ولم يفشل يوما في التعرف على شخص من صوته، أو على مكان من رائحته، ولكن من المؤكد أن الأعشى كان أعمى.

ولأنه كان أعمى فقد عقد هذه الصفقة مع تجار قريش.

كان قد استعد للخروج إلى النبي الكريم ليعلن إسلامه على يديه، وبدأ يستجيب في شعره لهذه الرغبة الحميمة، قال قصائد يمدح بها النبي قبل أن يراه، ورجزا يحث فيه ناقته على السير سريعا. شذب لحيته وخفف من حجم عباءته، كان يودع حياته القديمة ويستعد لحياة جديدة أخرى.

انتشرت الأشعار قبل أن يبدأ رحلته، وسمعت قريش بنيته فقالوا لبعضهم البعض:

- هذا صناجة العرب في طريقه إلى محمد، ووالله ما مدح أحدا قط إلا رفع من قدره، ولو أتى محمدا ليضرمن عليكم نيران العرب بأشعاره، وليضاعف من أعداد أتباعه.

وخرجت قريش تترصد مجيئه، راقبوا كل الطرق التي تؤدي إلى يثرب، وظلوا يتناوبون على ذلك ليلا ونهارا حتى ظهرت ناقته بعد عدة أيام، وتقدم منه أشهر تجار قريش وأبرع مفاوضيها؛ أبو سفيان بن حرب وسأله: إلى أين يا أبا بصير؟

كان الأعشى يعرف أنهم يقدرون على منع العبيد والموالي من الذهاب إلى محمد، ولكن لا أحد يقدر على منع شاعرٍ مثله كلماته أمضى من حد السيف، قال: أردت الذهاب إلى صاحبكم محمد لأسلم على يديه.

قال أبو سفيان: بئس الرأي والله يا أبا بصير، إنه ينهاك عن كل الأشياء التي تحبها ويحرمها عليك، فكيف تطيق ذلك؟

قال الأعشى: وما هي هذه الأشياء؟

قال أبو سفيان: الزنا مثلا.

تحسس الأعشى تجاعيد وجهه وتنهد قائلا: لقد تركني الزنا وما تركته، ثم ماذا؟

قال أبو سفيان: القمار؟

قال الأعشى: الأعمى هو الخاسر الأكبر، سأمدحه بقصائد لم يسمع بمثلها، ولعلي أصيب منه ربحا عوضا عن القمار، ثم ماذا؟

قال أبو سفيان: الربا.

قال الأعشى: الأكياس الفارغة لا تملؤها سوى الريح، ما أقرضت أحدا، وما استدنت من أحد قط، ثم ماذا؟

قال أبو سفيان: الخمر؟

قال الأعشى: آه.. الخمر.. شراب الجن ونشوة ربات الشعر.. لم يبقَ معي إلا زق صغير من نقيع التمر، سوف أنتهي منه قبل أن ينتهي الطريق.

ولم يعد هناك ما يقال، ونظر وجوه قريش إلى بعضهم، وأدرك أبو سفيان بحس التاجر الذكي أنه لا مفر من عقد صفقة مع الشاعر، وليطلب ما يريد، قال:

- سنعطيك خيرا من هذه الموانع، مهلة للتأني وإعادة التفكير، نحن الآن في هدنة مع محمد، وسوف نعطيك مائة من الإبل وترجع إلى بلدك في سنتك هذه وتنتظر ما يصير إليه أمرنا، فإن انتصرنا عليه، كنت قد نلت نصيبك، وإذا انتصر هو فارجع إليه وقل له ما شئت من أشعار.

ولأن الأعشى كان أعمى فقد قبِل الصفقة، وجمعت قريش له مائة ناقة، وتأكد هو عن طريق اللمس أنها نوق سمينة متعافية.

قاد الأعشى قطيعه عبر الصحراء، ولكنها لم تكن الصحراء، كانت كتلة من الظلام المتراكم، بلا حس ولا رائحة ولا نبض، تلمست قدماه الدروب المألوفة فلم يجدها، تشمم بأنفه رائحة الأمكنة، فلم تهب عليه ريح من أي اتجاه، صاح بأعلى صوته فلم تتردد الأصداء، كان ضائعا وسط خلاء بلا حد، ظل يلكز الناقة التي يركبها، يدفعها دون توقف، حتى سقط من فوق ظهرها في وادٍ سحيق، وظلت الإبل شاردة في الصحراء دون صاحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آخر الخطاب

قالوا له في سخرية ممتزجة بالأسى:

- يا خارجة.. لقد طلقت أمك للمرة العشرين، فاذهب وعد بها إلى قومك، وكفى ما لاكته العرب من سيرتها.

ركب «خارجة» ناقته وسار عبر الصحراء إلى مضارب بني بكر حيث سكنت أمه مع آخر الأزواج. عشرون زواجا وطلاقا جربتها أمه، لم يشهد عشرة منها؛ لأنها حدثت قبل أن يولد، وخمسة منها حدثت وهو ما زال طفلا لا يعي ماذا يعني تغير وجوه الرجال الذين يطئون فراشها، وأحس فقط بالإهانة والمرارة اللتيْن ولدتهما الخمسة الأخيرة. كانت الأم «عمرة بنت سعيد»، أسرع امرأة تتزوج، وأسرعهن إلى الطلاق أيضًا، ورغم ذلك لم ينضب معينها من الرجال قط، كان الرجل يأتيها راكبا ناقته، متلمسا طريقه إليها ويقول لها مترددا وهو ما زال فوق الناقة: خطب، فتقول له بسرعة: نكح، يقول: قبل، فتقول: أنخ.

تزوجت الكثيرين حتى قبل أن تدعهم يذكرون أنسابهم إلى آخرها. في هذه الصحراء القاحلة لم يكن ينبت بشكل جيد سوى الرجال، يخورون في فراشها كالإبل الشاردة، ويبقونها ساهرة طوال الليل رطبة ومغطاة بالعرق، لكل واحد منهم مذاق مختلف، ولا يغني أحد منهم عن القبول بآخر، ملئوا بطنها أولادًا وأنسابًا مختلفة؛ الديل والليث والحارث وبني خزاعة وعبد مناة، لم يكن بطنها يعرف الكلل، ولم تترك لولدها «خارجة» - الوحيد الذي ظل يتبعها - إلا مزيدا من المرارة والحنق، في كل مكان يذهب إليه كان يفاجأ بواحد من أزواجها السابقين، رجال لم يرهم من قبل حدثوه عن تفاصيلها اللعينة معهم، قال له أحدهم: إنها ترضي الرجل بكثرة الضوضاء التي تصدر عنها، وقال ثانٍ: أفضل ما فيها أنها تبقى رطبة في أشد الأيام جفافا، وأكد ثالث أنها تبتكر من الأوضاع ما لم تعهده العرب من قبل، كلهم كانوا يسعون إليها بجوع وحماسة لم يخفف منهما تقدمها في السن، كأنها نوع من التحدي عليهم أن يخوضوه ليؤكدوا رجولتهم، بل إن بعضهم وسَّط ابنها للزواج بها مرة أخرى، ورغم أنها كانت تقبل الجميع فلم تكرر الرجل.

عندما وصل إلى ديار «بني بكر» أخذوا يتغامزون ويتهامسون وهم يشيرون إليه، لم يبالِ آخر الأزواج حتى بمقابلته، دلوه فقط على مكانها في خيمة بعيدة عن الحي، كان تعيسا بوجود هذه المرأة في حياته، يتمنى فقط أن يمتلك تلك اللا مبالاة التي يحس بها بقية إخوته حيالها، وجدها راقدة داخل الخيمة متشعثة الشعر ممزقة الثياب، تحمل كل مهانة الزواج المتأخر، انحنى عليها وهو يحاول أن يساعدها على النهوض، تأوهت ورفعت عينيها إليه وقالت في حزن:

- يا لضعة الرجال يا ولدي، يقسون عليَّ بأيديهم، ويبخلون بما ميزهم الله به.

فهم ماذا تعني، فأوشك أن يبكي، هتف بها متمنيا:

- ليتها تكون المرة الأخيرة يا أمي.

كان من الواضح أن جسدها قد أهين لدرجة لا تسمح لها بالتفكير في الزواج ثانية، وهذا أفضل ما في هذا الوضع التعس، رفعها بين ذراعيه وأجلسها فوق الجمل، قادها بعيدا، لم يرد أن يمكث في بني بكر لحظة زائدة، وأخذ الجمل يخب سريعا، لا يتوقف للراحة، ومر يومان من السير المتواصل، وفجأة هتفت الأم به:

- توقف يا ولدي..

التفت إليها مندهشًا، كانت تتطلع شاخصة إلى حافة الأفق، وأشارت بيدها وهي تقول:

- انظر هذا القادم من بعيد؛ رجلًا يسعى خلفنا، هذا خاطب لي بلا شك، أتراه يمهلني حتى أنزل من على بعيري؟

شق ابنها ثوبه من شدة الغيظ، دفعها من فوق الجمل وهو يهتف:

- انتظريه وحدك إذن.

تركها وسط الصحراء ومضى، لم تبالِ به، كانت تنتظر الزوج الواحد والعشرين ليأخذ بيدها، كان يقترب ببطء، وقبل أن يصل سمعت صوت لهاثه وشمت رائحته، فركت عينيها لتتأكد من طلعته، لم يكن خاطبا، كان ذئبا جائعا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الشروط

قابلته في سوق مكة، كان مشغولا باستلام بضاعة حملتها إحدى قوافله، وكانت تبحث عن ثوب من الحرير الدمشقي، طافت على كل التجار فلم تجد بغيتها، قالوا لها: مثل هذه البضاعة النادرة لا توجد إلا عند تاجر واحد فقط هو هشام بن المغيرة.

وعندما أقبلت عليه تأملها مبهورا، كانت أجمل امرأة رآها في حياته، لم يكن رجلا محروما، بل كان يعاني من تخمة نسائية، بيوته المتعددة مليئة بزوجات وإماء وجوارٍ ومحظيات وسبايا، لكنها فاقتهن جميعا، سألته عن الثوب الذي تبتغيه، عرض أمامها كل ما جلبه في رحلته الأخيرة إلى الشام؛ حرائر ناعمة كالشوق، زاهية الألوان كقوس قزح، اختارت أكثر مما كانت تريد، سألته عن ثمنها فقال:

- هي لكِ بلا مقابل، على أن تذكري لي اسمك وقبيلتك.

قالت له إن اسمها ضباعة بنت عامر، وإنها من بني قشير، ولكن الزمن كان قد تأخر على هذا التعارف؛ فقد كانت بالفعل زوجة لعبد الله بن جدعان.

بعد أن انصرفت لم يستطعْ أن ينساها، ظل يقلب في الحرائر ساهما، وعندما عاد للبيت، عاف كل نسائه، هي أيضًا لم تنسه، حين ارتدت الثوب ولمس الحرير لحمها، أحست بأن يديه، تنسابان على تضاريس جسدها في خفية وسرية، أحس زوجها بشرودها، قال متهكما:

- قالوا إنك كنتِ في السوق، وقضيت وقتا طويلا وأنت تحدثين هشام بن المغيرة، كان عليك أن تحذري منه.. ألا تعرفين أنه زير نساء؟

ولم ترد عليه، كان الثوب الحريري ما زال يضمها.

بدأ المغيرة يطوف في حيها، تحول إلى فتى صغير ذهب العشق بعقله فأخذ يتعثر وسط المضارب، لم يدرِ أن عيني الزوج تراقبانه في غيرة وتحفز، رغم أنه لا يستطيع أن يفعل له شيئا، فقبيلته من بني المخزوم أقوى من أن يعاديها أحد، وعرف المغيرة الكثير عن زوجها؛ أنه أكبر منها سنًّا بسنوات، صبارة عقيم، بخيل في ماله ومنيه، تزوج قبلها عشرات المرات دون أن ينجب شيئا، لا غرس له ولا ظل، كل النساء اللواتي رقدن تحته، ذوين من شدة الجفاف، أرسل المغيرة إليها قائلا:

- لماذا تضيعين عمرك مع هذا الشيخ العقيم؟ اطلبي منه أن يطلقك.

وكأن هذه الفكرة كانت غائبة عن ذهنها وهي مستسلمة له كل هذه الأعوام، واجهته للمرة الأولى وطلبت منه أن يطلقها، ولكن الشيخ رفض، لاحقته، سوف تطلب الخلع منه أمام الجميع، ولكنه قال لها بمكر العواجيز: أطلقك على أن تعطيني عهدا أمام أهلك وشيوخ القبيلة، ألا يتزوجك هشام بن المغيرة من بعدي.

ورفضت أن تعطي أي عهد على نفسها، كانت تريد طلاقا غير مشروط، وأن تتزوج ما تريد من الرجال وعلى رأسهم هشام بن المغيرة. ساقت أهلها، وأصحابها، ومنعته من أن يلمس جسدها، ولم يكن يحلو لها الصراخ في وجهه إلا في منتصف الليل، عندها يسمعها كل النيام، وأخيرا هتف الشيخ

بها: إذا أردت الطلاق والزواج به، فعليك أن تطوفي عارية حول البيت الحرام، وتنسجي للبيت ثوبا يبلغ طوله المسافة بين جبلي مكة ومنى، وأن تنحري مائة من الإبل.

كانت شروطا قاسية، ولكنه أصم أذنيه عن كل التوسلات، لم يدع لها طريقا آخر للخلاص، أرسلت إلى هشام بن المغيرة تسأله ماذا تفعل وكيف تفي بمثل هذه الشروط.

كان هو يتحرق شوقا للحصول عليها، ولا يأبه بأي شرط يحول دون ذلك، كان على استعداد لفعل المستحيل، أرسل إليها قائلا: ما أيسر ما سألك، ما أوهن شروطه، فلا يسوءك ما طلب، أنا أكثر قريش مالا، ونسائي أمهر نساء قريش في الحياكة، وأنت أجمل نساء الأرض فلا بأس عليك.

وافقت ضباعة زوجها على شروطه؛ أن تنحر الإبل، وأن تغزل ثوبا بطول المسافة بين جبال مكة ومنى، وأن تطوف حول البيت عارية.

بدأت بأسهلها، نحر بن المغيرة مائة ناقة في ساحة الكعبة وتركها مشاعا يأكل منها الناس والطيور الجارحة والحيوانات الجائعة، ثم جمع نساءه وأمرهن أن يغزلن ثوبا للبيت الحرام بطول المسافة بين جبل مكة ومنى، وسهرت النسوة الليالي الطوال يوالين غزل ثوب يضيف زوجة أخرى لهن، نسي ابن المغيرة قوافله وتجارته وأخذ يحمل للنسوة كميات هائلة من الأقمشة والخيوط؛ حتى لا يتوقفن دقيقة واحدة، وتم صنع أطول ثوب شهدته مكة، وبقي الشرط الأخير.. وعلى «ضباعة» أن تقوم به بمفردها، تتجرد من ثيابها وتطوف عارية حول البيت.

وبذل ابن المغيرة المستحيل ليبعد الجميع عن ساحة البيت الحرام، وانتظرا طويلا معا حتى تأخر الليل، وهجع الجميع، خلعت ضباعة ثيابها وبدأت تطوف حول البيت عارية والقمر يلف جسدها ويزيد تألقه ويضفي عليه جمالًا بهيًّا، كأن الحياة على وشك أن تدب في التماثيل الحجرية التي تحيط بالكعبة، تكاد أن تنتزع نفسها من قواعدها الحجرية، وأخذ الهواء يحف بجسدها مكونا دوامات من الرغبة رحلت لكل البيوت والخيام الصامتة، وأتمت ضباعة الدورات السبع، وظل المكان بعد انصرافها مفعما بنوع من البهجة.

تمت الأمور بعد ذلك بسرعة ويسر، ولم يملك ابن جدعان إلا أن يطلقها، ولم يعد هناك ما يمنع ابن المغيرة من الزواج بها، تم الأمر المستحيل وامتلك أجمل النساء.

ولكنه لم يكن وحده هو الذي امتلكها، كان الجميع يشاركونه فيها، لا يتحدثون عن شيء إلا عن طوافها العاري. في كل جلسة سمر، وسط الصفقات والمساومات في السوق، في أثناء التسكع واختلاس النظرات، كانوا يتحدثون عن «ضباعة» وعن روعة جسدها، كل واحد منهم رأى جزءا منها، يحفظ تفاصيله ويصفه بدقة متناهية، وعندما يجتمعون يضمون معًا هذه الأجزاء عبر مخيلة الرواة والتفاصيل، ليكونوا منها جسدًا عامًّا، له عمومية السحب والرمال، كان ابن المغيرة يحسب أنه قد تزوج امرأة ولكنه اكتشف أنه تزوج حلمًا جماعيًّا لقبيلة بأسرها، لم يعد يستطيع أن يجلس معها في الفراش دون أن يشعر بعيونهم جميعا تقتحم خياله وتترقب ما يفعله، عندما كانت تخلع ثيابها وتجلس أمامه عارية كان يعلم أن الجميع يرونها معه، وعندما كان يضاجعها كان يحس بأنهم يضاجعونها أيضًا، كان يراجع التفاصيل فيدهش كيف رأوا كل هذا تحت ضوء القمر.

فقدت «ضباعة» طعمها، وأدرك سبب شروط الزوج العجوز ومغزى انتقامه، لقد أراد ألا تكون بعده لرجل واحد ولكن لكل الرجال، حوَّلها إلى حلم لا يستطيع رجل بمفرده أن يمتلكه، واضطر ابن المغيرة لأن يطلقها أيضًا، ولكن بلا شروط هذه المرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الجرباء

عندما أراد ابن عتيق أن يتزوج عفراء لم يشك أحد في قبيلة طيئ في أنها سوف ترفضه فورا، لم يكن إلا شاعرا صعلوكا لا يملك إلا ناقة وحيدة وخيمة نائية ومرعى يابسًا والعديد من القصائد التي لا ثمن لها، أما عفراء بنت قسامة فقد كانت تملك كل شيء تقريبا؛ الحسب والنسب، وثروة أبيها الضخمة، وقوافله التي لا تكفّ عن الترحال، ولكن هذا كله لا يمثل شيئا مقارنة بجمالها الأخاذ، كل ما يمكن أن يقال إنه كان جمالا مكتملا، كأن كل قطعة من جسدها قد خلقت بمفردها وشكلت بعناية ثم جمعت معا في دقة وإحكام.

وعندما رآها ابن عتيق للمرة الأولى بجانب عين الماء ظل يهذي، طارت منه الكلمات وتكسرت القوافي، لم تكن هناك كلمات يمكن أن ترتقي لمستوى جمالها، لم يكن هناك شيء في هذه الصحراء الرتيبة متفرد مثلها.

وعندما عزم على التقدم للزواج بها نصحه أصدقاؤه قائلين: إنها كنجوم الليالي المضيئة، عليه أن يكتفي فقط بالتطلع إليها، وعندما أصر أخذوا يسخرون من ذلك الصعلوك يحلم بامتلاك النجوم، ولكن حالته كانت تتدهور، أصبح عاجزا عن اليقظة والنوم، قرر أن يذهب إلى أبيها بمفرده وليكن ما يكون.

استقبله أبوها بدهشة واستمع إليه بغرابة، ولم يبدُ أنه استمع إلى أي كلمة حاول أن يزين بها نفسه، ولكنه قال فجأة: قد زوجتك إياها، فلا تبرح مكانك.

واندفع خارجا من الخيمة، وسمع ابن عتيق كلمات وغمغمات تتناهى من الخيمة الأخرى، أخذ يفكر في كلمات الأب، أهو نوع من الرفض حسبه لشدة لهفته قبولا؟ كان الأمر أجمل من أن يكون حقيقة، ولكن الأب عاد مسرعا وهو يقول بنفس اللهفة: العروس قد قبلت الزواج بك، وهي تقول لك أيضًا: لا تبرح مكانك.. سوف تدخل إليها الليلة.

وقبل أن يفيق من صدمته، جاء الشهود، ودقت الدفوف، وأعلن الخبر في أرجاء القبيلة، وعقد العقد وزفت العروس، فبدأ الشك يلعب في صدر ابن عتيق. ظل واجما طوال الاحتفال الذي أعد على عجل، يتلقى التهاني ونظرات الحسد بذهن شارد، وعندما أصبح وحده أخيرًا مع عروسه كان متأكدا أن هناك شيئا ما غير صحيح.

أول شيء أصر عليه هو أن تتم المضاجعة الأولى بينهما في النور، لن يسمح بوجود أي ظلام يمكن أن يقوده إلى الخديعة، ولكنها لم تكن في حاجة إلى ذلك، كان جسدها يتألق بضوء خفي يشع منه ويترك ذراته معلقة في الهواء، كنزًا حيًّا تخفي الثياب أجمل ما فيه، عذراء حقيقية، دماؤها قانية ولمساتها حيية، ولهفتها صادقة، مرت عليه سبعة أيام كاملة وهو معها داخل الخيمة نفسها، يراقبها بعيون مفتوحة، دون أن يكتشف فيها عيبا واحدا، عندما تركها قليلا وسعى إلى أقرب أصحابه، تحدث معه عن انشغاله بهذا الكمال البشري الذي لا يشوبه نقصان، لا شائبة ما ولا عيب، فما الذي جعلهم يوافقون عليه بهذه السهولة ويزوجونه بهذه السرعة؟ قال صديقه: ربما لأنها أجمل بكثير مما ينبغي.

هل يمكن أن يكون هذا عيبا؟

ببطء شديد استطاع أن يعي ماذا يعني أن يكون الجمال الفائق عيبا، في أي مكان تذهب إليه «عفراء» لم تكن هناك امرأة تجرؤ على الاقتراب منها، أو الوقوف بجانبها، كنَّ جميعا يعرفن أن المقارنة ستكون صارخة، وأن جمالها يمكن أن يزري بجمال أي امرأة أخرى، أي زهرة، أي ظبية، أي نجمة متألقة، كان بهاؤها لا يحتمل، وكمالها عصيًا على الاحتمال، كانت تجلس دوما وحولها فراغ قاحل وتحول هذا الخوف من الاقتراب منها إلى نبذ مستمر. اكتشف أيضًا أن هناك اسمًا سريًّا يطلقه عليها الجميع ويتبادلونه من وراء ظهرها، «الجرباء»؛ تلك الناقة التي تتحاشاها بقية النوق، كان التشبيه دقيقا وقاسيا ولكنه حقيقي.

حتى ابن عتيق أحس بوطأة هذا الجمال الطاغي، رغم أنها كانت تهبه ذات نفسها دون تحفظ ولا تكبر، رغما عنه بدأ يتأملها وهي تتحرك في المنزل ويقارنها بنفسه، إذا ما جمعتهما مرآة واحدة أو انعكس وجهاهما على صفحة الماء أو جلسا عاريين في الفراش بجانب بعضهما البعض، كان يحس بأنه مجرد قرد قبيح ابتلاه الله وجعله قيِّما على أجمل زهور الأرض، وفي الأسواق عندما يسيران معا، تلتفت الأنظار إليهما، كان يدرك أنهم يجرون المقارنة بين وجهها الصبوح ولحيته المغبرة، بين ملامحها التامة التناسق، وأنفه المفلطح، كانوا جميعا يسلخون جلده في صمت.

بدأ يغضب دون سبب ويثور بلا مناسبة، كفَّ عن قول الشعر وتفرغ للإساءة إليها، وهي هادئة كغدير صافٍ لا تتعكر ولا تغضب منه، كانت تشفق عليه، ليس هو وحده، ولكن على ذلك العالم القبيح الذي يحيط بها، والذي حاولت أن تعطيه بعضا من ذات جمالها، ولكن القبح كان أكثر من أن يقاوم، وأخيرا انهارت مقاومة ابن عتيق، هتف بها في مرارة: يجب أن نفترق، لا أستطيع أن أواصل التحديق في ضوء الشمس طوال الوقت، يجب أن أغمض عينيَّ قليلا.. ربما أرتاح وأنساكِ.

وطلقها ابن عتيق ورحل بعيدا، وظلت أجمل نساء الصحراء وحيدة، كأنها ناقة جرباء يتحاشاها الجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رماد العشق

سنوات طويلة وهو يتوق للحظة التي يعود فيها إليها، ولكنه الآن يحدق في وجهها دون أن يجد أثرا لملامحها القديمة، كانت سمينة لدرجة ذابت فيها خطوط القسمات، أضخم من أن تكون حلما، وأشد هرما من أن تكون ذكرى، ولكنها جذبته إليها، ألصقته بصدرها الذي تفوح منه رائحة حليب الأطفال، وقالت: ألم تجئ من أجلي أنا وجزة بنت غني؟

أحس بالحسرة عليها، وعلى زمن الفرقة القاسي، وعلى الشعر الذي أهدر في رحلة الضياع الطويلة، شاعر أشبه بالمهرج، ومهرج أشبه بالمسخ، يلعب دوره في قصور بني أمية في الشام، ليعود إليها بثلاثمائة ناقة كما اشترط عليه أبوها، عاد بقلب متعب، وكبد مقروح.

قبل أن يهب كان «أرطأة» هو شاعر بني مرة، لا ينازعه أحد، فمن يذكره الآن؟ وأي من شعره جدير بالتذكر؟ عاد إليها، ولكن أين هي؟ تشير للخيمة الصغيرة وتقول: انظر إلى ما آل إليه أمرنا أنا وزوجي.

لم تصبر كما اصطبر، تركت أباها يصرخ في وجهه: لا نريد شاعرًا مفلسًا، وقالت هي: لا توجد امرأة تجيد لبس المأثورات أو التطيب بالقوافي. كانت مثيرة للرثاء، قال أرطأة وهو يبتلع ريقه: قد وهبت لك مائة ناقة.

لم تشكره كأنها كانت تعرف أنه عائد إليها لا محالة، تقدمت ومست جبهته بأصابعها السمينة فأحس بها باردة كلمسة الموتى، تذكر يومًا كانا على حافة غدير ولمس خدها فانتفض جسده كله، وقالت: عشنا زمنًا رغدًا، ثم أتلفت التجارة والمضاربة كل أموالنا، لم أرَ رجلا متهورا مثل زوجي.

ماذا كانت تعني حين وعدته بالانتظار، ومتى كونت هذا الشحم وأنجبت كل هؤلاء الأطفال؟ هل كانت مدة غيبته كافية لتفعل بنفسها كل هذا؟ ماذا عن زوجها؟ هل يقول الشعر، أم يجيد فقط خسارة الصفقات؟ هل كانت عذاباته في قصور الشام من أجل هذه الوعود الغامضة، أم من أجل أرطأة المسكين في داخله الذي استمرأ عيش المنفى؟ ابتلع أنفاسه في صعوبة وقال: وقد وهبت لزوجك مائة ناقة أخرى.

لم تشكره أيضًا، حاول أن يبحث فيها عن الصبية الصغيرة التي فتن بها فلم يجدها، ذابت الغمازتان في شحم الوجه وانطفأت نجوم الحب المتألقة في عينيها، وأصبح جسدها مترعا من كثرة الأكل والشرب والنسيان، قالت: أولادي كثيرون، انشغل عني زوجي بالتجارة فانشغلت بالإنجاب.

فقال على الفور: قد وهبت لأولادك المائة الثالثة.

كم سنة استلزم الأمر لكي تنطفئ نار العشق، وتتحول إلى كل هذا الرماد؟ لا أحد يدري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

نداء الشباب

عندما يطلب سيد القبيلة فإن طلبه لا يرد، كان قد رأى الزباء بنت علقمة وهي تسير مع صويحباتها في التاسعة عشرة من عمرها، مميزة، فارعة وعيونها واسعة كبقرة وحشية، من أجل ذلك اختارها الحارث بن سليل سيد بني أسد وفارسها الأوحد لعقود طويلة من الزمان ليتزوجها، أحس أنها تستحق أن تكون مكافأته الأخيرة، وبُهر أبوها بهذا النسب، أدرك أنه منذ الآن سوف يصبح في حماية هذا الفارس، وسوف تنعم ابنته بأمواله الكثيرة وحسبه ونسبه، قال لأمها محذرا: إنه سيدنا وسيد قومه حسبا ومنصبا، وقد جاء خاطبا لابنتنا الزباء، ويجب ألا ينصرف إلا بعد موافقتها.

كانت الأم تعرف أن الزباء يابسة الرأس، ولا سبيل للحصول على موافقتها إلا بالإقناع، قبل أن يدخل الأب مهددا، قالت لها: أي الرجال أحب إليك؛ الكهل الكريم العاقل الذي يمتلك كل شيء، أم الشاب المعدم الذي لا يكف عن النظر إلى غيرك من النساء والسعي خلفهن كلما لاحت له فرصة؟

لم تنخدع الفتاة بهذه المقارنة، أعلنت رغبتها في صراحة ووضوح:

- إن الفتاة تحب الفتى.. كحب الرعاء أنيق الكلا.

ولم تتأثر الأم بالكلمات كثيرًا، واصلت ترغيب ابنتها:

- يا بنية، إن الشباب شديد الحجاب كثير العقاب.

وقالت الزباء: يا أماه، أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابي ويضيع شبابي ويشمت أترابي.

واستمر الحوار هكذا؛ محاولات من الأم، ولكن منطق الزباء كان الأقوى دائمًا؛ لأنه لم يكن يعتمد على الكلمات، كان يعتمد منطق الرغبة المتوقدة في أعماقها، ورحيق الحياة الذي لم ترتوِ منه بعد. انسحبت الأم ودخل الأب مهددا متوعدا، نزع السيف من غمده والرمح من ترسه، وصاح بكلمات صارخة عن العار الذي ينتظره والفضيحة التي لن يعقبها إلا الندم، وأمام هذا الرعب وافقت الزباء.

وانصرف شيخ بني أسد وقد ظفر بزوجته الفتية، لم يهتم كثيرًا بأنها كانت دائمة البكاء، قليلة الأكل، عسيرة النوم، كان يكفيه أن يرى وجهها الجميل حتى يحس بانفتاح شهيته فيأكل طعامه وطعامها، وكان يحس في المساء بجسدها الدافئ المشدود بجانبه على الفراش فينتقل الدفء إلى عظامه الباردة، ثم يبدأ معها في الحديث. كانت غزواته لا تحصى ولا تعد، حارب كثيرًا، وحمى مضارب القبيلة من صنوف الأعداء، لا يوجد بطن من البطون غير مدين له بجميل، كان ينقذ السبايا المأسورات، ويجير الجيران الضعفاء، ويتصدى وحده لجيش جرار، وكان الحديث ينهكه كثيرًا فيغرق في نوم عميق، والزباء بجانبه صامتة لا تشكو ولا تتألم، لا تظهر رغبة ولا رفضا، أحيانا كانت تبدو معجبة بحكاياته، وأحيانا تبدو وكأنها لا تسمعه، تتحرك ولكنها لا تحس أشبه بجثة حية.

لم يحس بها الشيخ إلا ذات ليلة.. كانت القبيلة كلها ساهرة، ونارها موقدة ورجالها ونساؤها جالسين أمام الخيام، ثم أقبل شباب من بني أسد يتصارعون، أجسادهم منتصبة وعضلاتهم مشدودة، تلتحم مع بعضها ثم تشد، تبرز وتسترخي، تحرك في داخلها جوعا غريبا غامضا، يثيرون الرمال كأنهم يزيلون كل الأشياء التي كانت تطمر روحها وتكبتها وتعيق انطلاقها، كل حركات المصارعة ورؤية

أجساد الفتيان تزيد من حسرتها وشدة جوعها، وأخيرا تنهدت في صوت عالٍ، لم تتمالك نفسها فانخرطت في البكاء، وحين التفت زوجها وهو يسألها: ما يبكيك؟ لم تستطع أن تخفي مشاعرها أكثر من ذلك، لم تحاول أن تجامله. هتفت:

- ما لي والشيوخ.. الضعاف كالفروخ!

ذهل الشيخ من جراءة ردها، نظر إلى الشباب الذين يتصارعون، أحس بجسده يابسا مرتخيا ليست فيه عضلة واحدة مشدودة، قال كأنه يرثي نفسه:

- أما وأبيك لرب غارة شهدتها، وسبية أردتها، وخمرة شربتها.

وبدأ يحكي حكاياته القديمة.. ولكنها كانت قد غادرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

فرط الحنين

قالوا لعفراء: جاءك خاطب من أهل الشام، شاهدك عند عين الماء وفتن بجمالك.

كان الرجل تاجرًا ثريًّا؛ لذلك لم تكن هناك مشكلة وتم الزواج بسرعة، أحضر الرجل الكثير من الهدايا، وأعطى أباها مبلغا كبيرا من المال كأنه يعقد صفقة رابحة، لم يبالِ أحد بأخذ رأيها، ولم يكن لها رأي تقريبا، كانت خائفة والخائف لا يعتد برأيه.

لم يكن الرجل قبيحا ولا وسيما، لم يكن هناك ما يميزه أو يعيبه، كان متعجلا للرحيل إلى الشام، ولم تكن عفراء قد ابتعدت عن المدينة لأكثر من فرسخ واحد، عندما اكتشفت مدى ثراء زوجها، شاهدت خطًّا من النوق يكون قافلته التي تبدو وكأنها بلا نهاية، كلها محملة بالبضائع، وكان هو يقود الجميع بحزم لا يتناسب مع الثياب الحريرية التي يرتديها، ثياب فاخرة، لم تشاهد مثلها على أبيها ولا على أخيها، كان رقيقا ودودا، ولكنها لا تدري لماذا ظلت رغم كل ذلك متوجسة وخائفة منه.

وبعد ليلتين من السفر قال لها: آن لك أن تتخلصي من ملابسك الصحراوية الخشنة، وتلبسي ثياب أهل الشام الحريرية الناعمة.

وفي بساطة غريبة، دون أن يفتح صندوق ملابسها الذي حملته معها، أخذه مغلقا ألقى به في النار، شهقت، كل ثوب كان يحمل ذكرى؛ عندما أخذتها أمها للسوق، وجعلتها تخلع ثوب الطفولة الخشن المغزول على اليد، وترتدي ثوبا من قماش لين جاءت به القوافل، كان البائع له عينان مضيئتان، ولا بد أنه رأى جزءا من جسدها؛ فقد أشرق وجهه وخفض الثمن للنصف، والثوب الذي حضرت به حفل زفاف أقرب صديقة إليها، ورقصت به مع صويحباتها حتى الفجر، والذي قابلت به شاعرا عابرا وأعطاها قبلتها الأولى، والذي سقطت عليه أول قطرة دم عندما داهمها البلوغ، كلها تحمل رائحتها وجزءا من جسدها، كلها تحترق، ولكن زوجها فتح صندوقا آخر مليئا بثياب رائعة لم ترَ في مثل بهاء ألوانها ولا رقة ملمسها، ارتدتها فانزلقت على لحمها كأنه جسد آخر، أحست بأنها أصبحت عارية رغم الثياب التي تكسوها، وبخجل طاغٍ يصيب جسدها برعدة دائمة.

واصلت القافلة سيرها، وبعد ثلاث ليالٍ من السفر قال: آنَ لك أن تتطيبي وتتعطري بعطر أهل الشام.

وأحضر لها قوارير العطر المختلفة الألوان والأشكال، لكل جزء من أجزاء جسمها كان هناك طيب معين، ولكن أمها إذا أقبل الربيع كانت تطلب منها أن تجمع بتلات الأزهار البرية وبراعمها، وتنقعها في الماء لأيام طويلة فتظل الثياب تحمل طيبها، وكان أبوها إذا أقبل الشتاء يحمل إلى البيت الأغصان الجافة التي إذا احترقت ملأ عبق رائحتها البيت كله، وكانت إذا أقبل الصيف تدهن نفسها بمزيج المسك، أحضره لها ابن عمها من أيائل الصحراء، كان مفتونا بها لكنه لم يجرؤ على التصريح بذلك. ولكن هذه العطور الجديدة حاصرتها، لم تعد تستطيع أن تشم رائحة الصحراء ولا الزهر البري ولا تقلب الرياح، كانت رائحة الطيب النفاذة تحاصرها، تفشى دائمًا عن وجودها الغريب، تعلن عن امرأة عارية تحت ثيابها وتزيد أيضًا من خجلها، ولكنها واصلت الرحيل لأن زوجها كان ودودا طيبا.

وبعد أربع ليالٍ من السفر قال لها: آن لك أن تزيني نفسك بحلي أهل الشام.

ووضع في أذنها قرطا وحول عنقها عقدا وحول رسغها سوارا، أصبح كل شيء يوسوس من حولها، وهناك صوت لكل حركة من حركاتها، أصبحت بعيدة ونائية، مقيدة فوق ظهر جملها وهو يترك الجبال والوديان وكل عالم الألفة القديم، قالوا لها أخيرًا: ها هي الشام فإذا بتلال خضراء زاهية، وإذا الصحراء خلفها صفراء كأنها الندم، ممتدة كأنها الوحشة، وسمعت من أقصى القافلة رجلًا يغني بشعر أبي قطيفة؛ الشاعر الذي قبلها ذات مرة:

أقطع الليل كله باكتئاب وزفير فما أكاد أنام

إذ فرقت بيننا الدار وحادت عن قصدها الأحلام

فشهقت شهقة واحدة ثم سقطت ميتة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حرب الجدائل

حارب العرب من أجل كل شيء تقريبا، خاضوا أطول الحروب وأكثرها تفاهة، دون أن يتوقفوا، أو ينتبهوا، أو يشعروا بالندم، وخرجوا منها جميعا دون أي انتصار، تعددت الأسباب والحرب واحدة، وربما كانت أشهرها هي حرب الجدائل.

بدأت الأمور بدايتها البسيطة، تقابلت امرأتان متزوجتين لرجل واحد حول عين الماء، ومثل كل الضرائر، تشاجرتا على الفور، صاحت الأولى: يا سارقة الرجال.

وردت الثانية: لولا أنك عاطلة الجمال، ما تركك الرجال.

كانت (عين محلم) بالبحرين من أجمل عيون الماء وأغزرها وأعذبها، يتحدث العرب عن مائها الذي ينساب في خلجان كأصابع اليد، تسقي العشب والنخل والإنسان والحيوان الضال وتبقى باردة في أشد الأيام قيظا، لكن الزوجتين لم تكونا بهذه العذوبة، كان همهما هو الصراع على الرجل الوحيد الذي ربط مصيرهما برباط من التناحر، كان رجلا - لم يذكر التاريخ اسمه إلا من أجل هذه الواقعة - من بني شيبان وكان في هذا الوقت على سفر، ولكن زوجتيه دخلتا التاريخ من أشد أبوابه صخبا.

ضربت الأولى من بني سعد وجه الثانية بالطين، وردت الثانية من بني شيبان فأنشبت أظافرها في وجه غريمتها ثم حلت جدائل شعرها ومزقت منه ما استطاعت، جرت المرأة الأولى صارخة، محلولة الجدائل وأخذت تصرخ: يا لذلِّ بني سعد، حلت والله جدائلي.

وقبل أن يسأل أحد ماذا حدث بالضبط كانت كل النساء يصرخن وخرجن جميعا خلفها، وعندما وصلن إلى عين محلم وجدن أن نساء بني شيبان قد جئن أيضًا، وبدأت معركة جديدة استخدمت فيها الأظافر والأسنان وحلت كل الجدائل، وعادت النسوة من الجانبين صارخات. لم يعد هناك مكان للسؤال عن السبب؛ فالجدائل التي حلت لن يعيد جدلها إلا حناء الدم، وبات الرجال يشحذون السيوف ويثقفون الرماح ثم التقوا في الصباح، كانت عين الماء ما زالت باردة عذبة، ولكن الصراع دار حولها ضاريا، حتى ملأ الخلجان، وأسرعت طيور الماء ترتفع في قرف ولم تعد مرة أخرى، وعندما تناثر القتلى، حلت الغربان بدلا من الطيور لتنظر نصيبها من الغنيمة، ولم يفترق المتحاربون إلا على وعد بقتال جديد.

وعاد الزوج من السفر ليجد صيحات الثأر ترتفع في كل بيت، ولم يكن يريد القتال فأخذ مقصًّا وقصَّ جدائل الزوجة الأولى والزوجة الثانية، وألقى عليهما معًا يمين الطلاق، ولكن الحرب ظلت متواصلة حول عين المياه الملوثة.

ولكن كانت هناك أسباب أقل أهمية من حل الجدائل، حاربوا من أجل ذيل ثوب امرأة، فحين رأى بعض الشباب الماجنين امرأة جميلة الجسم، تضع على وجهها نقابا، سألوها أن ترفعه، ولكنها رفضت فتسلل أحدهم من خلفها وربط طرف ردائها بوتد في الأرض، وعندما نهضت المرأة سقط الرداء، وبدا ظهرها عاريا، قال الشباب لها في سخرية: منعتنا من النظر لوجهك، ومتعتنا بالنظر إلى ظهرك.

وفي صحراء ملتهبة لم يكن الأمر يحتمل المزاح، صرخت المرأة تدعو قومها ليدافعوا عن شرفها؛ فهبوا ودافعوا عنه، ربما أكثر مما دافعت هي عنه في أي يوم كان، وهب القوم الآخرون يدافعون عن شبابهم، واشتعلت الحرب لسنوات طويلة.

حاربوا أيضًا من أجل الجياد، كان هناك جوادا سبق داحس والغبراء، لم تكن هناك خيول تقدر على مواجهتهما، فقد كانا يكسبان أي سباق يدخلانه، وعبثا حاولت جياد القبائل الأخرى أن يهزموهما، وأخيرا ترصدوا لهما في فجاج الوادي وطعنوهما في غرة الصدر، وخرَّت الجياد على الأرض دون أن تعرف سبب اغتيالها، واشتعلت أطول حروب العرب، وأخذت اسم داحس والغبراء، وكان اغتيال الجياد مقدمة لاغتيال الشيوخ، وسبي النساء والأطفال.

وحاربوا أيضًا لأن رجلا أراد زوجة رجل آخر، تمامًا مثلما حدث في حرب طروادة، كان قد رآها كاشفة الوجه في سوق عكاظ، فدعاها لنفسه، زوجة أو عشيقة أو أي شيء، ولكنها امتنعت عنه قائلة في صلف: أما علمت أني عند سيد العرب؟

وأغاظته هذه الكلمات أكثر مما أغاظه امتناع المرأة عنه، وحالما انتهى موسم الحج دعا قومه وهجم على قوم الزوج الذين لم يكونوا يدرون أن كل جنايتهم كلمة قالتها امرأة.

وتحاربوا لأن أحدهم حاول أن يحفر بئرا في أرض متنازع عليها، ومن أجل مرعى قليل العشب، ولأجل ضيف أهين بلا قصد، وامرأة فرطت في عرضها بمحض إرادتها، وناقة شربت من ماء غير مائها، تحاربوا من أجل ثأر ضائع، وبيت مرتجل من الشعر، ومن أجل غارة سرق فيها الصعاليك الجوعى ناقة حلوبًا، تحارب الأوس والخزرج عشرات السنين؛ لأن اليهود اخترعوا لهم عشرات الأسباب، وتحاربت بكر وتغلب أربعين عاما لمجرد إثبات أن الموتى لا يعودون إلى الحياة، وتحاربت ربيعة وتميم لمجرد أنهما جارتان والماء غير كافٍ والمرعى غير متسع.

وتحاربت قريش، وهي القبيلة التي لم تكن تحارب إلا نادرا، عندما جلس رجل من بني غفار ومد ساقه وهو يقول: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضرب ساقي بالسيف، وتقدم رجل من قريش وضرب الساق بالسيف حتى بترها، وكان هذا سببا كافيا لتشتعل حرب طويلة.

استنفد العرب كل أسباب الحرب، ثم خلدوا للراحة التامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الوجه الصبوح

كانت أسماء تعرف أن المرقش قد عاد جائعًا كضبع، غاضبًا كناقة ذبح ولدها، وأنه لا بد سينتقم منها ومن أهلها بسبب الوعد الذي أخلف. لم تكن تحب زوجها، ولكنها لم تكن تحب أيضًا أن تفضح نفسها وسط العرب، عندما عشقها المرقش وجاء يخطبها، قال له أبوها: أنت فقير يا ولدي وأنا أفقر منك، ولا خير في زواج الفقراء.

كان المرقش شاعرا صعلوكا، تنبت قصائده الوحشية كزهر الصبار، مليئة بالجوع والغضب والبحث عن عدل لا يجيء، امتيازه الوحيد هو أنه عشق أسماء منذ أن كانت صغيرة، كان أهلها يبحثون عن مكان عشبه نضر يستقرون فيه، واستغل المرقش غرائزه البرية ليمدهم بطعام من الطرائد التي يقتنصها، كل هذا من أجل عينيها، كانت صغيرة ذات جدائل، ولكن وجهها الصبوح انطبع في قلبه، وملك عليه حواسه، ووسط حياة المطاردة الدائمة التي يعيشها لم يجد لقلبه أمنا ولا سكينة إلا بجانبها، ولكن الأب واصل اعتراضاته، وكان محقًّا إلى حد ما، قال له: انطلق في الأرض إذن واجمع لي مائة من الإبل وإلا لن ترى ظفرا منها.

ولم يكن الطلب غريبا، فالصحراء كانت بيته الواسع، وطلب الإبل كان هو الاختبار الحقيقي لصدق عزيمة العشاق، ولكن الجدب كان التحدي الحقيقي الذي يواجهه؛ فالقبائل كلها تعاني، ولم يكن هناك من هو على استعداد لأن يهبه شيئا، قام المرقش بغارة على قبيلة غافية واستولى على خمسة جمال، ثم سرق عشرة آخرين من أحد الرعاة، ومدح قبيلة عبس كثيرًا حتى ضاق به شيخها فأعطاه خمسة، وتفاخر بغطفان فأعطته ناقتين هزيلتين ماتتا قبل أن يبلغ حدود القبيلة، لم يكن هناك بد من الرحيل إلى الشمال حيث الأمطار والملوك الأغنياء.

ولكن الجدب ازداد على قبيلة أسماء، ووجد الأب أن من الصعب أن يحافظ على وعده للمرقش والجوع يقف له مترصدًا، لم يكن متأكدا أصلا من عودة المرقش؛ لذلك عندما تقدم له شاب من أسرة غنية لم يقبله فقط، بل خفض قيمة الصداق إلى خمسين رأسا من الإبل، وطلب منه أن يرحل بابنته بعيدا قبل أن يعود المرقش.

عاد المرقش إلى قبيلته شخصا مختلفا، يجر خلفه الإبل، استطال شعره، وتحولت أظافره إلى مخالب. اكتسب من الصحراء طابعًا وحشيًّا، هجر الشعر، ونوم الليل، والحلم بالحب، لا يدوي في أذنيه غير نداء الضباع الجائعة التي تصارع معها طوال الرحلة، عرف أن أسماء قد سافرت مع زوجها، فصرخ من مرارة الخديعة. كان قد فقد جزءا من إنسانيته وهو يبحث لها عن هذا المهر الباهظ، ولم يكن ليقبل أن يهزم هكذا. تشمم أثرها، كانت رائحتها لم تفارق أنفه بعد، فانطلق خلفهم، استدل على الطريق بحواسه بعد أن رفض الجميع معاونته، ولكن بعضا من قبيلته استطاعوا أن يسبقوه، وصلوا إليها وحذروها، كانت خائفة عليه، مشفقة على ذكرى حبهما القديم.

وبعد أيام لحق بها المرقش، مندفعا مثل زوبعة، يدمدم بصيحات الغضب، وأحست أسماء بالرعب وهي تشاهده مقبلا من بعيد، لكنها أوقفت ناقتها، وفتحت هودجها، وأرخت نقابها، وأطلت عليه بوجهها، توقف المرقش حين رأى لمعة عينيها كضوء نجمة، رأى شفتيها ترتعدان كحفيف فراشة،

رأى جبهتها وأنفها ووجنتيها، ذرائع الهوى، وسبب الرحيل وتحمل المشاق والمهانة والبحث عن مهر مستحيل، رأى صبابات الحب الأولى، وسمع وقع أول بيت من الشعر، وأحس بخفقة نادرة من القلب، وآخر زفرة من الروح، توقف مذهولا، أحس بأنه يستعيد إنسانيته التي فقدها، غادرت جسده كل غرائز البقاء الموجعة، واكتفى من رحلته الطويلة بهذه النظرة الساجية، لقد عانى الجميع من الجدب، وآن للجدب أن ينتهي دون دم ودون أسى ودون عداوات إضافية، وأمسك عنان جواده وأوشك أن يستدير راجعا ولكنهم زحفوا نحوه، كان زوجها وما معه من فرسان قد انتهزوا هذه اللحظة السكونية النادرة وحاصروه، طعنه أحدهم في جنبه وطعنه الثاني في قلبه وطعنه الثالث في ظهره، وأنهوا بذلك رحلته الطويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البساط

أصبحت بلاد فارس مفتوحة تحت سنابك جيش العرب، تهاوى عرش كسرى، وتحطم إيوانه، وفر أساورته، وخمدت نيرانه، وشق «سعد بن أبي وقاص» أمير الجيش السهول المنبسطة كسهم منطلق لا تقدر قوة على رده.

استطاع أن يقتحم أسوار «المدائن» عاصمة فارس ودخل منفردا إلى الإيوان الخالي حيث توجد آثار العرش المدمر، ووقف وحيدا يتأمل آثار الذين توهجت نيرانهم حتى سادوا العالم، وصارعوا الإغريق ثم الروم، ثم تناحروا وتفرقوا ودانت دولتهم، وللمرة الأولى صلى في الإيوان صلاة الصبح ثماني ركعات متصلات لم يفصل بينها.

فتحت خزائن كسرى، كانت الغنائم التي فيها تفوق الوصف، ووقف ابن وقاص الذي عاش عمره في الشظف مذهولا، لا يعرف أنواعها، أو مدى قيمتها، كل ما استطاع فعله هو أنه جمعها وقسمها إلى أسهم بين الجنود، وقسم بيوت المدائن وقصورها، ثم جمع الخمس وأرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب، ووضع فيه كل شيء أراد أن يعجب به عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه.

وصلت الغنائم إلى المدينة، تحمل لهم صورة غريبة عن العالم البعيد الذي طالما حلموا به ولم يتصوروه بمثل هذا البهاء، لم يتأثر عمر كثيرًا، كان قد تعلم فضيلة الزهد حتى درجة الكفاف، أخذ يفرق الغنائم على مستحقيها، ولكن ظلت هناك مشكلة مستعصية على التقسيم.

كان سعد قد أرسل للخليفة ضمن الغنائم بساطًا طوله ستون ذراعا في مثلها، غريب الألوان، كان يغطي أرضية القاعة الرئيسية لعرش كسرى، كان الصناع هناك وما زالوا، يسمون هذا النوع من السجاد «مناظر»؛ لأن الناظر إليه يرى كل بلاد فارس مصورة خلال نسيجها، خيوط الذهب فيها كمياسم الأقحوان في أوج تفتحها، والقمح يترقب الحصاد، والخيوط الزرقاء مطعمة باللآلئ منسابة كانسياب مياه الأنهار لحظة ذوبان الجليد، تصب كلها في قلب البساط حيث الخيوط الخضراء اللون وفيرة كالأرض المزروعة بنباتات الربيع سيقانها من ذهب وأوراقها من حرير وثمرها من جواهر، أما الأطراف فقد نسجت بخيوط متباينة الألوان تصور الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم إذ تلمع، والشهب حين تهوي.

وظل عمر يتأمل هذا البساط في حيرة، جلس عليه وهو يتحسس نسيجه المتنوع الملمس، لم يتصور أن يطأ إنسان كل هذا بقدميه حتى ولو كان كسرى، هتف في حيرة: ماذا أفعل به؟

واحتار مَنْ حوله لم يكن أحد منهم يحلم بامتلاك مثل هذا الشيء، ولا أحد يدري ما يصنع به. قال واحد منهم: احتفظ به يا أمير المؤمنين، فليس هناك أمير إلا أنت، وليس هناك بيت أحقّ بهذا البساط إلا بيتك.

وافق الجميع وألحوا عليه، ونهض عمر، وقف على البساط الناعم الغريب، أحس بأنه يفصله عن الرمل الذي تعود أن يقف عليه، الرمل يكون أحيانا ساخنا، وأحيانا باردا، ولكن هذا البساط نسيج وحده، عالم صغير له حدوده، يحيط به، يعزله عن كل ما تعود عليه وما ألفه، أحس عمر بأن بيته فقير؛ أثاثه مصنوع من جريد النخل، وثيابه خشنة مغزولة من صوف الغنم ووبر الإبل، وطعامه

قليل؛ ثريد وتمر وماء غير سائغ. للحظة قصيرة فكر عمر أنه قد قتر كثيرًا على نفسه وعلى الآخرين وأن انتظاره الممض للفردوس السماوي يجب ألَّا يحرمه من متع الفردوس الأرضي.

كان متعبا من سنوات النضال الطويلة، وبعد أن أصبح أميرا وراعيا مسئولا، ألا يحق له أن يلتقط أنفاسه قليلا؟ ونظر عمر حوله في وجوه الناس التي كانت تباركه وتوافقه وتهلل له، ولكنه فوجئ بينها بوجه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يتقدم نحوه ويقول له: يا أمير المؤمنين، ليس لك في الدنيا إلا ما أعطيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت، وإنك إن تبقه اليوم على هذا لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له.

خجل عمر بن الخطاب من لحظة الضعف العابرة، وقال موافقا: صدقتني ونصحتني.

وأمر الناس فأخذوا البساط من أمامه وقسموه إلى قطع صغيرة وفرقه بين الجميع، وعادت قدماه تقفان على الرمل الساخن والرمل البارد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

القميص الممزق

على أبواب «توج» خاض عاصم بن كليب معركة غاية في الضراوة؛ فالمدينة محصنة وأساورة فارس لا يتصورون أن هذا الجيش بشكله الرث وثيابه المهلهلة يمكن أن يهزمهم، كان المسلمون ينتظمون في صفوف طويلة من الجنود الراجلين، لا يوجد بينهم إلا عدد قليل من الفرسان يمتطون خيولا ضامرة، سيوفهم غير مجلوة، ورماحهم مثلومة، ورمال الصحراء ما زالت عالقة في لحاهم، ولكن حين بدأ القتال تحول هذا الجيش المهلهل إلى رعب كاسح واهتزت أسوار «توج» وتخلخلت أحجارها، والخيول الضامرة تصهل وتكر بما عليها من فرسان، ولم يأتِ آخر اليوم، إلا وكانت أبواب «توج» مفتوحة تحوطها جثث القتلى الكثيرة العدد الثقيلة الرائحة.

كانت «توج» هي المدينة التي اكتنز فيها الفرس كل النفائس التي هربوها من المدن الأخرى، ولكن ابن كليب لم يكن يهتم بتلك الكنوز، كانت لديه مشكلة خاصة؛ فالقميص الوحيد الذي يرتديه قد تمزق. كان قد عبر به كل السهوب الفارسية وواجه هجوم الفيلة وأصابته ضربة رمح نجا منها بأعجوبة، ولكن في هذه المعركة أمسك أحد جنود الفرس بخناقه وجذب القميص قبل أن يتمكن عاصم من طعنه، ومات الفارسي، ولكن القميص كان قد تمزق نهائيًّا ولم يعد صالحا للبس.

انتحى عاصم جانبا من ميدان المعركة وأخذ إبرة وسلكا وحاول أن يخيط القميص، لكن قماشه كان متهرئا غير صالح للبس، ورفع عاصم عينه في ضيق، رأى جثة الجندي الذي صرعه، كان قميصه جيدا، رغم أنه ملوث بالدم وبه مزقة من أثر الطعنة ولكنه أحسن بكثير من قميصه، وتردد قليلا ثم فكر في نفسه: وماذا يفيد الميت من هذا القميص؟

نزعه من الجثة، ولم ينسَ أن يغطيها بقميصه الرث، ثم ذهب إلى الماء وغمس فيه القميص، وضربه بعد ذلك بين حجرين حتى تبدد كل ما فيه من آثار الدم، وظل جالسا بجانبه حتى جفَّ تمامًا وأصبح صالحا للبس، كان بقية الجنود قد جمعوا الغنائم التي وجدوها في المدينة وكوموها في كومة كبيرة وسط الجيش، وقام قائد الجيش مجاشع فحمد الله وأثنى عليه ثم صاح فيهم: أيها الناس لا تخفوا غنائم المسلمين، فإن من فعل ذلك جاء بما خفي يوم القيامة، ردوا ما أخذتموه ولو كان المخيط.

وتقدم بعض الجنود يلقي كل منهم ببعض الأسلاب التافهة التي احتفظوا بها لأنفسهم، وتقدم عاصم بن كليب وخلع القميص من على بدنه ووضعه بين الأسلاب، وعاد للصف عاريا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

عين الماء

ضاع الجيش في صحراء الدهناء، نفد الماء من القراب حتى القطرة الأخيرة، ثم هبطت عاصفة رملية فشردت الإبل بما عليها من متاع وزاد، وامتدت الصحراء مثل فخ من المستحيل الخلاص منه. ولم يخيم الغم على قوم مثلما خيم على أفراد هذا الجيش الذاهب لمحاربة أهل الردة في البحرين، كان في المقدمة أبو العلا الحضرمي مريضا يتحامل على نفسه، وبجانبه صاحبه أبو هريرة يعانيان معًا من الجوع والعطش، كانوا يرتعدون تحت برد الليل، ويصطلون تحت وهج شمس النهار، ويخوضون متاهة من الرمال الجدباء لا قوت فيها حتى للغربان، وعندما بدأت تباشير الفجر، ووقف أبو العلا الحضرمي يخطب فيهم قائلا: أيها الناس لا تراعوا ولا تجزعوا، ألستم مسلمين؟ ألم تخرجوا في سبيل الله؟ الله إذن يتولاكم وهو رحيم بكم.

نادى المؤذن لصلاة الفجر، كان في الجنود من بقي على طهوره من الليلة الماضية، ومنهم من تيمم بالرمل، وجثوا جميعا على جباههم يصلون، وبدأت الشمس رحلة صعودها فواصلوا السير ثم توقفوا جميعا في عجز، وقال أبو هريرة: نحن في حاجة إلى معجزة.

واصلت الشمس ارتفاعها، ولمعت على حافة الأفق لمعة مليئة غريبة، قالوا لبعضهم: لعن الله السراب، وظلوا هامدين، ثم لمع السراب مرة أخرى، صعد رجل ما فوق تل مرتفع، وصاح بأعلى صوته: ماء، ولكن دليل الجند وهو أعرف أهل البلاد بها قال ساخرا: ماء وسط الدهناء، كالثلج في أتون الجحيم. ولكن الرجل هبط من فوق التل وأخذ يعدو كالمجنون، لم يكن يسعى وراء سراب هذه المرة، كانت هناك عين ماء حقيقية تنبثق من الصخر الصلد وتسيل في ينبوع عذب، وأحس سهم بأن الحياة تعود إلى عروقه، وأخذ الجنود يملئون قربهم الجلدية وبعد برهة ارتفع غبار في الجو، ونظر الجنود في حذر خوفا من أن يباغتهم هجوم، ولكن الإبل التي كانت قد شردت عادت بما عليها من أحمال لم يفقد منها شيئًا. وواصل الجيش سيره، ولكن أبا هريرة تذكر فجأة أنه نسي قربته الجلدية الوحيدة بجانب الماء، فقال له سهم: أنا أهدي الناس بهذه البلاد، دعني أعدْ بك إلى عين الماء. وانتهزوا فرصة راحة الجيش ثم عادا معًا، هبطا إلى نفس الوادي، ولكن لم تكن هناك عين ولم تكن هناك قطرة واحدة من الماء، وهتف سهم في حيرة: هذا هو المكان وأقسم على ذلك، نفس الصخور، ونفس الجبال، اللهم لا ماء.

تلفتا حولهما في حيرة، أشار له أبو هريرة، كانت قربة الماء موجودة، ما تزال مملوءة بالماء، تمامًا كما وضعها أبو هريرة على حافة الغدير، اللهم ليس هناك غدير، وصمت أبو هريرة قليلا ثم قال: كنت أعرف أنه لا توجد عين في هذه المنطقة، وأن ما سقينا منه كان آية من آيات الله.

وعادا أدراجهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ثماني مرات خالدة

صاح الجنود في حزن:

وقع أعشى همدان أسيرا.

كان شاعرا فحلا، يجيد اللعب بالسيف، ولكن السيف خذله هذه المرة، أسره «الديلم»، وأخذوه إلى موقعهم وسط جبال الأهواز، وظل الجيش المسلم الذي يقوده الحجاج عاجزا عن استنقاذه.

اعتقد الديلم في البداية أنه قائد الجيش، انخدعوا بجسمه الضخم، كأن ثورًا بريًّا تفوح منه رائحة نفاذة، خليط من دم القتلى وتراب المعارك وقطرات العرق، وضعوا في يديه وقدميه أقوى القيود ثم حبسوه داخل غرفة مغلقة مليئة بالقش وروث الخيل، وبعد أن تأكدوا أنه ليس القائد تبدد خوفهم منه ونظروا إليه باحتقار، ثم سمحوا له بفرصة صغيرة يخرج فيها من محبسه ليتجول قليلا ويتنفس الهواء النقي. بالطبع كان يفكر في الهرب، وفرصته الوحيدة أن يفعل ذلك خلال التجوال؛ لذلك ظل يدور حول نفسه في فناء المعسكر وسط نظرات الجنود المعادية، كانوا قد خسروا الكثير من المعارك، ولم يجدوا سوى هذا الأسير ليصبوا عليه كل نظرات الكراهية، كيف يستطيع الهرب وهو محاصر هكذا؟ لا بد من وسيلة أخرى.

كانت هناك عينا امرأة تتابعانه من خلف خيمتها، كان قد لفت أنظار ابنة قائد الديلم، تبعت أباها عبر ميادين القتال حتى ملت الحرب والجنود، ذاقت منهم ما استطاعت، ثم مجتهم جميعا، ولكن ذلك الرجل الغريب استحوذ على اهتمامها، أثارتها رائحته الغريبة، وأحست بجوع ممض لا بد من إشباعه، وبعد ليالٍ طويلة من الأسر فوجئ بها تتسلل إلى محبسه، اقتحمت رائحتها العطرة رائحة الروث الذي يحاصره، قالت له: هأنذا بين يديك، ابنة القائد الذي أسرك، فماذا تريد؟

قال: وماذا يريد الأسير غير الهرب؟

قالت: لن يكون ذلك إلا بشروطي.

أهدت للحارسين اللذين يقفان بالباب زقًّا من الخمر فيه مادة مخدرة، ويبدو أنها كانت زائدة بعض الشيء، فقد تعالى شخيرهما بوضوح. كان الوقت وقت حرب، والصفقات بين الأعداء لا تأخذ وقتا طويلا حتى تتجز، وعندما أصبحت بين ذراعيه لم تشم رائحة الروث ولكن رائحة برية لم تجربها من قبل، هناك صهد حار من الصحراء يندفع إلى داخلها ويملأ عروقها بالتوهج والدفء، ويجعل جسدها لا يكف عن الانتفاض، لم تكن بالفتاة الغريرة، كانت دائمًا ما تحسن الاختيار من بين قواد أبيها ومساعديه، ولكن طعم هذا الرجل كان مختلفا.

أخذت تلهث في كل وضع، لا تجد الفرصة لتلتقط أنفاسها، وهو أشبه بتمثال صخري لإله قديم لا يكل، ولا ينضب معينه، أحست كأن عشرات العواصف الرملية تعصف بجسدها، ترفعها إلى أعلى فتوشك أن تلامس الشمس المحرقة، ويهبط به لأسفل فتشهق كأنها في عمق محيط، لم يكن رجلا، كان ثورًا حقيقيًّا، يخور فلا تدري من أين ينبعث هذا الصوت، منها، أم منه، أم من الحارسين النائمين.

تقول له: تمهل.. جسدي يتحلل، أعضائي تتفكك، دعني أسترح قليلا.

لم يسترح ولم يترك لها فرصة للراحة، أصبح جسدها الميدان الذي يجيد القتال فيه دون احتمال أن يقع في الأسر، كانت قد بدأت معه رحلة شاقة، كلما سكنت قليلا لتأخذ أنفاسها واصل هو الرحيل في تضاريس جسدها من جديد، أقبل الفجر عليهما والحارسان ما زالا نائمين، وكان قد فعلها ثماني مرات. أجل، ثماني مرات كاملة، وهتفت الفتاة الديلمية في انبهار حقيقي: أهكذا تفعلون دائمًا بنسائكم؟

قال أعشى همدان في تواضع يحسد عليه: أنا أقلهم شأنا.

قالت وقد آمنت بقدرات العِرق الذي ينتمي إليه: بهذا التفاني في العمل، والرجوع بعد كل شدة، انتصرتم وسادت جيوشكم، أرأيت إن خلصتك من هذا فهل تصطفيني لنفسك؟

قال: لتكن تلك فديتي، وسأوالي دفع أقساطها.

وخلصته من الأسر، هربت معه إلى قومه في وسط الصحراء، وظل يدفع الفدية ردحا من الزمن، ولكن أقساطها تراجعت مع مرور الوقت، فصارت سبعًا.. ثم خمسًا.. فثلاثًا فواحدًا، ثم صار الأمر إلى ما صرنا إليه جميعا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

شهادة الحمير

ما إن ينتهي موسم الحج، حتى تتبدل الحياة تمامًا في بيت سعدون في أطراف مكة، تختفي غرار القمح والتمر والشعير، ويمتلئ البيت بدنان من نقيع التمر والزبيب، تصمت أصوات المساومة وعقد الصفقات، وتعلو أصوات الدفوف والغناء، وظلت الأمور تجري بصورة طبيعية حتى اكتشف أحد رجال مكة الموسرين أن زوجته تضع له مخدرا في الماء كل يوم ثم تتسلل لتقضي الليل كله داخل بيت سعدون. للحق إنها لم تكن تتقاضى نقودا، كل ما في الأمر أن الليل كان طويلا عليها أكثر مما ينبغي، وفراشها كان باردا أكثر مما تطيق، وحاجتها للصحبة أكثر إلحاحا. اكتشف الموسر أن الجميع كانوا يعرفون بتلك الرحلات الليلية ما عداه، ولم يعد يمكنه السكوت، وسار للوالي وهتف به أن سعدون الخمار يجمع الرجال والنساء في بيته، ويسعى بينهم بالشراب وهذا لا يليق بالبلد الحرام، إما أن يغادر البلدة وإما أن أشكو للخليفة في الشمال.

أرسل الوالي فأحضر سعدون الخمار، كان نحيلا قصيرا لا يكف عن الانحناء، وبالطبع أنكر سعدون أن أحدا يأتي إليه مرغما، وأن كلهم ضيوف وأصدقاء لا يجمعهم إلا حب البهجة، وأن الوالي يمكنه أن يأتي ويجرب بنفسه. لم ينخدع الوالي بكلامه، ولم يكن يستطيع أن يستجيب لدعوته، وأمره أن يبتعد عن مكة وألا يعود إليها مرة أخرى، وبكى سعدون في حرقة وهو يهتف: وإلى أين أذهب وليس لي أحد في الشام أو العراق؟ لو خرجت من هذا المكان لضاقت عليَّ الأرض.

وأشفق الوالي عليه قليلا، ولم يدرِ إن كان سيحتاج لخدماته مستقبلا أم لا، أمره أن يبتعد قليلا، يقيم في «عرفات» التي تظل خالية معظَم العام، ولا يدخل مكة أبدا. وخرج سعدون وبنى دارا أخرى في عرفات، وظل ساكنا لمدة طويلة لا يسمع عنه شيئا. ثم لم يعد يطيق الكساد أو لعله كان ينتظر حتى تتعتق الخمور في دنانه أكثر، تنكر وتسلل إلى مكة، قابل الندماء القدامى ورفاق الحظ والسهر، طلب منهم أن يحضروا إلى بيته، ولكنهم هتفوا به: أين نحن من عرفات؟

قال ببساطة: استأجروا حمارا بدرهم، نزهة على الطريق يعقبها مجلس أنس وطرب.

وهكذا دخلت الحمير في القصة، وبدأ أهل الأنس في مكة يعرفون قيمة هذا الحيوان المتواضع الصموت، وانتظمت الرحلات من مكة إلى عرفات بلا توقف، ما إن تخف حدة القيظ حتى ينشط كل مكاري مكة؛ يزينون حميرهم ويعطرونها في انتظار زبائن سعدون، أما الزوجة إياها فقد اشترت كمية جديدة من المخدر، وأوصت كل الزوجات الملولات بأن يفعلن مثلها، وبدأ الأزواج يلاحظون، حين عودتهم في المساء، وجود حمير صغيرة مزينة بالورد واقفة بجوار جدران منازلهم دون سبب واضح، ورغم أنهم كانوا يواصلون النوم لفترات أطول، فإنه كانت تسود بيوتهم سعادة زوجية غامرة، وفي الوقت الذي كانت فيه مكة تغوص في عالم الأحلام، كان الأنس يشتعل في التلال القريبة، حتى بدأ الأزواج يألفون منظر الحمير، وأخذت آذانها الطويلة تتراءى لهم في أحلامهم.

ولكن إحدى الزوجات وقعت ذات ليلة من فوق ظهر أحد الحمير، وأصيبت في مؤخرتها بشكل مباشر، ولاحظ الزوج أن مؤخرة زوجته قد أصبحت غريبة الشكل، مفلطحة، وعليها العديد من الندوب وآثار الأظافر والسجاجات، ضغط عليها ليعرف السبب، هددها بالطلاق فلم ترتدع، هددها

بالقتل فهزت كتفها وغطت مؤخرتها، ولكن حين لمع نصل السيف في يديه اضطرت لأن تعترف له بكل شيء، ومرة أخرى ذهبوا يصرخون للوالي، لم يعودوا زوجا واحدا ولكن أزواجا. وتذكر الوالي بصورة غائمة أنه رأى أحد هذه الحمير بجانب جدار بيته، فاستدعى سعدون الخمار على الفور وصرخ في وجهه: يا عدو الله، طردتك من حرم الله فسرت بفسادك إلى المعشر الأعظم، هل من المحتم عليك أن تنجس كل أرض تطؤها؟

ولكن سعدون كان أكثر جراءة هذه المرة، لم يكن هناك شهود صرحاء، وكان بعيدا عن عيون الشرطة والمتلصصين، قال بقوة: هذا كذب، من المؤكد أنهم يسهرون في منزل آخر غير منزلي، فأنا طوال الليل متفرغ للدعاء.

وتدخل آمر الشرطة، وكان عليما بأساليب البحث والتقصي: دعوا الحمير تنطلق وحدها إلى عرفات بلا أدلاء، ولنرَ إلى أي بيت سوف تتجه.

صفوا الحمير وأطلقوها ثم تبعوها، سارت وسط الشعاب والهضاب، ولكن وجهتها كانت واحدة مهما اعترضها من عقبات، توقفت كلها عند بيت سعدون ووقفت وأخذت تنهق في صوت عالٍ كأنها تدلي بشهادتها ضده، وصرخ الوالي وقد تعرف فيها على حمار محدد:

- ما بعد شهادة العجماوات من شيء، جردوه من ثيابه واجلدوه.

ونظر سعدون إلى السياط في جزع وهتف: لا بد أصلحك الله من ضربي؟

قال الوالي: نعم، يا عدو الله.

قال سعدون: والله إني لست خائفًا من الجلد، ولكن خائفًا أن يشمت فينا أهل العراق والشام ويضحكوا علينا ويقولون إن أهل مكة يقبلون بشهادة الحمير.

وزفر الوالي في غيظ، أشار لهم أن ينزلوا السياط، وأمر ألا تدخل الحمير إلى مكة من هذه اللحظة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غراس الجنة

على الجانب الشرقي للنيل يمتد جبل المقطم مثل قيد صخري، لا يمنح النهر اتساعه ولا الوادي حريته إلا فيما ندر، ترتفع حافته الجيرية في شموخ آفل، وتتراكم صخوره في تحفز عابس، ومهما ارتفعت تلال المقطم انخفضت، فلا تجرؤ شجرة ولا زهرة أن تنبت بين صخوره أو تخفف قليلا من تجهمه، لا يخفف من ذلك إلا امتداد الوادي من تحته ممتلئا بالخضرة الصافية ومياه النيل المباركة.

فهل كان هذا الجبل متجهما هكذا على الدوام، وهل يبقى جاثما كأنه لعنة قديمة؟ النبوءات الغامضة تعد له مصيرا طيبا كأنها تعوضه عن سنوات الجفاف الطويلة، بل تعتبر الجزء الأكبر منه الذي يمتد من القصير حتى البحر الأحمر أرضا مقدسة.

عندما فتح عمرو بن العاص مصرَ سار إلى سفح هذا الجبل ومعه المقوقس الحاكم السابق، كان قد سلم الحصن بلا قتال، وفضل أن يعقد الصداقة مع القادمين الجدد، فالحكام يأتون من الخارج دائمًا، ومهما كان عرقهم أو سلالتهم فهم يأتون ليعلوا ويتمكنوا، ولكن عمرو كان قد فوجئ بشكل الجبل المتجهم، وعروق الصخر التي تشبه تجاعيد الزمن، قال: ما لجبلكم هذا أجرد؛ لا تكسوه خضرة، ولا يطلع من فجاجه نبت أو ثمار كجبال الشام، فلماذا لم تشقوا أسفله نهرا من النيل وتغرسوا فيه نخلا؟

قال المقوقس: وجدنا في الكتب القديمة أنه كان أكثر جبال مصر أشجارا ونباتا وفاكهة، فلما كانت تلك الليلة التي كلم الله فيها موسى أوحى الله إلى كل الجبال أني الليلة مكلم نبيًّا من أنبيائي على جبل منكم، فتشامخت كل الجبال إلا جبل بيت المقدس فإنه هبط وتصاغر إعظاما وإجلالا لله، فأمر الله سبحانه وتعالى كل الجبال أن يعطوه جزءا مما عليها من نبات وأشجار، فجاد له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى أصبح كما ترى، وأوحى الله إليه أني معوضك على فعلك هذا بشجر الجنة.

قال عمرو: ولكن أشجار الجنة لم تنبت بعد.

وبعد عدة أشهر عاد المقوقس لمقابلة عمرو بن العاص مرة أخرى، وهذه المرة لم يكن يملك الأرض، وفقد أيضًا سيطرته عليها، كان فقط يريد أن يشتري سفح المقطم بسبعين ألف دينار، وعجب عمرو من هذا الثمن المرتفع وكتب بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي رد قائلا: سله لماذا يدفع هذا الثمن وهي أرض جرداء لا تستنبط ولا ينفع فيها زرع؟

ومرة أخرى عاد المقوقس يؤكد لهم: إننا لنجد صفاتها في كل الكتب القديمة، سوف يكون فيها غراس الجنة.

وكتب عمر بن الخطاب يرد عليه قائلا: إنا لنعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين، فأقبر فيها من مات من المسلمين ولا تبع للمقوقس شيئا.

وتحول سفح المقطم إلى أول مقبرة للمسلمين في مصر، وما زال جبل المقطم ينتظر غراس الجنة، غارت النجوم على هضابه، وهرب السلاطين إلى مغاراته في الليالي المظلمة، وما زال الكثيرون ينتظرون عودتهم ليومنا هذا. سهر الدراويش في التكايا وهم يبتهلون من أجل لحظة مضيئة، وبكى المتصوفة من شدة الوجد، واختبأ المتمردون والقتلة وقطاع الطرق، وامتلأ سفحه بالمقابر التي سكنها

الموتى، وبالأحياء شبه الموتى، وبالعشاق والشعراء، والفتيات اللواتي يحلمن بالعرس والزفاف وسط زهور الصبار، والتلاميذ يراجعون دروسهم بين شواهد القبور، والأرواح شاردة لا تجد لها مستقرًّا، والضباع والكلاب المسعورة وبنات آوى تلعب مع الأطفال في الساحة الترابية نفسها، تراب من شذرات العظام المتحللة، والنفوس الذائبة.. وما زال المقطم ينتظر غراس الجنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

ثمن البكاء

لم يحل منتصف يوم الجمعة إلا وكربلاء غارقة في الدم، ولم ترتوِ سيوف جيش يزيد بن معاوية بعد، سقط الحسين بن علي، انطفأت شمس، وأظلم جزء من قلب الكون للأبد، ناوشوه بالرماح طويلا، وظل هو بينهم يتخبط في دمه، تذكر فجأة كلمات الفرزدق الشاعر حين قابله في عرض الصحراء، قال له: الناس قلوبهم معك وسيوفهم عليك. ها هي السيوف تحاصره، ولكن كل واحد خائف من التقدم والإجهاز عليه، ينتظرون أن يأتي رجل ذو قلب ميت مثل «ذي الجوشن» ليفصل رأسه عن جسده، ويجعل جوادًا يدعى الأعوجي يطأ جسده الملقى بحوافره، يهين جسد سبط الرسول الصريع وينزع عنه رهبته وقدسيته.

تناثرت الجثث في كل مكان، وأخذوا يحصون القتلى من أقارب الحسين وأنصاره، وصاح واحد منهم: أين ابنه علي؟ كيف نجا من القتل وقد حصدت السيوف الجميع؟

لم يشارك علي بن الحسين في المعركة رغم أنه كان حاضرا، كانت الحمى تعصف بجسده النحيل وهو راقد في خيمة صغيرة على جانب من الوادي، يصل إليه صليل السيوف وتأوهات الجرحى، وهو عاجز عن الحركة، ظلوا يبحثون عنه حتى اهتدوا إلى خيمته، اقتحموها ودم الأهل ما زال يقطر من سيوفهم، ارتفعت لتهوي عليه، ولكن قائدهم «عمر بن سعد بن أبي وقاص» لاحظ ارتعاد الجسد المحموم، قال لهم: لا تعرضوا لهذا المريض، ربما تكفلت الحمى به دون أن يحملنا ذنبه.

كانوا قد نالوا كفايتهم من القتل في ذلك اليوم المروع فتركوه في خيمته، ولكن واحدًا منهم فضل البقاء بجانبه، أخذ يتأمله ثم يبكي في حرقة وهو يهتف: «يا سيدي وابن سيدي..عفوك»، كان يعرف أن هذا المريض قد خسر كل ما لديه، وهذه السلالة الطاهرة قد أبيدت، وهذا المريض هو خيط الدم الباقي منهم.

كان خائفا من أن يعود جنود بني أمية بعد أن يراجعوا أنفسهم، حمله بعيدا عن الخيام التي دارت حولها المذبحة، وخبأه بالطرف الآخر من الوادي، وعندما أفاق علي بن الحسين، كان الرجل ما يزال يبكي وهو يردد: يا سيدي وابن سيدي.. لم يعد في الدنيا خير، وإن تكن هناك بقية باقية فهي أنت.

ثم انصرف ليعد له القليل من الطعام، ولم يكن في الجسد المنهك بفعل الحمى والحزن أي شهية، ولكن الرجل لم يكن يكف عن البكاء، وإظهار الندم أمامه، وبعد أيام كانوا قد تعرفوا على كل القتلى، وأدرك ابن زياد والي الكوفة أن نصر بني أمية الفادح لن يستتب، إلا إذا كان عليٌّ بين القتلى، فأرسل المنادي وهو يصيح في الناس: من وجد عليَّ بن الحسين فليأتِ به وله ثلاثمائة درهم.

ودخل الرجل الخيمة وهو ما زال يبكي، تطلع إلى عليٍّ الراقد وهو يقول: ألا ما أبخس الثمن، وهل هكذا يُشترى الأطهار؟

وانحنى عليه وأخذ يربط يديه وهو يبكي، ثم ربطها إلى عنقه وهو يبكي، وعندما رأى عليًّا يتطلع إليه في دهشة وخوف، قال وهو يجفف دموعه: يا سيدي وابن سيدي لا أفعل هذا من أجل المال، فهو قليل، وإنما خوفي من ابن زياد عظيم.

ثم ربط قدميه وهو يبكي، حمله على كتفه إلى الخارج، ألقاه أمام حراس ابن زياد وأخذ يعد ثلاثمائة الدرهم بحرص، ثم ألقى على ابن الحسين النظرة الأخيرة وبكى بحرقة.

سار الحرس بعليٍّ إلى الشام، وعفا عنه الخليفة يزيد بن معاوية، وعمر طويلا ولكنه لم ينسَ قط ذلك الرجل الذي باعه باكيا بدراهم بخسة، وكان يقول:

«أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح حبكم لنا ورثاؤكم لنا حتى صار علينا عارًا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطوبة

في لحظة الاحتضار، تذكر الحسن بن عليَّ رؤيا غريبة، كان جسده الواهن يقف على الشعرة الفاصلة بين حافة الحياة وهوة الموت، يسبل عينيه فيستشف كل الرؤى الخفية واللحظات التي لم تأتِ بعد، كأن الموت المتأهب يشحذ ذاكرته ويجعلها ماضية كحد السيف، رأى «المطرف» وهو ينظر إلى زوجته فاطمة بعيون تتفجر شهوة، كان المطرف هو الاسم الذي أطلق على عبد الله بن عثمان لشدة حسنه وجماله، كان فاتنا للنساء ومثيرا لشهواتهن، وعندما رآه عبد الله يتطلع لزوجته أدرك أنها لن تستطيع أن تقاومه طويلا، وشعر بالحنق عليه، والحنق أكثر على جسده الذي أوهنته السنون، ولم يعد يسعفه على مواجهة التحدي.

يفتح عينيه كل برهة فيرى وجه فاطمة يطلّ عليه؛ وجهًا مليئًا بالحياة منقطع الحسن لا نظير له بين نساء قريش، من المؤكد أنها كانت مخلصة له في حياته، ولكن ماذا يفعل هذا الجسد الفتي المفعم بالرغبة بعد أن يرحل هو؟ تأوه وقال في حسرة: أواه يا فاطمة، أنت حقًّا امرأة مرغوب فيكِ.

هتفت فاطمة: وهل يبقي الحزن في جسدي أي رغبة يا سيدي؟

ولكن الحسن واصل الكلام كأنه يرى رؤيا بعيدة: إنني أراه قادمًا نحوك، المطرف عبد الله بن عمر بن عثمان، عندما تخرج جنازتي سوف يأتي راكبًا فرسه، لابسًا أبهى حلله، يسير الطريق ليتعرض لك وليخطبك لنفسه. هتفت فاطمة باستنكار: في الجنازة، وهل هذا أوان خطبة؟ عليه اللعنة إن فعل ذلك، وعليَّ اللعنة إن قبلت.

قال الحسن: لن أغمطكِ حقك في الحياة فهذه سنة الكون، ولكن انكحي من شئت من الرجال سوى عبد الله هذا؛ فقد حز في نفسي نظرته إليك، أقسمي لي على ذلك فإنني لا أحمل من الدنيا سوى همك أنت. وأقسمت فاطمة، صادقة ومخلصة، وأغمض الحسن عينيه في ارتياح وعلت فمه ابتسامة الموت الراضية، وصرخت فاطمة تعلن موت سيدها وزوجها، ولكن رغما عنها كانت تفكر في هذه الرؤيا الغريبة.

كانت الجنازة حارة، لم تترك أحدًا في مكة إلا سار فيها، وفاطمة تسير وسط النسوة في مقدمة الصفوف، تلطم خديها في عنف ولوعة، وجاء المطرف راكبًا فرسه ولابسًا أبهى حلله، ووقف إلى جانب الطريق ينظر إليها، وحين رأته فاطمة استيقظ في جسمها شيء، ولكنها تذكرت قسمها فواصلت اللطم، وظل الموكب يسير، ولا تدري كيف أصبح بجانبها، وكيف سمعت كلماته واضحة رغم الصرخات العالية وهو يقول لها: ارفقي بوجهك من اللطم، إن لنا فيه لحاجة.

فاسترخت يداها، وتوقفت عن اللطم وأسدلت خمارها على وجهها، وواصلت الجنازة سيرها، كما تتواصل الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مكان للرأس المقطوع

عندما توجه الخليفة معاوية بن أبي سفيان للحج لم يكن يدري أن في انتظاره زواجا جديدا، كان موسم الحج هو فرصته لتآلف القلوب بينه وبين القبائل المعارضة، يعدهم وعودا غامضة، ويحصل في مقابل ذلك على تأييدها وتجديد بيعتها، وعندها أخبروه عن «لبنى» من بني شيبان، تلك التي يفوق جمالها أي امرأة أخرى، وكيف أنها أجمل لبنى عرفتها العرب، طلب الزواج بها على الفور، كانت فرصة يستميل فيها هذه القبيلة القوية، ويمتع نفسه في ذات الوقت.

وعندما تم الزواج، وكشف معاوية النقاب عن وجهها لم يصدق عينيه، كانت كل الأقوال التي سمعها عاجزة عن وصفها، لمس خدها وشفتيها، ورأى تكور صدرها ثم أمسك نفسه بصعوبة، لم يكن يستطيع الدخول بها إلا في الشام، كان الخليفة القوي لا يستطيع أن يأخذ خطوة من هذا النوع دون الحصول على موافقة زوجته الأولى وأم ابنه «يزيد»، أمرها أن تسدل على وجهها نقابا سميكا، وألا تجعله يشم العبق الفتيَّ المنبعث من جسدها. عندما وصل إلى الشام أسرع إلى «أم يزيد» قائلا: ادخلي فانظري إلى ابنة عمك هذه، لن أدخل بها إلا بعد أن أتبين رأيك، وأرضى بحكمك.

كبتت «أم يزيد» مشاعر الغيظ والغيرة، ودخلت إليها، أحست لأول وهلة بالسحر المنبعث منها، ولكنها هتفت فيها ببرود: اخلعي رداءكِ.. أريد رؤيتك عارية تمامًا.

وكتمت أنفاسها والجسد الرائع يكشف عن ضوئه الداخلي، لم تستطع أن تتأملها وهي واقفة، وجدت نفسها تجلس وفي حلقها غصة، أدركت أن الطبيعة لم تمنحها شيئا يذكر، ضنت عليها بذلك الفيض من الأنوثة، وأن الخليفة لو ذاق هذا الجسد فلن يطيق القرب منها مرة أخرى، قالت لها: اقتربي مني.. دعيني أتأمل صرتك.

اقتربت لبنى، بدا بطنها أخمص، خاليًا من أي تجاعيد أو ترهل، لم تستطع أن تمنع أصابعها من تحسُّسِها، ولكنها فجأة تنهدت في راحة، وظهرت الابتسامة على وجهها للمرة الأولى، وهي تطلب من لبنى أن ترتدي ثيابها. عادت أم يزيد مسرعة لزوجها وهي تقول: لم أرَ في مثل جمالها، ولا في رقة بشرتها، وضوء عينيها وبسمة ثغرها.. ولكن...

هتف معاوية مترقبا: ولكن ماذا؟

قالت في تؤدة: لقدرأيت خالًا تحت سرتها، ولقد سمعت عرافة في وادي عبقر تقول: إن أي امرأة تحمل مثل هذا الخال ليوضعن في حجرها تحت مكانه رأس زوجها المقطوع.

تحسس معاوية رقبته في قلق، ربما كان الأمر لا يعدو خرافة من الصحراء، أو مخيلة امرأة غَيْرَى، ولكن الملوك أولى بالحرص، فالخرافات كالحقائق توهن العروش، ولم يجد معاوية بُدًّا من أن يكتم رغبته، وطلقها على الفور دون أن يمسها.

ولكن المشكلة أنه لم يكن يستطيع إعادتها للصحراء مرة أخرى؛ فطلاقها بعد هذه المدة القصيرة سيعد إهانة لا تغتفر لقبيلتها من بني شيبان، وقد ينقلبون ضده وينضمون إلى أعدائه من العلويين طالبي

الخلافة. نهض وطلقها في الحال، ولكنه وفر لها سكنا ومعاشا وأبقاها في الشام حتى يجد الزمن حلًا لمشكلتها.

وجاء هذا الحل عندما رآها النعمان بن بشير في سوق الحرير بدمشق، من النظرة الأولى أخذ بتألق عينيها، ومست بجمالها شغاف قلبه فأخذ يهذي بالأشعار، كان شاعرا مقربا من الخليفة، يحارب أعداءه بالكلمة كما يحاربهم الخليفة بالسيف، ولكنه منذ أن فتن بلبنى وقد خصص كل أشعاره لها، أعلن عن رغبته في الزواج بها، ولكن كل الذين يعرفونه حذروه قائلين: هذه امرأة مشئومة، كانت عند معاوية بن أبي سفيان وطلقها خوفا من شؤمها.

حكوا عن نبوءة الرأس المقطوع، قال باستهانة: وأي فائدة تجنى من قطع رأس شاعر؟

ولم يكن من سبيل إليها غير الذهاب مباشرة إلى معاوية وطلب يدها منه، وتنهد الخليفة في ارتياح، حلت المشكلة دون أن تخلِّف ضغائن، قال له: هي لك، ولك أيضًا ولاية على حمص مهرا لها، فخذ عروسك إليها.

أصبح الشاعر واليا، فكيف يكون هذا الوجه شؤمًا على أحد؟ أخذها إلى قصر جميل من بقايا أيام الرومان، وسبحا عاريين في بحيرة تغطيها أزهار الزنبق، ورأى الخال عند سرتها مثيرا لشهوة لا تهدأ، وكفَّ عن الشعر بعد أن هدأت في القلب لوعته.

لكن الزمن كدأبه كان متقلبًا، وطالبو الخلافة لا يكفون عن ملاحقة بني أمية، كانوا كثيرين، ولكن أخطرهم كان عبد الله بن الزبير، فارسًا من فرسان قريش المعدودين، أبوه الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة زوجة الرسول، وكان الطفل الأول الذي يولد للمسلمين بعد هجرتهم للمدينة، وقالت اليهود إن المسلمين أصابتهم لعنة العقم، ولن يكون لهم نسل ولا ذرية، ولكن الزبير جاء ليكذبهم، وحمله الرسول بنفسه فرحا ومتباهيا، وعندما كبر شارك في معركة اليرموك، وناصر خالته عائشة في موقعة الجمل، وكان ضمن الجيش الذي فتح مصر وتوغل في شمال إفريقية، وعندما مات الحسين في كربلاء كان من الطبيعي أن ينهض ويطالب بالخلافة لنفسه، التف حوله كل المعارضين القدامى، بايعه كل الذين في مكة، وجاءته بقية المبايعات من العراق واليمن ومصر، انتشرت دعوته مثل ريح عاصفة، وأصبحت سلطة بني أمية محصورة في بقعة صغيرة ببلاد الشام.

ولم يملك النعمان بن بشير إلا أن يمضي مع الريح العاصفة إلى مداها؛ خلع بني أمية وأعلن مبايعته لابن الزبير وأدخل حمصًا في طاعتهم، ولكن أنياب بني أمية لم تكن فد فقدت حدتها، وكان يقود الجيوش قائد مروع هو الحجاج بن يوسف الثقفي، لم يشغل باله طويلا ببيعة الأقطار المتفرقة، ولكنه توجه مباشرة إلى منبع العواصف، حاصر ابن الزبير في مكة، وعندما وجده يحتمي بالكعبة ضربها بالمنجنيق،وأسقط أحجارها دون أن يأبه بأي قدسية، وحين حاول أنصار ابن الزبير التسلل والهرب ذبحهم جميعا، ثم قتل ابن الزبير، ومثَّل بالجسد الذي باركه الرسول أمام عيني أمه.

وأحس النعمان باقتراب جيوش بني أمية من مدينته حمص فبادر بالهرب، ولكن أهل حمص كانوا له بالمرصاد، يريدون أن يثبتوا ولاءهم للحجاج الذي لا يرحم، راقبوا كل الطرق المؤدية إلى قصره،

وعندما شاهدوه خارجًا مع زوجته انقضوا عليه، غاصوا بسيوفهم في جسده ثم قطعوا رأسه وأرادوا أن يعلقوه فوق رمح طويل يطوفون به أرجاء المدينة، ولكن الزوجة كانت تبكي، توسلت إليهم: ألقوا رأسه في حجري فأنا أحقّ بها.

استجابوا لتوسلاتها وألقوا الرأس في حجرها في نفس الموضع المحدد تحت سرتها؛ فأخذت تبكي عليه، وضمته إلى باقي الجسد وكفنته ودفنته، ثم عادت إلى الصحراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

حمائم مكـة

توجه الناس إلى مسجد المدينة ووقف عبد الله بن الزبير في وسطهم يلبس الثوب «المعافري» الخشن ويربط حزاما فوق صدره وهو يصيح: لا أريد شيئا من متاع الدنيا، إنما بطني شبر، وما عسى أن يسع الشبر؟ كل ما أريده هو العدل وعودة الحقوق لأصحابها.

كان أهل المدينة يعرفونه كما يعرفون أباه، كان صارما مثله لا يريد شيئا لنفسه، قواما لليل، مسارعا للجهاد، وكانت أنباء حياة الترف التي يعيشها بنو أمية في الشمال تثير حفيظة القلوب التي ما زالت تئن من حالة الشظف، وازداد حنقهم بعد أن أصبحت الخلافة ملكا عضوضا لبني أمية، وتولى يزيد بن معاوية الحكم خلفا لأبيه، وكان هذا الاجتماع الحاشد في مسجد المدينة فاصلا؛ فهو الذي سيحدد موقف أهلها من البيعة الجديدة التي يطلبها يزيد، نهض واحد من بني مخزوم صائحا: لقد وصلني يزيد وأحسن جائزتي، ولكنه عدو الله سكير خمير، وإني أخلعه كما خلعت عمامتي، وخلع العمامة. فنهض ثانٍ يصيح أنه يخلع يزيد كما يخلع نعليه، وخلعه ثالث كما خلع ثوبه، ورابع كما خلع خفيه، حتى كثرت العمائم والنعال والخفاف، وأصبح هناك خليفة جديد هو عبد الله بن الزبير، وبدأت الأرض التي اجتاحتها جيوش التوحيد في التصدع تحت وطأة الخليفتين، وبدأت أيام القسمة والشقاق التي لم تنتهِ حتى اليوم.

بدأت جيوش بن الزبير تقتطع كل يوم جزءا من جسد الدولة الأموية، انشقت الحجاز ثم أطراف العراق ولم يبقَ إلا أن تثب وثبتها النهائية إلى قلب الشام. وبعث يزيد بعشرة من أهل الشام كانوا يسمونهم «النفر الركب»، مهمتهم هي البحث عن حل مع ابن الزبير، وصلوا إلى مكة ودخل كبيرهم عبد الله بن عضاة إلى ابن الزبير الذي كان معتصما في حجر الكعبة وقال له بطريقة مباشرة: يا ابن الزبير إني أعرف أنك خرجت للحق ولكن هذا ليس زمان الحق، ويزيد قاسٍ ويروم هذا الملك، ولن يتورع عن فعل أي شيء ليحافظ على عرشه.

قال ابن الزبير مدهوشا: ما دمتم تعرفون ذلك، لماذا تناصرونه؟

قال الرجل: نحن أهل الشام لن نرضى بانتقال العرش من بيننا إلى أي مكان حتى ولو كان الكعبة.

قال ابن الزبير: يا ابن عضاة مالي ومال الملك الذي تطمحون إليه؟ إنما أنا بمنزلة حمامة من حمائم مكة، أفكنت قاتلا هذه الحمائم؟

قال ابن عضاة: بعدما حدث في كربلاء، تحدثني عن حرمة حمام مكة، عن حرمة أي شيء؟ يا غلام آتني بقوسي وسهامي.

وأسرع الغلام فأحضر له القوس وكنانة الأسهم، فأخذ واحدة ووضعها في كبد القوس ثم صوبه نحو واحدة من حمائم المسجد وهو يهتف: يا حمامة، أيشرب يزيد بن معاوية الخمر؟ قولي: نعم، فوالله لئن فعلت لأرمينك. يا حمامة، أيأكل يزيد أموال المسلمين؟ قولي: نعم، فوالله لئن فعلت لأرمينك. يا حمامة، أتخالعين يزيدَ وتقيمين في الحرم حتى يستحل بك؟ والله لئن فعلت لأرمينك.

قال ابن الزبير: ويحك أوَيتكلم الطائر؟

قال ابن عضاة: لا، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم.

وانطلق السهم عاليا، اخترق جسد الحمامة الأبيض الضئيل وسقطت على أرض الحرم في صوت مكتوم، وفرت بقية الحمائم مبتعدة في فزع، قال ابن عضاة: كانت هذه حمامة واحدة، وعندما يأتي الحجاج لن تبقى في الحرم حمامة واحدة دون أن يرميها، حتى أنت.

نسل أشعب

سأل الخليفة أشعب بن أشعب: لماذا أسماك أبوك على اسمه؟ ألم ينجب إلا أنت؟

قال أشعب الصغير: بل أنجب الكثير.. الكثير يا مولاي.

قال الخليفة: الكثير، كم تزوج من النساء؟ هل أنجب مائة مثلًا؟

قال الابن: بل إن نسله يعد بالآلاف يا مولاي.

وعندما دهش الخليفة؛ بدأ الابن يقص قصة أبيه.

لم يكن أشعب طماعًا شرها، كان فقط ضعيف المقاومة، لا يتأكد من العالم الذي يحيط به إلا بعد أن يلمسه، أو يتذوق منه قطعة على الأقل؛ لذلك كان يمد يده دوما إلى كل كسرة خبز أو قطعة لحم أو درهم حتى ولو كان صدئا، وعندما يغمض عينيه وينام كان يمد يده من خلال فتحة في الباب لعل أحد المارة يلقي فيها شيئًا. بدأ رحلة التطفل مبكرا، ماتت أمه وهو صغير فأخذ يرضع من أثداء كل نساء المدينة، وعندما كبر أخذ يأكل على كل موائدها، وكان يمكن أن يتغير حين وجدته سكينة بنت الحسين وأخذته إلى بيتها، أرادت أن تحميه من خصلة التفضل التي توصله إلى حافة الإهانة، أطعمته وكسته وأعطته أجرا في مقابل خدمتها، ولكن هذا لم يدم طويلا.

كان زوجها يزيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، رجلًا موسرًا، كريم المحتد، ولكن مشكلته هي شغفه بالجواري، خاصة جواري الطائف؛ الأمر الذي كان يدفع بالغيرة في قلب سكينة إلى حد الجنون. وفي كل مرة كانت يتعلل بالسفر؛ كانت تحاسبه حسابًا عسيرًا وتحاول أن تجعل خط رحلته يبتعد بعيدًا عن الطائف، ولكنه هذه المرة قال لها: لقد خرج الخليفة للحج ولا بد أن أسافر للقائه.

قالت: فاحلف لي إنك لا تدخل الطائف.

فأقسم لها بكل الأيمانات ولكنها لم تقتنع، قالت: احلف بالطلاق.

قال: هذا قسم أكبر من أن أحلف به، ولكن ابعثي معي من تثقين به.

لم تكن سكينة تثق بأشعب كثيرًا، ولكنها لم تجد غيره، على الأقل كانت تعرف قوة تأثيرها عليه، وقدرتها على انتزاع الحقيقة منه إذا أرادت.

وسافر زيد وبرفقته أشعب، ولكن من الذي يستطيع أن يقاوم هواء الطائف؟ وقف يزيد وتردد قليلًا، وهتف أشعب محذرًا فأخرج له يزيد ثلاثمائة دينارٍ مرة واحدة، وهمس له: هي لك إذا كتمت السر..

ولم يكن أشعب يستطيع أن يقاوم درهمًا واحدًا فما بالنا بكل هذه الدنانير؟ كما أن سكينة كانت بعيدة وللبيت ربٌّ يحميه.

أخذ أشعب الدنانير وترك يزيد يدخل الطائف ليقضي سبعة أيام عاد منها منهوك القوى، وعندما عادا من رحلتهما أخذت سكينة تسأل أشعب بإلحاح وهو يقسم بالأيمانات المغلظة إنهما لم يريا حتى هضاب الطائف البعيدة، ولكن زوجها لم يحاول التظاهر، قال في استهانة: بالطبع دخلت الطائف، وجامعت الجواري واحدة واحدة، وأعطيت ثقتك الكاذبة ثلاثمائة دينار.

جنت سكينة من الغيظ، وصبت جام هذا الغيظ على أشعب؛ فأخذت منه الدنانير كلها واشترت بهم بيضًا وخشبًا، وعملت من الخشب بيتًا، وحبست فيه أشعب وحلفت ألا يخرج منه حتى يحضن البيض إلى أن يفقس، ومكث أشعب أربعين يومًا جالسًا على البيض حتى فقس وخرجت منه فراريج كثيرة تربت وتناسلت، وأصبح اسمها بنات أشعب، ونسل أشعب؛ فهو في المدينة نسل يزيد على الألوف وكلهن أهل وأقارب.

وختم أشعب بن أشعب حكايته للخليفة قائلا: وهكذا يا مولاي.. كلما مررت على المدينة، وقابلت في الطريق دجاجًا أو أفرخًا أو صيصانًا ألقيت عليهم السلام جميعا؛ فهم في النهاية إخوتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من يشتري الموت؟

في هذه الليلة خيم شبح الموت على الزنزانة الضيقة، انزوى «بلال بن بردة» في أحد الأركان وهو يراقب رفيقه في نفس الزنزانة يحتضر، يهذي ويشهق وينتفض ولا أحد يملك له شيئا. وعندما جاء الصباح كان الصمت المشبع بالموت يخيم على كل شيء، ولم يكن الحجاج يفتح أبواب سجنه إلا للموتى، وجاء أهل الميت، لفوا الجسد في قش الزنزانة ثم حملوه وانصرفوا، لكن رائحة الموت ظلت باقية. وأحس بلال أن دوره قد حان.

وفي المساء دخل السجان حاملا له وجبته الوحيدة، كانت أيام السجن الطويلة قد خلقت بينهما نوعا من الألفة، كانا يشتركان معا في الإحساس بكآبة المكان، والخوف من الحجاج بن يوسف الثقفي؛ فقد كان في لحظة غضبه لا يفرق بين سجين ومسجون، وبين مرتد وطائع، وقال بلال وهو يرتعش: متى يحين وقت موتي؟

قال السجان: أدعُ الله أن يغفل الحجاج عن وجودك وينساك.

قال بلال: أعلم أنه لن ينساني، ولكن في يدك أنت أن تساعدني.

قال السجان: لو علم الحجاج أنني فقط أتحدث معك لقتلني.

كان أمل جديد قد دبَّ في قلب بلال، بزغ من خلال ظلمة الموت، ولا يدري كيف قفزت الفكرة لرأسه في هذه اللحظة وقال للحارس: لن يعرف أحد أنك ساعدتني، سأعطيك عشرة آلاف درهم وما عليك فقط إلَّا أن تكتب اسمي في قائمة الموتى وتعرضه على الحجاج، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض فلا يعرف الحجاج خبري.

تردد السجان، كان خائفا من فطنة الحجاج، ولكن الخطة بدت معقولة، فكل من مات في السجن لم يفعل الحجاج أكثر من أنه يأمر بتسليم الجثة إلى أهله، وشجع هذا التردد بلالا فأخذ يهتف به: هيَّا، سوف أبعث إلى أهلي، سأطلب منهم عشرة الآلاف درهم.

وفي اليوم التالي كانت الأكياس العشرة جاهزة، ينبعث منها هسيس الذهب الذي لا يقاوم، وأخذها السجان وهو يرتعش، وظل السجين والسجان مستيقظين طوال الليل، وفي الصباح ذهب السجان إلى مجلس الحجاج وأخبره وهو يحاول التماسك بأن بلالا قد مات، وانقلب وجه الحجاج: ماذا؟ ألم يكن يأكل؟ ألم يكن يشرب؟

وقال السجان: لقد تمكن من خنق نفسه ليلة أمس، ولم تكتشف جثته إلا في الصباح.

أخذ الحجاج يسب ويلعن، ثم قال فجأة: اذهب وأحضر جثته.

وبهت السجان فلم يكن يتوقع هذا الطلب قط، ولكن كيف يمكن أن يعصي؟ كيف يمكنه أن يناقش؟ عاد إلى السجن، كان بلال في انتظاره وهو يتوقع وعد الحرية، ولكن السجان قال في حزن: يريد جثتك.

صرخ بلال: ماذا؟ جثتي؟

قال السجان: لا مفر انكشفت حيلتنا، وإذا عرف أنك ما زلت حيًّا فسوف يقتلني أنا.

صاح بلال وهو يرتجف: ويحك..ماذا تعني؟

قال السجان:لا مفر من أن أقتلك خنقا كما زعمت له، وأحمل جثتك إليه.

وبكى بلال ثم توضأ وصلى، كان السجان واقفا في انتظاره، وقال بلال في أسى: لقد اشتريت الموت لنفسي بعشرة آلاف درهم.

وبكى السجان لبكائه، ثم أطبق بيديه على عنقه.

من ينصح الخليفة؟

كان يفتقده، وعندما يستيقظ في الصباح كان أول مَنْ يسأل عنه:

- أين صديقي وصفيي عمرو بن عتبة؟

ينتشر حرس الخليفة الوليد بن يزيد كالعادة بطول دمشق وعرضها ليعثروا على صديق الخليفة المفضل، ويعودوا جميعا في نهاية اليوم ليقولوا له إنهم لم يجدوه حتى الآن، ولكنهم سيواصلون البحث في اليوم التالي من جديد، ويهز الخليفة رأسه متعجبا، لماذا يختفي الأصدقاء الأوفياء حين نحتاج إليهم؟

كان دائمًا بجانبه، في مجالس الأنس، في الصيد، في الحل والترحال، يتقاسمان الوجبة، كأس الشراب، والجارية إذا لزم الأمر، ولكن كانت هناك مشكلة تواجه الخليفة، فقلوب عامة الناس دائمة التغير، وحركات التذمر تعلو في كل مكان، سأل الخليفة رجال بلاطه وقواده: لماذا تغير الناس؟ هل هناك إحساس بالظلم؟

لم يجبه أحد، لم يجرؤ أحد على إخباره، لم يكن هناك إلا عمرو بن عتبة الذي قال: يا أمير المؤمنين إنه ينطقني الأنس بك، وتسكتني الهيبة لك، فهل أسكت مطيعا، أم أقول مشفقا؟

كان الوليد يحبه ويؤثره فقال له: كل ما تقوله مقبول منك، ولك الأمان.

وبدأ عمرو بن عتبة يتحدث كان يهبط الأسواق فيرى التجار يتحكمون في أرزاق الناس، ويرى قادة الجيش يتحكمون في أرضهم وضياعهم، ويرى القضاة يأخذون الرشاوى من الخصمين، والشرطة تقاسم اللصوص، والنخاسون لا يفرقون بين الأحرار والعبيد، فيحمل كل هذه المظالم اليومية ويسير بها إلى الوليد، ويستمع الوليد موافقا، وأحيانا ساهما، ثم بعد ذلك واجما، ولم يعد عمرو بن عتبة يجد متعة في الغناء، ولا مهربا في الخمر، ولا سلوى في الشعر. تراكمت هموم الناس لتصبح صخرة كبيرة فوق صدره وصدور سامعيه، والمظالم لا تنتهي وكل حل لمظلمة يولد من داخله مظلمة أخرى، هجر الثياب الحريرية والجواري البيض ولبس الأثواب الخشنة، وسار في الأسواق يسمع أكثر ويرى أكثر ويتألم أكثر وأكثر، وظل يوالي الدخول على الخليفة وإخباره بكل شيء، حتى تحولت الخمر في فمه إلى مر علقم.

وذات مساء اكتشفت جثة عمرو بن عتبة ملقاة في الطين على جانب الطريق الذي يصل بين بيته والمسجد، كانت هناك خمس طعنات في ظهره وطعنة واحدة في عنقه، ولم يعرف حتى الآن، من الذي قتله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

المغني

الاسم: سائب خاثر.

المهنة: مغنٍّ.

الزمن: زمن الفتنة.

كان في طريقه من مكة إلى الشام عندما مرَّ بمكان اسمه «صفين»؛ حيث تجمع كل الرجال الذين فرقت بينهم أهواء الدنيا والتنازع على السلطان. جاء أتباع علي وأتباع معاوية كل واحد يحمل رمحا وسيفا ومصحفا ويدعي أنه ينفذ كلمة الله، لم يكن سائب خاثر يحمل إلا عودا مشدود الأوتار، وكان نائما تحت شجرة عندما انقض عليه أهل الشام، سألوه عن اسمه وصفته قال: أنا مغنٍّ كنت على سفر، وأنا أغني في بلاط معاوية وليست لي صلة بأهل مكة، غير أن أهلي من بينهم وديني على دينهم.

أمروه أن يغني فغنى بحرقة، لعل الغناء يكون وسيلته لإنقاذ حياته، غنى عن الحب وعيون النساء وعن الموت عشقا، ولكنه كان يراهم مدججين بالسلاح، كل واحد يُكِنّ حقدا يكفي لزحزحة الجبال، هتف قائدهم: أحسنت، لولا أنك جئت من الطريق الخطأ.

وانهالوا عليه ضربا، ملئوا جسده بالجروح حتى أغشيَ عليه، حملوه وألقوا به على الجانب الآخر حيث يقف أهل مكة، تلقفوه وحملوه إلى قائدهم ورشوا على وجهه الماء حتى أفاق، سألوه: هل أنت من عيونهم؟ فقال وهو يستجمع أنفاسه: أنا مغنٍّ لا أملك سوى عودي، كنت أغني في الكوفة لعبد الله بن جعفر وهو من زعمائكم، والجروح التي في جسدى خير دليل على أني لست من عيونهم.

طلبوا منه أن يغني فأخذ يغني عن كل الجروح التي في قلبه وجروح الإهانات التي في جسده، كان يريد أن ينجو من حلقة القتل التي تحيط به لأن رائحتهم كانت مفعمة بالدم، ورائحة الجثث العفنة تتصاعد من وراء التلال، أخذ يغني وهو يقارن هذا بمجالس الرقص والطرب التي تعود عليها، وهتف فيه قائدهم: أحسنت لولا أنك غنيت لهم أولا وفضلتهم علينا.

وأوسعوه ضربا وألقوه على الجانب الآخر، وأمره الجانب الآخر بالغناء فلم يستطع؛ فزادوا من ضربه ثم أعادوه إليهم، وحاول الآخرون أن يعلقوه فوق عصا طويلة لكي يسمع الآخرون تأييده الواضح لهم، ولكن جسده لم يكن قادرا على الانتصاب، ضربوه ثم وضعوه على الجانب الآخر.

تمزقت ثيابه وتكسر عوده وامتلأ جسده بالجروح، وعندما تصايحوا للقتال وأخذت الخيل تدق سنابكها، لم يفطن أحد إلى أن هناك إنسانا ما زال يحتضر ويحاول النهوض، ولكن صيحات القتال وسنابك الخيل أجهزت عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الأغنية الأخيرة

عاد ابن عائشة من الشام بعد أن ملأ لياليها بأنغامه العذبة، شقَّ الخليفة الأموي ثيابه من شدة الطرب وحمَّله بالعطايا، وبالشهرة الطاغية، وهو الذي غادر المدينة مولى من الموالي بلا ثمن، أصبح يقال له: «يا سيد» بعد أن كان ينادى: «يا غلام»، ثم جاء إليه رسول والي المدينة «المخزومي» يدعوه للغناء في منزله، فجن ابن عائشة من الفرح، أخيرًا سيغني حيث تقيم «مليكة» جارية المخزومي، لعلها تستمع إليه، وتعرف ماذا يُكِنّ قلبه لها ولعلها تدري أن رحلته الطويلة إلى الشام ومحاولته أن يكون شيئا مذكورا كانتا من أجلها، وقال له المخزومي مرحبا: أوحشتنا لياليك يا ابن عائشة. سوف نصعد إلى سطح القصر حيث يرق الهواء وتصفو السماء ونقيم ليلة من ليالي العمر.

وشعر ابن عائشة بخيبة الأمل فالصعود إلى السطح يعني الابتعاد عن أي مصادفة يمكن أن يرى فيها «مليكة»، ولكنه أطاع مرغما. كان الأمير المخزومي قد أعد ووجَّه الدعوة لكل كبراء المدينة، ورفع ابن عائشة عقيرته بالغناء لأقصى ما يستطيع، ولكنه كان غناء أجوف فارغ المعنى لا يستطيع أن يقاوم صمت الصحراء المترامية أسفل القصر.

ثم ظهرت «مليكة»، صعدت مع بعض الجواري وجلسن في ركن خلف سيدهن «المخزومي». رأى وجهها الصغير وعينيها المتألقتين فأخذ يغني لها، خف صوته ورقت حنجرته وازدحمت سماء المدينة بالنجوم وخيم صمت مبهور على الجميع، كان ابن عائشة قد انتوى أن يدفع فيها كل ما أخذه من الخليفة الأموي الوليد بن يزيد، سوف يشتريها ويعتقها ويتزوجها. هلل الجميع في استحسان عندما فرغ من الغناء، إلا المخزومي. ذهب ابن عائشة إلى جانب السطح بعيدا عن الزحام ليلتمس بعضا من الهواء النقي ونهضت إحدى الجواري لترقص. ومال المخزومي على أحد غلمانه وهو يقول: هذا الوغد يحسب أنه قد اشترى العالم بصوته، فقد تجرأ وغمز لجاريتي وأنا موجود، تخلص منه بطريقة طبيعية حتى لا نثير شبهة الخليفة.

ونهض الغلام وسار للجانب الآخر من السطح؛ حيث كان ابن عائشة واقفا ظهره له ووجهه يستقبل النجوم والصحراء الخالية، كان ما زال يواصل حلمه في مليكة واقترب منه بهدوء ثم دفعه دفعة واحدة، وهوى ابن عائشة وارتطم جسده بالأرض في صوت مكتوم، وكانت الجارية في أوج رقصتها عندما عاد الغلام وأومأ إلى سيده، ورأى «مليكة» القلقة وهي تحاول أن تعرف أين ابن عائشة بعد أن قال أغنيته الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إبريق مروان

مرسم ضيق، مزدحم بلوحات فنية وقطع من النحاس المطروق، من الصعب السير فيه بحرية، أو تنشق هواء خالٍ من رائحة الألوان، ولكن الفنان «محمد قاسم» لا يستطيع أن يعمل إلا هكذا، بهذا الالتصاق الحميم بأعماله، رغم إدراكه أنها قد أصبح لها كيانها الخاص، ولكنه لا يستطيع أن يقطع الصلة بها، لا يكف عن تأملها وهو يصنع مشروعه الجديد. النحاس هو خامته المفضلة، طيِّع وصلب، وقدرته على التشكل غير محدودة، ثم البقاء بعد ذلك في حالة من الثبات لعشرات السنين. يتوقف قاسم كل فترة من الزمن ليدقق في تفاصيل صورة الإبريق الموجودة أمامه، كان قد ذهب بنفسه إلى المتحف الإسلامي بالقاهرة، التقط صورا لهذا الإبريق من مختلف الزوايا، كان له شكل ديك داكن الخضرة، نقوشه معقدة بعض الشيء، تتداخل في تركيبه أشكال أخرى؛ طيور ساكنة وأزهار جامدة، تشكلت كلها من النحاس وظلت على حالها، مدفونة في باطن الأرض حتى تم اكتشافها بالمصادفة في إحدى مقابر الفيوم، ومنذ أن رآها قاسم وقد خلبت لبه، وحلم طويلا أن يعيد تشكيلها حتى يمتلك نسخة من هذا الجمال الفريد.

كان وحده تمامًا كما تعود حين يعمل، ولكنه سمع فجأة صوتا ما، شخصًا يتنهد في حرقة، أوقف مصباح اللحام الذي يعمل به، اختفى وشيش اللهب ولكن التنهد لم يتوقف، شعر برعب غامض يتسلل إليه، إنه ليس وحده، هناك من يشاركه وربما يراقبه من داخل المرسم، تلفت حوله، لم يرَ شيئا، دقق النظر في أحد الأركان المعتمة، بدت بقايا الأدخنة المتصاعدة من المصباح وكأنها لم تتبدد، تجمعت في الركن القصي من المرسم، تكاثفت لتكون شكلا ما، رأس إنسان ملامحه باهتة، ليس مخيفا لدرجة كبيرة، مجرد رأس هش من دخان، يستلزم بعض التأمل أكثر من الخوف، حجمه أضخم من العادة، مع تكاثف الدخان تظهر تفاصيل أخرى، عمامة ضخمة ولحية مسترسلة، ووجه مليء بالغضون، حزين السمات، يتطلع نحوه بعينين غائرتين، أضاعتا شيئا لا يمكن تعويضه. ظل قاسم واقفا في مكانه، خشي أن يقترب منه أو يمد يده نحوه حتى لا يتبدد، ظل الرأس صامتًا لبعض الوقت ثم بدأ صوت يصدر منه: هذا الإبريق يخصني، ما إن تنتهي منه حتى يمتلئ بدمي.

اقشعر جسد قاسم لكلماته، تراجع قليلا وهو يقول: من أنت بحق الله، وكيف دخلت مرسمي؟

استدار رأس الدخان ونظر إليه مستغربا، مستنكرا عدم تعرفه عليه، قال ببعض الحدة: ما دمت لا تعرفني، لماذا تشغل نفسك إذن بصنع مثيل لإبريقي؟

حدق فيه قاسم غير مصدق، كيف تداخلت الأزمنة لهذه الدرجة؟ قال: لا تقل لي إنك شبح مروان بن محمد.

اهتز الرأس متألما، وفكر قاسم في نفسه.. هذا الرجل الذي أضاع دولة بني أمية، رأس من دخان أضاع دولة هائلة، فرغم شدة تحمله وصبره على القتال كان القدر أقوى منه، اتضحت ملامح الرأس أكثر، وتكون جانب من الجسم، كأنه يحاول جاهدا الانتقال من عالم الوهم لعالم الحقيقة، قال قاسم: الإبريق الأصلي الذي أخذت عنه هذه الصور كان مدفونا في إحدى مقابر بلدة الفيوم، وأنت كنت خليفة بني أمية في دمشق، ما الذي أحضر الإبريق إلى هنا؟

كان هذا هو المخبأ الأخير، لم يدرِ أنها المقبرة التي كان يسعى إليها طوال رحلة هربه. مصر.. المقبرة الأوسع في الكون، تحوي أجداث الملوك منذ ولادة التاريخ، لا ينقصها إلا جسده، حاول جاهدا أن يتجنب هذا المصير، كان ينام الليل دون أن يخفَّ في أذنيه صهيل الخيول التي تطارده، لم تغادر رأسه هذه الأصوات رغم أنه حاول تضليلهم، سار عبر مفازات وصحراوات وفلوات غير مأهولة لا تسكنها غير الوحوش، لا بد أنهم كانوا يتعقبون رائحته، يصلون إليه حتى داخل القرية الصغيرة بجوار بلدة أبي صير، هناك حاصرته السيوف، حتى عندما ناورهم وطلب منهم أن يأخذوه للخليفة العباسي في بغداد حتى يبايعه، رد عليه أحدهم في إيجاز: هنا، أم هناك؟ نهايتك واحدة في أي مكان، وأشار لأتباعه ليجهزوا عليه، قتلوه هكذا ببساطة وكأنه لم يكن الحاكم الأوحد لهذا العالم الممتد.

قال قاسم وقد شاهد انفعاله، والدموع التي توشك أن تطفر من عينيه: اهدأ أرجوك، يقول لنا التاريخ إنك كنت فارسا شجاعا جلدا، تصل السير بالسرى، وعندما أطلقوا عليك لقب الحمار لم يكن يقصدون إهانتك كما نفعل هذه الأيام، ولكن لشدة جلدك وتحملك، كيف إذن كانت نهاية دولة الأمويين على يديك؟ أهو سوء الطالع؟

قال الخليفة في صوت باتر: بل هي اللعنة.

يتذكر جيدا هذا اليوم الذي بدأت فيه الأحوال بالتدهور، كان في قصره في «حران»؛ المدينة التي نقل إليها عاصمة ملكه، بعيدا عن دمشق؛ العاصمة القديمة التي كرهها من كثرة ما فيها من فتن وصراعات، والمشكلة أنها كلها خرجت من القصور المغلقة إلى الشوارع المفتوحة، انقسم بيت بني أمية على نفسه، استعرت الخلافات في الأسرة الواحدة، بين أهله الذين لم يعد يثق بهم، كل واحد منهم يرى نفسه خليفة ووريثا للعرش، ولم يقتصر الأمر على ذلك ولكن الخلافات أيضًا دبت بين القبائل اليمنية والقيسية؛ القبائل التي ناصرتهم طويلا، كل واحدة منها تعتقد أنها الأحق بمناصب الدول وغنائمها؛ لذلك فضل أن يذهب شمالا إلى حران؛ المدينة التي استقر فيها نبي الله إبراهيم عندما ثار على قومه، لكن مروان لم ينعم بالسلام في عاصمته الجديدة، لم يسكن فيها لفترة كافية من الزمن، كان عليه أن يخرج كل فترة ليقاوم العصاة الذين كانوا يثورون عليه في كل مكان بالدولة؛ العلويين والخوارج والعباسيين، الأصدقاء القدامى والأعداء الحاليين، كوابيس لا يستطيع الإفاقة منها، رغم كثرة المعارك كان يحقق الانتصارات، حتى هذه اللحظة على الأقل، كان يعاقب كل الذين خرجوا عليه، ويسحق حتى ألد الأصدقاء، ولكنه لم يكن يدري ماذا يفعل بالضبط مع متمرد مثل «ثابت بن نعيم الجذامي».

كان يجلس في انتظار وصوله وحوله كل وجوه الدولة، يعلم يقينا أن ثابت سيأتي طائعا على قدميه، للمرة الأولى يشعر بأنه قد قبض على روحه، عرف نقطة ضعفه وضغط عليها، أعطى تعليماته لحراس الأسوار أن يتركوه يجتاز أبواب المدينة في سلام حين يأتي قادما من البادية، وأن يتركوه يتجول في الشوارع دون أن يتعرض له أحد. كان الخليفة يعرف أن «الجذامي» مهما سار لن يذهب بعيدا، ستقوده قدماه إليه طائعا، وحدث ذلك بالفعل. اجتاز الجذامي الساحة المؤدية للقصر، وطلب من الحراس الإذن بالدخول، جردوه من سلاحه وتركوه ينتظر، فلينتظر قليلا، فلقد انتظره الخليفة طويلا، يسمحون له أخيرا بالدخول، يسير بخطى مترددة إلى قاعة العرش، يتوقف حين يرى الخليفة وهو

يحدق فيه بعينين نافذتين، يقف ويحني رأسه، لا يرتمي على الأرض أو يتوسل، يقول بصوت ما زال قويًّا: جئت يا مولاي أسلم نفسي طائعا إليك. افعل بحياتي ما تريد، فقط أطلق سراح ابنيَّ الاثنين.

لم يأبه الخليفة بلهجته المتوسلة، تظاهر الجذامي بالضعف أشعره بغضب عارم، صاح فيه: أيها البائس اللعين، لقد خنتني مرتين، وتأتي الآن لتقف أمامي وتأمرني بما عليَّ أن أفعله بك.

لا يدري ماذا يربطه بهذا الرجل. لم يكن إلا واحدا من الولاة الذين يعينهم على الأمصار، اختاره لأن قبيلته كبيرة وعصبيته قوية، لكن يبدو أن الخيانة هي إحدى خصاله، كلما أمن له فوجئ به وهو يخونه، وعندما يعفو عنه يستقيم قليلا ثم يعاود خيانته من جديد. قبل أن يتولى مروان الخلافة كان الجذامي يعمل واليا على «أرمينة» وبدلا من أن يرسل له فروض الطاعة، قاد ضده حفنة من الجنود المارقين، وعندما قبض عليه كان في استطاعته قتله، ولكنه لم يفعل، من الخطأ إطلاق سراح الثعبان بعد أن تظفر به، وحتى بعد أن تولى الخلافة، أراد مروان أن يفتح صفحة جديدة مع كل رعاياه، أراد أن يعمَّ السلام دولته وأن تتوقف الفتن ولو قليلا؛ لذلك فعل ما لم يفعله خليفة من قبل، سأل أهالي كل ولاية عمن يختارونه ليحكمهم، وكأن القدر كان يعانده، اختار أهل فلسطين الجذامي حاكما لهم. وجده يقف أمامه مرة أخرى وسط أنصاره وجنده، لحظتها لم يكن يستطيع الرفض، رغم أنه لمح تلك الابتسامة الصفراء وهي تعلو وجهه، ويعرف أن الثعابين تلدغ عندما تحس بالدفء، وبالفعل ما إن تأكد الجذامي أنه قد أصبح بعيدا عن مخالب الخليفة حتى بدأ تمرده، أرغمه على خوض الحرب ضده من جديد، لم يهزمه فقط ولكنه قبض أيضًا على ولديه، وها هو يعاود الكلام الآن بعد أن ذاق طعم الهزيمة:

ما كنت لأجرؤ على أن أعصى أمر خليفة الله في أرضه، لم أخنك ولكن خنت نفسي حين اعتقدت أنني قادر على الخروج عليك، لم أعد أملك سوى روحي، أسلمها إليك تفعل بها ما تشاء، فقط أفرج عن ولديَّ فلا ذنب لهما في كل ما حدث.

كان قد أرسل له جيشًا قويًّا، بقدر الحنق الذي كان يحس به ضده، طلب من قائده ألا يفلت الجذامي من بين أصابعه، ولكن القائد فشل في القبض عليه، ولم يشأ أن يعود للخليفة خالي الوفاض، اقتحم منزله وهدد حريمه وقبض على ولديه وساقهما للخليفة. تصرف لا يمت للفروسية بصلة، ولكن لم يكن منه بُدّ، عندما وضعهما في السجن، لم يبقَ أمامه غير انتظار الجذامي ليأتي على قدميه، ولكنه لا يبدو ذليلا كما يجب أن يكون، يحاول الخليفة أن يهدئ من ذات نفسه، يسأله: لقد كنت دائمًا صاحب الفضل عليك، لماذا تمردت عليَّ مرتين؟

قال الرجل وقد اكتسب جراءة من يقف على حافة الموت: لست المتمرد الوحيد يا مولاي، الأرض من حولك مليئة بالمتمردين، قصرك على أطراف الدولة، المكان الأهدأ وسط عالم مليء بالحرائق، لكنك تحكم دولة عجوزًا عمرها مائة عام، ملأت الأرض بالملوك الظلمة، خرج منهم قتلة آل البيت، والخلفاء الناقصون، والمجدفون، وممزقو القرآن، أصبحت لبني أمية ثارات في كل مكان، مع القبائل الذين قتلت أبناءهم، مع الشيعة، والطالبيين، والعباسيين الذين يجتاحون سهوب فارس، قتلي لن يقضي على المتمردين، فهم أكثر انتشارا من النباتات البرية.

يصمت وهو يلهث، أفرغ كل ما في جوفه، ولكنه ملأ صدر الخليفة بالغضب، قال من بين أسنانه: قد حكمت على نفسك وأدنيت حتفك.

حين انقض عليه الحراس، لم يقاومهم طويلا، هتف فقط: ولداي، دون جدوى، اقتادوه إلى حديقة القصر، وسط ورود الجوري وأشجار اللارنج والليمون، مزقوا رداءه وعروا رقبته، وانتهى السياف من الأمر سريعا، وظل الدم يغطي أرض الحديقة دون أن تتشربه.

لم يطق قاسم هذا الوصف الدموي، بدأ وكأن رأس الدخان يتشفى فيما حدث، هتف به: لا تستطرد أرجوك، أريد أن أعرف ماذا فعلت بالولدين.

صمت الرأس قليلا ثم قال ببساطة: قتلتهما بالطبع.

لم يملك قاسم نفسه من القول: قتلت الطفليْن!

قال الرأس: إنهما ابنا عدوي.

رغم ذلك لم يكن هذا أسوأ ما فعله، عندما اضطربت الأمور في دمشق وقتل الخليفة الوليد بن يزيد، وجد مروان أن عليه أن يتدخل لينقذ عرش بني أمية من الضياع، جاء من أرمينية بجيش قوي، تمرس على القتال في مواجهة البيزنطيين، اقتحم دمشق دون عناء، واستولى على القصر القديم، لكنه قبل أن يعلو العرش أراد أن يقوم بعمل يبعث بالرهبة في القلوب، أعلن للجميع أنه جاء للبحث عن قاتل الخليفة الوليد، قالوا مندهشين: لكن قاتله هو الخليفة «يزيد الناقص» وقد مات منذ أشهر ودفن وانتهى أمره، لكن هذه النهاية الباردة لم ترضِ مروان، لم توقفه عن غايته. ذهب إلى قبره وأمرهم أن ينبشوه، أخرجوا الجثة التي كانت قد تحللت بالفعل، أمرهم أن يصلبوها على أبواب دمشق أمام أعين الجميع، كان الأمر يفوق حد البشاعة، عظام عارية، عليها بقايا لحم متهدل، ودود يزحف، تفوح منها رائحة عفنة، هذا كان عنوان عهد الخليفة الذي أراد أن يجمع أشلاء دولة عجوز واكتفى بصلب أشلاء عدو سابق.

ولكن الأعداء الأحياء كانوا أكثر من يتمكن من إحصائهم، كأن جميع أطراف الدولة قد رفعت رايات العصيان. في العام نفسه الذي تولى فيه الحكم ثار عليه أهل حمص، كانوا قد بايعوه واعتبرها مدينة صديقة، ولكنه فوجئ بهم يقتلون عامله ويمنعون خراجها، وكان عليه أن يتوجه إليهم سريعا ويضربهم بقسوة، ثم جاءت الثورة الثانية من قلب دمشق من الغوطة، وسريعا قام بحصارهم وحرق أشجارهم، ومن السهل دائمًا اصطياد المزارعين، ثم ثار أهل فلسطين، قادهم الجذامي ناكر الجميل، ولكن هذا كان لا شيء بجانب العاصفة الحقيقية التي كانت تستعد للهبوب من سهول العراق وفارس، أخطر مناطق الدولة التي تضم الطامعين والخارجين عليه. سحب سوداء لا تكف عن التكاثف، الجزء الأقوى هم العباسيون المطالبون الأوائل بالعرش، الذين يرون أنهم أحق الناس بخلافة المسلمين لقرابتهم لبيت النبوة، وهناك الخوارج بذاكرتهم العنيدة، الذين خرجوا عن كل حكم وعادوا كل نظام، لا يريدون من العالم إلا شيئا واحدا هو إشباع ثاراتهم من بني أمية، وهناك أيضًا الشيعة الذين لا تخفت حركتهم، كطائر العنقاء يصعدون دائمًا من رماد الحرائق.

يستمع قاسم إليه طويلا قبل أن يسأله مندهشا: وكيف واجهت كل هؤلاء الأعداء؟

قال: لم يكن هناك بُدّ من مواجهتهم جميعا في معركة فاصلة.

الحياة حلم واليقظة موت ولا بد من لحظة لتقرير المصير، لرمي النرد في رهان أخير حتى ولو كان خاسرا، يمتطي صهوة جواده وخلفه حشد رهيب من جيشه، تتبعه القبائل التي استفادت من دولة بني أمية على مدى مائة عام، مخلصون ومرتزقة وخونة ومهووسون بالقتل وباحثون عن غنائم، لا يوجد بينهم من هو مثله، ذاهب لتحديد مصيره، قبل أن يخرج أعلن للجميع أنه ذاهب لمحاربة الروم. أراد أن يتعالى أمامهم ولا يبدو منشغلا بمحاربة بعض العصاة والمنشقين، ولكنه كدأب بقية خلفاء بني أمية العظام يسعى لتوسيع الدولة قبل أن تتقرض أطرافها، سيضيف إليها «بيزنطة» التي عجز عن اقتحامها الجميع، كان يكذب عليهم وعلى نفسه، فما إن ابتعد الجيش عن أطراف دمشق حتى غيَّر اتجاهه وبدأ في الزحف شرقا. واصلوا السير الحثيث حتى ظهرت أمامهم مياه نهر «الزاب»، فرع صغير من نهر دجلة الأم، انفصل عنه وأخذ ينساب وحيدا بين تلال كردستان، ثم يلتف مبتعدا عن مدينة الموصل، وها هو الآن يفصله عن المنشقين عليه من العباسيين.

بعد سير طويل يصل مروان إليهم. يقف فرسانهم على الضفة الأخرى من النهر رافعين راياتهم السوداء، فكر مروان في نفسه: كيف يجرؤ هذا الجمع الصغير على الوقوف في مواجهته؟ من أين أتتهم الشجاعة للخروج على دولة حكمت الأرض لقرن كامل، هزمت فيها مختلف أنواع الأعداء؟ كان قد أحضر خلفه ١٢٥ ألف مقاتل، ولم يكن أمامه منهم إلا بضعة آلاف، يمكن أن يسحقهم جميعا في ضربة واحدة، ولكنه لم يكن يريد القتال على الفور، جيشه كان متعبا من السير الطويل، وفي حاجة إلى إعادة تنظيم، أوفد رسولا إلى قائد العصاة عبد الله بن علي، يطلب منه الموادعة حتى اليوم التالي، لا ضرورة لبدء القتال في الحال، ولكن المفاجأة أن الرد جاء بالرفض، كانوا متشوقين للقتال، مدفوعين برغبة عدمية للانتحار، نظر إلى قواده مندهشا، سأل الرسول الذي ذهب لمعسكرهم: كم عددهم فيما تظن؟ قال الرجل في ثقة: مهما بالغنا في عددهم فلن يتجاوزوا العشرين ألفا، وخيولهم أقل من القليل، قال لنفسه في حيرة: لماذا هم متشوقون للموت لهذا الحد؟ كان النهر يفصل بينه وبينهم وهناك جسر خشبي وحيد فوقه، عليه أن يستولي عليه ويؤمنه قبل أن يعبر إليهم، لو أنه تردد لحظة فسوف يعتبرونه متخاذلا. رسم خطته ببساطة، سيأمر رجال القبائل بمحاصرتهم من كل جهة، ثم بعد ذلك يقتحمهم في القلب، يخترق صفوفهم بفرسانه حتى إذا تفرق جمعهم فلن يجدوا مهربا يلجئون إليه. أمر قواده جميعا أن يتقدموا، لا يدري لماذا كانوا مترددين، كل واحد أراد أن يزيح الهجوم الأول عن عاتقه لزعيم القبيلة الأخرى، لا يدري سر التردد أمام معركة سهلة، سهولتها أكثر مما ينبغي، أكثر من خمسة مقاتلين في مقابل كل واحد منهم، ناهيك عن عدد الخيول؛ لذلك أمرهم جميعا بالهجوم. كان العصاة من السذاجة بحيث تركوه يعبر الجسر في سهولة ويحشد قواته على الضفة نفسها، تركوه ينظم قواته وينشرها حولهم دون أن يتحركوا من موقعهم، ظلوا ثابتين على كتلتهم نفسها؛ الرجال في الأمام، والفرسان في المؤخرة، واقفين لا يبدو عليهم أنهم متأهبون، أي خطة للحرب هذه؟ كان عليه أن يهاجم قبل أن يفطنوا للخطأ الذي وقعوا فيه، وكان يريد أن يصل إلى قائدهم عبد الله بن علي، يعرف أنه عم الخليفة أبي العباس السفاح الذي نصبه العباسيون، ولو استطاع أن يقضي عليه فسوف يقضي على الدعوة وعلى خليفتها الزائف معا، لن يوجد في الأرض بعد اليوم إلا خليفة واحد، هو سليل نسل بني أمية، رفع سيفه وصاح في الجميع: هبوا هبة رجل واحد، وأخذ يعدو نحوهم وبقية الخيول تتبعه، وقع حوافرها والرمال التي تثيرها تبعث الرعب في قلوب أعتى الرجال، كان يتوقع أن

تنفرط الكتلة السوداء، تتفرق شَزْرًا، لم تتحرك ولكن تغيرت هيئتها، برزت منها عشرات الحراب، طويلة ومسنونة، أصبحت كتلة الجند أشبه بقنفد ضخم مكسو بالأشواك، لم تستطع الخيول المندفعة التوقف، انغرست أسنة الرماح في أعناقها، صهلت وحمحمت والتوت والتفت حول نفسها وسقط الفرسان تحت سنابكها، شد عنان جواده بقوة وأبطأ من سرعته، ولكنه شاهد بقية فرسانه وهم يسقطون، يهوون على الأرض منذ الجولة الأولى، وشاهد دم الخيول مختلطا بدمهم، في ضربة واحدة سقط معظم قواده، رؤساء القبائل الذين يدين لهم أتباعهم بالولاء أكثر منه، لم يكن في استطاعته التراجع، أمر بقية الجنود أن يتقدموا، ويواجهوا الرماح بدروعهم، وأن يفتحوا ثغرة في الصفوف المتراصة، ولكن أمطارا من السهام انهالت عليهم، أي شيطان أعد لهم هذه الخطط وعلمهم فنون الخديعة؟

على مدى أيام القتال، في كل صدام معهم، كانوا يبادرونه بمناورة جديدة تسقط المئات من رجاله، بينما لا يسقط منهم قتلى إلا فيما ندر، يحركهم عبد الله بن علي دون أن يظهر، أو يكون له موضع محدد يمكن الوصول إليه، يظل رجاله صامدين في وقفتهم بينما بدأ رجال مروان في الهرب، انفرط عقد القبائل، بدأ الجيش الضخم ينقسم ثم يتجزأ ثم يتفتت، بينما تتحرك الكتلة السوداء نحوه مثل كابوس، لا يطلبون سوى رأسه، صدره لهم وظهره عارٍ، لم تعد تجدي المقاومة، ولا يوجد من يحميه، لا مفر من عبور النهر والهرب بعيدا، وليغمر الطوفان كل شيء بعد ذلك. يعدو فوق الأرض التي كان ذات يوم سلطانا عليها، أصبح مطاردا فيها، ستتبعه خيول العباسيين إلى كل مكان، يعرفون أن دولتهم لن تقوم لها قائمة ما دام رأس مروان على رقبته. عاد إلى دمشق فوجد أن أنباء هزيمته قد سبقته، كل أتباعه متخاذلون، وكل خصومه شامتون، لا أحد يتحمس لنصرة المهزوم، لا نصيب له غير طعنة في الظهر، سيسلمونه للعباسيين فور وصولهم. اضطر للهرب مرة أخرى، ضاقت رقعة الأرض بما وسعت، أغلقت مدن الشام وفلسطين أبوابها في وجهه، وخيول العباسيين تلاحقه، انحدر جنوبا، عبر الصحراء المقفرة إلى مصر، انحدر أكثر إلى بلدة صغيرة بجانب الفيوم، وهناك لاحقته الخيول كأنهم كانوا يعرفون مسبقا إلى أين يتجه.

رفع قاسم يده منبها رأس الدخان حتى يتوقف: انتظر قليلا يا سيدي، أنا أحترم ألمك ومعاناتك ولكنك تغفل بعض التفاصيل، أنت لم تهرب فقط من ميدان المعركة، ولكنك بعد أن عبرت قطعت الجسر الوحيد الذي كان يصل الضفة الأخرى من النهر.

قال الخليفة: هل كنت تريد أن أترك منفذا يتبعني منه العباسيون؟

قال قاسم في مرارة: لقد نجوت وحدك، لكنك تركت آلافا من جنودك داخل مصيدة الموت.. حين كرَّ فرسان العباسيين عليهم بخيولهم، اخترقوا صفوفهم كأنهم يحرثون العشب، لا شيء يحميهم من السيوف التي تنهال عليهم وتحز أعناقهم، اندفعوا نحو الجسر الخشبي؛ منفذ النجاة الوحيد، فوجدوه محطما، ألقوا بأنفسهم في النهر فكان غادرا، لم يمنحهم النجاة ولكن جذبهم في أعماقه، طواهم في ظلمته، اختنقت صدورهم بمائه العكر، أخذ من أرواحهم أضعاف ما أخذته المعركة. تأوه الخليفة برأسه الدخاني وهو يردد من جديد: إنها اللعنة.

ولكن قاسمًا صاح غاضبا: هذه اللعنة صنيعة يديْك؛ أنت الذي قتلت الأطفال، وصلبت جثث الموتى، وأوقعت جنودك في فخ الموت، لا أدري ما الذي ورطني في صنع هذا الإبريق.

كان جسده كله يرتعد، مد يده وقبض على الإبريق، يريد أن يهوي به على رأس الخليفة، لكنه تبدَّد بسرعة، ألقى به على الأرض، وفي الحال سالت منه بقعة داكنة من الدماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوالي يهرب

قالوا له: اهرب يا عبيد الله، فجنود السفاح يطلبونك..

وارتجف عبيد الله بن مروان، كان هو آخر ولاة بني أمية على مصر، وجيوش العباسيين الآن تستعد لاقتحامها، ولكن إلى أين يهرب؟ دخل إلى خزائن المال وأخذ يحزم كل ما فيها من مقتنيات، عشرة آلاف درهم تجمعت من قطرات العرق، وخصوبة الطين، مواسم البذر والحصاد انصبت كلها في خزائن الوالي الذي أحضر البغال ووضع عليها كل شيء، لو كان يملك أن يخلع جدران القصر ويحملها على البغال لفعل، ولكن الإنسان يرحل والطلل يبقى.

سار ببغاله وعبيده متخفيا نحو الجنوب، القرى والبلاد نفسها التي كان يدخلها أميرا وحاكما، سار بحذاء النيل، واختبأ في حقول الذرة والقصب، وراقب الفلاحون هروبه بلا اهتمام. حاكم هارب، وحاكم قادم، ما الفرق؟ الجزية نفسها والخراج نفسه.

وأخيرا بعد أن كلت البغال توقف، قال: أين أنا؟ قالوا له: أنت في بلاد النوبة، في قرية خالية تغمرها مياه النيل مرة كل عام ثم تتركها خرابا بقية العام. نزل في أحد البيوت وفرشه بالأبسطة والطنافس، هل يمكن أن يستعيد إمارته في هذا المكان؟ قال لخادمه: اذهب إلى ملك النوبة، وخذ منه أمانا على نفسي من الموت.

وعاد الخادم ليخبره بأن الملك قادم بنفسه لزيارته، وأسرع عبيد الله يأمر الخادم بإنزال كل الأبسطة والفرش حتى تحول البيت الخرب إلى مكان بالغ الفخامة، وأقبل ملك النوبة هزيلا، نحيلا، يتوكأ على رمحه ويتبعه اثنان فقط من أتباعه. ورغم ورطة الأمير فقد أحس بالسخرية في أعماقه لمشهد هذا الملك البائس، انحنى الملك أمامه فأحس بأنه قد استرد كل سلطانه، أشار للملك أن يجلس على الوسائد التي أعدها ولكنه أزاحها وجلس على الأرض، وأخذ ينبش التراب بعصاه وقال ببطء: كيف سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟

بلع الأمير ريقه وهو يقول: إن الذي سلب ملكنا أقرب إلى نبينا منا.

قال الملك: كيف تلوذون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من خمر وتلبسون الديباج، وتركبون السروج المطعمة بالذهب والفضة؟ لقد بلغنا أنك حين كنت حاكما على مصر كنت تخرج للصيد فتخرب القرى على أهلها وتفسد الزرع على الناس وتبتز الهدايا والتقادم من الفلاحين، ومن أجل «كركي» واحد تصيده تخرب عشرات الأفدنة من القمح.

وظل ملك النوبة يتكلم، وينبش بطرف رمحه، وأحس عبيد الله كأنه عريان أمامه، ملطخ بكل الأوحال السابقة. وواصل الملك كلماته: لقد حلت عليكم لعنة الله، وزال ملككم، وإنني أخاف لو أنزلتك عندي أن تحل بي نفس النقمة؛ فالبلاء عام، والرحمة مخصوصة.

وأوشك الأمير أن يصرخ في الملك، أن يلزمه حده، ولكن الظلام كان قد حل وأصبحت هناك آلاف الوجوه السمراء تقبل عليهم وتحيط بهم، وتطل من كل النوافذ، تبرق عيونها، وتفتر أسنانها عن

ابتسامات باردة، وملك النوبة يقول في صوت بالغ الصراحة: ارحل عن أرضي بعد ثلاثة أيام، وإلا أخذت جميع ما معك وقتلتك شر قتلة.

ولم يكن هناك مفر من العودة إلى العباسيين الذين ينتظرونه في الشمال، وإلى السيوف التي لا تعظ ولكنها تبتر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

نبش القبور

كان سفاحا ولكن يقال إنه كان رقيق القلب، صفتان نادرا ما تلتقيان، ولكن يحدث أن يعشق الرجل باقة من الورد الجوري الأحمر؛ لأنها فقط قد غمست في الدم. كان أبو العباس الخليفة الأول لبني العباس، لا يحب الورد كثيرًا، ولكنه أسال الكثير من الدماء، لم تفرض دولته، مثل العديد من الدول، وجودها إلا بحد السيف، ولا توجد وسيلة أخرى فيما يعلم الجميع، فصفوف المعارضين والطامعين والمطالبين بالعرش لا تنقطع، هؤلاء جميعا لا يسكت ألسنتهم غير قطع الرقاب، كما أن زرع الخوف في نفوس الناس يستلزم الكثير من الجثث، وعدم النظر في وجوههم حتى لا يتم التفريق بين الأقارب والأباعد، هذه هي قاعدته العامة، ولكن كان لا بد من الخروج عليها أحيانًا مثلما حدث وهو يستقبل أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب.

كانوا أقرب المطالبين بالعرش، والأحق به من كل الطامعين؛ فهم من سبط فاطمة بنت رسول الله، ومكانتهم مقدسة في نفوس الناس أجمعين، ولكنهم كانوا مثل أبيهم «الحسن» زاهدين في السلطة، عازفين عن الدخول في أيٍّ من صراعاتها، لم ينحازوا لطرف، ولم يغرهم سحر أي منصب، ومع ذلك يظلون أعداء محتملين، بنداء واحد منهم يمكن أن يتجمع خلفهم آلاف الأنصار؛ لذلك كان على الخليفة أن يستقبلهم مرحبا، ويسأل كبيرهم عبد الله بن الحسن: اطلب مني ما تريد وسوف أجيبك إياه.

كان يريد أن يدعم مركزه كخليفة جديد وينتزع اعتراف خصومه بأفضاله عليهم، ولكنه فوجئ بابن الحسن وهو يقول: أريد ألف ألف دينار. أراد أن يشهق مندهشا من هول المبلغ، ولكنه تماسك وهو يسأله: وفيمَ تريد هذا المبلغ الضخم؟ قال ابن الحسن ببساطة: أريد أن أراه وأمتلكه.

هكذا فقط دون أن يعرف مدى الورطة التي أوقع الخليفة فيها؛ فالدولة حديثة والحروب ضد الأعداء من بني أمية لم تهدأ، كيف يدبر هذا المبلغ الفادح؟ هدأ وابتسم وقال: لا أحد يطلب من أمير المؤمنين طلبا ولا يستجاب، أمهلني يوما أو اثنين حتى أجمع لك الأموال المطلوبة.

انسحب ابن الحسن وترك الخليفة في مشكلته، لم يجد بُدًّا من أن يجمع رهطه من بني العباس، أخذوا يتبادلون الرأي في حيرة، أول رأي تم طرحه هو التراجع عن الوعد، قال أحدهم: بنو الحسن ليسوا أعداءنا ولكنهم أيضًا ليسوا أصدقاءنا، وهذا المبلغ يمكنهم من جمع الأتباع وتأليبهم ضدنا. أمر منطقي ولكن الخليفة لا يستطيع التراجع، لو تراجع في هذا الوعد فلن يصدق أحد أيًّا من وعوده، قال في حزم: لا بد أن ندفع، عليكم فقط أن تقولوا لي من أين آتي بالمال.

مرة أخرى ارتفعت حدة النقاش، ثم قال عجوز منهم: علينا إذًا أن نقترض المال ونرده مع الفوائد، أمر مكروه دينيًّا ولكن لا بد منه، ولم يكن يوجد في بغداد إلا رجل واحد قادر على تدبير هذا المبلغ هو ابن مقرن الصيرفي، لا يوجد شخص في المدينة مهما علا شأنه إلَّا واقترض منه، وحان الدور على الخليفة.

أرسل يستدعيه إلى القصر، وتلقى الرجل الدعوة خائفا ومرعوبا، اعتقد أن الخليفة السفاح سيقتله ويصادر أمواله، ولكنه كان لينا معه وهو يطلب منه هذا القرض الضخم. لم يستطع الرجل أن يجادله، لم يكن يملكه ولكنه وعد بأن يتصل ببقية زملائه من المقرضين الصغار ويجمع كل ما يقدر عليه،

وترك الخليفة يحدد بنفسه الفائدة المطلوبة، ولم يصدق أنه خرج من قصره سالما، وغمرت سوق الصيارفة حركة محمومة، بدأت عملية تجميع أكياس المال من كل مصدر؛ دنانير، دراهم، قطع من الذهب أو الفضة، سواء كان عليها نقش بني أمية أو نقش بني العباس، أو حتى نقوش بيزنطية، وبعد يومين فقط من السعي استطاع ابن مقرن إحضار المبلغ على عربة صغيرة يجرها حمار، وبدون أن يحصيها أحد طلب منهم الخليفة أن يتوجهوا بها إلى حيث يقيم عبد الله بن الحسن ويسلموه المبلغ كله.

انتهت مشكلة ابن الحسن ورحل إلى مكة وهو يحمل أكياسه على ظهر ناقة، وبقيت مشكلة الخليفة، كيف يسدد هذا المبلغ؟ من يمكن أن يسدده غير أعدائه القدامى من بني أمية؟ أسرع بكتابة رسالة إلى قائده «عبد الله بن عليّ» الذي كان يقود الحرب ضد الأمويين وسيظل يطاردهم إلى نهاية الأرض. كان في هذه اللحظة يحاصر دمشق؛ أعظم عواصم الإسلام قاطبة، ولكنها كانت مدينة مهزومة سلفا، هجرها حكامها وتخاذل جندها وعانى سكانها من الجوع والخوف، ومع ذلك ظلت صامدة زهاء الشهرين لمتانة أسوارها، وأخيرًا وجد ابن عليّ ثغرة فيها؛ غالبا بسبب الخيانة، واستطاع أن يقتحم الأسوار، وأن يستبيح المدينة بمن فيها من نساء وأطفال، لا اعتراف بدين ولا قرابة، وحوَّل المسجد الأموي الكبير إلى إصطبل للخيول والدواب، وأمر بهدم أسوارها بأكملها حتى تبقى دائمًا مفتوحة، وفي هذه الأثناء جاءته أوامر الخليفة بأن يجمع كل أموال بني أمية ومجوهراتهم، وأن يفتش بيوتهم وأسرتهم، وأن ينبش حتى قبورهم بحثا عن أي درهم.

لم يفعل الخليفة غير أنه خاطب قلب «بن عليّ» الكاره دوما، التواق للانتقام، الجدير بلقب السفاح بدلا منه، وأسرع ينفذ الأمر، لم يترك بيتا في المدينة القديمة إلا واقتحمه، ولم يترك صندوقا إلا فتحه، وصوانا إلا خلع أبوابه، ولا حجرة إلا ورفع بلاطها حتى يرى ما هو مخبأ تحتها، وعندما انتهى من المدينة اتجه إلى المقابر، كان يريد أن يرى ما خبأه أعداؤه القدامى تحت عظامهم. اتجه للمكان الذي دُفن فيه الخلفاء وأبناؤهم وأمراؤهم، بدأ بقبر جدهم الأكبر معاوية بن أبي سفيان، مؤسس هذه الدولة التي قامت وسادت العالم وتواصلت حدودها من حافة الهند حتى جبال الأندلس، كان القبر خاليا تقريبا، بقايا عظام تحولت إلى رماد أسود، فور أن انكشفت للضوء ومسها الهواء، تطاير مثلما تطايرت الدولة، لم يبقَ منها عظام يمكن أن تشفي غليله في سحقها، أو دنانير يتم جمعها، ذهب إلى قبر ابنه يزيد الذي ما زال أهل الشيعة يلعنونه حتى اليوم، لم تكن هناك إلا شذرات عظام، لم يدع له رماد الموت سبيلا للانتقام، بقية القبور كانت على هذه الشاكلة، ولكن كان هناك قبر اختلف عنهم جميعًا؛ قبر هشام بن عبد الملك؛ الخليفة الثامن والأعظم من بني أمية، كانت الجثة كاملة ولم يتآكل منها إلا طرف أنفها، أمر بإخراجها وصلبها وأخذ يضربها بالسياط، أخذ منه ثأره القديم؛ عندما كان هذا الخليفة حيًّا كان قد أمر قديما بجلد أخيه ستين جلدة، وها هو يرد له الدين، وعندما وجد الجثة غير مبالية ولا تستجيب لكل أنواع التعذيب الذي ينزله بها أمر بحرقها ونثر بقاياها في الهواء. نظر حوله إلى كل القبور المفتوحة، لم يظفر إلا بقليل من الأموال التي أرسلها للخليفة، ولكنه ظفر بانتقامه كاملا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

بيعة رغم الأنف

لم يكن الخليفة المنصور رائق المزاج هذا الصباح؛ لذا فقد قرَّ رأيه على نزع ولاية العهد من ابنه الأكبر «جعفر»، وإعطائها لابنه الأصغر الذي يفضله «المهدي».

ولم يكن الشاعر «مطيع بن إياس» يملك شروي نقير هذا الصباح؛ لذا فقد قرر أن يفعل أي شيء حتى يملأ جيبه بالدراهم.

ولم يكن العباس بن محمد الأخ الأكبر للخليفة راضيا عن أي شيء يحدث في بغداد، ونهض هذا الصباح وقد قرر أن يرحل عن هذه المدينة إلى الأبد.

وقال الخليفة المنصور لوزيره أبي إسحاق: يجب أن تستعدَّ لتغيير البيعة من جعفر إلى المهدي على الفور.

وكان النهار رائعا لا يوحي بالفتن، ولكن ما إن انتشرت كلمات الخليفة حتى انقسمت بغداد، وشح الخبز في الأسواق، وخرج أنصار المهدي يهللون في الشوارع، وأخذ الشعراء يبدلون في القصائد ويغيرون القوافي. أما أنصار جعفر فقد تحصنوا داخل البيوت وخلف الأسوار، وجمعوا كل ما استطاعوا من سيوف وسكاكين وكلمات غاضبة وانتظروا لعل الخليفة يغير رأيه مرة أخرى، ولكن البيعة لم تكن سهلة؛ فهي تتطلب إجماعا لا يملكه أحد إلا بالإكراه. الحل المعتاد أن يجمع الخليفة الناس في قاعة عرشه وفي مواجهته حيث لا يملك أحد أن يتراجع أو يعلن عدم رضاه وانتشر الحرس في بغداد يسوقون الجميع؛ القادة والفقهاء والقضاة والشعراء.

وتنهد الخليفة في ارتياح حين شاهد العباس بن محمد داخلا إلى قاعة العرش، كان هو شيخ بني العباس وصاحب الكلمة فيهم، ولكنه لم يقترب من العرش واكتفى بالوقوف في الركن وهو يعبث بلحيته، وبدأت مراسم البيعة، توالت الخطب البليغة، والقصائد العصماء في وصف فضائل المهدي ومناقبه، وأخذ كل واحد من الموجودين تحت تهديد من عيني الخليفة الباردتين يستحضر كل ما لديه من أفخم الكلمات ولكن كل هذا لم يكن كافيا، لم يعطِ للبيعة شرعية الوقوف على قدمين. ونظر مطيع بن إياس إلى الخليفة فأدرك أن إفلاسه لن يطول إذا فعلها، إذا كان جريئا وواثقا وفعلها، منذ البداية وقد أدرك أن اللعبة تدور في محورين هما الخليفة وأخوه الأكبر الذي لا يهضم تصرفاته كثيرًا، وإن كان يخشاه، وأدرك ابن إياس أن عليه أن يلعب بمهارة على حبل الخوف المشدود بينهما، نهض مطيع انحنى أمام المنصور وقال في ثقة:

- يا أمير المؤمنين حدثنا عاصم عن زيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «المهدي منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا، يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا».

وحدق فيه الخليفة في دهشة، كلمات أمضى من آلاف القصائد والخطب، ولكن من المستحيل تصديقها، خاصة وقائلها ابن إياس، ولكن مطيعًا أكمل لعبته بإتقان شديد فقد أشار إلى العباس بن محمد وهو يقول: وهذا العباس بن محمد يشهد بذلك.

وبهت العباس، وتلفت حوله في حيرة فلم يجد إلا عيني الخليفة تحدقان فيه، وابن إياس يقترب منه، ويقف أمامه وهو يقول في تبجح: ناشدتك الله، ألم تسمع ذلك؟

فجأة أصبح العباس محاصرا من كل جانب؛ الخليفة متجهم، والوزير متوتر، والناس مستغربة، والحرس متوعدون، والشاعر الوغد يقف أمامه، ينظر في عينيه ويتحداه أن يتراجع، لعن الله الخوف فإنه يأكل الروح، ولم يجد بُدًّا من أن يقول: نعم.

وهلل الخليفة فهلل الوزير وهلل الجميع، أمرهم الخليفة أن يبايعوا المهدي فبايعوه، أمرهم أن يقسموا فأقسموا، ثم انصرفوا مسرعين كلٌّ يحاول أن يداري قطعة من خجله الصغير، وظلّ العباس واقفا مذهولا في أحد الأركان، حين اقترب منه أحد أقاربه انفجر وهو يكاد يبكي: أرأيت هذا الزنديق إذ كذب على الله ورسوله ثم استشهدني على كذبه فشهدت خوفا وشهد كل من حضر أنني كاذب؟ بعد هذا العمر الطويل يميتني ابن إياس كذابا، لعنة الله عليه وعلى الخليفة وعلى المهدي في يوم واحد.

وانصرف الشيخ من القصر وهو عاجز عن مقاومة البكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

حَدّ السكر

في كل يوم وعلى مدى أسبوع كامل والشاعر «ابن هرمة» يدخل إلى مجلس الخليفة المنصور ليمدحه بقصيدة عصماء، كان قد ترك المدينة وعبر الصحراء ليمتدح الخليفة، الذي لم يمدحه أحد من قبل عندما كان واليا أو خليفة، القصائد الست الأولى رائعة، أما السابعة فقد كانت الذروة، ورغم أن الخليفة المنصور كان فقيها في أعماقه بخيلا على الشعراء، فإنه هذه المرة تخلى عن كل تحفظاته وهتف به: سل حاجتك.

هتف ابن هرمة في حذر: هل أستطيع أن أطلب أي شيء؟

عاد الخليفة إلى طبيعته، ولكنه لم يكن يستطيع التراجع فقال: اطلب ما شئت من المال، ولكن لا تكثر من الأكياس حتى لا يلحظك لصوص الصحراء. واطلب ما شئت من الجواري، ولكن لا ترهق صحتك. واطلب ما شئت من الضياع، ولكن تذكر أن نصيبك من الدنيا سبعة أذرع.

تحذير واضح، ولكن ابن هرمة كان بعيد الذهن عن هذه الأمور، كان يريد شيئا محددا: كل ما أريده يا مولاي هو أن تكتب إلى عاملك في المدينة ألا يجلدني إذا عثر عليَّ وأنا سكران.

وضحك الخليفة وقد حسب ابن هرمة يمزح، وقال: هذا حد من حدود الدين كيف أخالفه؟ اطلب شيئًا آخر.

ولكن ابن هرمة قال في تعفف: لا يوجد لي طلب آخر.

وعبثا ألح عليه الخليفة أن يقبل أجمل الجواري أو أخصب الضياع، ولكنه أدرك من هيئته أنه جاء من أجل هذا الطلب فقط وسيعود للصحراء ولن يغادرها بعد اليوم، ولا أحد يدري إذا تعصبت القبائل واشتعلت الفتن أين سيكون لسان ابن هرمة، مع الخليفة، أم عليه. وفي النهاية لم يجد الخليفة بُدًّا من أن يكتب رسالة إلى عامله على المدينة يقول له فيها: إذا أتاك ابن هرمة وهو سكران فأقم حد الشرع واجلده ثمانين جلدة، واجلد من جاء به مائة جلدة.

وعاد ابن هرمة إلى المدينة، وكان رجال الشرطة يرونه يترنح سائرا في الطرقات، وكانوا يعبرونه متجاهلين وجوده تمامًا وهم يقولون: «من الذي يشتري ثمانين جلدة بمائة؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دورة العشق

كان الشاعر «أبو عبادة الطائي» يحب فتاة اسمها «شغف»، كان يرى وجهها الصبوح كل يوم وهو يمرّ تحت نافذتها، وكانت تنظر له نظرة غريبة تجعله لا ينام الليل، كان يسهر ليكتب لها العديد من القصائد التي تعبر عن ولعه بها ويسألها عن هذه النظرة الغريبة. كانت زوجة كبير تجار بغداد، وكان يعتقد بأنها ابنته، أيًّا ما كان الأمر فقد كان من الصعب الوصول إليها، وكان يكفيه فقط أن تقرأ أشعاره وتعرف أن هناك من يذوب صبابة فيها، وكان يذهب كل صباح للسوق ليقابل خادمتها وهي تشتري اللحم والخضار ويعطيها لفائف الأشعار وبعض الدنانير. كانت الخادمة ترتعد حين تلمس أصابعه، وتظل ممسكة باللفائف وتراقب ظهره وهو يبتعد عنها، في كل مرة كانت الخادمة تريد أن تشبك أصابعها في أصابعه وتجذبه نحوها وتخبره بأنها الأحق بهذه الأشعار؛ فالسيدة المتزوجة لا تكتفي فقط بالأشعار، أما هي فعلى استعداد ويمكنها أن تقبله أمام كل باعة الخضار واللحم، ولكنها لا تفعل أكثر من أن تحمل الأشعار لسيدتها التي تقول في ملل: هذه الأشعار مرة أخرى! وتلقيها في صندوق تحت سريرها، وتفكر الخادمة أنه ليتها احتفظت بها لنفسها، ولكن «شغف» عندما تجد نفسها وحيدة تخرج الأشعار وتعيد قراءتها، تختار من بينها قصيدة واحدة، بضمير المؤنث، تصلح للتغزل بين الطرفين، وتقف خلف أستار نافذتها، كان هذا هو الموعد الذي يأتي فيه فارسها المختار لمقابلة زوجها؛ الحارس المكلف بمراقبة السوق، وكان من الطبيعي أن يأتي لمقابلة زوجها بشكل منظم. رأته وهو يدخل مختالا على جواده لساحة المنزل، يبرم شاربه متطلعا، مثيرًا سحرًا رجوليًّا لا يقاوم، لايمكن مقارنته بالشاعر النحيل الذي يتجول تحت نافذتها، ولا بزوجها السمين الذي ينام وهو يشخر. انتظرت في عتمة الرواق حتى خرج من مجلس زوجها، ثم سدت عليه الطريق بجسدها، رفعت الأستار عن وجهها ووجهت له ضحكة ناعمة، رفع وجهه نحوها ورأى لمحة من جمالها، قدمت له شفتيها ولكنه كان خائفا، يمكن أن يخرج زوجها من المجلس في أي لحظة، في خيبة أمل اكتفت بأن وضعت قبلتها على رقعة الشعر وألقتها إليه فتلقفها بيديه، وعندما نظر إليها مرة أخرى كانت قد اختفت، ركب حصانه وهو يقبض على الرقعة ولكنه لم يلتفت للوراء كما تمنت. فتح الرقعة لم يكن بارعا في القراءة، المهم أنه كان بارعا في جمع المال، في كل يوم كان يجيد «حلب» السوق وابتزاز التجار والباعة، بالتهديد والوعيد بالمصادرة، كان دائمًا يحصل على ما يريد، يجمع الأموال ليلقيها تحت أقدام معشوقته «دنانير» ذات الصوت الساحر، كان يجلس أمامها مشدوها لايمل من الاستماع إليها وهي تعزف على العود.

كانت دنانير تهتم به، ولكنها تهتم أكثر بأكياس الدنانير التي يحضرها، ولا تعطيه إلا أقل القليل من اهتمامها وجسدها، لم يكن يعجبها غروره وثقته الزائدة في نفسه حتى في الفراش، ولكنها الليلة فوجئت به لايقدم المال فقط، ولكن يقدم أيضًا رقعه مطوية من الشعر، قرأتها دنانير ونظرت للفارس في دهشة: من كتب هذا الشعر؟ قال بلا اهتمام: زوجة خرقاء، ولكنها أمسكت العود وأخذت تدندن مع الأوتار، نسيته تمامًا، وعندما اكتشفت أنه ما زال موجودا دفعته بقدمها وهي تقول: ارجع لزوجتك، ألا ترى أنني مشغولة؟

ونهض الفارس مخذولا، وأسرعت دنانير فوضعت وشاحا على رأسها، وأخذت العود وأحضر لها الغلام حمارا، وأمرته بأن يتوجه بها إلى بيت المغني «زرياب»، كان بيتا منعزلا على حافة النهر

وكان صامتا دون نغم يتصاعد منه. سارت مسرعة إلى مجلسه، كان جالسا وحيدا وحزينا كما يبدو على ملامحه السمراء، وضعت العود أمامه وهي تهتف به كما تعودت: يا أستاذي ويا عشقي الوحيد، صنعت لك لحنا جديدا لن أعزفه لك إلا وأنا عارية، وقبل أن يقوم بأي رد فعل كانت قد خلعت ثوبها بالفعل وبدا جسدها صافيا كالبلّور، ثم مالت وأمسكت بوجهه وقبلته. لم يستجب لها، أخذت تغني الشعر الجديد، ولكنها اكتشفت أنه ليس معها، ولا يبدو حتى أنه ينصت إليها، نهضت وارتدت ثوبها في ارتباك ثم جلست بالقرب من قدميه وتطلعت إليه في صمت، سمعته وهو يقول: يجب أن أغادر بغداد، لو بقيت فيها فسيقتلني إسحاق الموصلي لا محالة، تطلعت نحوه مفزوعة، كانت تعلم هذا الأمر بصورة غامضة، ولكن هل تصل المنافسة بينهما لحد القتل؟ ولكن الرعب الذي يظهر على وجهه يجعل الأمر حقيقة، قال: أنت أيضًا يجب أن تذهبي الآن حتى لا تأخذي نصيبك من القتل.

كان عليه أن يودع عالمه القديم، فمهما حاولت أن تقاوم الابتعاد عنه، فالقوى التي تهدده أكبر منهما معًا، ولكن قبل أن يغادر بغداد ليلحق بالقافلة السائرة إلى المغرب قرر أن يقوم بمحاولة أخيرة يمكن أن تنقذ حياته. سار إلى القصر الذي تسكنه «عريب»، ارتمى تحت قدميها وأخذ يقبلها وهو يبكي: لم أعشق إلا أنتِ، أنقذيني وامنحيني حمايتك. نزعت قدمها وهي تقول في برود: الرجل الذي يمنحني الحب والحماية لا يريدك في المدينة، إذا أردت البقاء فتحمل مصيرك، ولكني لن أكون مسئولة عن إنقاذك، وتركته ملقى على الأرض ومضت.

كانت عريب مغنية بغداد الأولى، وكانت تغني للخليفة وهي مكشوفة الوجه، ولكنها لم تكن ذاهبة للخليفة، كانت على موعد مع الوزير الأول « ابن البرمكي»، قالت وهي تخلع ثيابها: لقد تخلصت منه كما أمرتني، قال: لا أريد لأحد أن ينافسني في جسدك، وقضت الليل عارية في أحضانه، وفي الصباح ألقت عليها الشمس بعضا من أشعتها فلم تستطع الإمساك بها، وتقلبت حتى أحست بجسد ابن البرمكي بجانبها، كان جسدها منهكا بلا متعة، قالت: لقد ماتت زوجتك منذ زمن وأنت وحيد الآن، لماذا لا تتزوجني؟ ولكنه غادر الفراش على الفور، ارتدى عباءته وهو يقول: أنا في حاجة لمن يدعم مركزي عند الخليفة وأنت ستهبطين بي. أرادت أن ترد عليه ولكن غصة أحرقت صدرها، ودفعت بالدموع إلى عينيها، وهبط ابن البرمكي على الفور، ركب جواده وتوجه إلى حمام المدينة. كانت له مقصورته الخاصة التي لا يجرؤ أحد على دخولها، وكان كل شيء مكتملا في انتظاره؛ المناشف والليف والزيوت المعطرة، إلا شيئًا واحدًا؛ العبد أفلاطون، جلس جامدا دون أن يجرؤ على التذمر أو الانصراف، كان في حاجة لأصابعه وهي تسرح فوق جلده، لم يخيب أفلاطون انتظاره، ظهر بعد فترة عاريا تمامًا إلا من مئزر حول وسطه، ضمخ يده بالزيوت المعطرة وأخذ يدلِّك جسد الوزير، يدعكه ويفركه ببعض من الخشونة حتى بدأ في التأوه. كان ملمس أصابعه يملأ جسد الوزير بنبضات غريبة؛ توقًا وخلاصًا من توتر يجعله مشدودا دائمًا، كان يخشى من غدر الخليفة وخيانة الأصدقاء، ولكن أصابع أفلاطون تبدد كل هذا، تبعث داخله نوعا من الطمأنينة والاكتفاء الوقتي، ولكن أفلاطون كان يفكر كيف يتخلص منه سريعا. كان اليوم هو موعده الأسبوعي مع قاضي المدينة.

كان القاضي صغيرا في السن وفتيًّا رغم منصبه الكبير، وكان طموحا فوق العادة، بدأت علاقته بأفلاطون حين أخرجه من السجن، كان سيده السابق قد وضعه في السجن حين شك في وجود علاقه بينه وبين زوجته، لم يكن يدري أن أفلاطون لا يملك الرغبة في الانجذاب نحو أي امرأة مهما بلغت

درجة جمالها، الزوجة هي التي كانت تطارده، وهي التي وشت به بعد أن يأست من استجابته، وكان مقدرا ألا يخرج من السجن أبدًا لأن تهمته غير واضحة، ونفوذ سيده السابق كان قويًّا، ولكن القاضي أنقذه، فتح له باب الحرية والهواء الطلق، وتحول شعور أفلاطون من الامتنان العميق إلى العشق المتناهي، رغم أن القاضي لم يسمح له إلا بأن يدلِّك قدميه، فقط قدميه، كل مساء يحمل قوارير الزيوت المعطرة ويجلس بالقرب من قدمي القاضي، يدلكهما ويحكي له عما حدث في يومه، وعندما جاء على ذكر الوزير الأول برقت عينا القاضي بشدة، هذا هو المنصب الذي يطمح إليه، العقبة الوحيدة هي وجود الوزير. نهض مسرعا وفتح خزانته الخاصة وأخرج منها قارورة سوداء، قال لأفلاطون: اخلطها مع الزيوت التي تدلِّك بها جسم الوزير، وعندما سأله أفلاطون ببلاهة عما فيها ردَّ عليه في حزم أن هذا ليس من شأنه.

وحتى يستكمل بقية خطته كان عليه في اليوم التالي أن يذهب لزيارة قصر أمير الجيوش، كان في حاجة لحليف قوي، رغم أنه يعرف أنه يحارب في مكان ما على حدود الهند، ولكن ابنته ياسمين كانت في القصر، رآها مرة واحدة في مجلس أبيها، كانت رقيقة مثل قمر وحيد، وكانت تقرأ الشعر بصوت حالم كأنها تتنفس في أثناء النوم، من يومها وهو يحلم بأن يتزوجها، أن تحتل فراشه، الذي لم يكن شاغرا قط، ولكنه كان يشعر بأنها الوحيدة التي ستستقر فيه، وهي التي سترفع من شأنه، وعندما أعلن الخدم عن وجوده وعن رغبته في مقابلتها كانت مندهشة من جرأته على مقابلتها في غياب أبيها، ولكنها لم تكن غريبة عن مجالس الرجال، كانت تفضل مخالطتهم والحديث معهم أكثر من النساء، وأبوها لا يجد غضاضة في ذلك؛ لذا فقد خرجت إلى القاضي الذي كان جالسا قلقا، قال لها على الفور: لقد عشقتك منذ رأيتك وطلبت من أبيك الزواج بك ولكنه اشترط موافقتك، وهذا أمر غريب، ولكني أردت أن أعرف رأيك، تأملته قليلا ثم قالت: لا أعتقد بأنني أريد الزواج بك، أنت تشبه أبي كثيرًا وأنا أكره أبي وأمثاله، وقبل أن يفيق من دهشته كانت قد نهضت وغادرت المجلس.

تنفست الصعداء وهي تطل من النافذة وتراه ينصرف راكبا بغلته، تعجبت أن هذا الرجل يحاول أن يمتلكها دون أن يسعى للتعرف عليها، ولكنها انتظرت حتى المساء ليأتي الغلام معروف المكلف بخدمتها. ارتدت ملابسها، ووضعت على وجهها قناعا شفيفا يظهر سواد عينيها ومدى تألقها. وقاد جعفر الحمار الذي تركبه إلى الرصافة بجوار نهر دجلة، كانت هناك نار مشتعلة تجلس حولها دائرة من الرجال والنساء الذين تحب مجلسهم، معظمهم شعراء أو محبون للشعر، وكان القمر كاملا ومستديرا ومائلًا للصفرة. جلست بينهم وهي تتابعهم في شغف، كل مرة ينهض واحد ليلقي قصيدة، ولكنها كانت في انتظار شاعرها المفضل، وأحست بقلبها يخفق عندما نهض أبو عبادة الطائي أخيرًا، بدأ يلقي بالكلمات فتتحرك داخلها مثل جمر من نار، كانت تتمنى أن يراها، وأن يضع أصابعه على خدها، وأن يسمع إليها جيدا وهي تعترف له بحبها، ولكن أبا عبادة كان يحب فتاة اسمها شغف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

حاجب الخليفة

كان لأمير المؤمنين جعفر بن المنصور حاجب يدعى «عجلان» لم يسمع صوته في يوم من الأيام ولم يره يتحرك من مكانه، دائمًا في نفس المكان عند باب قاعة العرش لا يظهر على وجهه أي انفعال، وسواء كان القادم أبو مسلم الخرساني، أو سفير، أو أحد المهرجين، لا تتغير ملامح وجهه، لا يبالي سواء كان عطاء الشاعر سخيًّا، أو كان عطاؤه أمرا بالقتل، وقد يكون غريبا أن يهتم الخليفة الذي يحكم ثلث العالم، ويعاني من الثورات والفتن ويضطهد مَنْ في الشام ويهاب مَنْ في فارس، من الغريب أن يهتم بأحد الحجاب.

ولكن الذي حدث أن الخليفة كان خالي البال ذات صباح - وهذا أمر بالغ الندرة - فأخذ يتأمل كل شيء في القاعة التي يتوسطها عرشه، واكتشف لدهشته الشديدة أنه لم يرها قبل الآن بشكل جيد، وأن هناك العديد من النقوش والزوايا والنوافذ والتحف المتناثرة لم يرها قبل الآن، ثم رأى هذا الحاجب في وقفته المتصلبة كأنه جزء من الباب الذي يقف بجانبه فلم يستطع أن يهمله بعد ذلك. كان بقية الحجاب ينتهزون فرصة خلو قاعة العرش من الزوار المهمين لكي يرتموا تحت أقدام الخليفة يعرضون مطالبهم، بعضهم يرتجف فزعا، وبعضهم يبتسم خشية، ولكن هذا الحاجب لم يفعل شيئا من هذا، لم يكن يتصنع أو يكتسب هيئة فوق هيئته، ولكنه كان هكذا دائمًا.

وللحقيقة فقد جرب الخليفة معه كل الوسائل، تعمد أن يبطئ من خطواته عندما يكون بجانبه، وتعمد أيضًا أن يقف في مواجهته كأنه يفكر في أمر خاص، وعندما يقف الخليفة يقف قلب القصر كله، وتعمد أن ينظر إليه شزرًا أو يبتسم له ودًّا، ولكن الحاجب لم يظهر أي نوع من رد الفعل، ظل صامتا لا واجما ولا مشرقا كأنه يلبس قناعا جيد الصنع. فكر الخليفة أكثر من مرة في أن يتخلص منه وأن ينقله إلى أي مكان في القصر بعيدا عنه، تمنى أن يجد سببا تافها لكي يقتله، ولكنه لم يفعل شيئا من هذا.

وذات صباح استيقظ الخليفة مبكرا وارتدى ثيابه أسرع من العادة ولم يتناول فطوره، وكانت خطواته سريعة إلى قاعة العرش فلم يجد الحاجب في مكانه، وأحس بالارتياح، ولكنه عندما نظر إلى العرش وجده جالسا عليه ووجهه صامتا تمامًا، لا واجمًا، ولا منشرحًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دورة السلطان

إنها حكاية خرافية بطبيعة الحال، فهارون الرشيد مثل أي حاكم لم يكن يجرؤ على الخروج من قصره ليلا، سواء كان متنكرا أم لا فالخطر قائم؛ لأن الناس تشم رائحة السلطان مهما بالغ في التنكر، ولكن لعن الله العوام فهم يحبون دائمًا هذه الصورة، يعيشون دائمًا ذلك الحلم الوردي الذي يأتي فيه السلطان متنكرا، فيستمع إلى شكواهم ويرق قلبه لهم ويقيم لهم ميزان العدل في منتصف الليل، وحتى هارون الرشيد لم يكن مجنونا ليفعل ذلك.

المهم هبط الرشيد متنكرا وفي صحبته جعفر البرمكي إلى قاع المدينة؛ حيث يجلس حثالة الناس يجترون أحلام اليقظة، وجلس الخليفة يستمع إلى كل أصناف الهذيان، وهو يقاوم الضحك وهتف أحد الصعاليك في حرقة: لن تحل مشاكل بغداد إلا إذا أصبحت أنا الخليفة لمدة ثلاثة أيام.

وهمس هارون الرشيد لنفسه: لم لا؟ إنها فكرة مجنونة مثل كل الأفكار الخرافية، والرشيد ملَّ الجلوس منتصبا طوال هذه السنوات على كرسي السلطنة، وهذا الاقتراح سوف يعطيه ثلاثة أيام من الراحة.

وفي اليوم الثاني طاف المنادي في بغداد يعلن عن قيام سلطان جديد على الجميع الامتثال لأوامره، وقد أعفى هذا الأمر الحريم بالطبع، وصعد الصعلوك إلى عرش الخلفاء، وبدأ اليوم الأول من أيام حكمه الثلاثة.

قال لهم: قودوني إلى سوق المدينة فقادوه، شاهد السوق كما لم يره من قبل؛ التجار في وفرة من الأدب وقلة الطمع، والبضائع المختبئة كلها ظهرت، والبضائع الفاسدة كلها قد اختفت، استمع إلى التهاني وشاهد صفوف الهدايا، فلم يقبل أي هدية، وأصدر أوامره بتخفيض الأسعار كلها إلى النصف، وفي الحال تغير كل شيء؛ اكفهر وجه التجار، وانشقت الحواري عن آلاف الفقراء وهم يرفعون أيديهم بالدعاء، وحاول التجار أن يغلقوا الحوانيت فهددهم بإرسالهم إلى السجن، وللمرة الأولى أكل الفقراء اللحم في طعام العشاء وناموا ببطون ممتلئة.

في اليوم الثاني قال لهم: قودوني إلى أزقة المدينة الخلفية، وكانت رائحتها لا تطاق والقمامة تكون فيها سلسلة من التلال. أمر بتنظيف كل الحواري، وأن ينظف كل إنسان أمام بيته، وأن يوصل السقاءون الماء العذب إلى كل المنازل، وأن ترمم كل الحمامات ونزل هو بنفسه لينظف مع الجميع. سرت في المدينة حياة جديدة، وبدأت الحواري تتخلى عن لونها القاتم ورائحتها الثقيلة، وعندما وقف الصعلوك فوق مكان عالٍ وشاهد المدينة تحت قدميه أحس بأحاسيس غريبة كأنه قد ملك كل شيء وأصبح قادرا على صنع أي شيء، وأحس بأنه لم يولد حقًّا إلا ليكون سلطانا.

وفي اليوم الثالث قال لهم: قودوني إلى سوق الذهب والجواهر، وسعى إليه تجار الصاغة في حذر ولكنه تقبل هداياهم في بساطة، وطاف في المحال فاستوقفه عقد بديع من اللؤلؤ فأسرع التاجر بإهدائه إليه، وفي المحل الثاني تردد التاجر عندما وقف السلطان أمام مجموعة من الزمرد ولكنه أخذها رغما عنه، وفي المحل الثالث استولى على كل شيء، ولما اعترض التاجر أمر بوضعه في السجن. عاد في نهاية اليوم بحصيلة كبيرة من المجوهرات، وبنصف تجار الصاغة في السجن.

وفي نهاية اليوم قال له هارون الرشيد في حيرة: لماذا فعلت هذا؟ لقد كنت سلطانا جيدا؛ في اليوم الأول عدلت، وفي اليوم الثاني عملت وأنصفت، ولكنك في اليوم الثالث سلبت وظلمت.

قال الصعلوك: لقد اختصرت دورة السلطان وسنوات حكمه في ثلاثة أيام، هكذا تبدأ كل دورة؛ تبدأ بحلم العدل، وتنتهي بواقع السلب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

غناء الروح

قال إبراهيم الموصلي لابنه إسحاق: يا بني قد أعطيتك خلاصة روحي، وكل ما بغيته أن تكون أعظم المغنين في بغداد، فهل تبغي شيئا آخر؟

قال إسحاق: أريد أن أستمع إلى ابن جامع.

وتشاغل الأب بضبط الأوتار، كان إسحاق لا يرى العالم إلا من خلال أذنيه، ولا تتشكل روحه إلا بذبذبات الأصوات، وفي بيت مثل بيت أبيه، لم تكن الأصوات تهدأ لحظة واحدة. ومرت أيام كثيرة وامتلأ وجه إبراهيم بالغضون والتجاعيد وأخذت مساحة صوته تضيق يوما بعد يوم، وقال لابنه: قد علمتك الضرب على الآلات وأعطيتك سر الأصوات، فهل تبغي شيئا آخر؟

قال إسحاق: أريد أن أستمع إلى ابن جامع.

وكانت هناك جارية تغنى بصوت رديء؛ فنهض الأب ليؤدبها، وظل إسحاق ينتظر دون جدوى. وأخذه أبوه إلى مجلس هارون الرشيد وجعله يغني في حضرة عظماء بغداد. ومرت أيام كثيرة تحشرج فيها صوت إبراهيم ورقد على فراشه خائر القوى، وقال لابنه: الآن وقد غنيت في مجلس هارون الرشيد وبلغت الذروة، فهل تبغي شيئا آخر؟

قال إسحاق: أريد أن أستمع إلى ابن جامع.

وتمتم الأب: كنت أعرف أنك لن تتركني أموت مرتاحا.

وسارا معًا إلى ابن جامع، كان شيخا عجوزا في سن أبيه، واهن القوى مثله، طلبا منه أن يغني فضحك بصوت أجش وعرض طعاما وشرابا عليهما ثم انطلق يغني. وفي البداية فكر إسحاق في نفسه أن صوت ابن جامع قد ضاع كما ضاع صوت أبيه، ولكن لم يكن ثمة شيء يضيع في الفضاء، كانت نبرات الصوت تتجمع مثل حبب الماء، وتتكاثف كنفح العطر ثم تخترق نفس إسحاق، فإذا فيها دفء الصحاري وخشونة الصخر ورقة الخُزامَى وبرودة الآبار وملوحة الفراق وعذوبة رضاب المحبين. وأخذ إسحاق ينتفض، من بين كل الأصوات التي عرفها، لم يسمع صوتا يخز روحه كهذا الصوت، لم يعرف صوتا يملأ قلبه بالبهجة والوحشة والتفجع والحنين، لقد عاش أكثر مما ينبغي سجينًا لأوتار أبيه، كانت هناك نساء كثيرات عليه أن يحبهن، وأحزان كثيرة عليه أن يسلاها، وجراح عميقة عليه أن يستعذب ألمها قبل أن يقدر له أن يمتلك مثل هذا الصوت الذي لم يخضع يوما لمجالس الأمراء. الآن يعرف لماذا سبق أبوه ابن جامع إلى مجلس الأمراء والخلفاء، لماذا استبدل الأصوات بالذهب، والهواء الطلق بالتوحش والوحدة والصدق، اختار الحياة. وبكى إسحاق لأنه لم يسمع هذا الصوت منذ زمن، وبكى أكثر لأن أباه قد ساقه إلى مجلس الرشيد قبل أن يعطيه الفرصة ليغني من أجل روحه القلقة.

وعندما انصرفا في آخر الليل كان إسحاق ما زال يرتعد، فقال الأب: كيف رأيت ابن جامع يا بني؟

فلم يقدر على الإجابة، زمَّ شفتيه حتى لا تخرج الكلمات رغما عنه، ألح الأب، وأخيرا قال إسحاق: ذهبت ولا شيء أكبر عندي منك يا أبي، فلما بدأ يغني أخذت تصغر، وتصغر حتى صرت لا شيء.

قال الأب: أعرف يا بني، كان يجب عليَّ أن أقتله منذ زمن طويل ولكن فات الأوان.

وظلا يسيران حتى أطل الفجر على بغداد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللص الراوية

كان «حماد» لصًّا عاديًّا، يسعى كل ليلة إلى رزقه مثل بقية اللصوص، وسواء كان هذا الرزق قليلا أو كثيرًا فقد كان يذوب في الليلة نفسها في خمارات بغداد وعلى حجور الغواني. كان لصًّا عاديًّا، لم يكن بأذكى منهم ولا أكثر حماقة، كل ما يميزه فقط أنه كان يجيد القراءة والكتابة؛ لأنه قضى طفولته متتلمذا على أيدي أكبر العلماء في مسجد المنصور ببغداد، ولكن هذا لم يكن مهمًّا في عالم اللصوص فاللص يسرق ويبيع، لا يقرأ ولا يكتب. ذات ليلة كان حماد ورفاقه يستعدون للسطو على أحد البيوت، لم يكن يعرف اسم صاحب البيت، كل ما في الأمر أن أحد الكشافين أخبرهم بأن البيت سوف يكون خاليا لأن صاحبه سوف يأخذ جواريه في نزهة لبلاد فارس؛ وبذلك يستطيعون أن يعملوا بهدوء. كان البيت مريحا وهو خالٍ، ولكنهم لم يجدوا شيئا، واللص المحترف لا ييأس بسهولة، بحثوا عن أي شيء ثمين، بحثوا عن الأواني الفضية والنحاسية والملابس والرياش، ولكنهم لم يجدوا شيئا إلا عدة صناديق مغلقة بأقفال محكمة، حاولوا أن يفتحوها بهدوء فلم يستطيعوا لأن فتحها سوف يثير ضجة يسمعها الجيران، وهكذا تعاون الزملاء اللصوص معًا وحملوا الصناديق إلى الوكر حيث يتم فتحها هناك بهدوء.. وكانت المفاجأة الثانية عندما فتحت الصناديق وكانت كلها بلا استثناء تحتوي على كتب عديدة، كتب من الجلد والورق والقماش، مكتوبة ومطوية ومرصوصة، كأنها تسخر من منظر اللصوص المزري الذين انصرفوا ساخطين شاعرين بالإحباط، ولم يكن وراء حماد ما يفعله فجلس بجانب الصناديق وتأمل الكتب ثم تناول واحدًا منها، كان كتابا في الفقه فألقاه في ذعر، وكان الثاني في الفلسفة فلم يفهم منه شيئا، ولكن الثالث كان يروي أخبار العرب، كان مليئا بالأسماء والأشعار، وكانت بقية الكتب كذلك مليئة بشعراء الفخر والرثاء والحب، بأخبار الملوك والشعراء والعشاق، وببطء أخذ حماد يدخل عالم الكلمات الغريب يقرأ عن عوالم لم يرها ولم يسمع بها، أخذت الصحراء تنبض أمامه كأنها قلب حي، كأنها حلم لا يذوب، وجاء الصباح وهو ما زال يقرأ واعتذر لرفاقه عن الخروج معهم ليلا، وكلما واصل القراءة أحسَّ بأنه يرتفع عن قاع المدينة، يسمو عن عالم اللصوص، يحلق بعيدا مع الفرسان والشعراء، يجالس الخلفاء والندماء، يحلم ويبكي ويأسى، ويشعر بنوع غريب من البهجة.

هجر حماد اللصوصية وتفرغ للشعر والرواية، أصبح اسمه حماد الراوية. كان يستطيع أن يروي مائة قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء، وذاع صيته وجالس الوزراء والأمراء والخلفاء وعانى مما يعاني منه الندماء، عانى من غضب الخليفة المفاجئ ومن رضاه المفاجئ، تعود على المنع والعطاء، على التزلف لكل أمير والانحناء أمام أي حاكم، والاحتراز دائمًا من صاحب الشرطة، وأصبح شعره يثير الرضا والسخط بنفس الدرجة، وعاش بين الثراء والإملاق، وفقد الأمن والسلام اللذين كان ينعم بهما في عالم اللصوصية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

البحث عن جارية

في لحظة من لحظات الملل والإملاق، باع «مطيع بن إياس» جاريته «جوهر». وما إن خرجت من داره حتى أنفق كل النقود التي باعها بها، وتبدد آخر درهم فأحس بالحنين طاغيا إليها. ولم تكن أسواق النخاسة تعترف بالحنين، ولم يرضَ النخاس بمقايضة حتى لقاء كل قصائد الدنيا، وكانت «جوهر» حزينة مثل نجمة آفلة. وحكى ابن إياس مأساته فلم يصدقه أحد، لم يكن بالذي يخلص لجارية واحدة أو يكتفي بشرب كأس واحدة.

لم يكن أمام مطيع إلا الوقوف بباب الخليفة، وتدبيج آخر قصائد المديح. وظل واقفا ثلاثة أيام حتى فرغ موكب الشعراء وأصحاب الحاجة وسمح له أخيرًا بالدخول. وضحك الخليفة المهدي كما لم يضحك من قبل. ولم يكن في العادة كريما، لكنه ألقى بالمال لمطيع وهو يهتف به: أسرع واسترد جاريتك.

أسرع إلى سوق النخاسة، ولكن النخاس كان قد تعجل الربح فباعها إلى مغنٍّ عجوز، وتعرف مطيع على بيته بالأنغام النشاز الخارجة من النوافذ، ولكن المغني اعتذر، فقد وجدها أجمل مما يجب ووجد نفسه عجوزا أكثر مما يطاق؛ فباعها لصائغ يهودي كان في طريقه إلى الكوفة.

وبدأ مطيع رحلته اللاهثة، وفي الطريق أخبره ثلاثة من رجال القوافل أن ذلك اليهودي قد قابلهم في الطريق ومعه جارية كأنها درة يتيمة. وفي سوق الصاغة بالكوفة حاول كل رجال الصاغة إقناعه بأن من الأفضل أن يستثمر أمواله في الذهب والدر، ولكنه عثر على دكان اليهودي فأخبره آسفا بأنها مرضت منه فاضطر لبيعها بالخسارة لقس نصراني ينقع النبيذ في الدير دون جدوى؛ لعل الجارية تخفف من الحزن الثقيل الذي كان يجثم فوق صدره. أحس مطيع بأنه يدفع ثمن سنوات المجون والتذلل على أبواب الخلفاء، وبذل الشعر دم القلب للتكسب. كان يبحث عنها وعن مطيع بن إياس الذي افتقده طويلا، ولكنها لم تكن موجودة في الشام، وأخبره القس بأنه كاد أن يحرم من دخول الدير بسببها؛ لذا فقد باعها لتاجر حرائر في سوق دمشق. وأخبره التاجر بأنه زهد في البيع ولبث بجانبها يتأمل ألوان عينيها، وأوشك أن يغلق الدكان ويكسوها كل ما لديه من حرائر فأسرع ببيعها خشية الإفلاس. وأخبره شاعر جوال بأنه عجز عن قول الشعر بعد نظرة واحدة إليها، وأخبره فارس مرتزق بأنه كسر سيفه وأقسم ألا يحارب بعد أن رآها، وأخبره أحد الخوارج بأنه ارتد، وأحد الصوفية بأنه تزندق، وأحد المغاربة بأنه انسحر. وضاع أثر «جوهر» بين الأيادي التي تداولتها، بين الذين باعوا واشتروا في لحمها.

لم يعرف ابن إياس كم يوما قضاها في هذا الرحيل اللاهث. عاد إلى داره وحيدا خائب السعي كأن «جوهر» لم تكن قط، ولو رآها في الطريق - لكثرة ما تداولتها الأيدي وما مسَّ جسدها من رجال - فلن يعرفها ولن يبالي بالتعرف إليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

نعل النبي

وقف الرجل أمام الخليفة المهدي، يرتدي زيًّا فقيرًا عليه رمال السفر، يشعّ من عينيه بريق غريب، وفي يده منديل مصرور فتحه ببطء أمام الخليفة وهو يقول: هذه هدية لم يحضر أحد مثلها من قبل يا مولاي.

وأخرج من الصرة نعلًا قديمًّا تقطعت سيوره وقبّله في تأثر وهو يقول: هذه نعل رسول الله ، وقد أهديتها لك.

وردد الجميع الصلاة على النبي، ولكن ولا واحد منهم صدق أن هذه حقًّا هي نعل الرسول، وقال الخليفة المهدي في بساطة دون أن يجادله: هاتها.

وناولها له الرجل فأخذها الخليفة وقبلها، ثم وضعها على رأسه وهتف بالخازن: أعطِ الرجل عشرة آلاف درهم.

وبرقت عينا الرجل من الفرح، وظل يواصل الانحناء أمام الخليفة حتى انصرف. بعد ذلك ألقى المهدي النعل إلى جانبه بلا اهتمام تقريبا، والتفت إلى من حوله ليواصل معهم الحديث السابق، ولكن الوزير أبا الفضل تقدم مدهوشا وهو يقول: ولكن يا مولاي، لقد أمرت له بعشرة آلاف درهم، ولعله يكذب.

قال المهدي بهدوء: بل هو كاذب بالفعل، إنني أعلم أن رسول الله لم يرها فضلا عن أن يكون قد لبسها، ولو كذبناه لخرج وقال للناس: لقد أتيت أمير المؤمنين بنعل النبي ولكنه ردها عليَّ، وسوف يكون هناك من يصدقه ومن يكذبه، ولكنهم سوف يميلون إليه؛ فالعامة تميل للعامة، والناس من طبعها مناصرة الضعيف على القوي، وهكذا، إن كان صادقا فقد اشترينا نعل النبي الكريم، وإن كان كاذبا فقد اشترينا لسانه.

كان الخليفة قد اشترى ما هو أكثر من ذلك؛ اشترى الوهم الذي يمكن أن ينزل للشارع فيعلق الناس عليه آمالهم، يضيعون خلفه كل الشكايات والمظالم اليومية، ويملئون النعل القديمة برغبتهم التواقة إلى العدل، كان الخليفة يشتري وهم العامة، وحلم الفقراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ضيعتان

لم يتوقف المغني «دحمان» إلا بعد أن بلغ الخليفة المهدي أقصى درجات الطرب. شق ثيابه، وشرب كل ما أمامه من كئوس، وارتمى في حجور كل الجواري، وهتف في دحمان: كان المغنون فحولا حتى ظهرت أنت فصاروا خصيانا، سلني ما شئت.

قال دحمان في دقة وترتيب: ما أطلبه كثير يا مولاي.

قال الخليفة في غضب: لا شيء يكثر على أمير المؤمنين، سلني ما شئت.

قال دحمان: ضيعتان بالمدينة يقال لهما «ريان» و«غالب».

قال الخليفة على عجل: هما لك، وعاد إلى مجلس أنسه، وفي الصباح لم يتذكر ما حدث بالأمس، ولكن عندما وصل الأمر إلى الوزير الكاتب عبيد الله أدهشه أن الخليفة قد أمر بذلك. كانت هاتان الضيعتان بالذات من ضياع الخلفاء، لم يملكهما إلا خليفة ولم يورَّثا إلا لخليفة، واستمر الأمر هكذا حين آلت التركة من بني أمية إلى بني عباس، ثم يأتي هذا المغني المولى لينتزعهما في لحظة هوس! سار الوزير الكاتب إلى الخليفة، كان ما زال مبتهجا من آثار سهرة الأمس، ولكن الوزير أثار رعبه: يا مولاي، إذا أخذ هاتان الضيعتان ضاعت الدولة، وطالب كل أمير أو قائد أو خارجي بحصته منها، وهاتان الضيعتان لم تكونا من قبل إلا لخليفة فكيف تصيرا لمغنٍّ؟

وطارت النشوة من رأس الخليفة، وقال في حيرة: ولكني لن أستطيع أن أتراجع؛ لقد أعطيتهما له على رءوس الأشهاد.

قال الوزير: لعله يرضى ببيعهما.

ولكن دحمان لم يرضَ. ذهب الوزير الكاتب إليه. وأخذ يفاوضه حتى بلغ الثمن خمسين ألف دينار، ولكن دحمان لم يتراجع. كان يراوده حلم طفولي، عندما كان لا يزال مولى صغيرًا لا يملك من الدنيا غير قيد العبودية، حين ينام في ظلام هاتين الضيعتين ويحلم أنه سيد له القدرة على أن يملك، وهو الذي كان دائمًا مملوكا. حلم بالكثير وكان دائمًا يخاف من هذا الحلم. يعاني من جوع دائم وعطش ممض نحو تحقيقه، كان يعرف أنه لن يصير حرًّا إلا إذا امتلك هاتين الضيعتين، وألح الوزير عليه دون جدوى. وفي النهاية عاد إلى الخليفة المهدي الذي قال في أسى حقيقي: يا للمسكين، لم أكن أظن أنه بهذه الحماقة.

وبينما كان دحمان متوجها إلى ضيعتيه خرج عليه بضعة من قطاع الطرق فقتلوه شر قتلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

في وسط الأحواز

سمعت جلنار أحد الأتباع وهو يصيح في يأس: هذه القافلة تابعة للخليفة المعتمد بالله، ولا يحق لكم الاعتداء عليها، وتبعها صوته وهو يطلق صرخة عالية ثم انكتم الصوت، هل قتلوه؟ لم تجرؤ جلنار على النظر من خلال أستار المحفة التي تجلس بداخلها، سمعت صيحات وصليل سيوف وصهيل أحصنة، ثم لمحت ظهور حراس القافلة وهم يلوذون بالفرار، ثم وصلت وجوه سود، عبيد بلون الفحم، أزاحوا الأستار وحدقوا فيها قليلا ثم أعادوا إسدالها، لم يخاطبها أحد بكلمة، ولم يمد أحد إصبعه نحوها، ولكن الصرخات ظلت تتعالى من الخارج، ثم ساد هدوء قاتل، هل مات الجميع؟ هل بقي أحد من قافلتها؟

بدأت المحفة ترتفع من على الأرض مرة أخرى، هناك من يحملونها ويسيرون بها سريعا، هل هم حراسها، أم الذين هاجموها؟ وإلى أين يذهبون بها، وما مصيرها؟ كل شيء ضاع في لحظة؛ الأحلام والأوهام التي كان أبوها يصبها في أذنها كل يوم؛ ستصبحين زوجة الخليفة العباسي، ستنجبين ولدا يحكم هذا العالم الممتد من حدود الهند حتى حافة المحيط، أنتِ الزوجة الشرعية التي يحتاج إليها هذا العالم. ولكن في أول خروج لها للعالم الخارجي، ها هم قطاع الطريق يضعون نهاية لهذه الأحلام. طوال عمرها وهي محتمية بقصر أبيها الفاخر في مدائن فارس، كل ما تريده يصل لأطراف أصابعها، في كل يوم تأتي الجواري لتحميمها وتعطيرها، ثم يأتي المعلمون لتلقينها الدروس بينما هناك من يعزفون لها الموسيقى، تقضي كل وقتها في تكاسل ممتع، ولا تدري كيف وصل خبرها للخليفة المعتمد فأرسل إلى أبيها يطلبها للزواج، وليته ما فعل.

بعد سير طويل يتوقفون، ينزلون الحافلة على الأرض، يشير لها أحدهم حتى تهبط، تراهم للمرة الأولى؛ جنودًا كلهم سود، يمسكون السيوف والرماح، متوحشين بالتأكيد، ولكنهم لم يظهروا لها ذلك حتى الآن، لم يحاولوا اغتصابها أو التحرش بها، يشيرون لها دون صوت، كانوا يقفون على حافة نهر جارٍ، وهناك أكثر من قارب في انتظارهم، لا طاقة عندها للاعتراض، حملتها أقدامها بصعوبة للقارب الأول، أوشكت أن تسقط ولكن واحدا منهم أسندها حتى استطاعت أن تجلس في القارب المهتز، امتلأت القوارب الأخرى ببقية الجنود وبدأت الرحلة في النهر، كان نهرا غريبا يضيق ويتفرع مثل أصابع اليد، ضحلا في بعض المواضع، محاطًا بأعواد الغاب في مناطق أخرى، كأنها جدران مقامة على جوانب النهر، لا تكاد ترى ما خلفها، كانت تشهق ولكنها تعرف أنه لا جدوى من البكاء أو الصراخ، اختفى فجأة كل ما كان يربطها بالماضي، لا خدم ولا عبيد، بل إن العبيد أنفسهم هم الذين يتحكمون فيها الآن. تغير مشهد النهر، تفرع إلى شرايين أصغر وأكثر دقة، ظهرت بوابات وحواجز من قصب الغاب السميك، وظهر المزيد من الحراس السود، يراقبون النهر ويفتحون البوابات ليسمحوا للقوارب بالمرور ثم يغلقونها خلفهم، تدخل في تلافيف عالم غريب محكم الحراسة، ابتعدت عن كل شيء ولا أمل لها في العودة لعالمها القديم، ولو فكر أبوها أو الخليفة أو أي أحد فلن يتمكن من الوصول إليها وسط هذه المتاهة. توغلت القوارب في النهر بلا نهاية، تمتلئ الأرض حولها بالمستنقعات وبالوجوه السود رجالا ونساء وهم يتطلعون نحوها في فضول، امتدَّ أمامها سور ضخم، مغروز وسط المستنقعات، عليه أبراج وحراس، تفتح بوابة ضخمة، تكتشف أن داخلها مدينة ضخمة، برزت أمامها فجأة من وسط طين المستنقعات، بيوت من مختلف الأحجام، كلها مبنية من قصب

الغاب وطين المستنقعات، مدينة ثابتة ومستقرة فوق تفرعات الأنهر، طرقها جسور معلقة فوق أقنية متشابكة، أنزلوها من القارب، لم يعد هناك داعٍ لوضع القيود حول يدها أو حتى إمساكها، إلى أين يمكن أن تهرب؟

ساروا بها إلى أكبر هذه المنازل، كانت ترى الماء وهو ينسال تحت قدميها، بدأت ترى وجوها مختلفة، رجالًا ونساء، ألوانهم ليست سوداء، فيهم عرب وفيهم فرس ووجوه أخرى لا تعرف هويتها، كلهم يعملون، يصطادون الأسماك ويجففون المجاري الضحلة ويقطعون أعواد الغاب ويصنعون منها رماحا. قادوها عبر ممر طويل ينتهي إلى قاعة واسعة، في صدرها وفي مكان مرتفع يجلس شخص مائل للسمرة ولكن يبدو أنه عربي، أوقفوها أمامه وتراجعوا جميعا، كانت ترتعد وهو يحدق فيها صامتا، كانت أسيرته ولم يكن في حاجة ليقول لها شيئا، ولكنها وجدت صوتها أخيرًا بعد ساعات من الرضوخ والصمت، قالت: من أنت، وما هذا المكان الغريب؟

قال: لا يوجد من لم يسمع عني إلا أنت، أنا «محمد بن علي» زعيم الزنج، وأنتِ في مدينتي «المختارة»، من أنتِ إذن؟

هادئ وغريب مثل المكان الذي يسكن فيه، ولكنه ليس مخيفا، قالت: أنا جلنار بنت همدان كبير تجار الري، وأنا عروس الخليفة المعتمد. ظل يحدق فيها، لا يريد أن يصدق ما سمعه، قال: كيف يمكن أن تكون امرأة مثلك، فتية وباهرة الجمال، عروسا لهذا العجوز المخرف؟

لم تدرِ بماذا تجيب، شعرت بأن تفاخرها لا قيمة له، ولكنها قالت: سوف أنجب له ولي العهد. نهض ضاحكًا: لن يستطيع، لا يمتلك القدرة، الأرجح أنه سيكلف أحد عبيده بذلك. لقد كنت حبيسة قصر أبيك أكثر مما ينبغي، لم تريْ فساد العالم، ولم تعرفي أن سبب الفساد هو الخليفة. لقد جمعت كل عبيد الأرض والمستضعفين فيها وثرنا عليه، بنينا هذه المدينة التي لا يمكن الوصول إليها حتى ننقذ العالم منه ومن أمثاله من الطواغيت، وحتى ننقذك أنتِ أيضًا، انضمي إلينا.

عيناه تبرقان، مصمم على إنقاذها، أم له رغبة فيها؟ عبرت الفكرة خاطرها سريعا، قالت حائرة: وما الفائدة مني؟ أنا مجرد فتاة ضعيفة، لا تجيد شيئا. أشار لها أن تتبعه، سارت خلفه في صمت، اجتازا طرقات طويلة ومتصلة، وطوال الوقت كانت ترى الماء يجري تحت قدميها، توقفا عند نافذة مسدل عليها الستار وأشار إليها أن تنظر من خلالها، خلفها قاعة واسعة، أكبر من القاعة التي كانوا فيها، ممتلئة بالنساء المتحفزات، فتيات في مثل عمرها، يرتدين ثيابا سوداء ملتصقة بأجسادهن، حافيات الأقدام وعاريات الرءوس، يقفن في مواجهة بعضهن البعض، يتقاتلن، يتلاكمن بأيديهن العارية، يصرخن في وحشية، يسقطن على الأرض ثم ينهضن ويواصلن القتال، بلا رحمة ولا رغبة في التراجع ولا شعور بالتعب، يتقاتلن بشراسة زائدة، راقبتهن وهي مفزوعة، كأن كل اللكمات موجهة إليها، أحست بخدر الألم يغمر جسدها، التفتت إليه مفزوعة: ما هذا؟ إنهن يتقاتلن كالرجال.

قال في هدوء: إنهن يتدربن، غدا أو بعد غد سيهجم علينا جنود الخليفة، ونحن نستعد لهم، لم يعدن من الجنس الأضعف، كل ما ترينه حولك رجالا أو نساء كانوا عبيدا يكسحون الأوساخ ويجففون المستنقعات وينقلون جبالا من الملح لقاء وجبة من طعام، كانوا يعيشون في الأوساخ ويموتون في الأوساخ، الآن قد نفضن عن أجسادهن كل آثار العبودية.

عادت تتأمل القتال الذي ما زال محتدما، خائفة منهن أكثر مما هي خائفة منه. تذكرت طفولتها الرخية في قصر أبيها، لم تكن في حاجة لمواجهة هذه الحياة القاسية، قالت: لقد نقلتهن إلى حياة أشد قسوة؛ بهذا لن يصبحن أمهات.. قال: ليس مطلوبًا منهن أن ينجبن ولي العهد ولكن أن يعشن أحرارا، في المساء ستشهدين وجههن الآخر.

كان المساء مختلفا، أضيئت «المختارة» بعشرات المشاعل، عكست المياه ألسنة لهبها وبدت المدينة أكثر تألقا، كانت تجلس بجانبه، ولبست كل النساء ملابس فضفاضة تكشف عن نحورهن وأذرعتهن. كان الجو دافئا ومشبعا ببخار الماء، والأجساد لامعة، تتحرك وتكاد لا تلامس الأرض وهي تغني وترقص، دقات طبول عالية تثير الرغبة في الأجساد، إيقاعات قادمة من إفريقية، كما قال لها، من الطفولة البعيدة لكل هؤلاء العبيد، قبل الأسر والاستعباد، وحول القاعة يجلس رجال متحفزين، جوعى وعيونهم مليئة بالرغبة، وأحست جلنار بجسدها يشتعل، وقلبها يخفق مع دقات الطبول، تريد أن تنهض وتدب الأرض بالقوة نفسها التي تفعلها النسوة، كن يحمن مثل النوارس ويدرن كالأفلاك، ثم تميل إحداهن وتختار رجلها، تتساءل جلنار وهي تكاد تشتعل من الداخل: هل هو زوجها؟

يضحك من فرط سذاجتها: الزواج هو أيضًا نوع من العبودية، أن تسخر المرأة كل جسدها لشخص واحد، قد لا ترغبه طوال الوقت، الشخص الذي تختاره اليوم قد لا ترغب فيه غدا.

تشهق في اندهاش، ولكن جسدها يئن وقد امتلأ بالرغبة، هل يمكن أن أختار الرجل الذي أريده، وأن أتخلص منه حين تخفت رغبتي فيه؟ تشعر بمن يلمس ظهرها براحة يده، لا تعرف إن كان عليَّ بن محمد أو غيره، لا تهتم، الجميع هنا يتلامسون دون تحفظ، برغبة وابتهاج. تسري داخل جسدها طاقة جديدة، تشعر بنبضات حية تدب في جسدها، الذي كان ساكنا وشبه ميت في قصر أبيها. برغبة تستيقظ وجوع يستعر، يقول لها علي بن محمد بصوت واضح: غدا أو بعد غد سيكتشف الخليفة أننا قد قمنا بخطفك، وسيأتي إلينا من يدفع الفدية، وستعودين معهم. كان وجهها محتقنا، وظلت تفكر برهة ثم هزت رأسها بالرفض: أريد أن أبقى في هذا المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الـحجر الأسود يسرق

في سنة ثلثمائة وسبع عشرة من الهجرة، خرج «أبو طاهر بن أبي سعيد الجنابي» من معقله في البحرين قاصدا مكة في موسم الحج، كان يعبر الصحراء وخلفه أصحابه في صمت وإصرار، يريدون الوصول في أسرع وقت. كانت الأخبار قد انتشرت أن هناك جمعا كبيرا من الحجيج في مكة، كان الطريق إلى البيت الحرام قد أصبح آمنا إلى حد ما، أمر لم يحدث على مدى سنوات طويلة، وبالتحديد منذ أن تمرد القرامطة واستولوا على منطقة البحرين، ولكن في هذا العام تدفقت عشرات القوافل على مكة وارتفعت نداءات التلبية إلى عنان السماء. سار الجنابي وأتباعه بلا توقف حتى لاحت أمامه جبال مكة فتوقف، قال لأتباعه: خبئوا سيوفكم في مطايكم والبسوا ثياب الإحرام، ولا تكفوا عن صيحات التكبير والتلبية.

أطاعوه دون نقاش، انحدروا جميعا في الطريق المؤدي إلى مكة، كانت البيوت والخيام والناس ملتفة حول البيت الحرام كقبضة اليد، ولكن حرس الخليفة كانوا يسدون عليهم الطريق، يشرعون السيوف ويحتمون بالدروع ويسدون الممر، لا سبيل للوصل إلى مكة غير المرور من خلالهم، يهتف قائدهم به في قوة: عد من حيث أتيت يا جنابي، دخولك إلى مكة محظور.

تظاهر الجنابي بالدهشة وقال: ولكني ذاهب للحج، مثل أي مسلم عادي يذهب للحج.

قال القائد: لا حج لك هذا العام، وربما الأعوام القادمة أيضًا.أشار الجنابي لأتباعه فارتفعت أصواتهم في قوة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ولكن القائد لم يتزحزح من مكانه، ووجه الجنود السيوف نحوهم، وأشار الجنابي للجميع أن يصمتوا، قال للقائد: لا أريد أن أدخل في قتال معكم، هذا شهر حرام في موضع حرام، أحضر لي أحد فقهاء مكة، لو استطاع إقناعنا بالرجوع فسنرجع، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

ظل القائد يحدق فيه، تذكر كل المعارك التي دخلتها جيوش الخليفة ضد هذا المتمرد وكيف انتصر فيها عليهم، لم يكن يريد أن يكون هو أيضًا أحد المنهزمين. فكر أن ينتهز فرصة أنهم عزل من السلاح ويهاجمهم، ولكن تلويث الشهر الحرام بالدم أمر عظيم لا يقدر عليه أحد، أمر أحد جنوده أن يذهب سريعا ويستدعي شيوخ المسجد الحرام، حتى يحضر أي عدد ممكن منهم، وظل الموقف جامدا، وطوال وقت الانتظار لم يكف القرامطة عن ترديد التلبية والتكبير، كأنهم كانوا يتجاوبون مع آلاف الملبين الذين يطوفون أسفل الوادي، ثم عاد الجندي ومعه ثلاثة من الفقهاء على رأسهم الشيخ ابن عبد الرحمن إمام المسجد، كان شيخا وقورا يجيد تقييم الأمور، لذلك نظر إلى الجنابي في تشكك وهتف على الفور: ماذا تريد منا يا جنابي؟ ألا يكفيك ما أهدرت من دماء المسلمين؟

قال الجنابي: كان هذا في الماضي، كانت رغبة الانتقام من الخليفة تدفعني لارتكاب كل هذه الجرائم، أما الآن فقد جئت تائبا ولا غرض لي إلا الحج.. وكلما ذكرت كلمة الحج كانت أصوات أتباعه ترتفع بأصوات التلبية، قال الشيخ: لا سبيل إلى ذلك، ولا أمان لك، قال الجنابي: أتريد أن يقال إنك منعت مسلما من الوصول إلى بيت الله؟

قال الشيخ: وأنت كم مسلمًا منعت؟ كم حاجًّا قتلت ونهبت؟ وكم طريقًا للحج قطعت؟

قال الجنابي: كنت مجرما وخارجا عن القانون، هذا طبيعي بالنسبة إليَّ، ولكنك شيخ الإسلام ومنعي معصية لدينك.

يبدو أن حجته قد أفحمت الشيخ ابن عبد الرحمن فلم يستطع الرد للحظة، التفت ناحية الشيخين اللذين يرافقانه وأخذ يحدثهما، وانتهز الجنابي الفرصة فزاد من ضغطه وقال متوسلا: لقد جئت تائبا، إن لم تقبلوا توبتي فسأعود للصحراء وأقطع كل طرق العودة على الجميع، لن يعود حاج من هؤلاء سالما إلى بيته.

أحدث التهديد تأثيره أكثر من التوسل، كان الجنابي يدرك جيدا كيف يتلاعب بهم، وأخيرًا قال أحد الشيخين: فلنجعله يحلف على المصحف الشريف ألا يغدر بأحد، وانتظروا قليلا حتى يعثروا على مصحف، وتقدم قائد الجند وأخذ الشيخ ابن عبد الرحمن جانبا وقال له: لا تصدقه يا شيخ، حتى ولو أقسم والدموع في عينيه، ولكن البقية كانوا يتمنون أن يصدقوه. أحضروا مصحفا من جوار الكعبة، ووضع الجنابي يده عليه وأخذ يقسم والدموع في عينيه حتى سمحوا له بالدخول، حاول قائد الجند عبثًا أن يفتشهم ولكن الأمتعة كانت كثيرة والأسلحة مخبأة بعناية في تلافيفها، دخل هو ورجاله وسط جموع الحجيج، كانوا كما رآهم عزلًا ومستضعفين وجديرين بالافتراس، جاءوا من بلادهم البعيدة ليستغفروا من أجل ذنوب تافهة، عليهم أن يبحثوا عن وجهة أخرى بعد اليوم. كان الليل قد حل بالبيت الحرام ولم يبقَ إلا بعض الساجدين ليلا، بينما كان الجنابي وجماعته يعدون لضربتهم الكبرى.

لا يدري أحد كيف ولدت حركة القرامطة المتمردة هذه، ولا كيف أصبحت على هذه الدرجة من الخطورة. كانت بدايتها بسيطة، عندما ظهر في البصرة ذلك الرجل؛ حمدان بن الأشعث ولقبه «قرمط»، كان يجدل الخوص ويأكل من عرق يديه، فقيرًا زاهدًا يجيد تلاوة القرآن، ولا يكف عن الحديث مع الجميع في أمور الدين، ويؤمن أن على الناس أن يؤدوا خمسين صلاة في الليل والنهار، ويدعوهم إلى اتباع إمام قادم من أئمة أهل البيت. إمام غامض ومجهول لا أحد يعرف حتى اسمه ولكنه سوف يظهر، كثير من المسلمين كانوا يعتقدون أن الأرض يجب ألا تخلو أبدًا من إمام، لا يكون الإمام ظاهرا على الدوام ولكنه يظهر ويختفي، ثم يظهر في اللحظة المناسبة ليملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جورا. فكرة الإمام كانت، وربما ما زالت، ساكنة في النفوس؛ لذا فسرعان ما اجتمع حوله الكثيرون، أصبح له أتباع يصدقون كل ما يقوله وعلى استعداد لفعل كل ما يأمر به، وعندما خشي أن تطارده شرطة الخليفة العباسي جمع أتباعه وخرج بهم إلى منطقة البحرين، ولم يكن هذا الاسم يخص الجزيرة الصغيرة فقط ولكن يطلق على كامل المنطقة الشرقية من الخليج، وهناك أعلن في صراحه أنه الإمام المنتظر، وعندما مات القرموطي الأول تبعه قادة آخرون ادعوا أيضًا أنهم الأئمة الذين طال انتظارهم، وأحيانا أنصاف آلهة. في أول الأمر استهان بهم الخليفة العباسي المقتدر بالله فأرسل لهم جيشا ضعيفا كان من المحتم أن يلقى الهزيمة، وامتدت رقعة الأرض التي كانوا يستولون عليها، ووصل نفوذهم إلى منطقة البصرة، وتزايد أتباعهم خاصة من المستضعفين والفقراء، كان يعدهم بأنهم سيكونون سادة العالم الجدد بعد أن كانوا مجرد عبيد. وليحصلوا على المزيد من الأموال والغنائم، كانت قوافل الحجاج هي هدفهم الأول، يهاجمونهم ويعملون سيوفهم في رقابهم، يقتلون الرجال ويأسرون النساء ويغنمون كل ما في القوافل من مال وزاد، كانوا يوجهون طريق الحج فيسدون الآبار على الطريق بالأحجار ويلقون فيها الجيف حتى يرغموا أدلاء القواقل على السير في

الطرق التي تحت قبضتهم؛ وبسبب ذلك امتنع الحجيج لسنوات طويلة عن الذهاب لمكة حتى هذا العام عندما أصبح الطريق آمنا بعض الشيء وتوافد العديد من الحجيج، ولكن القرامطة كانوا يستعدون لضربتهم الكبرى.

عند الفجر جمع الجنابي رجاله فخلعوا جميعا ثياب الإحرام وارتدوا ثياب القتال، هتف فيهم: أشهروا سيوفكم واقتلوا كل من لاقيتم ولا تنشغلوا بغير القتل، انطلقوا كضباع جائعة نحو البيت الذي يلتف حوله الحجيج. كانت التكبيرات تتعالى صافية ورائقة ثم سرعان ما تحولت إلى صرخات فزع واستغاثة، فوجئ المصلون بالسيوف وهي تهوي عليهم من كل جانب، في لحظات امتلأت ساحة الكعبة بالدماء، حاول البعض الهرب فتعثر في الجثث، وتعلق البعض الآخر بأستار الكعبة لعلها تنجيه بلا فائدة. ظلت المذبحة مستمرة، لا ترحم شابًّا ولا شيخًا، كان الجنابي يراقب المذبحة وحركة الحجيج المذعورة مبتسما وهو يصيح فيهم: يقول لكم صاحبكم: من دخله كان آمنا، أفآمنون أنتم يا حمير؟ أما ترون كذب صاحبكم؟

وأشرقت الشمس فكشفت عن هول ما جرى حيث لا استجابة لمتوسل ولا رحمة لقعيد، وانعكس الضوء على باب الكعبة المصفح بالذهب فصرخ الجنابي في أتباعه: انزعوا هذا الباب، بيت الله في الأرض أصبح من حقنا الآن، وكل شيء مباح. كانت في داخل البيت محاريب من فضة، وأطباق من أحجار كريمة وهدايا ذهبية، وسيوف ومصابيح ومشاكٍ، كل ما أهدي للكعبة على مر العصور من ملوك وأمراء وقادة وكل طالبي الرحمة والغفران، أخذها كلها أتباع الجنابي، وفي أعلى الكعبة كان يطل ميزاب من ذهب يصرف كل ما يتجمع على سطحها من مياه، وأمر الجنابي أحد أتباعه أن يصعد وينتزعه من مكانه، ولم يتمالك التابع نفسه وسقط صريعا. كان هناك الكثيرون ممن استطاعوا الهرب والاختباء داخل بئر زمزم، ولكن القرامطة أخذوا يلقون عليهم جثث الموتى حتى اختنقوا داخل البئر. أخذ الجنابي يبحث عن حرس الخليفة، هؤلاء الذي عارضوا دخوله لمكة ولكن معظمهم كان قد فرَّ إلى الصحراء. أصبحت مكة مستباحة تمامًا، يدخل ويخرج هو وأتباعه متى شاءوا، يقتلون كل من يصادفهم، يقتحمون البيوت حيث توجد النساء الهاشميات والعلويات، يأسرهن أو يغتصبهن، وحتى أمتعة الموتى لم تنجُ من التفتيش وسرقة كل ما فيها من ذهب ونقود.

وفي اليوم الثالث من المذبحة، بعد أن قتل آلاف لا يدري أحد عددها، استدار الجنابي نحو الكعبة مرة أخرى، أمرهم أن يخلعوا أستارها. تعرى البناء وظهرت أحجاره التي شارك في وضعها الأنبياء، ثم أشار إلى الحجر الأسود الموجود في الركن الجنوبي والذي يبدأ منه طواف الحجاج، وأمر بخلعه من مكانه. كان مكونا من أكثر من قطعة، يحيط بها جميعا إطار من فضة، وترك في الجدار خلفه فجوة غائرة، وبدا البيت حزينا منكسرا وقد فقد أهم أحجاره، تحاصره الدماء والجثث، وبئر زمزم يفوح منها العفن، وأخيرًا ركبوا جيادهم ورحلوا عنه إلى مدينة هجر، ولم يكن الخليفة المقتدر قادرا على فعل أي شيء، وكان الجنابي يعتقد بأن الحجر في حدِّ ذاته يمتلك قوى جاذبة سوف تجعل الناس يسافرون إليه ويطوفون من حوله؛ لذلك بنى في القطيف بيتا مماثلا للكعبة وضع فيه الحجر وأخذ يدعو الناس للحج عنده، ولكن لم يذهب إليه أحد. ومرت على المسلمين أعوام سود دون حج، فشلت المحاولات العسكرية لاستعادته، وفشلت مساعي والي مكة الذي ذهب إليه وعرض عليه المال، وعرض الخليفة المقتدر ثلاثين ألف دينار جائزة له، وأرسل العديد من ولاة المسلمين وملوكهم مثل

عبيد الله الفاطمي رسالة إليه يهددونه ويتوعدونه، وجمع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أموالا من أجل استرضائه فلم يرضَ، ولم يستجب لكل هذه المساعي على مدى ٢٢ عاما، وفي ذات وقت لم يتوقعه أحد وجد الجميع الحجر معلقا على مسجد الكوفة حتى يراه الجميع، ولم يعرف أحد متى ولا كيف تم وضعه هكذا، وعندما سئل الجنابي لماذا رفض كل هذه الأموال وأعاده هكذا دون مقابل، قال في غموض: «لقد أخذناه بأمر، وأعدناه بأمر»، ولكن الحجر عاد إلى موضعه والقرامطة انتهوا وتواصلت مواسم الحج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طوفان نوح

طوفان نوح قادم من جديد..

هذا ما أعلنه كل المنجمين بعد أن حسبوا الأبراج وقرءوا الطوالع، سوف تهبط من السماء مياه كثيرة غامرة وتتفجر من الأرض عيونها المختبئة ثم تتحول إلى طوفان عاتٍ يكتسح كل ما أمامه، ولأن الفزع قد خيم على الناس وبدأ النجارون يتركون كل أعمالهم ويتفرغون لصنع المراكب، فقد استدعى الخليفة الفاطمي المستعلي بالله أحمد بن المنتصر منجمه الخاص ابن عيون لكي يستفتيه في هذه المسألة، وتأمل المنجم الطوالع كثيرًا ثم أكد للخليفة: لقد أخطأ المنجمون يا مولاي. لقد حدث طوفان نوح عندما اجتمعت الطوالع السبعة في برج الحوت، ولكن هذه المرة اجتمعت ستة طوالع فقط لأن زحل لم يجتمع معها.

ولم يفهم الخليفة كثيرا في هذه التفصيلات الفنية، هتف بنفاد صبر: يعني هناك طوفان، أم لا؟

قال المنجم: الحق أقول لكم يا مولاي، إن هناك بقعة في العالم يجتمع فيها أناس من بلاد كثيرة سوف تتعرض للغرق.

فكر المستعلي قليلا ثم قال: لا يوجد أكبر من بغداد، يجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها، ربما كانت هي المقصودة.

وفي اليوم التالي أرسل الخليفة رسولا عاجلا ليبلغ الخليفة العباسي حتى يأخذ حذره، وأصدر أوامره بإحكام القناطر وسد الفروج ومراقبة فروع النيل، وكل الناس يتوقعون الغرق، ثم جاءت الأخبار الغريبة من مكة، لقد كان الحجاج في وادٍ بالقرب منها يدعى «نخلة محمود» عندما هوى عليهم من الجبال المجاورة سيل عنيف جارف اكتسح كل ما أمامه من خيام بمن فيها من رجال ونساء، وكان عاليا حتى إنه أغرق الجبال، ولم يستطع النجاة منه إلا من نجح في الوصول إلى من مات من الحجيج. والفرح؛ لأن خطر الغرق قد زال أخيرًا. واستدعى الخليفة منجمه الخاص فكافأه مكافأة سخية وخلع عليه خلعة ثمينة، ثم قال له محذرا: ناشدتك الله أن لا تتنبأ بموتي.

من يقاوم شهوة السلطة؟

بغداد نائمة على حافة النهر، تلتقط أنفاسها بصعوبة، لم يصدق الناس أن ساعات مثل هذه قد مرت من قبل، في سواد الليل وانبلاج الصبح، هبط خليفة وصعد خليفة آخر، ثم عاد الخليفة الأول للصعود، وكان الموت من نصيب ابن المعتز العباسي الخليفة الثاني الذي استمرت خلافته يوما وليلة فقط لا غير. كان جنود الخليفة المنتصر «المقتدر بالله» منتشرين في المدينة، يهاجمون قصور ابن المعتز وبيوت أتباعه ويصادرون كل ما فيها من أسلحة وغنائم، وبعد عدة جولات تجمعت في فناء القصر كومة هائلة كانت شاهدة على ضخامة الفتنة التي هزت الدولة كلها.

وجلس الوزير ابن الفرات يسجل كل شيء قبل أن يضمه إلى خزائن المقتدر، وظلت أفواج المتاع تتوالى حتى دخل صاحب الشرطة وخلفه صندوقان كبيران يحملهما الجنود، وأحس ابن الفرات أن فيهما شيئا مختلفا، وقال صاحب الشرطة: هذان الصندوقان وجدناهما في غرفة ابن المعتز الخاصة.

وسأله ابن الفرات: هل عرفت ما فيهما؟

قال صاحب الشرطة: أجل، فيهما أوراق كل من بايع ابن المعتز من الناس بأسمائهم وأنسابهم، هل أفتح لترى؟

وصمت ابن الفرات قليلا، كان يقاوم شهوة التسلط الغالبة لمعرفة كل شيء، والرغبة الحارة في الانتقام من كل من يخالفه الرأي، ولكنه حسم أمره سريعا وقال: لا تفتح.

ثم صاح بأعلى صوته يأمر خدمه: يا غلمان، هاتوا فحما ونارا وأحرقوا هذين الصندوقين بأقفالهما في الحال.

وارتفعت ألسنة اللهب وسط دهشة الناس والحرس وصاحب الشرطة، وقال ابن الفرات:

- لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة لظن كل من له ورقة فيها أننى سوف أطارده؛ فتفسد نيات الناس عليَّ، وعلى الخليفة، وإنما نريد للفتنة أن تهدأ وأن يحس الجميع بالأمان.

وعندما طاف المنادون في شوارع المدينة ينادون بالأمان، وأن الصناديق قد أحرقت قبل أن تفتح، أدرك الجميع أن الفتنة قد انتهت.

المقتدي.. يقتدي

لا يدري أحد ما الذي أغضب السلطان السلجوفي «ملكشاه»، كان عائدا من أصبهان بعد رحلة طويلة جمع فيها الأموال وأدَّب العصاة وفرض قوته على الجميع، وكانت بغداد قد ازدانت لاستقباله، وخرج الخليفة العباسي المقتدي بالله في زيه الأسود في مقدمة الجميع، ورغم أن السلطان لم يكن يحسن العربية كثيرًا فقد أعد الشعراء له القصائد الطوال ترحيبا بقدومه، ولكن السلطان وصل كالزوبعة لم يبالِ بأحد ولم يسمع القصائد ولم يرَ يد الخليفة الممدودة.

وانصرف المقتدي حائرا، كان اسما على مسمى، لا يعترض على شيء، وينفذ كل ما يصله من أوامر، ولا يناقش أي شأن من شئون الدولة ويكتفي في نهاية كل شهر بقبض راتبه من السلطان، وسواء زاد الراتب أو نقص لم يكن يتكلم، كان يخفض نفقاته أو يزيدها حسب رضا السلطان «ملكشاه» عنه؛ لذلك ارتعد حين شاهد رسول السلطان قادما إليه، وقف أمامه وهو يقول له في حزم: السلطان ملكشاه يطلب منك أن تترك له بغداد، وتبحث لك عن بلد آخر.

وهتف الخليفة: لماذا؟ أنا لم أفعل شيئا.

قال الرسول: السلطان غاضب ولن يقبل أي مناقشة.

قال الخليفة: فليمهلني شهرا إذن.

قال الرسول: ولا ساعة واحدة.

وتركه وانصرف، وحاول الخليفة أن يتذكر فيمَ أغضب السلطان، كان متأكدا من أنه لم يفعل أي شيء، ولكنه أحس أنه مذنب. وانتشر الخبر في بغداد، وقال: لا يمكن أن يجتمع ملكان في مدينة

واحدة، وقال آخرون: إن السلطان ضبط مع العصاة رسائل من الخليفة يحرضهم فيها عليه، ولكن أين يذهب الخليفة وقد ضاقت رقعة الأرض؟ أرسل إلى وزير السلطان تاج الملك أبو الغنائم، وبكى أمامه في حرقة وهتف به: كيف أترك بغداد الساعة وليس معي شيء، أتريدونني أن أضيع في الصحراء؟

ورثى الوزير لحاله فعاد إلى السلطان الذي كان مصمما، أنزل الوزير المهلة إلى عشرة أيام وهو يقول: يا مولاي، لو أن بعض العوام أراد أن ينتقل من دار لدار لم يقدر على هذه النقلة في أقل من عشرة أيام، فكيف بالخليفة؟

وقال السلطان: حسن، ليبقَ هذه الأيام العشرة داخل قصره، وليغادر بغداد دون أن يريني وجهه، ولتطوَ شارة بني العباس السوداء هذه لأنني لا أطيق رؤيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخليفة جائعا

أخرج الخدم والعبيد كل ما في القصر من متاع وأنزلوه إلى الباب، وجلس الخليفة «المستنصر بالله» يبيع كل هذه الأشياء، ويتوسل للمارة أن يشتروا منه شيئا. كان يمسك في يده قناديل من الفضة وهو يصيح في المارة: هذه قناديل مشهد الخليل إبراهيم، من يشتري قناديل الأنبياء؟

ولكن المارة الجائعين كانوا يبحثون عبثا عن شيء يطعمهم ولم يلتفتوا إليه. منذ أيام سيدنا يوسف لم تشهد مصر سنوات جوع مثل هذه السنوات السبع، كان النيل غائضًا جافًّا كشف عن قاعه الطيني المليء بعظام الجثث وهياكل السفن الغارقة، ولم يشاهد أحد قحطا مثلما حدث في عهد المستنصر بالله الذي حكم ستين عاما وأربعة أشهر. كان يمسك في يده الأثواب الموشاة بالذهب والعباءات والثياب الحريرية، وهو يصيح: هذه ثياب خلفاء بني العباس كنا نحتفظ بها في مصر لنعايرهم بها، ألا يريد أحد أن يشتري ثياب الخلفاء؟

كل شيء قابل للأكل قد أُكل حيوانا كان أم إنسانا، أُكلت كل الدواب تقريبا. بيع البغل بعشرة دنانير، والكلب بخمسة، والقط بثلاثة، والفار باثنين، والبيضة بدينار واحد، واكتشفوا أن بعض الطباخين قد اختطفوا بعض الصبيان والنساء وذبحوهم ثم باعوهم مطبوخين.

رفع الخليفة في يده سيوفا وخناجر مطعمة بالياقوت وعقودا من اللؤلؤ والبلور، وما زال يحاول أن يواصل البيع: سيوف المعز وجواهر الفاطميين، كل مقتنيات جدي للبيع، من يشتريها؟ من يعطيني في مقابلها قمحا أو دقيقا؟

امتلأت القرى على امتداد النيل بالموتى، ولو وفى النيل بميعاده فلن يجد أحدا يستقبل المياه ويزرع الأرض، كانت أم الخليفة قد أخذت بناتها ورحلت عن مصر تستجير بخليفة بغداد، والقادة قد ألقوا السيوف، والوزراء قد هبطوا للأسواق والحمامات ليعملوا في أي شيء، واستولى غلمان الخليفة على آخر فرس له فذبحوها وأكلوها، وظل الخليفة يصرخ دون أن يلتفت إليه أحد، لم يشترِ أحد منه شيئا. قال في جنون حقيقي: خذوني إذن، اعطفوا عليَّ، لا أحد يذل ملوكه لهذه الدرجة، دعوني أعمل في أي بيت من بيوتكم. اللعنة عليكم يا جوعى يا أولاد الجوعى، ثم انصرف إلى قصره حزينا جائعا وترك كل شيء خلفه، ولم يبالِ أحد بأخذ أي شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابن طولون.. مخبر سري

«ابن طولون» - حاكم مصر - يتجول في سوق «القطائع» كل صباح.

عيناه كعيني الصقر، نفاذتان وبراقتان كأنهما تغوصان في لحم من يراه. وعندما يهبط إلى السوق تدب فيه حركة غريبة، تتوقف المساومات المجحفة على الفور، وتتعدل الموازين، وتختفي البضائع المغشوشة، ويسود جو من الأمانة من النادر وجوده في أي سوق أخرى.

وهذا الصباح شاهد ابن طولون حمالا، يحمل فوق ظهره صندوقا كبيرا ويسير به ببطء شديد، حتى إن قدميه توشكان على الالتفاف حول بعضهما، وسار ابن طولون ببطء يتفقد السوق، ولكنه لم يدع الحمال يغيب عن عينيه. حمال عادي يحمل فوق طاقته، كما يفعل كل الحمالين، ولكن أحدا من الذين يحيطون بابن طولون لم يدرك سر اهتمامه بهذا الحمال بالذات، وهمس لصاحب الشرطة الذي كان برفقته: في هذا الرجل أمر غريب.

تأمل صاحب الشرطة الحمال الرث الثياب فلم يجد فيه ما يريب، فقال: يبدو أنه واهن القوى ولا يصلح لهذا العمل.

قال ابن طولون: كلا، إنه يضطرب تحت الصندوق الذي يحمله، ولو كان الاضطراب من ثقل الصندوق لغاصت عنقه بين كتفيه، ولكني أرى عنقه بارزا، الصندوق ليس ثقيلا، ولكن فيه ما يخيف؛ مما يجعل الرجل مضطربا لهذا الحد.

وأسرع رجال الشرطة إلى الحمال، أوقفوه وأنزلوا الصندوق، وحاول الرجل أن يفر، ثم أخذ يبكي ويتوسل. كانت في الصندوق جثة امرأة صغيرة، مقتولة، وممزقة بوحشية. وانهار الحمال، اعترف أن أربعة رجال هم الذين كلفوه بحمل هذا الصندوق على أن يدفنه في أطراف المدينة لقاء مائة دينار. ولأنه حمال فقير لا يملك إلا أن يطيعهم، ضربوه بالسياط حتى دل على الدار، واقتحمتها الشرطة فقبضوا على القتلة ووجدوا السكين وآثار الدماء.

وظل ابن طولون يواصل تجواله في الأسواق؛ فقد كان من الحكام القلائل الذين يستمدون خبرتهم من مادة الحياة اليومية، ويقيم العدل كما يراه، في الحال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

آخر من مات عشقا

عندما شهق «عليَّ بن أديم» شهقته الأخيرة، قال أهل البصرة: هذا آخر من مات عشقا.

كان قد قال آخر بيت من الشعر: «اشتقت شوقا كاد يقتلني» ثم توقف؛ لأن الشوق قتل العاشق بالفعل، ولم تعلم حبيبته بموته إلا بعد مدة طويلة، أو لعلها لم تعلم على الإطلاق. كان قد ذرف آخر عبرة من عبرات القلب، ورفض آخر جارية حاولت أن تؤنسه وتساعده على النسيان، وهتف باسم «نهلة» للمرة الأخيرة فلم يجبه حتى الصدى، وسار في الشوارع الضيقة حتى وصل إلى الخان الصغير حيث كان غمدان المغني يعلمها الموسيقى والغناء، ومنذ أن مست أصابعها الوتر توقف الرجل وظل يستمع إليها فقط ويبكي وجدا، ثم توقف أمام بيت سيدها السابق حيث تعود أن يقف دائمًا ليلمح أحيانا طيفها وهي تمرق خلف الستارة، ووجد الظلام يخيم على غرفتها، وضحك سيدها السابق حين رآه واقفا مسمرا أمام النافذة الخالية. كان قد باعها بثمن باهظ ولم يعد يهتم إن وقف ابن أديم الأيام الطويلة، وسار إلى الجسر الذي توقفت عنده للمرة الأولى ورفعت النقاب ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة فبانت غمازتان في خديها، وكان الهواء يدفع موجات النهر فيقشعر، ثم سار إلى البستان حيث التقى بها خفية ذات مرة ولمس يدها ولمس الورود فوجدها دافئة كأنها تنبض بشرايينها، وذهب إلى سوق النخاسة وتوقف أمام منصة النخاسة وشاهد عبيدا لم يباعوا بعد، ورأى النخاس يحصي نقوده فأدرك أنه يحصي ما كسبه من أرباح بيعها، وذهب إلى أطراف المدينة حيث يبدأ طريق القوافل إلى الصحراء فشاهد آثار الذبل والبضائع فتساءل: إلى أي أرض رحلت، وعند أي قوم حلت؟

كانت الظهيرة بالغة الحرارة ولم تكن هناك نجمة واحدة تهدي الطريق، سار في شوارع البصرة، فرأى الفرسان في زهوهم والصوفية في نبلتهم، والعامة في سعيهم الدائم، فأحس وحده بالانكسار وبحرارة الغربة والافتقار، وأحس بأنه حتى الشعر لا يستطيع أن يهب العزاء لقلبه، لكنه لم يبكِ، ولم يجن، ولم يصرخ لاعنا زمنا يحطم فيه التجار القلوب لقاء بضعة من الدنانير، وعاد إلى بيته ومات، وقالوا: لن يموت أحد بعده من العشق، وما أسعده بهذه الميتة؛ فالناس بعد ذلك لا يموتون إلا كمدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صديق شخصي للسلطان

لم يكن في السوق من يشك في نزاهة العطار، كانت لكلمته قوة العقد المبرم؛ لذا فقد اندهش الناس وهم يرونه يرفس رجلا غريبا فيلقيه خارج المحل ويصيح فيه: أتتهمني أنا بالسرقة يا فاسق؟ أنا أسرق منك عقدا من اللؤلؤ يا وغد؟

والتف الناس حول العطار يهدئونه، وحاولت قلة منهم أن تأخذ الرجل الغريب بعيدا، كان يبكي ويقسم بالأيمانات المغلظة أن العطار قد سرق منه عقدا ثمينا من اللؤلؤ استودعه عنده قبل أن يسافر. لم يكن لديه دليل، وسمعة العطار أنصع من أن يصدق الناس مثل هذه الادعاءات، وقالوا للرجل: إنه من الأفضل أن ينسى، ومن المستحسن أن يبتعد عن السوق نهائيًّا.

ولكن الرجل الغريب لم يبتعد كثيرًا، ذهب إلى قصر السلطان «عضد الدولة»، كتب قصته على قرطاس وظل واقفا بالباب ثلاثة أيام حتى أذن له السلطان بالدخول وبادره بالسؤال: هل لديك شهود؟

لم يكن لدى الرجل أي قرينة، فقد كان يعرف أن العطار فوق كل الشبهات، ولم يبدُ عليه قط أي لمحة من لمحات الطمع، وأوشك عضد الدولة أن يصرفه، ولكنه لا يدري لماذا أحس بالتعاطف معه، طلب منه أن يذهب من الغد إلى دكان العطار يحاول أن يطالبه بالعقد مرة أخرى، فإذا رفض فعليه أن يذهب للدكان أو الرصيف الذي يقابله ويجلس عليه من الصباح حتى المساء، لا يكلمه ولا يتحرك من مكانه، وفي اليوم الرابع سوف يأتيه عضد الدولة بنفسه وعليه أن يكون جالسا عندما يكلمه السلطان، ويريد إجابات مقتضبة.

وفعل الرجل كما أمره عضد الدولة؛ ذهب إلى العطار وطالبه بالعقد للمرة الثانية. كان العطار مستعدًّا له هذه المرة فلم يناقشه ولكن صبيانه قفزوا على الرجل وأوسعوه ضربا ولكما ثم ألقوه في الشارع مرة أخرى. تحامل الرجل على نفسه وزحف إلى الرصيف المقابل وجلس عليه، ونظر العطار إليه وهزَّ كتفيه وتواصلت عملية البيع والشراء. وعندما أغلق العطار دكانه كان الرجل موجودا على الرصيف، وكان موجودا أيضًا في صباح اليوم التالي، فبدأ يحس بالضيق، رغم كثرة البيع لم يستطع التشاغل عنه، وفكر أن يذهب ويضربه مرة أخرى ولكن بأي حجة؟ وظل الرجل جالسا، وأخذ جرعته كاملة من قيظ الظهيرة ومن رطوبة المساء، وأصبح بعد يومين كأنه قطعة واحدة من الرصيف ولكنه قطعة حية يتحرك فيها بعينين لا تكلان، وفي اليوم الثالث لم يطق العطار صبرا فخرج إليه وأخذ يسبه ويشتمه ثم ركله عدة ركلات، ولكن الرجل لم يتحرك من مكانه.

وجاء السلطان في اليوم الرابع، يحفّ به الحراس والوزراء، واجتمع أهل السوق يحيونه ويقبلون يديه، وسار حتى وقف أمام الرجل الجالس، وقال له في دهشة: كيف حالك؟ ما هذا يا رجل تأتي بغداد ولا تمر علينا؟ ألا تريد شيئا؟ ألا تأمر بشيء؟

وتلاحقت الأسئلة، والرجل الغريب لا يكلف نفسه عناء الرد، بل إنه أدار وجهه للناحية الأخرى، واستدار السلطان وظل يلحف عليه في السؤال، وأوشك العطار أن يغمى عليه، لم يتصور أن هذا البائس الحقير هو صديق السلطان لهذه الدرجة، وعندما انصرف السلطان ظل الرجل في موضعه،

وأقبل العطار لاهثا نحوه وهو يقول: ويحك يا سيدي ويحك، متى أودعتني هذا العقد؟ في أي شيء كان ملفوفا؟ ما صفته؟ إني نسيت، والله نسيت، ذكرني بالله عليك، ذكرني.

وأخذ يفتش مذعورا في المحل حتى عثر عليه بالمصادفة في جرة قديمة، وأخذ يبالغ في الاعتذار وهو يقدم العقد للرجل.

وفي صباح اليوم التالي فوجئ أهل السوق بالعطار النزيه مصلوبا على باب دكانه والعقد معلق على رقبته، ونوديَ عليه: هذا جزاء من استودع فخان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

دية عيسى بن مريم

عندما أصبح الأعرابي «عيسى بن عمر» واليًا على البحرين كان مفلسا لدرجة كبيرة، فتح خزائن الولاية فوجدها خالية، صرخ في الخازن: أين الخراج؟

قال الخازن بهدوء: أرسلناه إلى أمير المؤمنين.

هتف الأعرابي في ضيق: أين الضرائب والمكوس؟

قال الخازن بنفس الهدوء: سرقها الوالي السابق.

فأسقط في يد الوالي الجديد، فكر قليلا ثم تساءل: ألا يمكن أن نفرض ضرائب جديدة؟

هتف الخازن: مستحيل يا سيدي الوالي، لقد استنفدناهم حتى آخر درهم.

قال الوالي: ألا يوجد بينهم أغنياء؟

قال الخازن: ربما اليهود، إنهم يتعاملون بالربا، وكل عملياتهم تدور في الخفاء، ومن الصعب إحصاء ما لديهم من أموال.

فرك الوالي الجديد يده في سرور وقد أدرك أنه عثر على أول خيط، وهتف به: أرسل إليَّ رؤساء طائفتهم.

أقبل رؤساء اليهود وأحبارهم، يلبسون القلانيس السوداء ويتحدثون بصوت منخفض ويبالغون في الانحناء، كانت وجوههم مصفرة، ولكن الوالي قال لهم: إنما أريد أن أتحدث معكم في أمور الدين.

تنفسوا الصعداء، كل شيء يهون ما دام المال ليس مطلوبا. وبدأ يسألهم: ما رأيكم في عيسى بن مريم؟

ترددوا طويلا، ثم قال أحد الأحبار: لم نعتقد بصدقه؛ لذا فقد رفضنا اتباعه.

أومأ الوالي برأسه موافقا وهو يقول: أمر طبيعي، كل واحد حر فيما يعتقده.

ودهشوا من موافقة الوالي السريعة، ولكنه عاد يسألهم: فماذا فعلتم به؟

تردد اليهودي الآخر وهو يقول: عذبناه وحاصرنا أتباعه.

قال الوالي في سرعة: هكذا كان يجب أن يكون.

ثم عاد يتساءل مرة أخرى: ماذا فعلتم به؟

وكان رئيس الأحبار قد تشجع بموافقات الوالي المتكررة، فهتف في انتصار: نحن قتلناه وصلبناه.

وأومأ الوالي برأسه موافقا: لا جرم، لا جرم، كان يستحقها، ولكن هل دفعتم ديته؟

قال الحبر: دية من؟

قال الوالي: دية عيسى بن مريم، ألم تقتلوه؟

قال الحبر: ولكن...

وصاح الوالي في صوت مليء بالغضب: أتقتلونه وتنكرون ديته؟

وهتف اليهود: نحن لا نعلم.

فعاد الوالي يصيح: لقد اعترفتم، وإذا لم تدفعوا الدية أخذتكم بدمه.

وتشاور اليهود طويلا، ولم يكن هناك مناص من الدفع، تمتم رئيس الأحبار وهو ينصرف: لو كنا نعرف كم سيكلفنا ما كان أجدادنا قد صلبوه قط.

الوزير في السجن

هبط الوزير «المهلبي» إلى قبو السجن، لم يهبط زائرا ولا متخفيا، ولكنه هبط سجينا منتوف اللحية مصفد اليدين بالحديد. لم يتصور أن السجن بهذه الظلمة والبرودة والعفونة. المساجين يتحركون نحوه مثل قطيع من الجرذان، أحاطوا به فلم يميز إلا عيونهم التي تبرق في الظلمة، سألوه: أنت أيضًا سجنك الوزير المهلبي؟

فلم يجرؤ على القول إنه هو نفسه الوزير المهلبي، كيف استطاع أن يسجن كل هذا الكم من البشر؟ لو دقق النظر فيهم فسوف يكتشف كل سنوات حكمه، وكل قراراته، وكل المخاوف التي حاول أن يتخلص منها وأن يعيش آمنا مسيطرا، ولكن أين هو الأمن، وأين هي السيطرة؟ عاد المساجين يهمهمون: كلنا ضحايا الوزير المهلبي.

وقال رجل عجوز لا يتذكر المهلبي أنه سجنه: غدا سوف يأتي الوزير الطاهري ويخلصنا جميعا.

ولم يجرؤ أيضًا على أن يخبرهم بأن الوزير الطاهري قد جاء بالفعل، وبأن أول ما فعله هو أنه ألقى به في السجن. لا يجرؤ وزير على نبش القبور ليخرج الموتى، حتى ولو كانوا موتى الوزير الذي سبقه. اضطر المهلبي أن يوافقهم وأن يدعو من أعماق قلبه حتى لا يتعرف أحد منهم عليه، ولكن يبدو أن السجن والظلمة والرطوبة والعفونة والطعام القليل والأصفاد الثقيلة غيرت كل شيء فلم يتذكره أحد. كانوا جميعا يتحدثون عنه، عن سطوته وقوته وأيام ظلمه ويتمنون اليوم الذي يخرجون فيه للانتقام منه، ومبالغة منه في التنكر أصبح يتحدث مثلهم ويشاركهم كل طقوسهم اليومية، يستيقظ ليسبَّ الوزير المهلبي، وينام في المساء وهو يدعو لقدوم الوزير الطاهري.

ولأن الأيام في السجن متشابهة يتداخل فيها الليل والنهار والعرق والعطن، فقد نسيَ الوزير المهلبي أنه الوزير المهلبي، وأصبح لا يحلم إلا بقدوم الوزير الطاهري؛ لأنه هو الطريق الوحيد للخلاص. وأصبح يدعو معهم، أو يدعو بمفرده، أو يبكي بحرقة، أو يتوسل بضراعة أن يذهب الله بالوزير المهلبي، وأن يأتي بالوزير الطاهري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مرثية لزمن الضحك

اشترى عليَّ بن الجهم جارية فقال لها: ما أحسبك إلا بكرا.فضحكت وهي تقول: يا سيدي كثرت الفتوح في زمن الواثق.. وخاصمت امرأة زوجها لبخله فقالت له: والله لا يقيم الفأر في بيتك إلا لحب الوطن؛ فهو لا يسترزق إلا من بيوت الجيران. وخرج قوم من قريش ومعهم رجل من بني غفار فحاصرتهم عاصفة صحراوية شديدة، ونذر كل واحد منهم أن يعتق عبدا من عبيده إذا أنجاهم الله، وقال الغفاري: اللهم لا عبد لي فأعتقه، ولكن امرأتي طالق لوجهك ثلاثًا.. وسمع أعرابي مقرئ القرآن حتى أتى إلى قوله تعالى: (الأعراب أشد كفرا ونفاقا)، فقال في أسف:لقد هجانا.. وتقابل نصراني وفقيه متخصص في جمع الأحاديث على سفينة، فصبَّ النصراني خمرا من زق كانت معه وشرب كأسا ثم صبَّ مرة أخرى، وعرض الكأس على الفقيه الذي تناولها بلا مبالاة وهمَّ أن يشربها، فقال النصراني محذرا: جعلت فداءك إنما هي خمر. فقال الفقيه: من أين علمت أنها خمر؟ فقال النصراني: اشتراها غلامي من خمار يهودي، وأقسم له إنها من أجود أنواع الخمر. فشرب الفقيه كأسا على عجل وهو يقول: يا أحمق، نحن أصحاب الحديث لا نثق بأمثال سفيان بن عُيينة، ويزيد بن هارون، أفنصدق نصرانيًّا عن غلامه عن خمار يهودي؟ والله ما شربتها إلا من ضعف الإسناد. وكان الشاعر بشار بن برد يحاسب غلامه، فوجد في نفقات البيت عشرة دراهم لجلاء مرآة، فقال: والله ما في الدنيا أعجب من جلاء مرآة لأعمى بعشرة دراهم. وعرضت على الخليفة المتوكل جارية حسناء، فسألها: بكر أنت، أم أيش؟ قالت: أم أيش يا مولاي. ورأى الجاحظ امرأة جميلة فسألها عن اسمها فقالت: مكة. فقال على الفور: أتأذنين لي أن أقبل الحجر الأسود؟.. وسئلت جارية في سوق بغداد: أما زلت بكرا؟ فهتفت: أعوذ بالله من الكساد.. وقالت دلالة لرجل: عندي امرأة كأنها باقة من النرجس. فتزوجها الرجل، فإذا بها عجوز شمطاء، فأخذ بخناق الدلالة وهو يصيح بها: كذبت عليَّ وغششتني. قالت الدلالة: والله ما غششتك، أنا شبهتها بباقة من النرجس؛ لأن شعرها أبيض ووجهها أصفر وساقها خضراء.. واشتكت امرأة إلى القاضي من كثرة غشيان زوجها لها، فقال لها القاضي: لا يجوز له أن يرهقك، فقد أحل له من النساء مثنى وثلاث ورباع، فله امرأتان بالنهار وامرأتان بالليل، فانصرفت المرأة وهي تقول: رضينا بالإرهاق والله المستعان.. وكان يزيد بن معاوية قبيح الوجه، فقالت له زوجته وهي حامل: الويل للوليد إن كان يشبهك. فقال لها: والويل لكِ إن لم يكن يشبهني.. وقيل لحكم عادل: ما ألذ الأشياء؟ قال: هتك الحياء واتباع الهوى.. وكتب أب إلى ابنه: يا بني لا تنسَ نصيبيك من الكسل.. وسئل فقيه في فتوى: ما تقول يرحمك الله في رجل مات يوم الجمعة، أيعذب عذاب القبر؟ فقال الفقيه: يعذب يوم السبت.. وقال القاضي شريك متفلسفا: خمس من عجائب الدنيا: عمياء متنقبة، وسوداء متخضبة، وخصي له امرأة، وأموي شيعي، وبدوي أشقر. وجاءت امرأة تشكو الحاكم لأن زوجها يتركها وينام مع جاريتها، فقال الرجل مدافعا عن نفسه: زوجتي سوداء وجاريتها سوداء، وفي بصري ضعف، وعندما يأتي الليل فإنني آخذ ما دنا مني. وقال عيسى بن موسى لرجل: من أرضعتك؟ فقال الرجل: لا أحد غير أمي. قال عيسى: قد علمت أن هذا الوجه القبيح لا يصبر عليه غير أمك.. وأتت جارية تشكو إلى القاضي وهي تشير إلى شاب قائلة: إن هذا قبلني. فقال القاضي في غضب: قبليه فإن الله يقول: «والجروح قصاص». وهنأ رجل عريسا جديدا فقال له: باليمن والبركة وشدة الحركة والظفر في المعركة.. وقال رجل لابن شريح: إنني أريد أن أتزوج، فماذا ترى؟ قال شريح: وكم المهر؟ قال له: مائة. قال شريح: لا تفعل، تزوج بعشر وأبقِ تسعين، فإن وافقتك ربحت

التسعين، وإن لم توافقك تزوجت عشرا، فلا بد في عشر نساء من واحدة توافقك. وأقبل رجل على عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له: إن لي امراة كلما غشيتها صاحت: قتلتني، قتلتني. فقال له: اقتلها وعليَّ إثمها. وادعى رجل النبوة فقبض عليه على الفور وأدخل إلى الخليفة المهدي، فقال له: أنت نبي؟ قال الرجل: نعم. قال المهدي: إلى من بعثت؟ قال الرجل: وهل تركتموني أذهب إلى أحد؟ ما إن بعثت حتى قبضتم عليَّ، ووضعتمونى في الحبس. وكان أحد الفقهاء يحدث الناس بقصة قتل حمزة فقال: لما أخرجت هند كبد حمزة عضتها ولاكتها ولم تأكل منها، وقال النبي: لو ابتلعتها ما مستها النار. ثم رفع الفقيه يده إلى السماء وقال: اللهم أطعمنا من كبد حمزة. وقال ولد لأبيه: يا أبتِ، إن لي جوادا سباقا، كيف ترى أن أسميه؟ قال الأب: افقأ إحدى عينيه وسمه الأعور.. وكان رجل من بني أسد يجلس في أحد مجالس السمر، فتذكروا المجوس وعبدة النار، فقال الرجل مشمئزا: لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت ألف درهم ما نكحت أمي.. وقيل لأعرابي: كيف برك بأمك؟ فقال: والله ما ضربتها بالسوط قط.

كانوا يعرفون كيف يضحكون، أما نحن فنحاول أن نخلق الفرح الشحيح من زمن الحزن فتأتي ضحكاتنا كالبكاء، فالوداع يا زمن الضحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كبير اللصوص يطالب بالزكاة

لم يترك اللصوص أحدًا في القافلة إلا وسلبوه كل ما معه، وعندما شهروا خنجرا صغيرا في وجه الشاعر «السراج» أعطاهم كل شيء حتى النعل الفاخر الذي كان في قدميه وظل يرتعد، لا يدري كيف يسير كل هذه المسافة فوق الرمل الساخن، وكان اللصوص قد وضعوا كبار التجار في جانب وبقية المسافرين والرعاع في الجانب الآخر، وظهر كبير اللصوص فبُهر السراج من منظره، وبزي الأمراء الذي يرتديه، وبالسطوة والحزم اللذيْن يمارس بهما سلطانه. كان يحاسب كبار التجار، فتخيل السراج منظر السلطان وهو يحاسب عماله، فاشتعلت داخله رغبة مدح الأمراء والسلاطين وهتف في إخلاص حقيقي: فلماذا إذن لا أمدحه كما أمدحهم؟ اقترب السراج منه وانحنى في احترام بالغ وهو يقول: يا سيدي إنني شاعر جوال، وقد أعددت قصيدة في مدحك أريد أن أقولها لك.

قال كبير اللصوص في ملل: ما أكثر الشعراء الذين يمدحونني ثم أكتشف أن قصائدهم مسروقة، إن جراءتهم على السرقة تدهشني. حقًّا لو أردت أن تمدحني فسوف أقول لك بيتا تصنع لي قصيدة على وزنه وقافيته.

تمامًا كما يحذر ذوو الشأن، وافق السراج. ما إن ذكر له كبير اللصوص بيت الشعر حتى أخذ يعتصر أعماقه ويستعين بخبرته وبالتراكيب اللغوية المعروفة حتى اكتملت القصيدة، وهزَّ رئيس اللصوص رأسه في طرب، ووضع اللصوص سيوفهم وجلسوا بجانب الركاب يستمعون. وكان السراج كلما تخيل مدى سخونة الرمال تحت قدميه أفاض في المدح، حتى قال كبير اللصوص في رضا: قد أحسنت، أي شيء أخذناه منك حتى أرده لك؟

وذكر السراج أوصاف أشيائه وأولها النعل، وكان كبير اللصوص كريما شأن كل الأمراء الذين يجيدون السلب، فتناول كيسا من أكياس التجار ووهبه له، ولكن السراج اعتذر عن قبوله، ونظر إليه كبير اللصوص في دهشة، وقال السراج محرجا: لا أستطيع قبوله يا سيدي، إنه من أموال هؤلاء التجار، كيف يمكن أن آخذه وقد رأيتكم وأنتم تسلبونه؟

قال كبير اللصوص في غضب: هل قرأت ما كتبه الفقهاء عن هؤلاء التجار؟ هل تعلم أنهم إذا خانوا الأمانة ومنعوا زكاة أموالهم تصبح هذه الأموال مستهلكة؟ ونحن اللصوص فقراء إليها، إنها مباحة لنا حسب قول الفقهاء شاء التجار أم أبوا.

دهش السراج لأن كبير اللصوص يجيد الفهم في الفقه أيضًا، وقال محاولا التملص: ولكن كيف تعلم يا سيدي أن هؤلاء ممن استهلكت أموالهم بالزكاة؟

وحتى يثبت كبير اللصوص رأيه بطريقة عملية، أمر رجاله بإحضار كل التجار، سأل أولهم عن عدد السنوات التي مارس فيها التجارة ومقدار ما أخرجه من زكاة، فارتج عليه. سأل الثاني وذكر له مبلغا من المال وسأله كيف يحسب زكاته، فلم يعرف. سأل الثالث والرابع، والخامس، ولم يحصل على جواب صحيح، كانت الزكاة بالنسبة إليهم صفقة غامضة ومؤجلة، لن يطلبها أحد على الأرض، ولم يكن هناك واحد من التجار، شأن كل التجار، مقتنعا بأن يخرج دينارا دون أن يعود عليه بدينارين.

وصاح كبير اللصوص ينعتهم جميعا باللصوصية، ثم ألقى بالكيس إلى السراج وهو يقول له: خذ كيسك فأنت أولى به منهم.

ولبس السراج نعليه، وتناول كيسه، وظل ينحني حتى انصرف كبير اللصوص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

صداق الأجل

قال الوزير أبو الفتح للخليفة الطائع بالله العباسي: لا حلَّ للخلاف المستمر بينك وبين السلطان السلجوقي عضد الدولة إلا بالزواج؛ تتزوج أنت ابنته ويتزوج هو إحدى قريباتك.

قال الخليفة معترضا: ولكني متزوج من أربع. الأمر لله سأطلق واحدة. ولكن هل هي جميلة؟

هتف الوزير: يا مولاي، وما علاقة الجمال بالأمر؟ إنه زواج مصالح.

وبدأت الرسل تسعى بين السلطان والخليفة، وبغداد تبحث عن لحظة من السكينة الضائعة، والناس قد ضجوا من الصراع بين السلطان الذي يمتلك القوة، والخليفة الضعيف الذي يمتلك الشرعية، وكان الناس يدفعون من أقواتهم ودمائهم ثمنا دائمًا لهذا الصراع. وعندما سعت الرسل وافق السلطان بتحفظ. كان يريد أن يزوج ابنته، ولكن لا يتزوج بأحد. ووافق الخليفة، فعلى أي حال سوف يكسبه هذا الزواج حرمة الدم، فليس من المعقول أن يغدر السلطان بزوج ابنته. واكتشف السلطان أن من المحتمل أن يحل هذا الزواج كل الصراعات عندما يأتي مولود يحمل في عروقه الدم السلجوقي، والشرعية الدينية من نسل بني العباس؛ وبذلك تحصل الدولة أخيرًا على الخليفة النموذجي. ولكيلا يكون للوريث المنتظر أي منافس على العرش؛ اشترط السلطان أن يطلق الخليفة زوجاته الأربع دفعة واحدة، ورفض الخليفة ثائرا، ثم وافق مسرعا؛ فقد كن جميعا طاعنات في السن. وعاد السلطان يشترط أن يحضر الزفاف كل أمراء الدولة العباسية المفتتة؛ حتى يكونوا جميعا شهودا على الزواج بحيث لا يتراجع الخليفة، ثم عاد مرة أخرى يطلب صداقا لابنته مائتي ألف دينار.

وهنا صرخ الخليفة: مائتا ألف دينار؟ إنني لا أملك غير الراتب الذي يُدفع لي شهريًا.

قال الوزير مهونا عليه: هناك الصكوك يا مولاي، اكتب صكًّا بالمبلغ ونسدده على آجال.

ووافق السلطان واستلم الصكوك وأقيمت الأفراح في طول بغداد وعرضها، وحضر كل الأمراء المتنازعين، وبدا السلطان كأسعد ما يكون، وشعر الخليفة بالأمان للمرة الأولى منذ سنوات، أخيرًا ظفر بعروسه ذات الظهر القوي. كانت جالسة على حافة الفراش والنقاب على وجهها وطلب منها أن ترفع النقاب فرفعته، ويا لهول ما رأى. كانت العروس بشعة متنافرة الملامح دميمة التكوين، ولم يصدق أن السلطان يمكن أن يخدعه لهذه الدرجة. أدرك في هذه اللحظة أنه قُضيَ عليه، وأن خلافه المستمر مع السلطان كان أهون بكثير من زواجه بمثل هذه السيدة، وصرخ الخليفة، انتابته حالة من اليأس والشجاعة فهتف في وجهها: مهما فعل عضد الدولة فلن يظفر مني بدرهم واحد من دراهم الصداق، لن أدفع شيئا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الوزير الأحمق

مواقف الرجال تقودهم أحيانا إلى الموت، ولعل الوزير أبا الطاهر كان يعلم ذلك حين اتخذ هذا الموقف الغريب في زمن أشد غرابة. كانت بغداد منقسمة على نفسها، بين السلطان السلجوقي عز الدولة وابن عمه عضد الدولة الطامع في منصبه. والخليفة العباسي الطائع لله يقف منتظرا نهاية الصراع؛ لكي يطيع من يفوز بلا مناقشة. وفي هذه الأيام، كانت كل الأمور صائرة إلى ابن العم ولم تبقَ للسلطان إلا أركان قليلة يعتمد عليها؛ منها وزيره أبو الطاهر. ولأن عضد الدولة يستعجل الفوز فقد أرسل للوزير يقول له: حانت لحظة عز الدولة، وإذا ساعدتني فسوف تظل وزيري وساعدي، كل ما ستفعله هو أنك ستعجل بأيامه الأخيرة.

ولكن لدهشته الشديدة جاءه رد غريب من الوزير: الخيانة والغدر ليسا من أخلاق الرجال.

لم يكن هناك في بغداد من يراهن على السلطان عز الدولة بدرهم واحد، ومنذ أن وقف عضد الدولة في أحد الميادين في مواجهة ثور هائج واستطاع أن يمسكه من قرنيه ويلزمه مكانه، وقد أدرك الجميع أن رجلا له مثل هذه القوة الخارقة قادر على أن يمسك بغداد من قرنيها.

وبالفعل ذات صباح، قدم أحد الجنود رأس السلطان عز الدولة مقطوعًا إلى ابن العم، فوضع عليها المنديل وأخذ يبكي بحرقة ثم مسح دموعه بسرعة وأخذ يتفرغ لشئون الدولة التي امتلكها، وكان أول أوامره هو القبض على الوزير أبي الطاهر. فقادوه مقيدا بالسلاسل وأرغموه على الركوع أمامه، وصرخ فيه السلطان الجديد غاضبا: أردت أن تعلمني الأخلاق أيها الوزير الأحمق؟

وأمر أن يشهر به وبحماقته في أنحاء بغداد؛ مزقوا ثيابه، صبغوا وجهه ولحيته بالألوان، وضعوا على رأسه طرطورا وأركبوه حمارا بالمقلوب ثم أخذوا يطوفون به في الشوارع والأطفال يقذفونه بالحصى والأوساخ. وأخذ الناس يتأملون منظره المزرى البالغ المهانة وهم يقولون لبعضهم: ما كان أجدر به أن يكون عاقلا، حتى الخليفة الطائع نفسه هتف: لم أرَ أحمق مثل هذا الوزير. ثم ذهب ليهنئ السلطان، وكان موكب المهانة طويلا اشترك فيه كل رعاع الحواري الذين استأجرهم السلطان، ثم قادوا الوزير في النهاية إلى فناء القصر حيث كانت في انتظاره ستة من الأفيال الضخمة المتحفزة، وأمرهم السلطان أن يضعوه على الأرض ثم يجعلوا الأفيال تمر من فوق جسده.

رفع الفيل الأول قدمه فاختفى فراغ السماء. وسمع الوزير صوت تكسر عظام صدره، وبحث عن ذرة هواء فلم يجد، وامتلأ فمه بالدم فلم يصرخ، ومات قبل أن يشفي غضب الفيل.

ورفعوا الجسد المسحوق عاليا، علقوه فوق صارية خشبية حتى يرى الجميع عاقبة الحماقة وأقيم عليه الحرس؛ حتى لا يجرؤ أحد في بغداد على البكاء عليه.

وفي وسط الاحتفالات الصاخبة التي أقامها السلطان بمناسبة انتصاره، مر بالجثة المصلوبة صوفي فقير يلبس الخرقة؛ هو «الأنباري» الذي كان أخر صديق للوزير. ولأنه لم يكن لديه ما يفقده، فقد أخذ يبكي صديقه المصلوب على مرأى الجميع، وقال فيه مرثية لم تتكرر:

علو في الحياة وفي الممـاتِ لحق أنت إحـدى المعجزاتِ

كأن الناس حولك حين قاموا وفـودُ نـداك أيـام الصــلاتِ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

اللص والسلطان

شوارع بغداد مشتعلة بالحركة منذ الصباح. دهشة وفضول وخوف. جاء الفقراء وتطلعوا إلى صفوف الجنود في حذر ثم التصقوا بالجدران. ثم جاء تجار بغداد وأصحاب القوافل فتبادلوا التهاني وربت كل واحد منهم على بطن الآخر، ثم فرش لهم الخدم الأبسطة والوسائد وجلسوا على جانب الطريق، وكان صاحب الشرطة والسلطان ينتظرون جميعا ذلك الرجل القادم من بوابة المدينة، والجميع يرددون في حبور: أخيرًا سقط اللص ابن حمدي.

وكان صاحب الشرطة هو أسعد الجميع بعد أن نجحت مكيدته وسقط ابن حمدي في الكمين الذي أحكم إعداده له في سهول الأهواز، ولكن السلطان لم يكن راضيا. ومن الصعب إرضاء السلطان السلجوقي أبي جعفر ابن شيرزاد.

عند الظهيرة بدأت طلائع الجند الذين ألقوا القبض عليه. ورفع الحراس الرماح تحسبا لأي هجوم يقوم به اللصوص لإنقاذ زعيمهم، ثم ظهر ابن حمدي طويلا نحيلا، أشبه ما يكون بشاعر صعلوك وليس لصًّا فاتكًا. كان في مشيته والقيود في يديه شيء من الرقة وقليل من البؤس يتطلع إلى بغداد بعيون واسمة، لم يتعود رؤية المدينة في ضوء الشمس، لم يتعودها إلا في الليل فقط. مر أمام مجلس التجار فنهض أحدهم وبصق في وجهه بصقة كبيرة وهو يهتف: الحمد لله الذي أراحنا منك.

تذكر التجار جميعا لحظات المهانة التي وقفوها أمام ابن حمدي، حين عراهم من ثيابهم وسلبهم بضائعهم وتركهم نهبا للصحراء، تذكروا المرات التي ذهبوا فيها للسلطان المتراخي وصاحب الشرطة الخائف، كيف أعطوهم الوعود ثم تركوهم فريسة سهلة له المرة تلو المرة.

مر أمام الفقراء فتأوهت امرأة عجوز في شفقة، رأت عنقه رفيعا حتى إن أي سيف مهما بلغت درجة رهافته كان قادرا على قطعه. ذات يوم كان ابن حمدي مثلهم، يعمل حمالا في سوق بغداد ينال نصيبه من الشظف والشقاء اليومي، يعاني من الجوع والخوف والافتقار إلى الأمان، ثم قرر أن يخرج عن كل شيء. حوَّل خوفه من السلطان إلى غضب ضده، وترك شوارع الامتهان لكي يعلو القمم الواعرة. كان لا يسطو إلا على القوافل الكبيرة، لم يكن يسلب ذا حاجة، ولا يتعرض لامرأة، كان أشبه بحلم غريب تشكل في ليل المدينة، ليقاوم كل رموز الخوف التي تثقل عليها في ضوء النهار، وعادت المرأة تتأوه فتأوه الجميع وزمجر الجنود في غضب.

ثم وصلوا إلى قصر السلطان ابن شيرزاد، جذبه قائد الشرطة من رقبته وقاده حتى يعلن انتصاره، ولكن السلطان صرخ غاضبا: اخرجوا جميعا، واتركونا وحدنا.

وارتج على صاحب الشرطة وهرع الحراس إلى الخارج، ووقف اللص والسلطان وحدهما، كل منهما في مواجهة الآخر، وصاح السلطان من بين أسنانه: كنت تحسب أنك بعيد عن متناول يدي؟

قال ابن حمدي في برود وهو يشير إلى قيوده: لماذا فعلت بي هذا؟ لم يكن هذا اتفاقنا.

وصرخ السلطان: وهل حافظت أنت على أي اتفاق؟ هل واصلت دفع الخمسة عشر ألفا التي اتفقنا عليها أول كل شهر؟ هل دفعت جباية القوافل التي تسرقها؟

قال ابن حمدي: أجل، ومعي كل الإيصالات عليها ختمك؛ عشرون إيصالا.

صاح السلطان في هياج: كذب، لم تدفع إلا سبعة عشر شهرا فقط.

عشرون، سبعة عشر، صمم كل واحد على رأيه ثم أخذ كل واحد يسب صاحبه، وانتهز السلطان فرصة أن ابن حمدي مقيد اليدين فأخذ يضربه في حنق، وصرخ فيه: يا لص، يا سافل، سأقطع رقبتك. فرد عليه ابن حمدي بأنه لن يجد في بغداد من يعطيه نصف المبلغ الذي يدفعه له، وصرخ السلطان وطلب من الحراس أن يضعوا اللص في السجن، وظل بعد ذلك يساومه أياما طويلة وعندما وصلت المساومة بينهما إلى طريق مسدود أمر بقطع رقبته. واستراح التجار من ابن حمدي، ولكن من الذي يريح الناس من السلطان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أول من يعبر

كانت «خوند سواري» دائمة التأفف من الإقامة داخل قلعة دمشق، مشكلتها الكبرى هي عبور النهر كلما حاولت النزول إلى المدينة، وبالغت في الشكوى حتى قرر زوجها الحاكم «ساتكين» نائب السلطان على دمشق أن يبني جسرا رائعا، وقرر أيضًا أن يدفع أهل دمشق ثمن هذا الجسر. لم يقل ذلك صراحة، ولكنه ادعى أنها مكوس إضافية للجهاد ضد الروم. اندهش الناس لأن الحاكم المعروف بجبنه الشديد سوف يخرج أخيرًا للجهاد، ثم اكتشفوا أن الأمر لا يتعلق بالجهاد خارج دمشق، وإنما من أجل حماية القلعة وتأمين سلامة الحاكم إذا - لا قدر الله - سقطت دمشق.

وثار التجار في وجه «ساتكين»؛ فثار في وجههم وهددهم بالسجن. وابتسمت خوند سواري في سعادة وهي تطل من نافذتها على صفوف العمال الذين يحملون أعمدة الحديد وعوارض الخشب ويشتغلون بدأب في تشذيب الأحجار. أساس الجسر كان ضخما خاصة ونقود الضرائب تغوص في الماء دون أن يبدو لها أثر، ولم يستطع الحاكم أن يفرض المزيد من الضرائب، وخطر له أن يخصم فرق تكلفة الجسر من خراج السلطان العزيز بالله الفاطمي، أرسله له ناقصا الربع متعللا بالجفاف الذي أصاب غوطة دمشق، وبعد عام كان الجسر ما زال هيكلا بالغ الضخامة يتطلب المزيد من النقود، ومرة أخرى ازداد حزن خوند الشديد، ففرض الحاكم ضريبة جديدة وخصم نصف خراج السلطان.

وأخيرا تحقق الحلم واكتمل الجسر وأصبح تحفة معمارية، وهتفت خوند سواري: لا تدع أحدًا يعبر فوق الجسر أيًّا كان، سأكون أنا أول من يعبره.

ارتفعت الزينات في القلعة، وأعطيت الأوامر للمدينة المفلسة أن تتزين فلم يمتثل أحد، وهبطت خوند سواري في أبهى حلة ووقف الحاكم بجانبها ينتفض من النشوة. ورفعت خوند طرف ثوبها فبدت ساقها، وتمنى الحاكم لو كان قادرا على صنع هذا الجسر من الذهب. وبدأت تخطو خطواتها الأولى، ولكن في هذه اللحظة جاء من الناحية الأخرى فارس مسرع لم يبالِ بالتحذيرات ولا بالورود، دقت سنابكه فوق الجسر فتراجعت خوند مذعورة، وزمجر الحاكم غاضبا فيه عندما وقف أمامه: من أنت، وكيف عصيت أوامري؟

قال الرسول: أنا رسول السلطان من مصر، وهذا أمر عزلك عن دمشق، وعليك أن تغادر القلعة فورا.

ووقعت خوند مغشيًّا عليها، وصرخ الحاكم ثم انصرف ليجمع أمتعته، وأدركت خوند أنها سوف تعبر الجسر لأول ولآخر مرة، وكانت شوارع دمشق تغني كلها أغنية واحدة في وداعهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحظة دفء

الشمس ساطعة ولكن برودة الجبل ساكنة في عظامه، كان الحاكم بأمر الله الفاطمي مقرورا، يركب فوق حماره وهو يعبر طرقات المدينة بعد ليلة طويلة باردة قضاها ساهرا فوق قمة المقطم. كان يراقب دوران النجوم، وتشكيل السحب وينتظر الأصوات الهادية فلا يجيبه سوى عواء الذئاب، ما أكثر ما تتأخر البشارات في هذا الزمان، وما أشد البرد حين تصاحبه خيبة الأمل.

كان نصف نائم، والحمار يسير ببطء وسط المدينة، يمسكون أنفاسهم حتى يمر الحاكم بحلمه الغريب ثم يواصلوا حركتهم بعد ذلك، ولكن الحاكم استيقظ هذه المرة، لكز الحمار فتوقف وتوقف الحراس والخصيان الذين يتبعونه، هتف: ما هذه الأصوات؟

كان واقفا أمام حمام المدينة، تنبعث من فتحاته العلوية أدخنة الدفء وأصوات النساء الصافية الملتهبة بالنزق والنشوة والمعابثة، تتساب الأدخنة كأنها تجسد صورة لما يجري في الداخل؛ الأجساد العارية حين يمسها دفء الرغبة وتحمل أصواتها كل نداءات الحس. أسرع صاحب الحمام يقف أمام الحاكم وهو يقول: إنه عرس يا مولاي، إنهم يحممون إحدى العرائس.

وظل الحاكم صامتا، ارتفع من الداخل صوت امرأة تغني تتبعها ضحكات حرة بلا رادع. رأى الحاكم نفسه وحيدا جالسا في المغارة منكمشا على نفسه وفوق كتفيه عباءة من الصوف الخشن، يهبط وحيدا وسط الصخور الوعرة ويسعى إلى فراشه البارد يفتش تحت الوسائد خوفا من الخناجر ويمج الطعام خوفا من السم، ولكن ضحكات النسوة تهزه من الداخل، تفتح جروح الحرمان القديمة ورغبته المستحيلة في السمو والتأله، توقظ كل الشهوات التي يظن أنه كبتها ونقى جسده منها، لكن بدنه كله يرتجف من فرط الرغبة، يضج بنبضات الحاجة، حتى الحمار تحته كان يرتجف هو أيضًا، وصرخ الحاكم: «يا برجوان»، وجاء الخصي برجوان يجري ويقف بين يديه، فأشار الحاكم بإصبع مرتجفة وهو يهتف: سد عليهن باب الحمام، لا أريد أن تخرج واحدة من هاتي الفاجرات.

هتف الحمامي متوسلا: ولكنه عرس يا مولاي، عرس.

صاح الحاكم: واقتلوا الحمامي فإنه صاحب الفساد.

توقف قلب المدينة ولكن ضحكات النساء لم تتوقف والبناءون يضعون الحجر على الحجر، ورفع الحرس رماحهم وسيوفهم يمنعون أي صوت احتجاج، وسد الباب وسدت المنافذ، وظل الحاكم واقفا والأصوات تتصاعد ثم تخفت رويدا رويدا، وكان يعرف أن كل شيء سوف يتوقف، وأن برودة الموت ستطغى على لحظة الدفء الوجيزة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الجنون يليق بابن الهيثم

هتف «ابن الهيثم» مندهشا: يا له من بلد ويا له من نهر.

لم يكن النيل يشبه دجلة ولا الفرات ولا أنهار الشام الصغيرة، لم تكن كلها تملك قوة النيل وعنفوانه وهويرتطم بجلاميد الصخر، ثم ينحسر ليكشف ما عليها من نقوش فرعونية غامضة. كان قد قضى عاما في هذا المكان منذ أن كلفه الخليفة الحاكم بأمر الله بهذه المهمة المستحيلة، كان يحب هذا المكان الذي يدعى أسوان، والذي قالوا له إنه مركز العالم دون أن يوجد دليل على ذلك، ويود أن يقضي فيه بقية عمره بين هذه الوجوه السمراء التي لا تغادرها الابتسامة، لولا أن الفشل كان يلاحقه. كان هناك دافع ملح يجعله لا يستقر في مكان واحد، نشأ في البصرة حيث لا يوجد ما يشبع جوعه إلى المعرفة، وهاجر إلى بغداد حيث توجد دار الحكمة التي أنشأها الخليفة المأمون وهناك وجد ضالته، المكان الذي كان يحلم بالتواجد فيه، كتب في كل العلوم من اليونان وفارس والهند، ومترجمون لا يكفون عن فك رموز اللغات الأخرى وشراح ومفسرون وعلماء في السيمياء والكيمياء، وهو يقرأ ويكتب ويكتشف الأخطاء الموجودة في كتب الأولين، كان يريد إعادة كل العلوم وفق نسق عقلي خاص به، حتى جاء ابن النسطوري.

عليك اللعنة يا «بن النسطوري».

لا يدري من أين جاء ولا كيف التف حوله كل هؤلاء الأتباع المتحمسين لدرجة القتل. وقف الرجل في وسط مسجد بغداد وهو يرفع في يده مخطوط كتاب «الهيئة»؛ أحد الكتب التي ألفها ابن الهيثم في علم الفلك، وهو يصيح: هذا المتفلسف الملحد يريد أن يشارك الله في معرفة أسرار الكون، وهو يرسم دوائر ويزعم أنها الأفلاك، فهل صعد وعاين؟ ولكنها طلاسم سحرية أو رجم بالغيب، إنها علامات على الزندقة والإلحاد.

لم يفهم المصلون من كل ما قيل غير كلمة الإلحاد، هي التي دفعتهم جميعا للخروج من المسجد ورجم منزل ابن الهيثم بالأحجار، لم يعرف كيف يدافع عن نفسه، تهمة جاهزة لكل من يجرؤ على التفكير والخروج عن علوم الشرع. انتشر الخبر في كل بغداد، حاصروه في كل مكان يذهب إليه، لم يعد يستطيع الخروج لبيت الحكمة ولا المسجد ولا السوق، بغداد كلها لم تعد صالحة للعيش، لم يكن أمامه غير التسلل تحت جنح الظلام والسفر بعيدا إلى الشام، لا يحمل إلا عدة مخطوطات؛ مؤلفاته التي اتهم بسببها والتي لا يستطيع التخلي عنها، لجأ إلى المسجد الأموي، ولكن ما إن جلس إلى أحد الأعمدة حتى التف حوله الطلبة وراغبو المعرفة، سبقته شهرته، ولم يكن أمثال ابن النسطوري موجودين، شعر ببعض الحرية وبدأ يلتقط أنفاسه ولكن ذلك لم يدم طويلا.

في صباح أحد الأيام وجد جنود السلطان يحيطون بالمسجد، وتقدم منه رجل ضخم يرتدي ملابس فاخرة وقال له: انهض معي، السلطان الحاكم بأمر الله يريد مقابلتك.

ظل ينظر لهم حائرا، ماذا يمكن أن يريد من هارب مثله؟ لا توجد بقعة من الأرض إلا وعليها سلطان، وليس أمامه إلا أن يسير معهم، وفي خارج المسجد كان هناك المزيد من الجنود والخيول،

سأل الرجل: أين سنذهب لمقابلة السلطان؟ قال الرجل ببساطة: في القاهرة طبعا، سنسافر إلى مصر الآن.

سقط قلبه في قدميه، ماذا؟ سيذهب بقدميه إلى هذا الرجل المرعب، الذي يستحل قتل رعاياه دون سبب، لقد أفلت من مصيدة ليقع في فخ بلا مدى، ولكن الجنود يحيطون به، وقافلة تقف لتقوده عبر الصحراء، ساروا به جميعا، قدموا له الطعام والماء البارد، أعطوه الحلوى والفاكهة وأسكنوه في خيمة فاخرة، ولكنه لم يكن يشعر بالأمان، كانت أمنية عمره أن يزور مصر؛ أعظم مدائن الإسلام، ولكن ليس في وجود هذا السلطان. نام واستيقظ وصهرته الصحراء في متاهتها، ولكن السير تواصل حتى تراجعت الرمال وظهرت الأرض الخضراء، عبروا النهر وبدت القاهرة بأسوارها ومساجدها وقصورها وأسبلتها وأسواقها، القاهرة بكل بهائها، لم يرَ بعد بؤسها، لم يأخذوه مباشرة إلى قصر السلطان ولكن أخذوه إلى مبنى كبير مشيد بالأحجار ويطل على النهر، قال الرجل: هنا في بيت الحكمة سيقابلك السلطان.

تلفت حوله مندهشا، تجول في أنحاء البيت، كانت هناك مكتبة أكبر من الموجودة في بغداد، وعدد أكبر من العلماء والدارسين وأجهزة كثيرة للقياس والمناظير ومراقبة النجوم وآلات للجراحة وهناك معمل كامل للكيمياء، كأن فردوسه المفقود في بغداد قد تبدل بخير منه، توقف لاهثا، ربما كان مخطئا، حاكم يقوم بعمل هذا المجمع العلمي لا يمكن أن يكون سفاحا، يشاهد خريطة غريبة للعالم معلقة على الحائط، يقترب ليتأملها ولكنه يجد شخصا واقفا في طريقه، شخصًا قصير القامة مكتنز الجسم لحيته مدببة وعيناه نافذتان، يتأمل حركته وعلى وجهه ابتسامة خفيفة. أدرك ابن الهيثم على الفور أنه يقف في حضرة السلطان، أسرع بالانحناء أمامه، لم يكن يريد أن يقبل يده، ولم يمدها السلطان، أشار له أن يسيرا معًا، قال ببساطة: أردت أن أقابلك هنا حتى ترى بعينيك مدى اهتمامي بالعلماء.

وأوضح ابن الهيثم سعادته بذلك، كان هذا أفضل ما في رحلته، قال السلطان: مكانك الطبيعي في هذه الدار، ولكني لم أستدعك لهذا السبب، استدار نحوه وهو يقول في جدية بالغة: استدعيتك بسبب ما قلته عن النيل، وكيف يمكن أن نزيد الاستفادة منه. هذا النهر هو روح مصر، ولكنه متقلب؛ أحيانًا يفيض فيغرق كل شيء، ويغيض أحيانًا فيجف كل شيء، أربعة وعشرون عاما وأنا أحكم هذا البلد ولم أفهم سبب تقلبات هذا النهر، أريد أن أعرف السبب، وهل هناك طريقة لمنع هذه التقلبات المميتة؟

قال ابن الهيثم: سمعت عن هذا النهر العظيم كثيرًا، ولكن لا بد أن أراه.

قال السلطان: سأجهز لك سفينة صغيرة فيها أمهر الصناع في مصر، وستبحرون إلى المكان الذي تراه مناسبا، وسأمدك بكل ما يلزمك من مواد.

عرض لايمكن رفضه، هكذا كان ابن الهيثم يفكر، لم يتصور أن تتاح له الفرصة في هذا البلد ومع هذا السلطان. لم يرتح إلا قليلا، أخذ لمحة سريعة عن القاهرة، ولكن استعدادات الرحلة كانت تتم بسرعة ويقوم السلطان بنفسه بالإشراف عليها، وحتى عندما حانت لحظة الرحيل كان السلطان في وداعهم. مؤكد أن مشكلة النهر كانت تهمه، ومؤكد أيضًا أنه أراد أن يريه الوجه الآخر من حكمه. لم تكن رحلة السفينة سهلة، كان النهر غائضا وكانوا يبحرون عكس التيار مدفوعين بقوة الريح، ولكنها

أحيانًا ما تخذلهم وتكفَ عن الهبوب لعدة أيام، كانت هناك أيضًا مخاضات من الطين عليهم أن يتجنبوها، ولكن ابن الهيثم كان مبهورا بالنهر والخضرة التي على الضفاف والقرى المتراصة والوجوه السمراء التي تطل عليهم وأيديهم التي ترتفع بالتحية.

ورغم طول الرحلة لم يجد المكان الذي يبحث عنه إلا في أسوان، هناك وجد النقطة التي يتسع فيها النهر كثيرًا ثم يضيق ليصبح أشبه بعنق زجاجة بفعل جلاميد الصخر. تأمل المكان ثم واتته فكرة عمل السد عند هذا العنق، سيخزن خلفه كمية كبيرة من الماء حتى وقت الحاجة، ويمكن عمل فتحات يحصل منها على الماء اللازم، فكرة جبارة ولكنها تحتاج مجهودا جبارا أيضًا. من حسن الحظ أن النهر كان منحسرا، والأرض الصخرية ظاهرة، شعر بأنه يسابق الزمن، أمر باحضار الأحجار والأخشاب اللازمة، كان معه مندوب من بيت المال، يدفع دون نقاش ثمن كل ما يحتاج إليه، قام ابن الهيثم بعمل القياسات اللازمة واستشار البنائين الموجودين معه وجلب عمالا من القرى المجاورة وبدأ العمل. بدا النهر هادئا فوق العادة، مستسلما لهم، لم يلحظ ابن الهيثم لقلة خبرته بالنيل أن لون المياه قد تغير وأصبح أكثر حمرة، وأن كوكب الشعرى يبدو لامعا ومتألقا في عرض السماء، وأن هناك صوتا كوجيب القلب يسري بين مويجات المياه. وذات ليلة نام واستيقظ ليجد أن الفيضان قد جرف كل شيء، تغير هدوء النهر الخادع فجأة وبدا على حقيقته جبارا عاتيا، جاء الفيضان حيث لا يقدر أي سد على الوقوف في سبيله، توقف ابن الهيثم وقد أدرك أن إخضاع مثل هذا النهر أكبر من إمكاناته، أكبر من إمكانية كل البنائين والمعماريين، هؤلاء الذين بنوا كل هذه المعابد والمساجد عجزوا عن ترويض هذا النهر، لم يكن هناك مفر من العودة إلى القاهرة، وقال له مندوب بيت المال مرعوبا: سيكون الحاكم رحيما معنا إذا اكتفى فقط بقتلنا.

شعر بالهزيمة، كان قد أنفق الكثير على هذا الفشل، وربما لن يغفر له الحاكم أبدًا أنه خيب أمله، ماذا يفعل وهو غريب في بلد غريب؟ ظل صامتا طوال الرحلة، وفور وصول السفينة تسلل منها إلى الجامع الأزهر، ربما كان هذا المكان الآمن الوحيد، سيبقى مختبئا به حتى يجد طريقة للهروب من هذا البلد، هل يجازف الحاكم ويقتحم المسجد للقبض عليه؟ لم يرد أن يعرف الجواب، كان ينام بجانب أحد الأعمدة، ويأكل من خبز الجراية، ومن الطعام الذي يحضره بعض المحسنين، ولكن لم يكن معه مالٌ ليشتري جوادا أو ليلتحق بإحدى القوافل، ليس أمامه إلا الانتظار، ولكنه ذات يوم فوجئ بالحاكم بأمر الله وهو يقف أمامه، ليس فخما ولا مزينا بالذهب، ولكن في ثياب متواضعة، قال: هل تعتقد أنك هكذا سوف أعجز عن القبض عليك؟ قلَّب عينيه كأنه لا يرى شيئا وأخذ يصيح كأنه يهذي: الماء.. الماء.. الفيضان.. الفيضان..قال الحاكم: وتتظاهر بالجنون أيضًا؟ صاح ابن الهيثم: الصخور، الصخور.. قال الحاكم: لا يخيل عليَّ ادعاؤك الجنون، الحراس عند الباب وأستطيع أن أستدعيهم بإشارة، ولكني لا أريد أن أشوه سمعة المسجد الذي بناه أجدادي. ولكن ابن الهيثم ظل مصرًّا: السماء السماء.. الهواء الهواء.. قال الحاكم: لا بأس.. داوم على ذلك، كان من الممكن أن تصبح أعظم علماء المسلمين، ولكنك منذ الآن ستعيش على خبز الجراية.. وتركه ومضى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ست الملك لم ترَ شيئا

منذ ثلاثة أيام وبوابة المدينة مغلقة، القادمون من الخارج لا يستطيعون الدخول، ومن في الداخل مسجونون تقريبا، قلب القاهرة متوقف، وفي كل ساعة يصعد صاحب الشرطة ويطل من فوق الأسوار لعله يرى الخليفة الحاكم بأمر الله وهو قادم بحماره من ناحية المقطم، ولكنه لايرى إلا الصخور الجامدة. كانت لديه أوامر محددة، عليه أن يغلق البوابات فور خروج الحاكم، ولا يفتحها إلا عند عودته، ولو خالف ذلك الأمر فسيكون مصيره القتل، وفي العادة لم تكن مدة الغياب تتجاوز ليلة واحدة، ولكنها هذه المرة قد طالت أكثر من اللازم، بدأت أصوات الناس تعلو في احتجاج وسخط، كانت أفعال الحاكم قد تجاوزت كل حد، وبلغ به الأمر أن يحول مدينتهم إلى سجن محكم الإغلاق. أرسل صاحب الشرطة العديد من الرسل إلى بين القصرين حيث توجد «ست الملك» أخت الخليفة ليسألها: ما العمل؟ بعد ساعات من الانتظار جاءت ست الملك بشخصها وخلفها كبار رجال الدولة والجند، أمرت بفتح بوابات المدينة على الفور، واندفع الناس دخولا وخروجا.

كان وجه ست الملك جامدا لا يبدو عليه أي انفعال، بدت متماسكة وهي تلقي بالأوامر وتوجه الرجال، اتجهوا على الفور للطريق المؤدي للمقطم، كانوا يعرفون أن هذا هو المكان الذي يلجأ إليه الحاكم كل ليلة؛ حيث مغارة يجلس فيها ويراقب النجوم، كان قد استقر في أعماقه أنه شبه إله، ولم يبقَ إلا أن ينتظر إشارة من السماء تؤكد له هذا الإحساس.

أشارت ست الملك للجميع أن ينتشروا بين الصخور المتجهمة. كل شيء وعر وجاف، كل شيء يليق بما في داخله من جفاف وصلابة ونزوع من الرحمة، تسمع صوتًا يصيح: لقد وجدنا الحمار «قمر»، كان ملقى على الأرض تغطيه الدماء الجافة وتطن فوقه أسراب من الذباب، كان القتلة قد قطعوا قوائمه وفصلوها عن جسده، جعلوه يهوي في مكانه وينزف حتى الموت، ابتعدت في تقزز، ولكنها أدركت أن القتلة قاموا بعملهم بالفعل، وما داموا قد قتلوا الحمار فمن المؤكد أنهم استطاعوا الوصول لصاحبه، ولكن أين قاموا بهذا الفعل؟ تتواصل عملية البحث، عليها أن تبقى معهم وتظهر اهتمامها الحزين حتى لا يشك أحد أنها هي التي أرسلت القتلة، تبتعد عنهم قليلا وتطوف بعينيها وسط الصخور، هل كان يستحق هذه النهاية؟

كان قد قتل ما يكفي من الجميع؛ أصدقاء وخلان، كل الذين أخلصوا له وحسبوا أنهم آمنون من شره، وحتى الناس العاديون لم يسلموا منه، أحرق نصف مدينتهم الفسطاط، وجعل السود يهاجمون بيوتهم، ويروعون بناتهم. كانت واثقة من شيء واحد، أن دورة الموت ستحل عليها، وأنه ذات لحظة سيقرر أن يقتلها، وسيكون سعيدا حين يأمرهم بذلك، وكان عليها أن تسبقه، لن تسمح له بأن يقتلها دون أن تستطيع الرد.

دون أن تدري كانت ست الملك تواصل صعود الجبل، أين توجد هذه المغارة؟ كانت هناك أكثر من واحدة، أشبه بأفواه فاغرة مليئة بالظلمة، لم تستطع الاهتداء إلى واحدة بعينها، استدارت وعاودت السير بين الصخور، توقفت وقد لمحت شيئا ما بين الصخور ذات الحواف الحادة، مزقًا من الثياب ملوثة بالدم، اقتربت منها وهي ترتجف، هل هذه عباءته؟ تذكرت آخر مرة رأته فيها، وهو يقتحم غرفتها دون استئذان، لا يبالي إن كانت في ثيابها أم كانت عارية، يصيح فيها بوقاحة: ومن أكون أنا

بالنسبة إلى الرجال الذين يتسللون إلى غرفتك كل ليلة؟ كل مرة يهينها بهذه الطريقة، يطعنها في شرفها كأنها بغي، في كل مرة يكرر ذات الكلمات، كأنه كان يرغبها ويعجز عن نيلها، وكانت القطيعة بينهما حين أحضر القابلات إلى غرفتها؛ نسوة سودًا كالغربان، أسنانهن مغطاة بطبقة من الفضة، سكاكين حادة ومتراصة، جردوها من ثيابها، فحصوا نصفها السفلي بحثا عن أي خدش أو علامة، باعدوا بين ساقيها ليتأكدوا من وجود الغشاء الذي يؤكد عذريتها، قاومت ثم استسلمت لأصابعهن، أصبح جسدها منتهكا ولن يستعيد سكينته أبدًا، ملوثا لن تتمكن من تنظيفه مهما اغتسلت، ولكنه لم يكن راضيا عن نتيجة فحص القابلات، لم يستطع أن يصدق أنها ما زالت عذراء، يقول لها في سخرية: لا بد أنهم عثروا على فتحات أخرى في جسدك، كيف تستطيع أن تتحمله بعد الآن؟ كان يكره فيها كل النساء، منعهن جميعا من الخروج من بيوتهن، وسدَّ عليهن باب أحد الحمامات اللواتي كن مجتمعات في داخله يستحممن ويغنين. تحول إلى قاتل بارد القلب؛ لذلك أخذت القرار واتصلت بالقتلة من بني كتامة، ولو ترددت لحظة لبادرها هو بالقتل.

تهب الريح من أعلى المقطم، تستجمع شجاعتها عندما ترى العباءة ما زالت ساكنة في مكانها، تزيح بعض الصخور وتنظر من خلالها، ترى جثته محشورة وسطها، ترتد في فزع، تخشى أن تنفخ فيه الريح الحياة من جديد، ولكن جسده يظل ساكنا بما تخترقه من طعنات وما يغطيه من ذباب، أصبح غير قادر على هش أي ذبابة، مات بلا أي نوع من الرهبة ولا الجلال، أتمَّ القتلة عملهم وحاولوا إخفاء الجثة تحت الصخور. ما كان أغنانا عن هذه النهاية يا أخي ونحن نقف على هذه الحافة من العداء، تجلس على حافة الصخرة وهي تنظر إلى ملامحه الملتوية من شدة الفزع، إلى لحيته غير المشذبة التي تلوثها الدماء، لو أنه فقط عرف شيئا من متع الحياة غير القتل! لو شرب بعضا من الخمر وعاشر بعضا من الجواري، وتخلى عن فكرة أنه إله وعبث قليلا مثل بقية البشر، فربما تغيرت المصائر! تقول في صوت عالٍ: ربما لم أكن سأقتلك يا أخي.

تسمع أصوات الرجال وهي تتناهى من بعيد، تسرع وتعيد الصخور التي أزاحتها، تضيف إليها صخورا أخرى، يسترد الجبل مظهره الأليف، ويظهر صاحب الشرطة وهو يتقدم الرجال، يقول في صوت لاهث: لقد سرنا حتى حلوان، ولم نعثر له على أي أثر، يقول أحد الأتباع: ربما لم يقتل، ربما ارتفع للسماء وسيظهر من جديد، تتأملهم جميعا في صمت، يسألها صاحب الشرطة: هل رأيت شيئا يا مولاتي؟ تهز رأسها: لم أرَ شيئا، هيًّا فلنعد، هناك دولة علينا أن ندبر أمورها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ثأر الأنبياء

أسرى كسرب النمل يمرون في صف طويل أمام خيمة السلطان «الناصر صلاح الدين»، يترنحون في إعياء، يعانون من عطش الحصار الطويل واحتدام المعارك ومرارة الهزيمة. كان السلطان قد بدأ رحلة حربه ضدهم منذ عشرة أعوام، وتحمل الكثير حتى يقودهم إلى ذلك المنحدر الوعر من جبل حطين ليظفر بثأر كل الأعوام الماضية، رفع يده فتوقف الطابور عن السير.

أمامه يقف الملك «جفري» الذي كان يحكم «الكرك» وبجانبه أخوه، وبعيدا عنهما يقف البرنس «أرناط» الذي يحكم قلعة الشوبك. فكر: أخيرًا يا أرناط، كم من معاهدة صلح نقضت؟ وكم من قافلة نهبت؟ وكم بغيت دون أن يردعك رادع؟ كان يحاول التظاهر بأن الهزيمة لم تنل منه، والدم يلطخ ثيابه، ترى أهو دم جنود حطين، أم دم الحجاج الذين خرجوا آمنين بعد معاهدة الصلح المعقودة؟ ولكن أرناط أعمل السيف في رقابهم، كفنهم بملابس الإحرام، وهتف في انتصار ساحق: لو أن نبيهم محمدا جاء هنا لقتلته بسيفي.

وعندما وصلت الأنباء إلى صلاح الدين ظل ينتفض من الغيظ، وأقسم أن ينال من أرناط ثأر النبي حتى ولو ذهب إلى أقصى الأرض. تذكر كل هذا فاربد وجهه، ومد يده يتحسس سيفه، ولكن الملك جفري أسرع قائلا: نحن عطشى يا سلطان المسلمين، جُدْ لنا بقليل من الماء.

وصمت الجميع، فالماء يعني الأمان، والأسير إذا شرب ماء السلطان أو أكل من طعامه ظفر بحياته، ورأى السلطان وجه الرجل العجوز وشفتيه الجافتين فقال: أعطوا الملك وأخاه ماء.

وقدم لهما الخادم أكواب الماء المثلج، ووقف أرناط يزفر في غضب، وأحس به الملك جفري فقدم له نصف كوبه تناوله وشربه بسرعة، وقال صلاح الدين للملك: أنت الذي سقيته وليس أنا، فهل تقدر أن تهبه الأمان؟ انحنى جفري وهو يقول: العفو يا مولاي السلطان.

قال صلاح الدين وهو يلتف ناحية البرنس أرناط: هأنذا أنتصر للنبي محمد منك، إما أن تعلن إسلامك وإما تموت. والتفت أرناط لكل من يحدقون فيه، لكل الذين ينتظرون قراره، وهتف من بين أسنانه: أنت لن تجرؤ على قتل أسير.. قال صلاح الدين: إنني لا أقتل أسيرا، إنني أقتل سفاحا، خائنا للعهد، باغيا على كل الأنبياء.

وهوى عليه بسيفه ففصلت الضربة كتفه وأسرع بقية الحراس فأجهزوا عليه وحملوا جثته بعيدا، وكان الملك جفري يتحسس رقبته في خوف، ولكن صلاح الدين قال له: لا بأس عليك، فالملوك لا يقتلون الملوك، ولكن هذا تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

صلاح الدين وشيخ الجبل

في مكان ما بين صخور جبل «مصيف»، تتوقف البغلة التي كان يركبها الراهب «إيف البريتوني»، يرهف أذنيه ليسمع ما يدور من حوله، برغم أصله الفرنسي كان يجيد العربية، يدرك أن رحلة البغلة وصلت إلى نهايتها، يهبط ويفتح ذراعيه مستسلما، يفتشون ثيابه جيدا، يريدون التأكد من خلو أي جزء بارز من جسده، يتقدم واحد من حراس الجبل ويحمل الصندوق الذي كان على ظهر البغلة ويشير له أن يتبعه. على الأقدام تبدأ رحلة الصعود الشاقة، رغم أن الأب البريتوني كان متعودا على حياة الشظف وتحمل المشاق، لكنه لم يألف قط شمس بلاد الشام الحارقة، يتقدمه رجال شيخ الجبل، يقودونه في طريقه للقمة، عند كل منحنى يظهر اثنان من الحرس، كأنهما ينشقان من الصخر، ملامحهماجامدة، ونظرتهما نفاذة، يتبادلون بضع كلمات مع مرافقيه ثم يسمحون لهم بالمرور. من الصعب صعود الجبل، ومن المستحيل بلوغ القلعة دون أن تتعرض للموت. يلهث الراهب ويغمره العرق ولكنه يواصل الصعود خلفهم، لم يكن بالرجل الذي يتخلى عن مهمة تم تكليفه بها.

بعد ساعات ظهرت أسوار القلعة أمامه فجأة، مثل كل شيء يحدث في هذا المكان، بابها ضخم، مصنوع من الحديد الصلب، يفتحون فيه بابا صغيرا ويسمحون له بالدخول. يجتاز أفنية وممرات، ويشاهد أسوارًا جيدة الحراسة، ويهبط درجًا حجريًّا إلى بهو من رخام مصقول، كل شيء عارٍ وخشن، لا سجاجيد ولا ستائر ولا طنافس، قبل أن يلتقط أنفاسه يأتي من يقول له: سيدنا «سنان» شيخ الجبل سيراك في الحال.

يدخل أخيرًا إلى قاعة واسعة منحوتة في جوف صخرة، في صدرها يجلس الرجل الذي جاء لمقابلته «رشيد الدين بن سنان»، كث اللحية، متين البنيان، من الصعب تحديد عمره، كأنه من عمر هذا الجبل، يتقدم الراهب ويضع الصندوق تحت أقدامه، يقول: هدية متواضعة من أمراء الصليب. يفتحه فيبدو ما فيه من سبائك الذهب، تضوي في جلال وسط عتمة القاعة، لا يبدو أن الشيخ قد تأثر لرؤياها، يقول الراهب بلغة فصيحة: جئت من أجل عدونا المشترك صلاح الدين الأيوبي، لقد أزعجنا كثيرًا كما أزعجكم، إنه كائن لا يكف عن الحرب والقتال، لا يقنع بنصر ولا يتراجع عند هزيمة، ولن يعم السلام هذه الأرض إلا بعد أن يرحل عنها نهائيًّا، أنتم وحدكم القادرون على الوصول إليه.

يؤمئ شيخ الجبل برأسه موافقا: نحن قادرون على الوصول إلى أي انسان. لا توجد حواجز تستطيع صدَّ الموت الذي نحمله. يواصل الراهب: أطماع هذا الرجل لا تقف عند حد، وقريبا سيصل إليكم.

قال الشيخ في هدوء: هذا إذا لم نبادره نحن بخناجرنا. ردَّ الراهب متشككا: ولكنه حذر مثل ذئب، يحيط نفسه دائمًا بالحرس. قال الشيخ في ثقة: لا يفسد الخطط سوى الخوف، ورجالي يخافون من عصيان أوامري أكثر مما يخافون الموت، تعالَ خلفي.

ينهض الشيخ من مقعده الحجري، يحني الراهب رأسه ويسير خلفه في صمت، يدخلان من باب جانبي يؤدي إلى سور القلعة، ممر ضيق يقف فيه الحرس وهم يتطلعون للوادي السحيق أسفل القلعة. يتوقف الشيخ أمام أول حارس منهم؛ شاب في العشرين من عمره، يعترف الراهب بين نفسه أنه وسيم

فوق العادة، كفيل بإثارة الفتنة في أي دير يدخله، يشير له الشيخ بإصبعه، يأمره بصوت صارم: ألقِ بنفسك في هذا الوادي.

يشهق الراهب من هول الكلمات، يتراجع بظهره، لكن الحارس يتقدم بثبات، يرتقي السور حتى يقف على حافته، ينظر إلى الهوة السحيقة تحته، ويرفع بصره للسماء النائية، ثم يلقي بنفسه في الفراغ الشاسع، يتبع الراهب جسده وهو يهبط بلا نهاية، كأن الأرض قد انسحبت من تحته، لكنه يرتطم بالصخور التي كانت في انتظاره، يشهق الراهب وهو يحاول أن يحبس بوله، يلتفت الشيخ نحوه ويقول بهدوء: هل اطمئن قلبك؟ لا يستطيع الراهب أن يسيطر على مثانته فينفجر تيار البول ويغمر عباءته.

لم يكن صلاح الدين مجرد رجل عابر في التاريخ، كان ريحا عاصفة، يزعزع الرواسخ ويقتلع الجذور التي تعفنت، يهدد ممالك الفرنجة في فلسطين والشام. أمراء مغامرون تلفحوا بعباءة الصليب وجاءوا من أوروبا بحجة إنقاذ الأرض المقدسة من أهلها، وبدلا من ذلك أعملوا سيوفهم في رقاب السكان الآمنين، وملوك تركوا عروشهم القديمة، وحولوا ثاراتهم الشخصية إلى أرض مكتظة بالصراعات، لم يكن ينقصها المزيد من الدماء، يفتنون الأرض والممالك، يجعلون الدين مقصلة تحز رقاب من يخالفونهم في العقيدة، منذ أن أقاموا إمارتهم الأولى في فلسطين وهم لا يكفون عن التوسع والتهام المزيد من البلدان، ينقصهم فقط بلد واحد، لو استطاعوا الاستيلاء عليه لانتهت كل الصراعات؛ مصر، لو سقطت لأصبحت مملكة الصليب أبدية.

ورغم صراع صلاح الدين الضاري مع الصليبيين فلم يكونوا الأعداء الوحيدين، كانت هناك بقايا الفاطميين الذين بنى دولته على أنقاضهم، انتزع مصر منهم بعد أن حكموها على مدى مائتين من الأعوام، أقاموا دولتين في آن واحد؛ واحدة ظاهرة بمن فيها من خلفاء وأمراء وقادة وجند، تنهي وتأمر في جموع الصنايعية والفلاحين، وتجمع منهم الضرائب والمكوس، وتقيم الاحتفالات الباذخة على شرف صعودها وتألقها، ودولة أخرى باطنية، خفية عن الأنظار، يسري دعاتها خلف ظلال المدن ويكونون الجماعات السرية، ويجندون الأتباع الذين يؤمنون بقدرة إمام الزمان على البعث والتجدد، كان الخلفاء في نظرهم أئمة معصومين، ينحدرون من نسل فاطمة بنت الرسول، دماؤهم زكية ومقدسة، وأفعالهم مهما كانت غريبة تستلزم الطاعة والنفاذ، ويأتي أتباعهم من كل البلاد إلى القاهرة ليتلقوا أصول الدعوة ثم يعاودوا الانتشار، وأصبحت للفاطميين أصابع في كل مكان.

«حسن الصباح» كان واحدا من الذين جاءوا إلى القاهرة، مؤمنا وساعيا للمعرفة، وبدلا من أن يقيم شهرا واحدا لبث فيها ثلاث سنوات، تنقل بين مجالس الأزهر الظاهرة والعلنية، وخلايا الدعاة المصغرة في الأقبية السرية، تشرب التعليمات حتى النخاع، غادر القاهرة إلى العالم وهو عازم على تغييره، سيكون عالما مختلفا عليه بصمة حسن الصباح، يملك في قلبه العقيدة، ولم يبقَ سوى الأتباع والمكان الذي يطلق منه دعوته. استغل مهارته وفصاحته واستطاع أن يجمع أتباعا كثيرين في وقت قليل، قادهم خلفه بعيدا عن المدن المأهولة، إلى سهوب إيران حيث عثر على «قلعة الموت» المنيعة، عش النسر كما يطلق عليها، هنا نقطة انطلاقه للاستيلاء على العالم. صعد إلى أسوارها المنيعة بالحيلة وببعض من القوة، وأقام في الوادي المحيط بها جنة أرضية يعيش فيها أتباعه المخلصون، نعيمًا صافيًا من النساء والحشيش؛ حيث لا نواهٍ ولا خوف من المعاصي، لا يخرج الأتباع منها إلا

لينفذوا أوامره، ولا يعودون إليه إلا بعد أن ينجحوا في تنفيذها، كل الأوامر كانت أمرا واحدا لا يتغير؛ الاغتيال، حمل رسالة الموت بكل قوته وجبروته للشخصيات الغافلة؛ ملوك وأمراء ووزراء وقادة، كل من يمثلون خطرا على شيخهم وجماعتهم، تحولوا إلى رعب عاصف يخشاه الجميع، علامتهم هي خنجرهم المغروس في الصدور، نصل معقوف قبضته محفور عليها اسم حسن الصباح. ومع انتشار الرعب الذي بثوه في العالم انتشرت قلاعهم، من إيران إلى الشام، وجاء من تلاميذ حسن الصباح من يفوقونه رعبا، جاء شيخ الجبل « رشيد الدين بن سنان» الذي استولى على قلعة «مصياف» وفرض سيطرته على الشام، وكان هدفه الرئيسي أن يأخذ ثأره من الرجل الذي أسقط دولتهم.. صلاح الدين.

في مكان آخر كانت خيمة السلطان صلاح الدين مليئة بالقادة والأمراء المتوترين، وصوت السلطان القوي يزيد من توترهم، الفرنجة على الأبواب، لا يفصله عنهم إلا بحر من رمال سيناء، يتحرك القادة بسرعة، يحمل كل واحد رقعة مليئة بالأوامر، عليها خاتم النسر.

يسير قراقوش أيضًا للخيمة، بجانبه امرأة ملفوفة في عباءة لا تظهر شيئا من ملامح وجهها ولا تفاصيل جسدها، فور أن يشاهده الحرس يسرع واحد منهم بالدخول لاستئذان السلطان، ولكن المقابلة لا تتم سريعا، عليه أن ينتظر خروج المزيد من القادة والقضاة والمشايخ، وأخيرًا بعد أن أصبح السلطان وحيدا سمح لهما بالدخول، كان يقف في منتصف الخيمة، أمامه أكوام صغيرة من الحصى والرمال، خريطة مجسمة لتضاريس الأرض والطرق التي يمكن أن تسلكها جيوش العدو، يتفحص بدقة المواقع الصالحة لإقامة الكمائن أو الصدام المباشر، وقف قراقوش صامتا حتى سمع صوت السلطان وهو يتمتم متسائلا: أيها الطواشي قراقوش، أليس لديك عمل أهم من أن تأتي لمقابلتي؟ تقدم بهاء الدين خطوة؛ ربما ليرى السلطان قامته القصيرة من خلف أكوام الرمال، قال: أسوار القاهرة بخير يا مولاي والعمل فيها يسير بسرعة، لن نلبث طويلا حتى تكون لنا أسوار متينة نحتمي خلفها. تمتم السلطان: آمل أن يحدث هذا قبل أن يصل الفرنجة، لماذا جئت إذن؟ قال قراقوش: أحضرت لكم هدية؟

ولأول مرة يرفع السلطان رأسه في اتجاهه، يلمح المرأة التي ترافقه، تبدو على وجهه لمحة من الامتعاض، يسير قراقوش بسرعة إلى المرأة ويخلع العباءة من على كتفيها، ويزيح النقاب الشفاف من على وجهها. لم تكن امرأة، كانت مجرد فتاة صغيرة غضة، جسدها يبدو وكأنه لم يمس، بشرتها وردية باهتة، وعيناها وجدائل شعرها بلون البندق. تحدق في السلطان مثل طفلة مندهشة، تقف أمامه ولا تستر جسدها إلا غلالة من الحرير الذي يشف ولا يخفي، ولكنها لا تستأثر من السلطان بأكثر من نظرة سريعة، يزيح نظره عنها ويعود للتحديق في أكوام الرمل في إصرار؛ حيث ستتحدد كل المصائر، يقول من بين أسنانه: تأتيني بجارية، وفي هذا الوقت بالذات؟ هل جننت يا طواشي؟

تخفض الفتاة رأسها خجلا، ولكن قراقوش لا يتأثر بالاعتراض، يرفع رأسها إلى أعلى حتى يبدو وجهها واضحا عندما يعاود السلطان النظر، يواصل القول: لم أشأ أن تذهب إلى سواك، لأنه لا يستحقها سواك، إنها عذراء، اسمها ثغر شاه، قادمة من «حلب».

يدرك ماذا يمكن أن تحدث هذه الكلمات الموجزة السريعة في نفس صلاح الدين، يرفع بصره ويعيد النظر إلى وجهها مرة أخرى، لا تستطيع مواجهة عيني السلطان، تخفض رأسها وقد تخضب وجهها بالحمرة، ولكن اسم «حلب» يثير في نفس صلاح الدين مشاعر غامرة، مدينة طموحه الأولى التي استقبلته بعد مغادرته للعراق، سنوات الشباب والنضج بكل ما فيها من نزوات وصبوات، بدا كأن عصارات الشباب تتدفع إلى جسده من جديد، بزغت الفتاة فجأة من كل سنواته الماضية، عندما لم يكن متعبا من كثرة الحروب، يخيل له أحيانًا أنه يحارب عدوًّا لا نهائيًّا، كلما قتل ملكا من ملوك الصليب جاء عشرة بدلا منه، وكلما هزم جيشا حملت له الأمواج جحافل أخرى، اقتحم كل قلاعهم ودمرها وها هم يزحفون الآن لتدمير قلعته الأخيرة، الفارق الوحيد هو أنه ليست لديه قلعة تحميه منهم ومن الحشاشين الذين يدبرون دائمًا لاغتياله، وقراقوش بدلا من أن يبني له سورا صلدا يحضر له جارية مغرية، يقول قراقوش: إنها أوقات صعبة يا مولاي، ومن حقك أن تروح عن نفسك.

يقترب السلطان من الفتاة التي ما تزال خافضة الرأس، يقول لها بصوت خافت حتى لا يزداد خوفها: أنت من حرائر حلب ولا شك، كيف جئت إلى هنا؟ هل اختطفك النخاسون؟ تهز رأسها، تقول بصوت ممتلئ بالخجل: باعني أبي لتجار القوافل، كن شقيقات كثيرات، ولا طاقة له بنا.

ظل يحدق فيها، رفعت رأسها وحدقت في وجهه قليلا، كانت عيناها قد أصبحتا داكنتين، ترى لو ضمهما الفراش الليلة فهل ينسى الأعداء الزاحفين، وهل ينسى تهديدات شيخ الجبل؟ قال: لم يلمسك أحد منهم؟ قالت: كانوا يخشون أن ينخفض سعري. التفت إلى قراقوش، قال وهو يتنهد: خذها إلى قصر الروضة، ضعها في جناحي، لا أحد يقترب منها حتى آتيها. يحني قراقوش رأسه في جذل، وتبرق عينا الفتاة برغبة مفاجئة، يخرجان من الخيمة، يسيران خارجين من المعسكر، تلتفت «ثغر شاه» إلى قراقوش وقد تخلت عن ترددها تقول: هل سيأخذني السلطان حقًّا إلى فراشه؟

وليس ببعيد عن المعسكر كان هناك قاتلان، تركا مساحات الرمل الباهتة، وبدآ يستعدان لدخول القاهرة، مهمتهما محددة ولا تحتمل التأجيل، كانا مكلفين من شيخ الجبل «سنان». للمرة الأولى في حياتهما تتاح لهما الفرصة لمقابلته، قال لهما: قبل أن تذهبا إلى مصر لتخليص العباد من هذا الشيطان المدعو صلاح الدين، ستقضيان ثلاثة أيام في نعيم الجنان.

يهبط القاتلان «منذر» و«نذير» إلى فردوس الأرض الذي صنعه شيخ الجبل؛ حديقة واسعة مترامية الأطراف، أشجارها باسقة، وطيورها مغردة، وكل شيء فيها مباح، منذ أن قامت القيامة في قلعة «الموت» البعيدة وقد ألغيت كل النواهي، ولم تعد هناك حاجة للتقيد بمحرمات الشريعة القديمة؛ لا صلاة ولا صوم، ولا التقيد بأي نوع من العبادات، تبدأ الطقوس من خلال أنفاس الحشيش، سراب مائل للزرقة، يخطو بهما عبر عتبات الجنة؛ حيث الفاكهة طازجة والخمر معتقة وأجساد النساء كلها حلال، حتى ولو كن أخوات أو أمهات، الرغبة هي أمر مطلق لا حائل يقف دونها.

سارا دون هوادة، عبرا كل فلسطين وكل رمال سيناء، لا يحدثان أحدًا، ولا يقضيان الليل في مكان مأهول، ولا يأكلان سوى القضيض، يتسللان وسط زحمة الباعة والتجار من بوابة القاهرة، يستدلان بطريقة مباشرة حتى يصلا إلى قصر السلطان في جزيرة الروضة، يستديران حتى يريا حديقته المفتوحة على النيل، ينتظران حتى هبوط الليل ويعبران مياه النيل سباحة إليها، يقتحمان قصر

السلطان الأقوى، بيت الذئب الملعون، لا يلاحظ أحد حركتهما المريبة، ولا ثيابهما المبتلة، ينتظران حتى تهدأ الحركة تمامًا.

تنطفئ المشاعل، وتذوب الشموع، وينام الحرس وقوفا في أماكنهم، يتسلل القاتلان دون صوت، كانا قد تدربا طويلا على السير بخفة الأشباح، والانقضاض بعنف الذئاب، يجوسان بين الممرات شبه المعتمة، يصلان إلى أكبر الأجنحة، الوحيد الذي يقف الحراس على بابه، ولكنهم نيام، كيف يأمن السلطان على نفسه وحراسه بهذا الشكل؟ يتسللان أخيرًا إلى غرفته، يشاهدان سيوفه ودروعه المعلقة، يبقي نفسه دائمًا مستعدًّا، ولكنه الآن نائم فوق سريره، خلف الستائر المسدلة، في أشد حالاته ضعفا، ملفوف في الأغطية، حتى وجهه كان مخفيًّا، مهيأ للقتل، يقف كل واحد من القتلة منهما في جانب من الفراش، يخرجان خنجريهما، يعرفان جيدا أين موقع القلب، وكيف يمكن أن يكون الموت مباغتا، يهويان على الجسد الهاجع في وقت واحد، في موضعين متقاربين، تند عن الجسد شهقة مرعوبة، يرتجف في حركات متشنجة، يظلان ثابتي الأيدي، يواصلان غرس الخنجرين حتى يخترقا الظهر، يهمد الجسد سريعا وينبثق الدم من داخله، ينتشر وسط أنسجة الفراش، يتنهد القاتلان في راحة، أخيرًا أصبح العالم خاليا من صلاح الدين، لن يوجد من يطاردهما أو يحشد القوات لتدمير قلعتهما، سيعودان الآن لجنتهما الأرضية وليحترق هو في الجحيم.

لا تصل الأخبار لصلاح الدين إلا بعد يوم كامل، كان منشغلا في المعسكر لدرجة أنه نسي مرور الوقت ونسي حاجته للنوم والطعام، يضطر لترك كل شيء والعودة إلى قصر الروضة، يقف قراقوش في انتظاره مصفر الوجه، يسيران معا إلى غرفة نومه التي غزاها القتلة، يؤكد قراقوش: لم نلمس شيئا منذ أن اكتشفنا ما حدث.

يمد السلطان يده ويكشف الغطاء عن وجه الفتاة الصغيرة، ملامحها متقلصة من شدة الفزع، تبدد لونها الوردي وزحفت زرقة الموت على جلدها، الخنجران مرشوقان في صدرها وقد جفَّ الدم من حولها، يسأل السلطان مستغربا: من الذي أحضرها إلى فراشي؟ يقول قراقوش مترددا: لقد تصرفت من تلقاء نفسها، أعترف أنني نصحتها بالتقرب إليك، ولم أتصور أن تتهور وتتسلل إلى فراشك، يقول: ماذا قلت لي اسمها؟ يرد قراقوش: ثغر شاه، قال السلطان: يا له من اسم، ويا له من مصير.

يظل يحدق في الخنجرين، تعرف عليهما على الفور، نقوشهما محفور عليهما اسم سنان شيخ الجبل، رسالة تهديد واضحة وصريحة، يخبره بأنه ليس بعيدا عن يديه، لا يوجد مكان آمن، وإذا نجا هذه المرة بفعل المصادفة فمن ينجيه في المرة القادمة؟ يرفع رأسه وهو يقول لقراقوش: ابنِ لي قلعة، تخير أشد الأماكن تحصينا في القاهرة وابنِ فوقه قلعة، أحنى قراقوش رأسه: أمر مولاي.

يأمرهم بحمل الجثة بعيدا وتغيير الأغطية وتفتيش القصر بدقة، ربما كان القاتل ما زال مختبئا فيه، يجلس مهدودا على أحد المقاعد، يرفع رأسه يقف أمامه واحد من الخدم، يمد يده برقعة من الجلد، وجدها على الوسادة بجوار رأس الجثة، رسالة تركها القاتلان بلا شك: «هذا جزاء وفاق بما اقترفته يداك، دم الأئمة من نسل سيدتنا فاطمة الزهراء لا يضيع هدرا، لا حياة لك بعد الآن، ولو أفلت من هذه الضربة، فلن تفلت من الضربة التالية، سيتابعك جند الله حتى يقع عليك قصاص الله، وسيعلم

الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»، كان التوقيع يحمل اسم شيخ الجبل رشيد الدين بن سنان، وخاتمه مطبوع على شكل خنجر معقوف، تمامًا كالخنجر المغروس في قلب الضحية.

يحس السلطان أنه عارٍ وأن هذا القصر الذي يحيط به لا وجود له، هذا الرجل يرسم حروف تهديده بالدم، سمع كثيرًا عنهٍ، وعن قلعة «الموت» البعيدة، ولكن ذراعه امتدت إلى الشام، أصبح أقرب مما ينبغي، كان يتمنى ألا يضاف إلى قائمته أعداء جدد، لكن الفاطميين وأعوانهم لم ينتهوا، قريبون ويمتلكون القدرة على اختراق قصره وتهديده.

لا وقت للتفكير، ولا مكان للخوف، عليه أن يخرج على رأس حملته المتوجهة إلى قلعة عسقلان. هذه المرة كانت المعركة صعبة، عندما فرض حصاره على أسوارها، لم يكتفِ فرسان الصليب بالدفاع عن الأسوار، لكنهم في كل يوم كانوا يندفعون فجأة من خلال البوابات في غارات خاطفة، يحاربون بشجاعة هوجاء، يدخلونه في قتال يومي لا يهدأ في محاولة لتأخير لحظة الاستسلام، كانوا غرباء تلفظهم الأرض، والسلطان يحكم قبضة الحصار، مصرًّا على أن تكون هذه لحظة النهاية.

في نهاية يوم متعب بعد أن هدأت معركة لم يتصور السلطان أنها ستهدأ، يسير وسط المعسكر ومعه بعض من قواده، يمر بصف من الجنود الذين شاركوه القتال، يرى الغبار وبقايا الدماء التي تعلو وجوههم، يحدقون فيه بعيون متعبة وأجساد تتوق للحظة من الأمان، يرفع يده محييا، كانوا قد خاضوا يوما شجاعا لم يتراجعوا فيه عن الخطوط التي رسمها لهم، تقدم ثلاثة منهم؛ من مقاتليه، يرتدون أزياء جنوده، ويحملون شارته، وتعلو وجوههم آثار الغبار والدم، ولكنهم كانوا يحملون خناجرهم المقوسة، يوجه أحدهم ضربة إلى رأسه، ولكن خوذته تتلقى الصدمة، يوجه الثاني خنجره إلى قلبه، ولكن قميص الزرد يعوق نفاذ النصل المعقوف، لا يصل إليه إلا طرف سنه، يشرع الثالث في الهجوم فيفيق الجميع من ذهولهم، يسرع واحد من قادته ليقف بينه وبين القناص، يتلقى الطعنة بدلا منه، يقفز القاتلان الآخران، لا يأبهان بالسيوف المشروعة، يواصل الثلاثة طعن كل من يعترضهم، يلتف المزيد من الحرس حول صلاح الدين، يباعدون بينه وبينهم، يتلقى أكثر من واحد منهم الطعنات، ولكنهم يتمكنون من قتل ثلاثتهم أخيرًا، يمتلئ المكان حول السلطان بالجثث والمحتضرين، تكسوه دماء أشد غزارة من أي موقع آخر للقتال، يحملونه إلى خيمته وهو يشهق، يتم تكفين الجثث، ويحفرون للموتى جميعا قبرا واسعا، يقف على حافته ويشاهد التراب وهو ينهال عليهم، كانوا قد دفعوا حياتهم ثمنا لحمايته، فمن يدفع في المرة القادمة؟ أصبح شيخ الجبل أخطر من أن يتجاهله، لن تكون هناك عودة لهذا الجيش إلا بعد أن يقضي على هذا الشيخ الذي يسكن جبل «مصيف».

فلينعم الصليبيون إذن بهدنة طويلة، وليلعق الجرحى دماءهم، هناك ثأر على صلاح الدين أن يظفر به. يتوجه بجيشه شمالا إلى حيث يوجد الجبل بصخوره الوعرة، تأتي إليه إمدادات أخرى من دمشق وحلب، تعود حطين من جديد، معركة لن تنتهي إلا بفناء واحد من الطرفين. يعاين موقع الجبل الغريب، يدرك من اللحظة الأولى أنه لن يستطيع أن يصعد إلى هذا الشيخ الغامض، عليه أن يرغمه على النزول إليه، يعطي أمرا لقواده: شددوا الحصار، كل من يصعد إلى الجبل أو يهبط منه يقتل فورا حتى ولو كان راعيًا من الرعاة، يمنع الطعام والماء وحتى حطب التدفئة، لو استطعتم منع الهواء فامنعوه.

يبدأ الحصار محكما وطويلا، ينصب السلطان خيمته فوق صخرة كبيرة، أقل ارتفاعا من شيخ الجبل ولكن في مواجهته، فليرسل كل ما لديه من قتلة، سيكون في انتظارهم. في النهار لا تكف أعين حراسه عن مراقبة الصخور والغربان التي تحوم، وفي الليل يحيطون الجبل بالمشاعل، لا يسمحون بأي حركة للظلال، يتوقعون هجوما من خارج الجبل؛ لذا يقطعون الطرق ويقومون بدوريات لا تهدأ. تمر أيام الحصار طويلة، تثور عواصف الرمال، ويهطل المطر لأيام متواصلة، ويظل الحصار متماسكا، لكن الغريب أن سكان الجبل ظلوا هم أيضًا صامدين، لا يهبطون للقتال حقًا، لكنهم لا يتوسلون للعفو، ولا يبدو أنهم يهتمون بنقص الطعام أو الشراب، ويظل السلطان في خيمته ينتظر أي استجابة من الجبل الصامت.

وأخيرا تبدو حركة واهنة بين الصخور، يتأهب الحرس ويتجمع الجند، ولكن لا يظهر إلا رجل وحيد ينحدر بين الصخور، يرفع في يده راية بيضاء ويصيح طالبا الأمان، يفتشه الحراس جيدا، لا يحمل إلا لفافة من الجلد، رسالة من مولاه شيخ الجبل إلى مولاهم السلطان، أمانة عليه أن يؤديها. كان الجميع قد ملوا طول الحصار، الانتظار كان أشد وطأة عليهم من القتال، يأخذونه مباشرة لخيمة صلاح الدين، إلى مجلسه المنعقد دوما، ينظر رسول شيخ الجبل إلى القادة الذين يملئون المكان دون خوف وهو يقول: أمرني مولاي شيخ الجبل ألا أسلم رسالته إلا للسلطان وحده.

لا يحاول أحد أن يجادله، كان هزيلا لا خطر منه، يشير السلطان لقادته فيخرجون جميعا، لا يبقى إلا مملوكان يحملان السيوف ويقفان بجانب مجلس السلطان، يشير الرجل نحوهما قائلا: هذان الحارسان يجب أن يخرجا أيضًا. يرد السلطان بهدوء: هذان ليسا الحارسين الخاصين بي فقط، لكنهما أشبه بأبنائي، أنا الذي ربيتهما وعلمتهما طاعتي، قل ما عندك.

ولكن الرجل يتوجه للمملوكين الصامتين قائلا: لو قلت لكما إن سيدي شيخ الجبل يريد منكما أن تخرجا سيفكما وتذبحا هذا السلطان في الحال.. فهل تفعلان؟

ينظر صلاح الدين إليهما في فزع، يراهما وهما يخرجان سيفيهما ويوجهانهما نحوه، يتجمد الدم في عروقه، وجههما جامدان، عيونهما ميتة بلا بريق، وقبضتهما متحفزة على مقبضي السيفين. كيف وصل إليهما شيخ الجبل؟ كيف اخترق حرسه الشخصي وأصبح قريبا من جسده إلى هذا الحد؟ أين كان عندما حدث كل هذا؟

أخيرًا يقول صلاح الدين وقد شعر بجسده كله جافًّا: لا حاجة لي بقراءة الرسالة، قل لشيخ الجبل إنني سأرفع الحصار هذه الليلة، وسأعود بجيشي. قل له: يقول لك السلطان: دعنا لا نخوض ضد أنفسنا معارك خاسرة. يحني الرسول رأسه، كان قد أوصل الرسالة التي يريدها، وتبعه المملوكان صاعدين إلى الجبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

طوبى للغسالات

لم يدخل «الفرنج» مدينة حماة، ولكنهم وقفوا عند بوابتها الرئيسية ودقوا أعلام الصليب، ثم داروا على حافة نهر العاصي واختطفوا كل النسوة الغسالات اللاتي كن يقمن بتنظيف الملابس على الشاطئ. نسوة فقيرات عاطلات من الجمال، وإن كانت أيديهن ناصعة البياض وجلودها دائمة التجاعيد. منذ الصباح كن يبدأن في الطواف على البيوت، يجمعن الملابس المتسخة فيقمن بغسلها والممزقة يقمن برتقها، ويبقين طوال اليوم على حافة النهر ولا يعدن إلا مع المساء مقرورات حتى في أشد الأيام حرارة، ولكن «الفرنج» لم يبقوا على واحدة منهن. لم تكن المصيبة كبيرة، فلا أحد يطالب بثأر هاتي النسوة البائسات، ولكن عندما دخل الوزير ليخبر الملك المنصور «تقي الدين» بما حدث قال الملك في حزن: لقد اختطفوا النهر كله.

وظلت الأعلام موجودة على باب المدينة، وأعلن السقاءون أنهم لن يخرجوا إلى النهر لجلب الماء، كانوا خائفين من أن يختطفهم الفرنج كما اختطفوا الغسالات، وجلسوا جميعا على الأرصفة بجانب الحمير والقرب الفارغة، وكانت مياه الآبار نصف مالحة لا تروي ظمأ ولا تنظف ثوبا، وحاولت ربات الخدور أن يقمن بعملية الغسيل بأنفسهن واكتشفن أن ملوحة مياه الآبار تجعل الصابون عديم الفائدة. لم يكن هناك بدٌّ من لبس الثياب متسخة مرة ثانية وثالثة، ثم توقفت المراكب التي كانت تعبر النهر إلى المدينة وظلت الأعلام في مكانها ولم تجرؤ الريح على إسقاط سارية منها.

أصبحت لحماة رائحة غريبة، أغلقت المقاهي والحمامات والمطاعم أبوابها، وفاحت الرائحة العطنة من الملك المنصور نفسه، وبدأ مخزون المدينة من الماء ينفد ببطء كاقتراب الموت، لا يعرف الناس كيف يمارسون الصلاة، فالماء الثمين لا يستطيع أحد أن يهرقه في الغسل والوضوء، كانوا يريدون فتوى تتيح لهم أن يمارسوا الصلاة كل هذه الأيام الطويلة بالتيمم فقط. وتجمعوا وذهبوا إلى مسجد المدينة الكبير حيث يجلس الشيخ نجم الدين الحراني وعرضوا عليه مشكلتهم: هل يجوز التيمم وعدم الغسل عندما لا نملك من الماء إلا ما يكفي لشرابنا؟

نظر إليهم الشيخ في دهشة، ثم قال في غموض: يجوز ولا يجوز.

قال واحد منهم يعاني من حكة في جسده: يا مولانا، نريد إجابة محددة.

ونهض الشيخ في غيظ ضرب الأرض بعصاه وصاح فيهم: لا يجوز إلا شيء واحد؛ لا غسل ولا وضوء إلا من المعاصي، ولا صلاة مقبولة إلا بعد أن تخرجوا وترفعوا أعلام الصليب وتحاربوا الفرنجة.

ونظروا إلى بعضهم في دهشة، كأن هذه الفكرة لم تخطر في بالهم من قبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

قليل من الخمر

احتدم الجدل بين الأطباء حول فراش السلطان نور الدين زنكي صاحب حلب، كان مصابًا بالقولنج ويعاني من الآلام المبرحة في أمعائه. حارب الصليبيين طويلا، وعانى من الغدر كثيرًا، ولكن كل ذلك لم يكن ليقاس بجانب آلام المرض. تطلع إلى الأطباء في عجز، لعلهم يمنحونه فرصة يموت فيها بسلام، وهتف بهم: ألا يوجد علاج، أي علاج؟

وسكت الأطباء قليلا ثم قال كبيرهم: قليل من الخمر يا مولاي يمكن أن يخفف من هذه الآلام.

هتف السلطان في دهشة: أنا لم أشربها قط في حياتي، فكيف أشربها وأنا على فراش الموت؟

ولكن الأطباء كانوا مصرين على رأيهم وعلى ضرورة الخمر، وقال السلطان في ضعف: لا أفعل حتى أسأل الفقهاء. وخرج الأطباء ليدخل الفقهاء واحتدم الجدل مرة أخرى، هل تجوز الخمر كدواء، أم أنها لا تجوز؟ وصرخ شيخ الشافعية في شيخ الحنيفية وأمسك كل منهما بلحية الآخر، فصرخ السلطان من الألم فصاح الشيوخ جميعا: إنها جائزة، جائزة.

وأمر السلطان الخادم للمرة الأولى أن يحضر له كأسا من الخمر وتناولها في يده، رائحتها غريبة، ولكن قبل أن يرفعها إلى شفتيه اقتحم أولاده الثلاثة الغرفة، وصاح أكبرهم الملك الصالح: يا أبي أنت وعدتني بدمشق، وها هو أخي يتعدى عليَّ، وصرخ الآخر في وجهه: بل تذهب إلى حمص، وسوف أبقى هنا في حلب ودمشق، وصاح الأصغر مذعورا: وأنا، ماذا يبقى لي؟

وظل السلطان يحدق فيهم، كانت رائحة الخمر كريهة، وصراخهم عاليا أشبه بحيوانات تتنازع حول الفريسة، وأوشك نور الدين أن يصرخ فيهم أنه حي لم يمت بعد، ولكن نوبة من الألم القاسي هاجمته، وعندما لم يجد الإخوة عنده جوابا شافيا خرجوا من الغرفة وهم يتوعدون بعضهم البعض، والتفت السلطان إلى شيخ الحنيفية الواقف بجانبه، وقال في ضعف: إن الله قد قرب أجلي، هل يؤخره شرب الخمر؟ قال الشيخ: لا.

فقال نور الدين: والله لن أشرب إذن، لن أقابل الله وقد فعلت ما حرمه عليَّ.

وأغمض عينيه، تذكر أنه بحاجة إلى ساعة أو ساعتين ليعطي كل ولد من أولاده المدينة التي تخصه، تذكر أن السيوف يمكن أن تشتعل في أيديهم لهذا السبب، وأن القليل من الخمر قد تمنحه هذه المهلة التي يحتاج إليها.. ولكنه فضل أن يموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

وسادة لسيف الدولة

جاء حاجب الملك إلى الخازن وقال له: سيف الدولة يقرئك سلام الوداع، ويطلب منك الصندوق الصغير. ومد الخازن يده إلى الصندوق فطفرت الدموع من عينه، المرة الأولى التي يناول فيها الصندوق لشخص غير الملك، لم يكن يعرف محتوياته ولم يره قط مفتوحا، ولكنه كان يحس بأنه جزء من روح سيف الدولة التي يهددها الموت في هذه اللحظة.

كانت «حلب» كلها دمعة كبيرة لم يكن أحد يصدق أن الموت سيكون بهذا القرب، فعلى الفراش يحتضر أعظم ملوك بني حمدان؛ «كانوا ملوكا وأمراء أوجههم للصباحة وألسنتهم للفصاحة وأيديهم للسماحة وعقولهم للرجاحة. وسيف الدولة بالذات مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم، وحضرته مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الرحال وموسم الأدباء وحلية الشعراء»، كما كان يقول الثعالبي.

وانحنى الحاجب أمام فراشه وهو يقول: ها هو الصندوق يا مولاي.

ومد سيف الدولة يدا واحدة مرتعشة فأمسك الصندوق. كان مرض «الفالج» الذي شلَّ نصفه الأيسر، تشوهت ملامح الفارس العظيم، ولكنه لم يسمح لأحد بأن يساعده في فتح الصندوق. جاهد بذراعه الواحدة حتى فتحه، ومالت رءوس الجميع نحوه ليروا ماذا يحوي، فلم يكن يحوي شيئا، مجرد لفائف من الحرير، متراصة بجانب بعضها البعض. تناول سيف الدولة إحدى اللفافات وفتحها فلم يكن فيها إلا بضع ذرات من الغبار.. غبار صحراوي عادي باهت اللون.

وقال سيف الدولة في صوت واهن: هذا الغبار علق بثيابي وجسمي في أثناء معركتي مع الروم في ميا فارقين، وكانت أولى معاركي، وهذا أول غبار علق بجسمي في الجهاد في سبيل الله.

ونظر الجميع مدهوشين، تحولت ذرات الغبار إلى نجوم صغيرة، كانت في الصندوق عشرات اللفائف، كل واحدة تحوي معركة، تحول الدم والعرق وصهيل الجياد وتقاطع السيوف إلى لحظة استكانة غريبة، في لفافة غريبة من الحرير، أشار السلطان للنطاسي وهو يقول: ضعها في جفنتك واخلطها بالماء واصنع لي «لبنة» صغيرة.

أفرغ النطاسي الذرات في عناية، وضع عليها قطرات من ماء الورد وعطر الزعفران، خلطها حتى تكونت لبنة صغيرة لا تتجاوز حجم كف اليد، لفها في قطعة من الحرير وقدمها للسلطان الذي قال في ارتياح: عندما أموت ضعوها تحت رأسي، اجعلوها وسادتي؛ فهي طريقي إلى الجنة.

وأغمض السلطان عينيه أخيرًا بعد أن ضمن وسادة مريحة.

الآن الوسائد أكثر راحة؛ لأنها محشوة بالدولارات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أسوأ حاكم في التاريخ

تقريبا كان يبكي وهو يدخل غرفة محظيته في أول المساء، استقبلته في أحضانها حتى تهدئ من روعه، ولكنه لم يكن متمالكا لنفسه وهو يردد: الخيانة.. الجميع يخونونني، أخي يخونني وينوي السير بجيشه إلى مصر.

لم يكن فيما يقوله يدهش المحظية نوران، كانت تعرف أن الإخوة من بني أيوب لا يكفون عن الصراع مع بعضهم البعض، وتعرف أن سيدها الملك «الكامل محمد» هو هدفهم الرئيسي، غيرة، طمع، أحقاد قديمة، يمكن أن تتوقع منهم أي شيء، وبعد أن هدأ قليلا استطاع أن يوضح لها سبب فزعه. لقد علم من خلال عيونه في الشام أن أخاه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق قد أرسل إلى ملك خوارزم يطلب منه جيشا يساعده على غزو مصر وانتزاع ملكها من أخيه الكامل، وكانت الخلافات قد تصاعدت بين الأخين لدرجة لم يعد مستغربا القيام بهذا التصرف. كانت خوارزم بعيدة وسط سهوب آسيا الوسطى، ولكنها تملك محاربين أشداء، يمكنهم بسهولة السير لمسافات طويلة وعبور الصحراء إلى مصر، قالت: افعل كما فعل، ابحث عن حليف قوي تستعين به.

ولكنه ظل يتأوه: إنهم يكرهونني؛ إخوتي وأولاد عمي، كلهم يطمعون في ملكي، لن آمن لواحد منهم.

قالت في حزم: تحالف مع الفرنجة إذن.

نظر إليها مرعوبا، كيف يمكن أن يمد يده للأعداء، وضد من؟ ضد أخيه، ولكنها ترد عليه في حزم: لم يعد أخاك، لقد أصبح عدوك الآن.

سكت الملك الكامل واستغرق في التفكير، فكرتها مرعبة ولكنها منطقية، لم يكن يستطيع الاتصال بأخيهم الثالث الملك الأشرف موسى في حران، بعيدا في الشمال؛ لأنه بالتأكيد سيميل إلى أخيه الأوسط عيسى، ولن يستطيع أن يحرك جيوشه جنوبا دون أن يمر بها أولا على الشام؛ لذلك بدت فكرة الاتصال بالفرنجة عن طريق البحر هي الوحيدة المعقولة، ولكن تاريخه القديم مع الفرنجة كان مرعبا خاصة عندما قاموا في بداية عهده بغزو مدينة دمياط.

لم يكن يحب القتال كثيرًا، وكانت كوابيس الموتى لا تدع له سبيلا إلى النوم؛ لذلك كانت رسالته الأخيرة للفرنجة مليئة بالتوسل: «اتركوا دمياط وخذوا أي شيء، خذوا كل المدن التي حررها عمي صلاح الدين، خذوا عسقلان وطبرية وكل مدن ساحل فلسطين وخذوا حتى القدس» ولكنهم لم يردوا عليه. كان أضعف من أن يؤبه به، وكان الحصول على مصر أولا يعني بالنسبة إليهم الحصول على كل هذه المدن دون ثمن، وكالعادة عاد إلى قصره محبطا، كانت محظيته «نوران» القادمة من القفقاس في انتظاره، قال لها: لقد رفضوا عرضي الأخير، إنهم مصرون على السير إلى القاهرة، كان هذا أمرا مؤكدا، فالفرنجة بعد هذه الحروب الطويلة يعرفون أن غزوهم لفلسطين سيظل مؤقتا ومهددا ما دامت مصر قائمة؛ لذلك غيروا من خططهم القديمة وأصبح الهدف الرئيسي لكل الحملات هو الاستيلاء على مصر لأن هذا يعني نهاية كل الحروب. كان قد أرسل العديد من الرسائل إلى بقية إخوته؛ الملك المعظم عيسى في دمشق، والملك الأشرف موسى في حران، ولكنه لم يتلقَّ منهما ردًّا

حتى الآن، وقالت المحظية باختصار: إنهما يغيران منك، كيف يهبان لنجدتك؟ كان في حاجة إلى معجزة، وقد انتهت المعجزات منذ أن مات عمهم الأكبر صلاح الدين.

كانت هذه هي الحملة الخامسة والأكبر لفرسان الصليب، أرادوا أن يصلحوا بها فشل كل الحملات السابقة، حشدت أوروبا فيها مائتي ألف فارس، وخمسين ألفًا من المقاتلين تحت قيادة خمسة من ملوكها وعشرات السفن الضخمة. كانت دمياط مدينة حصينة إلى حد ما، لها سور وأبراج مليئة بالجنود، ولكن الفرنجة فرضوا عليها حصارا لمدة عام ونصف العام، مات أهلها من شدة الجوع واليأس دون أن تجد من ينقذهم، بينما المحاصرون يتلقون الإمدادات عن طريق البحر، وعندما سقطت دمياط أخيرا في أيديهم أرسل بابا روما إليهم يهنئهم ويمدهم بالمزيد من الأموال ويطالبهم بالسير نحو المنصورة، ولكن الملوك الخمسة كانت لهم خمسة آراء، وخمسة جيوش متعارضة، فتعطل الزحف للمرة الثانية لمدة عام ونصف عام آخرين.

ثم حدث الأمر الطبيعي، والذي لا يحدث إلا في أزمنة القطيعة والضياع، جمع الملك المعظم عيسى جيشه وخرج به من دمشق، وتحرك الملك الأشرف موسى من حران، وتوجه الأخوان إلى مصر لنجدة شقيقهما الثالث. لحظة نادرة من التاريخ سمت فيها نفوس الملوك وتعالت على الحزازات والأطماع الشخصية الضيقة. كان الكامل قد تراجع بجيشه وأقام تحصيناته عند طلخا، عندما قرر الفرنجة التوغل في الدلتا واستطاعوا الوصول إلى فارسكور، ولكن فيضان النيل جاء عاليا وغامرا، وفتحت كل السدود وامتلأت الترع والرياحين بالماء حتى فاضت، وتحولت الدلتا فجأة إلى فخ من الوحل؛ عجزت خيول الفرنجة عن الركض وأصبح زحف المشاة بسرعة السلحفاة، وتركت الجيوش المصرية مواقعها الساكنة وبدأت تهاجم جوانب الفرنجة وتحاصر القوات المتقدمة منها، وفي النهر هاجمت السفن المصرية سفن الفرنجة التي كانت حائرة في تفريعات المياه، واستولت على بعض منها، واستطاع الفرسان أن يحاصروا جزءًا كبيرًا من مقاتلي الفرنجة قرب بحيرة المنزلة وأعملوا فيهم السيف. تحول الغزو إلى كابوس، وأدرك ملوك الصليب المأزق الذي أصبحوا فيه، لا يستطيعون التقدم للمنصورة ولا التراجع إلى دمياط فأرسلوا للملك الكامل يطلبون منه الصلح، واجتمع الإخوة الثلاثة يناقشون الأمر. كانت هذه فرصة نادرة للملك الكامل أن يقضي عليهم ويتخلص من شرهم نهائيًّا، ولكنه فاجأهما معًا وهو يقول: أنا أميل للتصالح معهم ويكفي ثلاث سنوات من القتال، نظر الأخوان لبعضهما في دهشة.

لم يكونا يظنان أن أخاهم بهذا التخاذل، وقال المعظم عيسى: هذه أكبر حملة للفرنجة ضدنا، ولو أبدناهم فلن يفكروا في إرسال حملة أخرى.

قال الكامل: سوف يأتون طلبا للثأر ولن يكفوا عن المجيء؛ لقد مللت من كثرة القتلى الذين يتساقطون ومن المدن التي تخرب، فلنتصالح لعدد كبير من السنوات.

وقال الملك الأشرف: ولكن خطرهم سيظل مصلتًا على رقابنا وعلى ممالكنا.

قال الكامل في تصميم: سنقاتلهم إذن إذا خرجوا عن الصلح، أما الآن فقد أخذنا كفايتنا من القتال.

كان هو الأخ الاكبر، وكانوا على أرضه، ومن المستحيل إرغامه على شيء لا يريده. أرسل الكامل بالفعل وفوده للموافقة على الصلح ورضي فقط بجلاء الفرنجة عن دمياط المدمرة، وقال المعظم عيسى وهو ينصرف مغتاظا: هذا الملك أقل من أن يحكم بلدا مثل مصر.

كانوا غاضبين وزاد التباعد من درجة الغضب والتوتر بينهما، في كل حين من الزمن يحدث شيء ما يكشف عن النوايا السيئة ويعكر الجو خاصة مع الملك المعظم الأقرب إليه في المكان، والأخطر في الأطماع. فكر الكامل كثيرًا في الاستعانة بالفرنجة، ولكن تفكيره كله كان يدور حول محور واحد، كيف ينقذ عرشه. كان يعرف أن جموع المسلمين في كل المدن ستثور عليه، لم يكن مهتمًّا بهم، ما دام قد بقي في مركز السلطان فسيهابه الجميع مهما فعل، ووصلت الأنباء إليه أن الفرنجة قد اختاروا «فريدريك الثاني» ملك صقلية إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة؛ أي أنه الحاكم الذي أصبح يشرف على إرسال الحملات الصليبية إلى الشرق، وكان يجيد التحدث بخمس لغات من بينها العربية؛ من أجل هذا وقع عليه اختيار الملك الكامل، أرسل له أغرب رسالة يطلب فيها مساعدته في الحرب ضد أخيه صاحب دمشق، ومكافأة له سوف يعطيه مدينة القدس، هكذا ببساطة.

المدينة التي لا يوجد فيها حجر لم يروَ بدماء الجميع؛ مسلمين ومسيحيين، التي تعرضت للتدمير مرتين، وحوصرت ٢٣ مرة، وهوجمت ٥٢ مرة، وتمّ غزوها وفقدانها مجددًا ٤٤ مرة، هي الآن هدية مطروحة للبيع دون ثمن تقريبا. تلقى الإمبراطور الرسالة باستغراب، كانت أجمل من أن تصدق، هذا الملك العربي الذي هزم خمسة من ملوك الصليب شر هزيمة يرسل له مستنجدا، ويعرض عليه أهم مدينة في العالم بلا حرب ولا قتال. كان فريدريك يحمل نفس شاعر، يكره الانخراط في الحرب والقتال، وكان بابا روما يلح عليه كل يوم أن يعد لحملة صليبية سادسة، ولم يكن متحمسا لذلك خاصة بعد أن فشلت خمس حملات سابقة، كان يريد أن يستمتع بحياته بعيدا عن أي مغامرة غير مضمونة، ولكن خطاب الكامل جاء في وقته، فرصة لا يجب تفويتها، أسرع ليرسل للبابا قائلا إنه بصدد إرسال الحملة السادسة ويطلب الدعم والإمدادات، وأسرع يجهز السفن والخيل والسلاح والرجال، أشاع في كل أوروبا أنه ذاهب لتحرير القدس وسوف يتوج فيه إمبراطورا مقدسا للعالم كله، وبالطبع أسرع يرسل للملك الكامل أنه قادم لنجدته.

ولكن الأمور في الشرق كانت آخذة في التغير، فجأة مات الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وزال الخطر الذي كان يمثله، ليس هذا فقط ولكن الإخوة الأعزاء تقاسموا ممتلكاته أيضًا، وآلت دمشق إلى ممتلكات الملك الكامل، لم تعد هناك أي حاجة للملك فريدريك، ولكنه لم يكن يعلم بذلك.

أقلعت السفن التي تحمل فرسانه حتى حلت على شاطئ عكا، لم تكن الحملة تتجاوز ٦٠٠ فارس وبعض السفن الهزيلة، وبدا واضحا من الوهلة الأولى أن الملك الصقلي جاء للنزهة وليس للحرب، وبالفعل لم تكن هناك حرب، أصيب الملك بصدمة عمره عندما عرف أنه لم تعد هناك حاجة له أصلا، ولكنه لم يشأ التراجع، بدأ يرسل للكامل الرسائل يطالبه بتنفيذ وعده، ورد الملك أنه لا مكان لذلك ولا ضرورة أن يعطيه شيئا بلا مقابل، ولكن الإمبرطور ظل يلح عليه بالرسائل: «اعتبرني حليفك وصديقك، ولا أستطيع أن أخرج عما تأمر به، وأنت تعلم أني أكبر ملوك أوروبا، وقد علم البابا وملوكها بحملتي، فإن رجعت خائبا انكسرت هيبتي بينهم، وإن رأى السلطان أن يُنعم عليَّ بقبضة من هذا البلد فستكون صدقة منه». إلى هذا الحد وصلت درجة التوسل، ومن الغريب أن هذه

التوسلات قد أثرت في الملك الكامل، وقرر أن يتنازل عن المدينة التي عجز عتاة الفرسان عن اقتحامها، التي قاتل تحت أسوارها آلاف المحاربين، المدينة المقدسة التي لا يوجد لها نظير في أي مكان على ظهر الأرض، هدية رخيصة مقابل بعض دموع ملك وإرضاء لغرور ملك آخر، وعقدت معاهدة في يافا بين الملكين، وتنازل الكامل ليس عن القدس فقط ولكن عن بيت لحم والناصرة وصيدا. وحلّ على بلاد المسلمين يوم من أسود أيامهم؛ حين تسلم فريدريك مفاتيح القدس، صرخ الأئمة من فوق المنابر، وشق الناس ثيابهم في الشوارع، ولطمت النساء خدودهن، ورفع آلاف المصلين أيديهم بالدعاء على الملك الكامل الذي فرط في دماء كل الشهداء وأصبح ملعونا، واحدا من أسوأ الحكام الذين عرفهم التاريخ.

سقطت القدس بلا قتال وما زالت في انتظار من ينقذها حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

حمائم شجرة الدر

جلست شجرة الدر في ساحة الكعبة حاسرة الوجه، تراقب العمال والحرس وهم يزيحون بقايا الكسوة القديمة العالقة بأحجار البيت العتيق، كانت قد تهرأت تمامًا وسكنتها مستعمرات من حشرات العتة السوداء، سنوات طويلة مضت دون أن ينتبه أحد لتغيير الكسوة، انشغل الجميع بالحروب التي لا تنتهي مع الفرنجة القادمين من الشمال، وانقطع طريق الحج عن طريق البر، وعندما هبت ريح عنيفة على مكة أزاحت أمامها معظم أستار الكسوة المتهرئة وأصبحت الجدران عارية. بجانب شجرة الدر كانت توجد الصناديق المزخرفة التي حملتها من مصر والتي تحتوي على الكسوة الجديدة، كانت تراقب حركة العمال وهم يغسلون الجدار بالماء والعنبر، يزيلون آثار سنوات طويلة من الإهمال، نثرت حولها بعضا من حبوب الشعير ووضعت أطباقا من الماء فاجتمعت كل الحمائم التي كانت تطوف حول البيت بالقرب من قدميها، أخذت تتأملها وهي تلتقط الحب وتشرب الماء شاعرة بالسلام الذي يحيط بالمكان وهو يتسرب إلى داخلها.

كانت قد حاربت طويلا منذ أن كانت طفلة صغيرة تم اختطافها من وسط قريتها في وسط آسيا، شهدت الكثير من الأهوال وهي تجتاز السهول والوديان جوعا وعطشا قبل أن تستقر في سوق العبيد في دمشق، قبل أن تنضج ويستدير جسدها ويتفتح عقلها، كان النخاس هو أول مَن اكتشف قيمتها. مخلوق جميل وذكي مثلها لن يباع إلا بأعلى الأسعار، إنها معجزة أن تباع وهي ما زالت محتفظة بعذريتها، لا يحدث هذا مع بقية الجواري، كن يعانين من الإجهاد بسبب الأيدي التي تداولت أجسادهن بيعا وشراء، ولكنها وصلت درة مكنونة إلى أيدي الملك الصالح؛ لذلك أطلق عليها شجرة الدر. لم يكن ملكا ولا صالحا عندما صارت إليه، كان مجرد أمير يصارع قدره، يدخل في حروب لا تنتهي ضد إخوته وأبناء عمومته، كانوا جميعا كأولاد الحرام، لا يكفون عن التصارع فيما بينهم، يتحالفون مع الفرنجة ضد بعضهم البعض، يضيعون الأرض التي حررها جدهم الناصر صلاح الدين، بل إن عم الملك الصالح نفسه قبض عليه وسجنه في قلعة الكرك هو وشجرة الدر، ولكنه أفلت من كل هذه الفخاخ ليصبح ملكا على مصر وتصبح هي ملكته، وليصد غزوات الفرنجة على دمياط، ولكنه مات في الغزوة الأخيرة، سقط مثلما سقطت دمياط في يد لويس التاسع ملك فرنسا؛ القديس الخائب، وكان عليها وهي السيدة التي لم تخرج من خدرها أن تخفي عن الجميع خبر موته وأن تقود المعركة حتى تهزم الفرنجة وتأسر ملكهم؛ وعندما انتهت الحرب أرسلت إلى ابن الملك الصالح من زوجة أخرى «توران شاه» حتى يأتي ويتسلم ملك أبيه، واعتزلت كل شيء، تركت الصراع لأصحاب المصالح، لم تظهر إلا بعد أن عرفت ما حدث للكعبة.

أفزعها أن الكعبة المقدسة التي لم ترها قط في حياتها أصبحت مجردة من كسائها، وأن أمير مكة يبحث عمن يقرضه مالا ليشتري الكسوة، قررت هي أن تقوم بهذا الأمر، أن تشتري القماش القباطي الذي يصنع في الفيوم، وأن تأتي بالحرائر من تنيس، وأن تعد قافلة محملة بالغلال والغذاء والكساوي لفقراء الحرم، وأن تخرج في قافلة مكونة من ألف ناقة وتعيد افتتاح طريق الحج القديم الذي كان يتم عن طريق البر قبل أن يقطعه الفرنجة. وبالفعل خرجت القافلة من القاهرة وعبرت رمال سيناء إلى العقبة، ثم انحدرت جنوبا بموازاة الساحل نحو مكة يصحبها المئات من حجاج مصر والمغرب

والأندلس، لمدة سبعة وثلاثين يوما، ولم تدرِ أنها بذلك قد صنعت تقليدا سوف يستمر لمدة سبعة قرون من الزمن.

كانت الدموع تتحدر على وجنتيها وهي تشاهد الكسوة الجديدة بلونها الأسود اللامع وهي تلتف حول الجدران الحجرية، والتكبيرات تتعالى من كل مكان، تهز الوادي في نشوة حقيقية، والمؤذن يدعو في فرح لإقامة الصلاة. وبينما تقف في الصفوف الخلفية جاءت إحدى الحمائم وحطت على رأسها، حمامة بيضاء صغيرة اختارتها هي دون رءوس الجميع حتى تقف عليها، لم تشأ أن تهشها أو تبعدها، ظلت تواصل الركوع والسجود والحمامة ثابتة في مكانها، حتى انتهت من التشهد مدت يدها وأنزلتها في حجرها، كانت صغيرة كما توقعت، بيضاء وحول عنقها طوق من ألوان لامعة، عيونها صغيرة ومستديرة، لا تحاول الطيران مبتعدة، واستدعت شجرة الدر أحد التابعين لها، أعطته الطائر الصغير وهي تقول: اصنع لها قفصا واجمع معها ما تقدر عليه من حمائم الحرم، سنأخذها معنا في رحلة العودة.

قضت أياما وهي تتأمل المسلمين يلتفون فرحين مبتهلين حول الكعبة، فرقت كل ما معها من عطايا وأموال على الفقراء والمساكين. أحضر التابع قفصا من جريد النخل يحتوي على عدد من حمائم الحرم بينهم تلك الحمامة التي وقفت على رأسها، كانت تشعر بنوع من السكينة لم تشعر بها من قبل، وأدركت أن سبب ذلك أنها في القاهرة تكون في مركز الصراع؛ حيث يوجد توران شاه ويوجد أمراء الحرب من المماليك الذين لا يكفون جميعا عن التناحر، وفي تلك اللحظة اتخذت قرارها بألا تعود إلى القاهرة، ستذهب إلى دمشق حيث يوجد قصر قديم يخص الملك الصالح، ستسير مع قافلة الحج المصري حتى تصل إلى العقبة ثم تكمل رحلتها مع قافلة الحج الشامي.

انتهت أيام الحج وخرجت مكة كلها تودع شجرة الدر وتطلب منها العودة في العام المقبل، وشدَّ الجميع الرحال إلى المدينة المنورة حيث المسجد النبوي، وكانت تحمل أيضًا كسوة جديدة لقبر الرسول والمزيد من الغلال والصدقات للمحتاجين، ثم بدأت رحلة العودة الطويلة. وفي العقبة انقسمت القافلة، وسارت شجرة الدر شمالا إلى دمشق حيث السكينة التي تبحث عنها، تعودت أن تهبط للصلاة في المسجد الأموي دون أن يتعرف عليها أحد، وكان أول ما فعلته هو أنها أطلقت في ساحته الحمائم التي جلبتها من الحرم، وعندما كانت تجلس كل يوم كانت الحمامة البيضاء تأتي لتقف على رأسها قليلا قبل أن تطير مبتعدة، ولم تمضِ أيام إلا وتقدمت منها امرأة في منتصف العمر، مكشوفة الوجه والرأس، تلبس رداء مليئا بالألوان، كانت واحدة من «النور» الذين يسكنون جبل قيسون، تأملت الحمامة التي تعلو رأسها أحيانًا وقالت لها: ستصيرين ملكة، ابتسمت شجرة الدر في وهن: كنت ملكة وأصبح الملك لله.

قالت المرأة في إصرار: الملك في انتظارك ولن تهربي منه طويلا.

انصرفت المرأة دون أن تنتظر أي عطايا، ونهضت شجرة الدر مع جواريها للانصراف، ولكنها فوجئت بكوكبة من فرسان المماليك أمام بيتها، تقدم جمع منهم؛ عز الدين أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون، أهم أمراء المماليك، قال أيبك: مات توران شاه فجأة.

كانت تعرف في قرارة نفسها أنهم قتلوه، ولو لم يفعلوا ذلك لقتلهم هو. قالت: ولكن لماذا جئتم إليَّ؟ قال أبيك وهو المقدم عليهم دائمًا: العرش خالٍ، وليس هناك أحق من يجلس عليك سواك.

هكذا أصر الجميع، تذكرت الحمامة التي وقفت على رأسها، ولكنها كانت تشم رائحة الدماء في ثيابهم، قالت: وإذا رفضت؟ قال: سوف نظل نتصارع إلى أن نفنى جميعا.

ظلت عيونهم جميعا مصلتة عليها حتى أومأت بالموافقة، ومرة أخرى كان عليها السفر إلى مصر.

حكمت شجرة الدر مصر لمدة ثمانين يوما فقط، ولكن طريق الكسوة ظل متواصلا لمدة سبعة قرون، وما زالت الحمائم التي جلبتها من مكة ترفرف في باحات المسجد الأموي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من أجل حلب

أنثى حلبية، جلدها كالحليب الصافي، وعيناها زمردتان زرقاوان، وشعرها فيه تألق أشعة الشمس، هذه هدية النصر للقائد «بيبرس»؛ أمير أمراء الجيش الذي حارب وحرر حلب من بقايا المغول، وسيصبح سلطانا عليها، ولكن عليه أولا أن يأخذ نصيبه من الراحة ومن المتعة؛ فراشًا من حرير، وأنامل تعزف على العود يأتي صوتها من الردهة المجاورة، وعلى الفراش امرأة جميلة على استعداد لأن تهبه جسدها بسخاء. العالم ملك يديه الآن؛ هزم الفرنجة في المنصورة، وهزم المغول في عين جالوت، وكل حلب أصبحت له وليست هذه المرأة فقط، من السهل عليها أن تخلع ثيابها أولا، ولكنه سيأخذ وقتا أطول للتخلص من هذا الدرع الملتف حول صدره، ولكنه يسمع ضجة قادمة من الخارج، ويسمع صراخا خافتا لبعض النسوة، ماذا يحدث؟ من الذي يتجرأ على إفساد لحظات متعته، ولكن قبل أن يصل لسيفه يكون الباب قد فتح. هناك من اقتحم الغرفة؛ فارس طويل القامة، على رأسه الخوذة المعدنية للقتال، والدرع حول صدره، فارس لم تنتهِ معركته بعد، تتراجع المرأة لتلتصق بالحائط، بينما يقف بيبرس فاغرا فمه من الدهشة: السلطان «قطز» شخصيًّا، يبدو وجه قطز جامدا، لا يلتفت للمرأة المرتعدة، يقول: حان وقت الرحيل، الجيوش كلها مستعدة للعودة إلى مصر.

ينهض بيبرس، يبحث عن قميص يداري به عريه، كيف عرف السلطان مكانه ووصل إليه، يقول: وما شأني بالرحيل؟ هنا مدينتي وقد وعدتني بحكمها!

يقول قطز: أنا أحتاج إليك في مصر، الأعداء يحيقون بنا من كل جانب.

يقول بيبرس: ولكني حاربت بما يكفي، هزمنا كل الأعداء الكبار، لم يبقَ إلا أعداء صغار أنت قادر عليهم. ولكن قطز كان مصرًّا قال: لا أستطيع أن أدير ظهري لك وأرحل بدونك، لن أكون آمنا إلا وأنت بجانبي.

لا مجال للنقاش، عليه أن يودع هذه المدينة، حلمه الشاهق البياض، ويعود للسير في الصحراء الجافة. أسرجت الخيول ورفعت الألوية وانتظمت الصفوف، ساروا خلف السلطان عائدين من الشام إلى مصر، بيبرس بجانبه وكل أمراء الحرب خلفهم، لكن بيبرس كان يسير بقلب مثقل، السلطان لا يأمن له، وهو لا يأمن للسلطان، هناك تنافس قديم انقلب إلى عداء كامن في النفوس، لا يريد أن يتركه في حلب حتى لا ينشق عليه، ويريد أن يأخذه للقاهرة؛ مكمن قوته، ليبقى قريبا من أظافره، ربما ينتظر فقط حتى تحين الفرصة. ببطء ومع كل خطوة يخطوها داخل صحراء سيناء كان يوقن بأنه ذاهب للموت، لم يكن يستطيع النوم، عندما يرتاح الجيش وينصبون الخيام، يظل هو مستيقظا، يجوس خلال الخيام، يقابل زملاءه من قادة المماليك الذين نجوا من المعارك؛ سيف الدين الرشيدي، بكتوت المعزي، أنس الأصبهاني، كلهم قلقون مثله، يتوقعون الغدر بهم، هذا دأب كل سلطان يقتل دائمًا كل القريبين من منصبه؛ وهذا يعني أن كلهم مرشحون للقتل، فالمجد الذي حصده السلطان، والاستقبال الحافل الذي ينتظره في القاهرة، لن يعطياه الأمان، أمانه الوحيد هو اختفاء كل مَنْ حوله من قادة أقوياء، كل أمراء الحرب.

في النهار كان الوضع آمنا، يتصرف السلطان ببساطة، يتحدث معهم ويشاركهم في تناول الطعام، ويعدهم بأنه سيعطيهم إقطاعيات ضخمة تجعلهم أثرى الناس في مصر، ولكن الكوابيس تبدأ دائمًا بعد أن يحل الظلام، من الذي يأكل الثاني أولا؟ من الذي ينجح في اغتيال الآخر؟ وكان السلطان يحول خيمته في الليل إلى قلعة محاطة بالرجال المسلحين، من المستحيل اختراقها، كان ينام مرتاحا، بينما يبقون طوال الليل ساهرين. هكذا تواصلت رحلة الكوابيس، تركوا الصحراء المرعبة واجتازوا البحيرات المُرَّة وأصبحت بينهم وبين القاهرة أيام قليلة. في بلدة الصالحية قرر السلطان أن يستريح هو وجيشه قليلا، عدة أيام قبل أن يصلوا للعاصمة التي تنتظرهم بفارغ الصبر، كانت هذه الفرصة الأخيرة لبيبرس ومن معه، لو وصل السلطان إلى القلعة لأصبح من الصعب جدًّا الوصول إليه، عندما تناقش معهم كانوا يائسين من تنفيذ مؤامرتهم، ولكن بيبرس طرح فكرته الجديدة، المجنونة تقريبًا: سأقتله في وضح النهار، لم يصدقوا أنه قادر على ذلك.

في اليوم التالي دخل بيبرس على السلطان وقال له: هذه المنطقة مشهورة بالأرانب البرية، لماذا لا نرفه عن أنفسنا ونخرج للصيد؟ اعتبرها السلطان فكرة رائعة، واستعدوا جميعا لقضاء وقت مفتوح وسط الطبيعة. في الصباح المبكر خرجوا جميعا، سار السلطان في المقدمة وبجواره بيبرس ويتبعهم بقية الأمراء، وبالفعل ظهر أمام السلطان أرنب بري ضخم، أسرعا خلفه، انفصلا عن بقية الجمع، فشل السلطان في اصطياد الأرنب ولكن بيبرس وجه له سهما اخترق منتصفه، لم يملك قطز إلا الإعجاب بمحاربه، كان هو صديقه الذي يحتاجه بجانبه دائمًا، الذي سيحميه من غدر الأصدقاء قبل الأعداء، التفت إليه وهو يقول: سأعوضك عن حلب، سأعطيك إقطاع المنصورة وهي الأفضل في مصر، المكان الذي انتصرت فيه على الفرنجة.

لمعت عينا بيبرس: من الإثارة أم من الطمع؟ أخذ لقمة كبيرة لم يستطع هضمها بسهولة، قال متأثرا: أريد أن أقبل يدك يا مولاي السلطان. استغرب قطز من انفعال فارسه، كان يدرك أنه جامد القلب، ليس من السهل التأثير عليه، وجد نفسه يمد له يده، ولكن بيبرس لم يقبلها، أمسك بها بقوة وجذبها نحوه، وباليد الأخرى أخرج خنجرا حادا كان يخبئه في ثيابه، رفعه بسرعة، وهوى به على بطن السلطان في طعنة مفاجئة وقوية وغادرة. ترنح قطز من قوتها ولم يستطع أن يبقى ثابتا، سقط من فوق الجواد وقد انبثق شلال من دم، غطى بطنه وغمر ثيابه. هبط بيبرس خلفه مستعدًّا لطعنه مرة ثانية، ورفع السلطان ذراعه وهو يقول: لماذا تعجلت يا خوند؟ كان عليك أن تتمهل حتى أكتب وصيتي وتكون السلطان من بعدي. توقف بيبرس مترددا، هل حقًّا ما يقول؟ هل أخطأ لهذه الدرجة؟ ولكن بقية الأمراء أقبلوا مسرعين، شاهدوا السلطان ملقى على الأرض جريحا وعاجزا، أسرعوا بالهبوط واستلوا سيوفهم دون أن يتبادلوا أي كلمة، هووا بها على السلطان الجريح، أعملوا سيوفهم جميعا في بدنه، ومع كل طعنة كان ينظر لهم السلطان مندهشا، كل الذين حاربوا معه أصبحوا أعداء له فجأة وشاركوا جميعا في اغتياله، ولكنه حين أغمض عينيه لم تنعكس فيها إلا صورة واحدة لبيبرس. همد جسده وقد فارقته الحياة تمامًا وتلونت الرمال من تحته بلون أحمر قانٍ، والتفوا جميعا حول بيبرس، وقال بكتوت المعزي: أنت الذي قتلت السلطان، وأنت الذي ستصير سلطانا من بعده. نظر بيبرس إليه مذهولا، ولكن الأمير الرشيدي أكمل: سنواصل السير إلى القاهرة ونصعد بك إلى القلعة ونستدعي المشايخ، ونتوجك سلطانًا على كل مصر، ولكن بيبرس رد مذهولا: ولكني فعلت هذا من أجل حلب، أريد أن أعود إلى حلب، ولكن بكتوت هتف به: لا توجد حلب وحدها بعد الآن، أنت

ستصير سلطانا على الشام أيضًا، وانحنوا جميعا أمامه، وقبلوا يده، وساعدوه على ركوب الجواد ثم ساروا جميعا إلى القاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كتاب من قلعة آلموت

جيوش المغول كالطاعون، تحمل الموت الأسود إلى كل مدن الإسلام؛ قتلا وحرقا.

أوصى الخان الكبير ابنه هولاكو وهو يبدأ رحلة الاجتياح العظيم: لا تعد إلا ومعك مفاتيح مصر. وهكذا بدأ أكبر جيش في التاريخ يواصل زحفه من سهوب آسيا البعيدة مدمرا كل ما يقف أمامه من ممالك ومدن وحضارات؛ دمرت بخارى واحترقت سمرقند وسقطت عشرات القلاع، ولكن بقيت هناك قلعة وحيدة عجز هولاكو عن إسقاطها هي آلموت؛ قلعة الحشاشين، التي تعني وكر النسر، كانوا مقاتلين أشداء، ما من مرة تقابلوا مع طلائع المغول إلا وهزموهم، والقلعة نفسها كانت عصية على السقوط، مرتفعة فوق أعلى قمة من جبال خراسان، لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال طريق وحيد لا يوجد غيره، ضيق وصعب الارتقاء ومن السهل قتل كل من يحاول أن يتسلقه. أدرك هولاكو بعد عدة محاولات أنه لا سبيل للاستيلاء عليها بالقوة، ولما كان جيشه هائلا وبطيء الحركة فضل أن يرابط حولها ويحاصرها لشهور طويلة وسنوات لو استلزم الأمر، وكعادته بدأ يرسل رسائل الترغيب والتهديد.

لم يكن هولاكو يجيد القراءة ولا الكتابة بأي لغة، ولكن كان هناك كاتبه ورئيس ديوانه «عطا الملك الجويني»، يقوم بتحرير كل تلك الرسائل. كان أديبا ومؤرخا لدولة المغول ويجيد التلاعب بالكلمات، وهناك بعض المدن سلمت نفسها فقط بسبب هذه الرسائل. كان الجويني يعرف أن هذه الجيوش ذاهبة لتدمير بغداد وحلب والقاهرة ولم يجد أي غضاضة في ذلك، كان يقوم بمهمته في الإنشاء مثل أي محترف، دون مشاعر، ودون مراجعة لموقفه كمسلم يتحدث بالعربية، بل يعكف كل مساء على تدوين كتابه عن تاريخ المغول الكبير، هل كان يعتقد أن تلك الحضارة التي بزغت من قلب الصحراء وغمرت العالم القديم قد شاخت ولا سبيل لإصلاحها، ولكن من الأفضل حرقها والتخلص منها؟ هل فقد الأمل نهائيًّا في القوم الذين ينتمي إليهم والدين الذي ورثه عن أجداده؟ كان فقط يؤدي عمله ويبعث رسائل التهديد إلى كل مكان، وهو أول من يعرف أن المغول لا يلتزمون بأي وعد، ويغدرون دائمًا بكل من آمنوهم؛ لذلك انهالت رسائله على ركن الدين خور شاه زعيم الحشاشين المتحصن في القلعة، تحمل التهديد بقتله هو ورجاله، والأمان له ولأسرته لو سلم نفسه. كان خورشاه يعرف أن من الصعب الوصول إليه، ولكن ماذا يفعل دون ماء ولا طعام وسط هذه القلعة الصخرية القاسية؟ شاهد قوى رجاله وهي تضمحل يوما بعد آخر، وشاهد أولاده يتلوون من شدة العطش، ولم تبدُ أن هناك نهاية لهذا الحصار، ويعرف أن اليوم الذي ينحدر فيه على الممر الصخري سيكون يوم نهاية دولته الأسطورية التي ألقت الرعب في قلوب الجميع، ولكن لا ينهي الرعب إلا رعب أشد منه.

وأخيرا لم يكن هناك مفر من أن يترك خور شاه وأولاده قلعة آلموت؛ المكان الوحيد الآمن له ويهبط ملتمسا الأمان عند هولاكو. اقتحم المغول القلعة أخيرًا وقتلوا كل من فيها من رجال، لم يبقوا إلا على النساء والغلمان دون سن العاشرة، ثم كان القرار أن يتم إحراقها حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك، ولكن قبل ذلك كان هناك احتفال ضخم، أقيمت خيمة ضخمة يجلس فيها هولاكو وحوله بقية أمراء حرب الجيش المغولي للاحتفال، وفي منتصف الحفل فوجئ هولاكو بكاتبه عطا الملك الجويني وهو يتقدم منه متوسلا: أيها الخان العظيم غدا سوف تحرق هذه القلعة، ولكني قد عرفت أن في داخلها مكتبة

ضخمة تم جمع كتبها من كل مكان. قال هولاكو: وماذا في ذلك؟ ستحترق معها، قال الجويني: لو أذنت لي، أريد أن أنقذ هذه الكتب.

نظر هولاكو إلى قواده في حيرة، كانوا جميعا لا يعرفون القراءة والكتابة، ولم يروا في الكتب إلا مادة سهلة للحرق، يكفي حرق كتاب واحد لتحترق مدينة بأكملها، قال ضاحكا: هل تتخيل أن نقوم بهذا الزحف العظيم ونحن محملون بالكتب؟

وانفجر بقية القادة في الضحك، قال عطا الملك يائسا: يا مولاي إنها ثروة، وقد حصلوا عليها من قصور الملوك والأمراء الذين اغتالوهم، ولولا ذلك ما احتفظوا بها.

قال الخان: أي ثروة في تلك الأوراق الصفراء ذات الرائحة العطنة؟ لقد كانت سببا لضعفهم وهلاكهم على أيدينا، لن أسمح بذلك في مملكتي.

من معرفته بالمغول كان الجويني يتوقع هذا الجواب، انحنى واستدار لينصرف، ولكن لاحقه صوت الخان: انتظر؛ لأنك قمت بخدمتنا بإخلاص فسوف أسمح لك بعربة صغيرة تجرها باليد وتملؤها بهذه الكتب.

وفي اليوم التالي توقفت عملية الحرق مؤقتا حتى يجر الجويني عربته الصغيرة ويصعد بها للقلعة. رغم الصعود الشاق وصل إلى قاعة المكتبة، كانت محفورة في جوف الصخر، وهناك فتحات في السقف تنير المكان ومقاعد حجرية يجلس عليها من يريد القراءة، وجدرانها محاطة بالأرفف وعليها عشرات المخطوطات. لم يتصور الجويني أن يجد كل هذا القدر من الكتب في مكان واحد، كانت له مكتبته الخاصة الصغيرة، ولكنه لم يتصور أنه يمكن أن يوجد في العالم كل هذا القدر من الكتب. هناك نسخ كثيرة من القرآن مكتوبة بماء الذهب ومضمخة بالعنبر، وجوامع للأحاديث وكتب في الفقه والشعر والفلسفة والفلك وعلوم الحيوان. كيف جمع القتلة كل هذه الكتب ونسقوها ورتبوها وفقا لكل موضوع؟ لم يكونوا مشغولين بالقتل فقط، كان لديهم هدف يسعون إليه، يريدون عالما يهابهم، ولكنهم لا يسعون لإفنائه كما يفعل المغول. لم تقتصر المكتبة على الكتب فقط، كانت هناك آلات للقياس والموازين ومراقبة حركة الفلك. تنهد في حزن، كانت العربة صغيرة جدًّا، والاختيارات كثيرة جدًّا، ولايملك إلا الطاعة وإلا كان مصيره القتل. فكر بصوت مسموع: فلأنقذ كلام الله، وبدأ بجمع المصاحف المذهبة الثمينة، ثم توقف، لمح في صدر المكتبة كتابا مميز الشكل، من واقع خبرته أدرك أنه مغلف بجلد فاخر، ومكتوب عليه بماء الذهب «الكتاب الرئيس»، أي كتاب، وأي رئيس؟ مد يده وتناول الكتاب، كان ثقيلا وضخما، مكفتا بالذهب وربما كان ذلك سبب ثقله، فتحه وقرأ العنوان بوضوح: حسن الصباح، هذا كتابه، وهذه قصة حياته، وهذه أيضًا تعاليمه كما أملاها، قلب صفحات الكتاب مبهورا، هناك رسوم وخرائط ومسارات، كلها توضح كيف صنع الرجل هذا تنظيمه السري المحكم وكيف جعل أتباعه يموتون من أجله دون نقاش، كيف وعدهم بجنة أرضية وسط هذه الصخور القاحلة، ولماذا صدقوه؟ هل يمكن أن تتكرر التجربة وأن يبعث حسن الصباح من جديد؟ أخرج من العربة كل ما فيها من كتب، ووضع بدلا منها الكتاب الرئيس، امتلأت العربة عن آخرها، أمسك بذراعيها وخرج من المكتبة وبدأ السير منحدرا إلى أسفل، كان جنود المغول يراقبونه، ما إن

ابتعد بالعربة لدرجة كافية حتى أسرعوا يشعلون النار في كل مكان، وظلت ألسنة اللهب ترتفع من المكتبة سبعة أيام كاملة.

رافق الجويني هولاكو عبر كل الأرض المحروقة التي صنعها المغول دون أن يرف له جفن، وشاهد المجانيق وهي تدمر أسوار بغداد، والخليفة العباسي وهو يساق للذبح هو وأهله، ووقف بجانب هولاكو وهو يستبيح المدينة ويقتل كل من وجده من أهلها بعد أن أعطاهم الأمان، وعلى سبيل المكافأة عينه هولاكو حاكما على بغداد المدمرة، وظل يحكمها تحت رعاية المغول لمدة أربعة وعشرين عاما.. ومن الواضح أنه قرأ الكتاب الرئيس لحسن الصباح واستفاد منه جيدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

عبد الله بن أبي عامر

أرسل الخليفة «المنصور بن أبي عامر» صاحب قرطبة، رسالة قوية اللهجة إلى جارسيا كونت قشتالة، يطالبه برد ابنه الذي لجأ إليه وإلا توقع حربا عارمة، ورد عليه جارسيا: أنت أبوه حقًّا، ولكن لا يؤتمن جانبك، ولفرط غيظ المنصور وجد نفسه يستعد لحرب أخرى.

وفي الحقيقة كانت حياة ابن أبي عامر حربا متصلة، لم يكن ينقصها غير أن يختمها طالبا رأس ابنه عبد الله، لم يكن هو الابن الوحيد، كان هناك الأخ الأصغر عبد الرحمن الأكثر طاعة وانصياعا لأبيه، ولكن عبد الله كان فيه شيء مختلف، نزوع الابن البكر الذي يريد أن يؤكد شخصيته بعيدا عن ظل أبيه؛ من أجل ذلك انزلق إلى درك الخيانة كما يرى أبوه، لم يكن يحتمل الخيانة، يكفي كمّ الخيانات التي مرَّ بها منذ أن كان كاتبا صغيرا عند باب القصر في قرطبة، بلا حسب ولا نسب. في تلك اللحظة في الأندلس، كان الأمويون هم الذين يرثون كل شيء؛ الثروة والسلطة، بينما هو قادم من أسرة يمنية فقيرة، موهبته هي حسن الخط ورشيق العبارة، المصادفة فقط هي التي جعلت زوجة الخليفة السلطانة «صبح» ترى واحدة من هذه الرسائل وتعجب بها وتقرر استدعاء الذي كتبها لمقابلتها.

لم تكن صبح سلطانة، ولكنها كانت محظية الخليفة الأولى وأم ولي العهد والمتحكمة في كل أمور القصر. سيدة جميلة، رغم الصراعات وأفعال الزمان، لا زالت تتمسك بأهداب شبابها، وجاء ابن أبي عامر لمقابلتها يتوثب فتوة وطموحا، ومنذ أن دخل القصر وشاهد غرفة نومها وقد أدركا معًا أنه لن يخرج منها، كان فراش صبح هو الدرجة الأولى في سلم صعوده السريع إلى مراكز الحكم في قرطبة، تولى أكثر من منصب مهم، وأخذ يقترب يوما بعد يوم من الخليفة، وبمعاونة صبح استطاع أن يتخلص من كل المنافسين، وعندما شاعت الأنباء عن علاقتهما معا لم يباليا، كان الخليفة العجوز أضعف من أن يقاوم زوجته أو يعاتبها، وكان ولي العهد أصغر من أن يعترض على سلوك أمه، ولكن ابن أبي عامر استغل الفرصة جيدا، ترقى في المناصب بحيث لم يبقَ بينه وبين العرش غير خطوة واحدة. وبعد أن مات الخليفة العجوز وجاء ابنه الصغير، كان ابن عامر قد تخلص من كل منافسيه وأصبح حاجب الخليفة والوصي عليه، وفي ظروف غامضة اختفى الخليفة، ألقيَ به في السجن أو قتل، لا أحد يعرف. وأعلن ابن أبي عامر عن اختفائه. وعندما حاولت أمه الاعتراض، لم يقم وزنا للعشق السابق بينهما، وبنى على باب غرفتها جدارا مصمتا من الأحجار. استطاع بطموحه الذي لا يقهر أن ينفرد بالسلطة، ونادى بنفسه خليفة للمؤمنين بينما مصير الخليفة الحقيقي مجهول، تلقب باسم الملك المنصور ودعيَ له من فوق المنابر، وظل منصورا على الدوام في كل المعارك التي خاضها ضد ملوك الطوائف وضد الإسبان أيضًا. كانت قرطبة فقط خائفة منه، ولكنه حين كون جيشًا قويًّا وبدأ يغزو الممالك الأخرى خافت منه أيضًا، أصبح رجل الأندلس الأول.

ولكن الخيانة جاءت من داخل أسرته؛ ابنه الأكبر عبد الله مدفوعا بالغيرة أو الطمع أو قلة العقل عقد نوعا من التحالف مع حاكم سرقسطة «ابن المطرف النجيبي» ضد أبيه، اتفقا معا على أن يستوليا على مُلك الأب ويقسماه فيما بينهما؛ بحيث يأخذ ابن المطرف مدن الساحل المطلة على البحر، ويأخذ عبد الله المدن الداخلية. اتفاق ساذج ضد عدو يقظ عيونه مبثوثة في كل مكان، عرف المؤامرة وأخذ زمام المبادرة بيده، هاجم جيشهما قبل أن يتأهب للمسير، هزم جنودهما في مكانهما دون أن يتمكن

أحد من الهرب، وقبض على ابن المطرف وقتله في الحال، لكنه لم يستطع أن يفعل الشيء نفسه مع ابنه عبد الله. انتابته حيرة مؤقتة بين عاطفته كأب، وصرامته كحاكم، كيف يمكن التعامل مع ابن متمرد، خائن على وجه التحديد؟ حتى السلطة المطلقة لها حدود. وضعه في السجن حتى يحسم أمره، ربما كان ينتظر منه اعتذارا أو رغبة في المصالحة.

لكن الولد المتمرد استطاع الهرب من السجن، كان يوجد بين حراس السجن من هو متعاطف معه، وهذه المرة لم يلجأ إلى أي من ملوك الطوائف؛ لأنه كان واثقا بأنهم سيخونونه، ذهب مباشرة إلى معسكر الإسبان الذين كانوا يتأهبون لإسقاط الأندلس كلها، ذهب إلى «جارسيا» كونت قشتالة وطلب منه الحماية، وكان الكونت سعيدا بهذه الطعنة التي وجهها إلى قلب ابن عامر، ولكن الأخير أثبت أنه لا قلب له، يريد هذا الولد المارق وإلا هي الحرب، ولم يتصور ملك قشتالة أن ابن أبي عامر يستطيع أن يجمع جيشه بهذه السرعة، وأن يسير المجانيق تحت أسوار قشتالة ويبدأ في دكها. أراد أن يثبت للجميع أنه لا أحد في الأندلس يعصي أمره أو يقف في سبيله، وهرع كونت قشتالة يطلب الصلح ويتعهد بتنفيذ ما طلبه، وعلى رأسها تسليمه الولد عبد الله.

وقف عبد الله في حالة مزرية أمام أبيه، أدرك أنه لا مهرب منه، وأن العلاقة بينهما قد تعدت مرحلة الغفران، ولكن الأب هذه المرة كان راغبا في الكلام، سأله: لماذا فعلت ذلك؟ لماذا خرجت عليَّ؟

لم تطرف عين الولد قال: حتى تراني. أنا الأخ الأكبر، أنا الذي عشت تفاصيل صعودك في قرطبة، ومع ذلك أشحت بوجهك عني وأعطيت ولاية عرشك لأخي الأصغر عبد الرحمن.

قال ابن عامر: لأنه هو الأعقل والأحكم في تصرفاته.

قال عبد الله: أين العقل في كل ما يحدث؛ أن يرتفع كاتب بباب القصر حتى يصبح سيد القصر، ويحدد المصائر ويقسم الأرزاق؟

قال الخليفة: وأين الخيانة من كل هذا؟

قال: هي التصرف الطبيعي لكل من يريد أن يأخذ حقه.

ثار الخليفة قائلا: وحقي أنا، ألم تخني أنا الذي وهبتك الحياة؟

قال الابن في إصرار: كما وهبتها خذها، فلم أسعد بها كثيرًا.

وصلا معا إلى نقطة النهاية، في رحلته الطويلة لم يكن ليتوقف ويأسف على شيء، حتى على «صبح» التي وهبته جسدها وفتحت له أبواب كل المناصب. أمر الجلاد أن ينفذ حكمه في الصباح الباكر دون أن ينتظر حضوره، ولكنه فيما بعد تأمل الرأس المقطوع طويلا؛ لعله كان يبحث فيها عن صورة الطفل الذي كان، لم يكن فيها إلا فزع لحظة الموت ورائحة غريبة هي رائحة الجثث التي يتأخر دفنها. أمر أن يحمل الرأس إلى قرطبة، وأن يعلق فوق أسوار مسجدها الكبير حتى يعرف الجميع أن المنصور بن أبي عامر لا يرحم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

حطاب غرناطة

الطاعون يضرب المدينة، والقلعة مغلقة في وجه الجميع، إلا أصدقاء السلطان «قايتباي»، الخلصاء له والمتآمرين عليه، ولكن من الذي أحضر هذا الحطاب الغريب إلى مجلس السلطان؟ كيف صعد الربوة العالية وعبر البوابة الحديدية التي لا تفتح إلا بإذن، وسار عبر الأروقة والأبهاء الرخامية دون أن يوقفه أحد؟ كيف اجتاز السجن والمسجد ومخازن السلاح والغلال ومساكن الحريم وضاربي الطبول وحراس المشاعل الذين لا يعرفون النوم، ووصل إلى القاعة التي يجلس فيها السلطان قايتباي متعبا ومرتابا وشكاكا في كل ما حوله؟ كان السلطان أول من لمحه وهو يشرب عصير البرقوق ويخشى أن يكون مسموما، ويلمح ثلاثة من قادته وهم يتهامسون في آخر القاعة، كانوا بدون أسلحة تقريبا، ومع ذلك هناك خشية أن ينقضوا عليه. لا بد أن واحدا منهم قد خبأ سلاحا صغيرا في مكان ما، وهناك جارية نصف عارية في ركن آخر من القاعة أحضرها نخاس من بلاد القفقاس؛ البلد الذي جاء السلطان منه، والذي قضى فيه تسع سنوات من طفولته قبل أن يتم اختطافه وبيعه في أسواق القاهرة، وكان النخاس يعرضها للبيع ويريد السلطان أن يشتريها، ولكنه يريد ثمنها في الحال، ولم يُردْ السلطان البخيل أن يخرج دنانيره الذهبية أمام عيون حاشيته الشرهة، رغم ذلك كله استطاع أن يلمح الحطاب.

كان جسمه الضئيل مغطى برداء من الجلد يصل إلى ركبتيه، وبقية ساقيه عارٍ، ويمسك في يده سكينا مقوسا، والأغرب أنه ما زال يحمل على ظهره حزمة من الحطب كأنه قدْ قطعها في التو، رفع السلطان صوته فوق كل الهمهمات الموجودة في القاعة وقال له: اقترب أيها الحطاب.

سكت الجميع، حولوا أبصارهم للرجل الذي كان يسير بخطوات بطيئة متجها لمجلس السلطان الذي قال متسائلا: من أنت، ومن أين جئت؟ قال الرجل: كما ترى يا مولاي أنا مجرد حطاب، جئت من بعيد، من غرناطة.

ردد السلطان وردد الجميع الاسم مندهشين، كانوا يسمعون الاسم على ألسنة بعض الحجاج والتجار وعابري السبيل، ولكن لم يظن أحد أن لها وجودًا، مدينة غريبة وسط أرض تدعى الأندلس. قال السلطان: وماذا تريد؟ قال الحطاب وهو على وشك البكاء: إنها محاصرة يا مولاي، منذ تسعة أشهر وهي تقاوم الجوع والحصار، جنود قشتالة يحاصرونها من كل جانب، سقطت كل المدن العظيمة في بلنسية وإشبيلية وحتى قرطبة أعظم مدن الزمان، ولم تبقَ إلا غرناطة تقاوم وحدها وتصد غزوات الإسبان وتتحمل طلقات المدافع الإيطالية، ولكنها الآن مدينة منهكة تطلب منكم أن تأتوا لإنقاذها.

وغلبت الدموع الرجل فتوقف عن الكلام، نظر السلطان نحوه في حيرة، قال له: ما اسم ملككم هذا؟ قال الحطاب: أبو عبد الله الصغير، فكر السلطان: لا بد أنه أصغر من أن يحكم مدينة بهذا الحجم.

فكر السلطان كيف يمكن أن ينقذ مدينة بهذا البعد وأعداؤه بهذا القرب؛ جيوش بني عثمان تريد أن تجتاح حلب، وسفن الفرنجة تطوف حول دمياط، إضافة إلى الطاعون، والأصدقاء الذين في حقيقتهم أعداء ويتربصون له في الداخل، وأخيرًا قال: أيها الحطاب المسكين، لا أستطيع أن أفعل لك شيئا غير مصادرة أموال التجار النصارى في القدس والإسكندرية.

لم يملك الحطاب نفسه إلا أن يقول مندهشا: وما علاقة مصادرة الأموال بفك الحصار عن غرناطة؟

قال السلطان في اقتناع: أنت لا تعرف قوة التجار وحرصهم على المكسب، سيضغطون على رفقائهم النصارى في الأندلس حتى يفكوا الحصار.

ماذا كان الحطاب يتوقع من سلطان من الجلبان اختطف وهو صبي، وتعرض للبيع والشراء وتبادلته الأيدي وخضع لعمليات المساومة والفصال؟ انفض المجلس وانصرف السلطان راضيا عن قراره، ولكن كانت هناك مشكلة أخرى، كان السلطان نفسه محاصرا، والطاعون لا يريد أن ينزاح عن مدينته، وهو في أعلى القلعة هارب من الرعب الذي تعيشه رعيته في الأسفل، صفوف الموتى التي لا تنتهي، الوجوه التي كساها المرض بلونه الأسود، وقت مثل هذا لم يكن يميل للذهاب للحريم، كان يريد الاطمئنان على زوجته وابنته التي كانت تعاني من بداية المرض.

وعندما دخل إليهما وجد المكان في حالة غير طبيعية، كان هناك ثلاثة من الأطباء اليهود بأزيائهم السوداء وقلانيسهم الطويلة، هبط قلبه وهو يقترب من الفراش الذي ترقد عليه ابنته، لم يكن يعرف ممَ تشكو، ولكنه كان متأكدا من أن الطاعون لن يجرؤ على اقتحام قلعته. كانوا جميعا واجمين وزوجته تكاد تموت رعبا، اتجه سريعا إلى الفراش في منتصف الغرفة حيث ترقد ابنته الصغيرة «جلنار» وهي عاجزة عن مقاومة المرض، كانت محمومة محتقنة الوجه وتلتقط أنفاسها بصعوبة، لم تكن قد ماتت بعد، فلماذا كان هذا الفزع؟ سأل كبير الأطباء بحدة: إلى أي درجة الأمور سيئة؟

تردد الطبيب ولم يدرِ ماذا يقول، كان يدرك أن السلطان سريع الغضب، ويمكن في لحظة أن يقتله بلا تردد، رفع السلطان إصبعه: كن صريحا ولك الأمان، استرد الطبيب أنفاسه واقترب من الطفلة، أشار إلى عنقها الصغير دون أن يلمسها: هذه البروز الموجودة في عنق الأميرة، العقد المتورمة بدأت تتحول إلى اللون الأسود.

نظر السلطان إلى حيث يشير، كان عنقها ناصع البياض كما تعود أن يراه، ولكن كان هناك ظل من السواد يزحف ببطء تحت الجلد، لم يكن ظاهرا لولا أن الطبيب قد أشار إليه، يحيط بالعقد الملتهبة، لم يفهم السلطان ولكن الطبيب قال في صوت متحشرج: إنه الطاعون.

صرخ السلطان: الطاعون داخل قلعتي، لقد أغلقت في وجهه كل الأبواب، أخذ يصرخ في اهتياج، وزاد بكاء الزوجة، وظلت الفتاة هادئة مستسلمة للمرض الذي ينهشها من الداخل، وقال الطبيب: من الأفضل ألا يقترب منها أحد حتى لا يصاب بالعدوى، ولكن الأم ارتمت عليها، تشبثت بفراشها وهي تهتف: لن أترك ابنتي تموت وحيدة.

لم يستطع أحد أن ينتزعها، حتى السلطان نفسه انسحب مبتعدا.وفي ركن بعيد عند أطراف القلعة بدأ الحفارون في فتح قبر صغير ووضعوا فيه كميات كبيرة من الجير الحي، ولم ينم السلطان إلا قليلا، ظلت الكوابيس تهاجمه بلا هوادة، واستيقظ مبكرا رغم أنه لم يؤذن لصلاة الفجر، سار بقلب مرتعد لفراش ابنته، كانت الأم وابنتها تحتضنان بعضهما البعض بشدة، كان الجثمانان متصلبين والسواد يسري تحت جلودهما من الواحدة للأخرى، نادى عليهما فلم يجبه أحد، ولم يتحرك، ودخل خدم الصباح فوجدوه واقفا متصلبا، أخذوه خارجا، أغلقوا الغرفة حتى يأتي الدفانون، لم يكن هناك غسل

ولا تشهد، جاء الدفانون ولفوا الجثمانين في أغطية الفراش بملابسهما، وهم يحاذرون من لمس أي قطع عارية من أي عضو، أحضروا عربة خشبية يجرها حمار ووضعوا عليها الجثمانين وأصر السلطان على أن يسير بجانبهما على قدميه، وهبطت العربة على الطريق المرصوف بالأحجار، كان السلطان متماسكا، ولكن صدره كان ضيقا، يلتقط أنفاسه بصعوبة، كان بعض الأمراء قد استيقظوا، يسيرون بعيدا خلف السلطان، لكنه رأى رجلا قادما من بعيد، يسير عكس اتجاههم جميعا، كان يسير محنيّا وفوق ظهره توجد حزمة الحطب، تهتز مع كل خطوة يخطوها، نظر السلطان إليه بعينيْن كليلتيْن، ولوح الحطاب له وقال في صوت مسموع: العزاء لك يا سلطان، أنا عائد إلى غرناطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

خمسمائة عصا

يجلس الملك لويس التاسع عشر منزويا في ركن الغرفة، كأنه يريد أن يدخل في الجدار الحجري؛ حتى لا يراه أحد. ويدخل الطواشي صبيح يحمل في يده عصا طويلة من الخيزران، يقول لويس في جزع: سوف تضربني مرة أخرى؟ انحنى الطواشي في احترام قائلا: نحن في الصباح يا مولاي، وهذا ميعاد المائة الأولى.وأدار لويس ظهره وقد طفرت دموع القهر من عينيه، وتمتم: من أجل مجد الرب.

بل تكفيرا عن آلاف الأطفال والنساء الذين ذبحهم جنوده في دمياط. حين وطأت قدماه الشاطئ المصري لأول مرة، كان يقود مائة سفينة محملة بالجنود، اقتحموا القرى وصلى هو للرب، بينما صلى جنوده بطريقتهم الخاصة فوق أجساد الشيوخ الموتى والنساء المغتصبات. وحين عبر مخاضات فارسكور ووضع سيفه في الرقاب، أرسل يهدد كل المسلمين بنفس المصير الذي لاقاه عرب فلسطين من قتل وسبي، ولكن ها هي العصا تصلي ظهره.

عند الظهر حان موعد المائة الثانية، وتمتم الملك حين شاهد العصا الجديدة:

- سوف تأتي النجدات، لن تسكت أوروبا على فقد واحد من قديسيها.

ولكن أوروبا كانت صامتة، وجنود الملك نفسه هم أول من اكتشف أنه ليس قديسا، حين خرج عليهم الفلاحون والحرافيش بالمعاول والنبابيت، وجعلوهم يدفعون ثأر النسوة اللاتي اغتصبن، والحقول التي أحرقت.

وعند العصر حان موعد المائة الثالثة، فصرخ الملك باكيا: ألا توجد نهاية لهذه المهانة؟ قال الطواشي وهو يواصل الضرب: ادفع الفدية لعلك تعوض ما أحدثته من خراب.

تمتم الملك: أي مهانة حين أعود إلى فرنسا وعلامات هذه العصا فوق ظهري!

حتى لو اشتروا جسده فمن الذي يمنح روحا الخلاص؟

عند المغرب جاء ميعاد المائة الرابعة، فأيقن الملك أنه ليس قديسا، وأن سفن النجدة لن تأتي، وأنه قد أوقع نفسه وجيشه ليس في مستنقعات النيل فحسب، ولكن في مستنقعات الخطيئة.

وحان موعد المائة الخامسة، فكان الملك يبكي كالأطفال وهتف بالطواشي: لا تضربني أرجوك، سوف أدفع الفدية وسأعتذر.

ولكن بعد عدة سنوات، أبحر الملك لويس نفسه في مراكب جديدة وقصد بها ناحية دمياط مرة أخرى. وعندما التفت الملك لويس ناحية المدينة، خيل إليه أنه يلمح الطواشي صبيح واقفا على أسوارها ممسكا العصا نفسها؛ فشعر بالآلام الحادة تعاود ظهره، وأعطى أوامره للسفن بتغيير اتجاهها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة كل سلطان

يبدأ كل سلطان مملوكي رحلته من البداية نفسها، يكون زاهدا في الحكم عازفا عن متاعبه راضيا بحالته البسيطة بعيدا عن تعقيدات السلطة، ولكن الظروف ترغمه على تولي السلطنة؛ لأنه دائمًا لا يوجد من هو أكفأ منه، وفي العادة ينظر إلى من حوله ويقول في تواضع يخجل الملائكة: وأنا إيش أكون فيكم وأنتم أمراء مصر؟ ساعدوني، قفوا بجانبي، سأعمل بكل رأي، وأستمع لكل مشورة.

يستبشر الناس خيرا، وتتنفس المدينة فتعلق كل الزينات وتعيش لحظات قليلة من الفرح، ويصعد السلطان من بيته إلى القلعة في موكب جليل تحف به أبهة من شعب أجاد صنع هذه الأبهة لفراعنته منذ آلاف السنين. ولأن القلعة عالية رابضة على قمة المدينة يبدو كل شيء تحتها ضئيلا، ضعيفا، متوسلا، يغري بالافتراس.

فأما أول أعراض السلطنة فغيرته الشديدة من السلطان الذي سبقه؛ فهو لا يطيق اسمه على نقش النقود، ولا يحب ألوان منافسه ولا مماليكه. وأما الزوجة السابقة فهي مشكلة؛ فإذا كانت جميلة سارع بالزواج بها، ويظل يمارس معها الجنس بإلحاح بالغ حتى تقر وتعترف بأنه أقوى من السلطان السابق. أما إذا كانت دميمة فهو يتهمها بتدبير مؤامرة ضده ويلقي بها في السجن أو يخنقها في الجب، ثم يبدأ في السطو على آثاره فينسب الانتصارات السابقة لنفسه، ويمحو الاسم القديم من على المساجد والخانات والأسبلة ويسجل اسمه، كأنه يريد أن يحفر سلطنته على وجه الزمن.

وأما ثاني أعراض السلطنة؛ فضيقه بكل رأي، وتحفزه لدى كل مشورة، وشكه في كل الأمراء الذين يحيطون به. لا يفهم لماذا لم يكونوا طامعين في العرش وهو خالٍ، ثم أصبحوا طامعين فيه فجأة عندما جلس هو عليه. تصبح عنده عادة فهو لا ينام الليل إلا قبل أن يخنق أميرا، أو يغتال قائدا، ولا يروق مزاجه على الصبح حتى يصادر أموال أمير آخر.

وأما ثالث أعراض السلطنة؛ فالحرب، عندما يضج الجميع فقرا وجوعا وظلما، فإن عليه أن يخرج للفرنجة الموجودين على الحدود، ومهما كانت نتيجة المعركة فإنه يخرج منتصرا؛ ففي الهزيمة يخسر الأمراء الذين ينافسونه، وفي النصر يكتسب مجد ورفعة كلمة الدين، ولا يجرؤ أحد بعد ذلك على مناقشة أي أمر من شئون الدولة؛ لأنه في مثل هذه الحالة يستمد سلطته من الله مباشرة. وتكون مهمته هي أن يبقى سلطانا مدى الحياة أو على الأقل يؤمِّن الطريق لولي عهده الصغير، الذي تربى غالبا في حجور الحريم وأصابته مخالطة الخصيان بالشذوذ، وتصبح سجونه واسعة وكأنها حدود الدولة، وتصبح رغباته مستحيلة كأنه يريد أن يضع النجوم في خزانته، ويصبح الناس عنده أهون من تراب قدميه، ولا يدري أن من سوف يقتله وينهي كل هذه الرغبات المحمومة أقرب إليه من حبل الوريد. وعندما تخترق السيوف جسده يتذكر فجأة كيف كان زاهدا في الحكم، ويتعجب كيف ستبدأ رحلة السلطان الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

آخر الخلفاء

ارتمى الشيخ متعبا ولاهثا أمام الجامع الأزهر، كانت صلاة الجمعة قائمة والسلطان «الظاهر بيبرس» يصلي بنفسه مع الناس، عندما انتهت الصلاة وقبل أن يفطن الحراس لما يحدث أسرع الشيخ الممزق الثياب وارتمى تحت قدمي السلطان وهو يهتف: مولاي السلطان، أنا آخر خلفاء بني العباس.

كانت بغداد القديمة قد ذهبت بددا تحت أقدام المغول، والرايات السود لوثها دم التخاذل وضاعت الخلافة، وعاشت الأرض ثلاثة أعوام دون خليفة، وهي التي طالما عمرت بالخلفاء.

مَدَّ الخليفة البائس يده في جيوبه وأخرج أوراقا ورقعا جلدية وأختاما وشارات ممزقة وبعض الجواهر الملوثة بالدم والطين، توقف كل شيء في القاهرة وانحنى السلطان وطلب منهم الوقوف ثم عادوا جميعا إلى داخل الأزهر. اجتمع حوله شيوخ المذاهب الأربعة، وقاضي القضاة وحفظة الأنساب، وجلس السلطان صامتا يتأمل الشيخ وهو يذكر نسبه حتى جده العباس عم الرسول. ولم يكن هذا أمرا عسيرا، سألوه عن شارته وأختامه فأخرج نفس الأشياء التي أخرجها أول مرة، ولم يكن هناك شيء جازم يؤكد أو ينفي أن هذا الشيخ هو آخر خليفة عباسي. وانتحى قاضي القضاة بالسلطان وهو يقول في همس: الرجل لم يقدم أي دليل نجزم به، وأخشى أن يكون نصابا. ولكنه فوجئ بالسلطان يقول له: أنا أعرف أنه آخر الخلفاء العباسيين، وسينصب أميرا للمؤمنين.

حسم السلطان القضية، كان بيبرس قد قتل صديقه «قطز»، وتخطى بقية المماليك وأخذ العرش بسيف المنتصر، ورغم كل ذلك كان في حاجة إلى سند شرعي، صك يجعل له الحق في عرش مصر، وأعلن في القاهرة أن قاضي القضاة قد توثق من نسب الخليفة وبدأت مراسم مبايعته بالخلافة؛ بايعه السلطان والقضاة والقواد والأمراء، واتشح بالسواد شعار العباسيين، وأطلق على نفسه لقب الخليفة المستنصر، وخرج في يوم الجمعة الذي يليه إلى الجامع الأزهر وصعد المنبر وأعلن أنه قد عين الظاهر بيبرس سلطانا من قبله على مصر. وتقدم السلطان ليلبس الخلعة من يديه، ووقف كل منهما مبتسما في وجه الآخر، ثم همس له السلطان بيبرس في صوت حازم: إلى هنا وتنتهي مهمتك. لو تناهى إليَّ أنك تدخلت في أمور الدولة من قريب أو بعيد فسوف أقطع رأسك.

وارتعد الخليفة، وأخذ يعدل من وضع الخلعة على صدر السلطان، ثم أسرع يختفي داخل قصره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

البرج الأكبر

هتف السلطان «قلاوون» في حنق: لا بد أن أقتله، إنه يكرهني ويتآمر ضدي. ولكن الأتابكي بشتك رد عليه في هدوء: تروَّ قليلا يا مولاي، فعلى أي حال هو الخليفة العباسي الشرعي، وأنت تعرف قلوب العامة والحرافيش.

ولكن السلطان كان عنيف الطبع، ومنذ أن اعتقد بأن الخليفة يتآمر عليه وهو لا يطيقه. كان أحد البصاصين قد جاء برسالة زعم أن الخليفة هو الذي كتبها وأرسلها إلى نائب السلطان على الشام، كان ينتقد السلطان في هذه الرسالة ويعيب عليه كل تصرفاته، ولم يتأكد السلطان إذا كانت المسألة صحيحة أم لا، ولكن غضبه عليه كان عنيفا. كان الخليفة العباسي المستكفي بالله يبدو طيبا لا علاقة له بلعبة الصراع على السلطة، ومنذ أن انهارت بغداد وأقام الظاهر بيبرس الخلافة العباسية مرة أخرى في القاهرة، وهي علاقة شكلية لا تقوم إلا بدور تقليدي وبسيط هي مباركة أي أفاق يجلس على عرش مصر، وإعطاؤه وهمًا بالشرعية الدينية.

وكان الأمير بشتك يقول: إننا لا نستطيع أن نقتله حقًّا، ولكن من الممكن أن يموت الخليفة قضاء وقدرا.

وارتاحت نفس قلاوون قليلا وجلس على كرسيه ينصت بانتباه: فلنطلب منه أن ينتقل مع نسائه وعياله من مكانه في قلعة الكبش إلى البرج الكبير في القلعة هنا بجانبنا.

وومضت الفكرة في ذهن السلطان، البرج الكبير هو من أقدم أبراج القلعة وأكثرها تهالكا، ولعله القبر المناسب للخليفة، وبالفعل صدر الأمر السلطاني بانتقال الخليفة ليكون بجواره في قلعة الجبل، وكان الخليفة متوجسا، ولكنه مغلوب على أمره؛ لذا أسرع في الانتقال، وقضى الأيام الطويلة يصارع في إزالة العناكب والحشرات التي كانت تسكن البرج منذ زمن بعيد. وبعد شهر مرَّ السلطان أمام البرج فوجده صامدا، وشاهد أولاد الخليفة يطلون من النوافذ فبدأ يشعر بالغيظ. ورغم تأكيدات الأمير بشتك فقد مرَّ شهر آخر ولم يسقط البرج، بل إن الخليفة لم يتورع عندما حانت ذكرى قيام دولة آل عباس عن أن يحتفل بهذه المناسبة احتفالا كبيرا، فملأ البرج بالأضواء وزينه بالأعلام، فكاد السلطان أن يجن وصرخ: هذا البرج يجب أن يهدم، يهدم في الحال. وأسرع الأمير بشتك؛ بعث بأتباعه كل ليلة يلقون الماء على أساس البرج، كل يوم يشبعون الأحجار المفتتة بكميات غزيرة من المياه، وفي ذات صباح ساطع انهار البرج على من فيه ولم ينجُ أحد، وشعر السلطان بالارتياح العميق فأخذ يتلقى التعازي في حزن، ويبحث في قرارة نفسه عن خليفة جديد يكون أكثر طاعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ثلاثة حدادين.. وسلطان

عبر فرسان المماليك ميدان القلعة كالشهب، ودوى ضجيج الصنوج، وأطلق مدفع قديم طلقة وحيدة فوق صخور المقطم، وأغلق الحدادون الثلاثة ورشتهم واتجهوا مع جموع الناس إلى ميدان الرميلة؛ في انتظار أن يهبط موكب السلطان الجديد من القلعة. أخيرًا كف أمراء المماليك عن الصراع، وتم تنصيب سلطان جديد. اسم غريب يسمعه أهل القاهرة للمرة الأولى، تضاف إليه عدة ألقاب فخمة، ولكن رفاقه من الأمراء الذين اختاروه يعرفون ماضيه؛ الوحشية التي تعامل بها مع خصومه، السجن الذي ذاقه، المنفى الذي عاد منه، كل هذا تم نسيانه وهم يفرقون على الأمراء شراب اللوز والفستق ويرفعون رايات ملونة، وفي مقابل ذلك سيهبهم السلطان الأراضي والضياع ليكسب ولاءهم، وعدم خروجهم عليه، كان الحدادون الثلاثة وبقية العامة والحرافيش ينتظرون، يتبادلون النكات حول السلطان حتى قبل أن يروه، هذه وسيلتهم الوحيدة للتعبير عن قلة حيلتهم إزاء كل ما يدور خلف أسوار القلعة، ويعرفون أنهم سيدفعون ثمن هذه التقليدة؛ ضرائب جديدة يفرضها السلطان الجديد لينعش خزائنه الفارغة، لا يوجد سلطان سابق سواء قتل أو عزل يترك خزائنه مليئة أبدا.

فتحت القلعة بابها الكبير، وبدأ موكب السلطان في الهبوط، دقت الطبول في صخب، تنبه الجميع للموكب الحاشد، وللسلطان الضخم فوق جواده، كان ضخما في حاجة إلى فيل يحمله، ولكن الجواد تحمل مصيره راضيا، سار ببطء وهو يحمحم، شاهد الإخوة وجهه الغريب، ولحيته الحمراء غير المشذبة، وشفتيه الضخمتين الشهوانيتيْن، لم يكن وجهه يبشر بالخير. اكتفى الحدادون بما شاهدوه، حان وقت العودة إلى ورشتهم، اقترب وقت الغداء وستأتي أختهم الصغيرة «مريم» حاملة الطعام من البيت. ساروا بخطى متقاربة، كانوا متشابهين، كأنهم ولدوا في نفس اللحظة، تفصل بين ولادتهم شهور، لم ينتظر أحدهم فطام أخيه قبل أن يعلن عن مجيئه. استووا ثلاثة من الرجال الأقوياء في غضون سنوات قليلة، وزاحموا أبيهم في الورشة التي يعمل فيها دون خوف من المعادن المنصهرة ولا من اللهب الذي ينبعث من الكور، ظلوا يضايقونه بشغبهم ومشاجرتهم، رغم ذلك فهموا سر الصنعة، وعندما رحل أبوهم ظل المسبك على حاله وأكثر. أصبح الحديد لينا بين أيديهم، يتشكل مثل عجين الخباز، يصبح سيوفا وسكاكين ومسامير ومقابض أبواب وخواتم للعشاق وقيودا للسجناء وأقفاصا للعصافير وخلاخيل للغيد الحسان، كانوا قساة ولطفاء، أحدهم يغني في الأفراح، وثانيهم يلعب بالعصي، وثالثهم يهوى المصارعة في ساحة القلعة.

لكن أجمل ما في حياتهم بالتأكيد كانت تلك الفتاة الصغيرة الواقفة في انتظارهم حاملة الطعام؛ مريم ذات العينين الواسعتين والصوت الناعس، زينة حي الخليفة المزدحم بالبنات الجميلات، ولا واحدة منهن تضاهيها في جمالها، ولا عريس يرتقي إليها، في الواقع لم يكن هناك عريس يجرؤ على مواجهة هؤلاء الإخوة الضخام واختطاف أختهم الصغيرة منهم حتى بالزواج. كانت تلاحظ عيون الشباب تراقبها من بعيد دون أن يجرؤ أي واحد منهم على مغازلتها أو الاقتراب من طريقها، أحيانًا كانت تحس بالزهو وغالبا بالحنق، خاصة وهي ترى البنات الأصغر منها سنّا والأقل جمالا يظفرن بزوج وبيت مستقل، كانت تشعر بأنها محمية ومحاصرة في الوقت نفسه، تراقبهم وهم يلتهمون الطعام في لقيمات كبيرة، لا يبدو أنهم يضيعون وقتهم في المضغ، أين يمكن أن تجد رجالا أقوياء مثل هؤلاء؟

ولكننها اختفت بعد ذلك بثلاثة أيام، أتى موعد الغداء دون أن تجيء، ارتفع أذان العصر من فوق مئذنة مسجد الخليفة دون أن تظهر، تغلب شعور القلق بداخلهم على الشعور بالجوع، تركوا المطارق ونظروا لبعضهم ساهمين، أين ذهبت الصغيرة؟ هل حدث شيء في المنزل منع خروجها؟ ماذا عن الطريق؟ هزوا رءوسهم معا، لا سبيل لاستكمال العمل اليوم، أغلقوا الورشة وساروا متجاورين في صمت، سلكوا الطريق نفسه الذين يعلمون أن أختهم تسلكه كل يوم، حارة ملتوية تمتد بين بيوت قديمة، حوانيتها نصف معتمة، في الساحة الواسعة التي تؤدي إلى منزلهم وجدوا جمعا من الناس، يدورون حول بعضهم وهم يضربون كفًّا بكفٍّ، تبدو عليهم علامات الخوف وعدم التصديق.

اقترب الحدادون من الجمع الواقف، اخترقوا دائرتهم، على الأرض كانت هناك صينية نحاسية ملتوية، وأطباق محطمة وبقايا طعام متناثر، حدقوا في الجميع خشية أن يسمعوا ما يمكن أن يسيء إليهم، تساءل الأخ الأكبر في تردد: هل هذا طعامنا؟ أفاق الجمع على وجود الثلاثة بهيئتهم المتشابهة، ماذا حدث؟ تساءل الأخ الأوسط: ماذا حدث هنا؟ كان يجب أن يسأل رغم أنه يعرف أن الإجابة ستكون قاسية، قال أحد الواقفين: إنهم مماليك السلطان، الفرسان الجراكسة مرة أخرى، هاجموا فتاة صغيرة كانت تحمل الطعام فوق رأسها واختطفوها.

شهق الإخوة الثلاثة، ألحوا في السؤال عن صفاتها، وصفها أحدهم بدقة، تعود أن يراها كل يوم في ذات الموعد، كيف أحاط بها الفرسان؟ كيف دارت وصينية الطعام فوق رأسها؟ صرخت وقاومت وبكت، وحاول بعض المارة التدخل، ولكن الجراكسة هددوهم بالسيوف، ورفعها أحدهم ووضعها أمامه على الجواد وأسرع بها نحو القلعة، هكذا خطفوها نهارا جهارا أمام أعين الخلق أجمعين.

تحرك الإخوة الثلاثة مفزوعين، وفي البيت كانت الأم وحدها، تنتظر عودتها دون جدوى، سمعت بما حدث ولكنها لم تتصور أن ما حدث هو لابنتها. عادوا يجرون مرة أخرى صعودا على الطريق إلى القلعة. كان المساء يقترب، والعتمة تكسو أسوارها شيئا فشيئا، تحولت إلى كتلة هائلة رابضة فوق قلب المدينة، بابها مغلق والحرس يقفون أمامها، رفعوا حرابهم ووجهوها إلى صدور الإخوة وأمروهم بالعودة، صرخ أحدهم يطلب من الحرس أن يردوا لهم أختهم، ولكن الحرس لم يفهموا، صرخوا في وجوههم وهددوهم بالقتل لو عاودوا الاقتراب. كانت الأسوار عالية، والغربان تحوم حول المكان، ومهما صاحوا أو صرخوا فلن يستمع إليهم أحد، انصرفوا مخذولين منكسي الرءوس، وكان أهل الحي جالسين في انتظارهم. انتشر الخبر وتأكد الجميع أن مريم هي المخطوفة، شاهدوا العيون التي تتابعهم في إشفاق، وسمعوا كلمات العزاء. أحس الثلاثة بالعار الذي يلفهم، بشرفهم الضائع الذي لم يستطيعوا الدفاع عنه، تقوضت هيبتهم في ضربة واحدة.

أغلقوا عليهم بابهم، وظلت القناديل مشتعلة طوال الليل، ولم تتوقف أمهم عن البكاء، قبل أن يؤذن لصلاة الفجر، وقبل أن يلمحوا الشفقة في عيون أحد، غادروا المنزل صعودا إلى القلعة من جديد. كان الحرس بنفس وقفتهم المتحفزة، ولكن ما إن ظهرت الشمس حتى دبت الحركة في المكان، فتح الباب الكبير ولكن الحرس ظلوا يوجهون رماحهم نحوه، ركض بعض الفرسان خارجين، ودخل غيرهم، أقوياء ومستنفرين لا يستمعون لأي شكاية. أحس الإخوة بأنهم مستضعفون وسط هذا الحشد من أصوات سنابك الخيل وصليل السلاح، اقتربوا أكثر، حاول الحرس تهديدهم فأصروا على الوقوف ومواصلة الصياح. أخيرا خرج رئيس الحرس في جولته اليومية ليتفقد الأسوار، وعندما سمع

الصيحات اتجه نحوهم، توقف يستمع إليهم بينما يحمحم الجواد من تحته، استمع بنفاد صبر إلى حكاية الأخت المختطفة على أيدي المماليك الجراكسة. لم يبدُ مندهشا ولم يحاول إنكار الواقعة صاح فيهم: احمدوا الله أننا أنقذناها من طين الحواري وصعدنا بها إلى قصر القلعة، بدلا من أن تندبوا عليها، عليكم أن تهنئوا أنفسكم بحظها.

نظروا جميعا لبعضهم مندهشين، وقال أكبرهم: هذا شرفنا.

قال رئيس الحرس في صوت باتر: لا يوجد شرف عند الحرافيش.

فرقع سوطه في الهواء وأمر الحراس بإبعادهم وإلا سحبوهم إلى سجن القلعة. قضيَ الأمر، نظروا للأسوار العالية التي تقف حائلا بينهم وبين أختهم، ظلوا يدورون حولها في يأس وعجز، محكمة البناء، مستقرة فوق صخرة جرداء من الصعب تسلقها، وهناك أبراج حراسة فوق كل جزء فيها، ظلوا يواصلون المشي في ذهول، ثم عادوا منهكين، عاجزين عن الكلام حتى مع أمهم أو مع بعضهم البعض، لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يخرجوا للعمل، ذهبوا للجامع الأزهر توسلوا لكبار المشايخ وللوالي والقاضي لعل أحدهم يطلع للقلعة ويعود بأختهم، ولكن الجميع أكدوا لهم أنه لا تفاهم مع المماليك الجراكسة.

ظلت الورشة مغلقة، ولكن الأم هي التي طلبت منهم الخروج جميعا وفتح الورشة، كانت قد أقلمت نفسها على أنها قد فقدت مريم، ولا داعي لأن تفقد أولادها الثلاثة أيضًا. ساروا صامتين منكسي الرءوس، لم يلقوا التحية على أحد، ولم يردوا تحية أحد، فتحوا الورشة وأشعلوا نار الكور وأخذوا يدقون قضبان الحديد بقوة، لكنها لم تلن لهم كما هي العادة، عند الظهر توقفوا مجهدين، كان هذا موعد الطعام، لكنها لم تأتِ، شعروا بذنب مفاجئ، كانت بطونهم التي لا تشبع هي السبب فيما حدث لأختهم، هي التي أخرجتها من خدرها كما يليق بالبنات إلى الطرقات الخطرة والمماليك الشرهة، وهكذا أصبح عقابهم يومًا كاملًا من الجوع، وحتى عندما كانوا يعودون للبيت الصامت لم تكن شهيتهم تأخذهم لأي طعام، ضاعت بهجة وجود مريم بينهم، لم يتصوروا أن تعود الحياة إلى طبيعتها من جديد.

وفي يوم شتوي بارد عادت مريم، خرج الإخوة كعادتهم قبل أن يستيقظ الناس، وجدوا كائنا ضئيلا مكوما أمام باب الورشة، أطرافها عارية وزرقاء، لمسها الأخ الأكبر فارتعدت وأجهشت بالبكاء، ما زالت حية على الأقل. فتحوا الورشة بسرعة وحملوها للداخل ثم أغلقوا الباب من خلفهم، أسرع واحد منهم إلى إشعال كور النار، من أجل قليل من الضوء وبعض من الدفء. أجلسوها على كومة من القش في أحد الأركان، وانعكس ضوء اللهب على وجهها الصغير الجميل فبدا مليئا بالجروح، وكذا الأمر في رقبتها وذراعيها، جروح خلفتها أظافر حادة انغرست في جلدها، ظلوا حولها دون أن يجرءوا على لمسها، منتظرين أن يمنحها الدفء بعضا من الحياة فتصبح قادرة على الكلام، وأخيرًا فتحت عينيها الواسعتين وحدقت فيهم جميعا قبل أن تهمس: سوف تقتلونني، أليس كذلك؟

مد الأخ الأكبر يده وأعاد ترتيب شعرها في رقة وربت على خدها فتأوهت متألمة، قال في هدوء: نحن نعرف أن كل هذا كان رغما عنك، نحن سعداء لأنك عدتِ، من فعل بك ذلك؟

قالت في همس خائف: السلطان وليس أحد غيره، قادوني إلى فراشه منذ اليوم الأول، حاولت أن أقاومه، أن أعضه، ولكنه كان ضخمًا وقويًا، وكلما قاومت كانت رغبته تتزايد. كان الأمر مؤلما، عذابًا لم أتصور أن أشعر به قط، هذا الجسد لم يعد جسدي، إنه مليء بالكدمات، كل حركة تؤلمني، ارحموني وخلصوني منه.

مرة أخرى تعاود البكاء، يداهمهم شعور العار من جديد، أختهم الصغرى المسئولة منهم، اختطفت واغتصبت وهم جالسون عاجزون. تنظر في وجوههم، خائفة ومتوسلة، يقول الأخ الأكبر: لماذا تركوكِ إذن؟ تقول: قذفوا بي من باب القلعة، وتلمست طريقي حتى جئت إلى هنا. هناك بنت جديدة اختطفها مماليك السلطان ستحل محلي، السلطان لا يشبع، وهو لا يهوى إلا فتيات البلد، هكذا قالت لي الجواري.

كانت حرارة كور النار قد ازدادت وأصبح الجو خانقا، ولكن لم يجرؤ أحد على فتح الورشة ومواجهة ضوء النهار، وأخيرًا اتخذ الأخ الأكبر قراره: لن نقتلكِ، لن نجرؤ على ذلك، سننتظر حتى يأتي الظلام ونلفك في عباءة ونعود بك للبيت، بعد ذلك لن تغادريه أبدًا.

بعد الغروب بقليل لفوها في عباءة، وساروا بها عبر الحواري المظلمة، ولكنها لم تكن تقوى على السير، حملها أحدهم على كتفه، أغلقوا الباب خلفهم بإحكام، وطلبوا من الأم أن تخفض صوتها وتكف عن البكاء، لن تخرج مريم من البيت إلا بعد أن تموت الفضيحة أو تموت هي، مريم كانت الأسرع، عندما دخلت أمها إلى غرفتها في الصباح، وجدتها متخشبة في فراشها، جف ماء الحياة من جسدها، لم يعد فيه مكان للروح فغادرته متعجلة، تركت خلفها جسدا متيبسا فوق فراشها التي تعودت النوم عليه وهي صبية، صرخت الأم وبكى الإخوة الثلاثة في صمت، غادرتهم زهرة الحياة، اختفت طلعتها الصبوحة التي كانت تضيء جوانب البيت. كفنوها وحملوا جسدها الضئيل إلى القرافة، لم يعلنوا عن وفاتها ولم يقبلوا فيها العزاء، لم تمت ولكنها قتلت بدم بارد، وكانوا يعرفون القاتل ولكنهم لا يستطيعون الوصول إليه.

لم تعد الفضيحة تخص مريم وحدها، انتشر المماليك الجراكسة في حواري المدينة كالطاعون، في كل حين من الزمن يختطفون بنتا جديدة، يصعدون بها للقلعة رغم أنف الجميع، بدا أن السلطان شرهٌ لا يشبع، في حاجة لا تهدأ لأجساد العذارى، كأن هذا إثباته الوحيد أنه أصبح سلطانا، تناهت الأخبار للإخوة وهم يواصلون العمل، كانوا يعيشون في مأساتهم الخاصة، لم يغب جسد أختهم المتيبس عن أنظارهم قط، وكان العمل قد قلَّ لدرجة كبيرة غير كافٍ لشغلهم، والمدينة تعيش رعبها الخاص، والطرقات أصبحت خالية من النساء، وبدأ الجراكسة يكبسون على البيوت التي تخبرهم عيونهم بأنه بوجد فيها عذارى، لا يوجد ما يوقفهم أو يشبع نهم السلطان الذي تحول إلى كابوس رابض على صدر المدينة، ولا يبدو أنه سينزاح.

ثم فوجئ الحدادون الثلاثة بواحد من الطواشية يدخل ورشتهم، بينما ظل اثنان من المماليك خارج الورشة، وقف أمامهم بلونه الأسود وزيه الأزرق وعمامته البيضاء، علامة مميزة لخدام القلعة، أول ما خطر ببالهم أن يهووا على رأسه بقضيب من حديد، ولكنه كان مجرد خصي مسكين، استؤصلت رجولته منذ الطفولة، ولا يملك إلا الطاعة لأسياده. نظر إليهم وهو يقول: قالوا لنا إنكم أمهر الحدادين

في القاهرة كلها؛ لذلك جئنا إليكم. ظلوا ينظرون إليه صامتين، عاد يقول: إنها الساقية الكبرى التي ترفع المياه من النيل إلى مجرى العيون، مكسورة عاطلة، ولا بد من إصلاحها سريعا. ظلوا صامتين، مترددين، وقال الطواشي: ليس لدينا وقت نضيعه، لو توقفت هذه الساقية فسوف تعاني القلعة كلها من العطش، هيا اجمعوا أدواتكم واتبعوني. أشار الأخ الأكبر للأخوين، بدآ يجمعان المطارق والأزاميل والمسامير ذات الرءوس الضخمة، ركب الطواشي بغلته، وساروا خلفه، وسار خلفهما المملوكان إلى المنطقة التي يبدأ منها مجرى العيون عند النيل.

كان النيل غائضا، لا توجد فيه إلا قوارب صغيرة لا تجد ما تصيده، والساقية الضخمة مكونة من عجلة هائلة معلق فيها عشرات القواديس، تجرف ماء النيل وترفعه إلى أعلى لتصبه في مجرى العيون، والمجرى نفسه مبنيّ من الأحجار ممتد وملتوٍ، مرفوع عن الأرض بأقواس حجرية، يبلغ أقصى ارتفاع له على نقطة البداية عند ضفة النيل، ثم ينحدر ببطء عابرا الشوارع والساحات؛ حتى يصب في القلعة، من خلال فتحة في جدارها، إلى البئر الضخمة التي أنشأها السلطان الكبير يوسف صلاح الدين. كانت الساقية معطلة، انصرف العمال الذين كانوا يدفعونها، بعد أن اكتشفوا أنها لا ترفع إلا القليل، ومعظم الماء يتسرب قبل أن يصل إلى أعلى. منذ النظرة الأولى اكتشف الحدادون العيب، أشاروا للقواديس المثقوبة والتالفة، قال الأخ الأكبر: يبدو أنه عيب قديم، كيف كانت البئر تمتلئ في الشهور الماضية؟ قال الطواشي: كنا نعتمد على السقائين. لم يهتم السلطان السابق، ولكن السلطان الجديد يريد أن يطمئن أن الماء متوفر داخل القلعة على الدوام، وماذا ستفعلون، وكم يستغرق هذا من الوقت؟ قال الأخ الأكبر: بأسرع ما يمكن، كلما انتهينا من صنع القواديس فسنعود لتركيبها. سنذهب للورشة ونعود إلى هنا، ولكن يلزمنا المال لنشتري ما يلزم. ألقى لهم الطواشي بكيس من المال، أقل مما يلزم، ولكن هكذا شغل المماليك.

عندما أصبحوا وحدهم أخيرًا صاح الأصغر: لماذا نصلح هذه الساقية اللعينة؟ لماذا لا نتركهم يموتون عطشا؟

قال الأكبر في هدوء: سيجدون صناعا غيرنا، سيجدون عشرات الصناع.

ولكن الأخ الأوسط قال فجأة: مجرى العيون هذا يمكن أن يقودنا إلى داخل القلعة.

التفتوا إليه في دهشة، ولكنه هزَّ رأسه مؤكدا على كلماته، فكرة مجنونة ولكنها قابلة للتنفيذ، لن تقودهم فقط للقلعة ولكن لفراش السلطان نفسه، عاد الأصغر يهتف معترضا: وماذا سنفعل في فراشه؟ قال الأوسط: سنظفر بثأر أختنا، وثأر لبقية بنات الناس.

ساد الصمت، كل واحد كان يقلب الفكرة في رأسه: وماذا لو غرقنا جميعا في البئر؟ قال الأوسط في تردد: أعرف أنها مجازفة، لكننا نجيد السباحة، والبئر ضحلة هذه الأيام والنيل منخفض، لو كانت البئر ممتلئة ما جاء الطواشي إلينا.

وبدءوا يناقشون الفكرة بجدية. لم يكن أحد منهم قد رأى البئر قبل ذلك، لكن الذين شاركوا في إصلاحها تحدثوا عنها كثيرًا، كانت بئرا متسعة، عميقة، فيها درج داخلي ضيق، لا أحد يدري بالضبط على أي ارتفاع، ولكن المشكلة الحقيقية هي كيفية الوصول إليه.

لم يفكروا في العودة للبيت، أغلقوا الورشة على أنفسهم وأخذوا يفكرون بصوت مسموع، يحولون الفكرة المجنونة إلى خطة قابلة للتنفيذ، تذكروا جسد أختهم اليابس الذي غادرته مياه الحياة، وكل بنات الناس اللواتي لاحقتهن الفضائح، ولكن المشكلة ظلت قائمة، كيف يصعدون من أعماق البئر إلى ظهر الأرض؟ وقال الأصغر فجأة: فلنصنع كلابات، نغرسها في حائط البئر ونصعد بواسطتها، قال الأخ الأكبر في خوف: هل نقدر على ذلك؟ ربما نقدر على صنعها وإحكام مقبضها، ولكن هل نقدر على التسلق بواسطتها؟ قال الأصغر: ليس أمامنا غير صخور جبل المقطم للتدرب على ذلك.

في اليوم التالي استخدموا النقود التي أعطاها الطواشي لهم في شراء أسياخ من الحديد، كانوا يعرفون تاجرًا روميًّا يبيع أجود الأنواع وأخفها وزنا، عادوا للورشة ليجعلوا طرفها محنيًّا وسنونها رفيعة وملوية، صعدوا بعد ذلك للمقطم، إلى إحدى هضابه النائية، اختاروا واحدة من الصخور الوعرة وأخذوا يتدربون عليها، يصعدون فوقها فقط بواسطة الكلابات. لم يكن أمرا سهلا، ولم تكن أجسادهم بالمرونة الكافية لمنحهم القدرة على التسلق، في كل لحظة كانوا معرضين لأن تتخلع الكلابة من موضعها وتتسبب في سقوطهم على الأرض، ولكنهم واصلوا التدرب في إصرار، عادوا للبيت بعد نهاية اليوم وأيديهم مليئة بالجروح وثيابهم متربة وممزقة، لم ترهم الأم، كانت في غرفتها غائبة عن العالم منذ أن غابت ابنتها تحت التراب. عادوا للتدريب في اليوم التالي والذي يليه، وطمأنوا الطواشي حين جاء يستعجلهم، كان عليهم أن يقوموا بالمهمة قبل أن يحضر صناع آخرون ويجعلون الساقية تدور.

اختاروا يوم الجمعة، نهارا في وقت الصلاة، من المستحيل أن يلقوا بأنفسهم في البئر في أثناء الليل، كانوا في حاجة لبصيص من الضوء الذي يأتي من أعلى ولو كان شحيحا، ارتدوا ملابس داكنة، لونها أقرب ما يكون للمجرى الحجري، وصلوا للساقية في الصباح قبل أن يحضر أحد من العمال أو الحرس، ربط كل واحد منهم الكلابات حول وسطه بحيث يصبح من السهل إخراجها وسط الماء، تسلقوا أعمدة الساقية إلى نقطتها الأعلى، ثم قفزوا منها إلى مجرى العيون، أصبح النهر في ظهورهم والقلعة في وجوههم، والمقابر على يمينهم مترامية الأطراف، لا حدود للموت وربما يكون هذا مصيرهم قريبا. ظلوا يجدون في السير، يحنون رءوسهم بحذر في كل حين، عندما ظهر سوق صغير للخضار، وعندما بدت مئذنة أحد المساجد، والمجرى الجاف لا يكف عن الانحدار والانحناء وهو يتجه نحو الأسوار التي بدت من بعيد سامقة ومنتصبة. واصلوا الاقتراب في حذر، خائفين من أن يلمحهم الحراس من فوق السور، وظل المجرى يقودهم للأسفل، يغوص في جوف الصخرة التي تنتصب عليها القلعة، عندما أصبحوا مباشرة تحت الأسوار ظلوا كامنين في صمت، ارتفع صوت أذان الجمعة من مسجد قريب، انتظروا حتى انتهى تمامًا وبدا أن الحراس قد انصرفوا للصلاة، نهضوا واندفعوا إلى الفتحة المظلمة في أسفل السور، اندفعوا نحو المجهول، انحنوا وهم يعبرون من تحت أحجار السور، تركوا الضوء خلفهم ودخلوا في عتمة رطبة، غاصت الأرض تحت أقدامهم، في الطين المتراكم الذي حملته تيارات الماء، هب عليهم هواء رطب وثقيل ومخزون منذ الأبد، ازداد الصمت واختفت ضجة العالم وهم يتقدمون، لا يسمعون غير صوت أنفاسهم اللاهثة، والممر الزلق يقودهم رغما عنهم إلى الأسفل، لا سبيل للتوقف أو العودة، أخذوا يلهجون بآيات القرآن المختلفة، ويعيدون كلمات الشهادة، ثم انزلقت أقدامهم للمرة الأخيرة ووجدوا أنفسهم في الفراغ، فراغ مطلق ومظلم وبارد، بدا أن أرواحهم قد غادرتهم متجهة إلى أعلى بينما تهوي أجسادهم للأسفل. لا أحد

يدري كم دقيقة مضت وهم معلقون في ذلك الفراغ والموت يشدهم للأسفل، كانت خطة مجنونة وهذه أكثر لحظاتها جنونا، أخيرا أصدرت أجسادهم صوتا عاليا وهم يصطدمون بالماء، يغوصون في برودته القاتلة، أحسوا بأنهم يلامسون القاع، تلتف الطحالب حول أقدامهم، كأنها ثعابين باردة، ضاقت صدورهم وأوشكوا على الاستسلام للقبضة الباردة التي تحيط بهم، ولكن بدافع من بقايا الحياة أخذوا يحركون أطرافهم بشكل عشوائي، نفضوا الطحالب التي تشدهم للأسفل وبدأت أجسادهم في الطفو، انزاحت المياه عن رءوسهم واستطاعوا أن يلتقطوا بعضا من الأنفاس، كانت الكلابات المربوطة حول وسطهم خفيفة فلم تكن عائقا، صاحوا ينادون بعضهم البعض، ورددت البئر أصواتهم عشرات المرات، ومن أعلى تسللت بقعة من الضوء الواهن، وبدت لمحة غائمة من السماء البعيدة، تقاربت رءوسهم وهم لا يكفون عن تحريك أطرافهم، قال الأخ الأكبر: علينا أن نقترب من حائط البئر ونبدأ في التسلق، يجب أن نصل للدرج المؤدي للأعلى.

اختاروا أحد الجدران، تحسسوها ليروا مدى تماسكها، كان مبطنا بالصخر تغطيه طبقة من الطين، صخر رطب وذائب، لم يتحمل الضربات الأولى للكلابات فأخذ يتفتت مع كل ضربة، وفي كل مرة كان أحدهم يرتفع قليلا، كان يعاود السقوط في الماء، ولكن مع انهيار طبقة الطين بدأت الكلابات تنشب أطرافها الحادة في الصخر. ببطء ارتفعت أجسادهم عن سطح الماء، تسلقوا مثل ديدان صغيرة على جدران البئر العملاقة، وامتلأت البئر بأصوات لهاثهم وتأوهاتهم، ضخمها وأعادها الصدى عشرات المرات. ومن الغريب أن بقية من في القلعة لم يسمعوا تلك الضجة المصحوبة بالصدى من أعماق البئر، واصلوا رشق الكلابات والصعود ذراعًا بذراع، كل واحد في ناحية من نواحي البئر، للحظة بدا كل شيء عبثيًّا وبلا نهاية، ومع الارتفاع ازدادت مشقة الصعود، مرة أخرى يصبحون معلقين بين الحياة والموت، ولكن ليس في إمكانهم التراجع، وأخيرًا صاح الأخ الأصغر وهو يشهق: لقد وجدت بداية الدرج، أوشكوا على البكاء، وبدءوا يضربون الكلابات بعزيمة أشد وهم يتجهون نحوه.

تشبثوا بالدرج الحجري الزلق، زحفوا إليه واحدا بعد الآخر، ارتموا عليه وبات في إمكانهم أن ينظروا للسماء وقد أصبحت أقرب، والضوء قد أصبح أقوى، وبعد فترة واصلوا الزحف على الدرج، كان زلقا وبلا سياج، وأي حركة خاطئة ستجعلهم يهوون إلى الأسفل، ولكن بعد ذلك أصبح الصعود أكثر سهولة، لم يعد الدرج بلا سياج، أصبح محميًّا بجدران مستديرة تطل على البئر من خلال فتحات متتابعة. واصلوا الصعود فوق درجات لا يعرفون عددها، وأخيرًا وصلوا للفتحة والشمس على وشك الغروب، جلسوا منهكين بجانبها، حتى الآن لم يرهم أحد، وكانوا أحياء وداخل القلعة.

ظلوا في الانتظار حتى حلَّ الظلام تمامًا، بدءوا في التحرك وكل واحد يقبض على كلابته الحديدية، سلاحه ووسيلة إنقاذه، كانت ساحة القلعة مضاءة بالمشاعل المعلقة على الأعمدة والجدران، لا تكف ألسنتها عن التراقص مع الريح، يتداخل الضوء مع الظل، والحراس يتجولون في بطء وهم يحدثون بعضهم البعض. الأسوار المنيعة التي تحيط بهم كانت تمنحهم نوعا من الاطمئنان، لا أحد منهم يتصور أن ينجح أحد في العبور من خلفها، مثل كل القلاع كانت تمثل الحماية المطلقة. بدءوا يخطون خلف الظلال، يتسللون بمحاذاة الجدران، يتخفون في أركان الساحة ويتسربون داخل الأروقة المغطاة ويختبئون خلف الأعمدة. رحلة استغرقت ساعات طويلة من الترقب والخوف والاختباء. لم يكونوا

يعرفون أين قصر السلطان، ولكنهم سمعوا الكثير عن أوصافه؛ القصر الأبلق الذي يكسوه الرخام الأبيض والأحجار السوداء، وتحيط به حديقة تشبه الفردوس، ويوجد في الجهة الغربية من القلعة. ظلوا يتقدمون حتى شاهدوا جدرانه الخارجية التي تخطف الأبصار، مشاعل كثيرة تحيط به تجعله متوهجا باعثا على الرهبة.

ظل الثلاثة مختبئين يراقبون حركة الحرس، كانوا يرتجفون من برد الليل ومن بلل ثيابهم ومن فرط الترقب والخوف من الانكشاف، ولم يصدقوا أعينهم عندما ابتعد الحرس قليلا؛ ربما ليأخذوا قسطا من النوم. تركوا المدخل خاليا، اندفع الثلاثة نحوه مثل ذئاب جائعة، وجدوا أنفسهم فجأة داخل قصر السلطان بعد أن كانوا على وشك الغرق، ممرات خالية وأروقة صامتة وغرف موصدة الأبواب، لا بد أنهم ينامون مبكرا، لم تكن هناك مشاعل، ولكن شموع عديدة تفوح منها رائحة عطرية تعبق الهواء، كانت الأروقة كثيرة ومتشعبة، لم تكن خالية تمامًا، كانوا يسارعون بالاختباء كلما مرَّ خادم أو جارية. لم يكن هناك حراس في الداخل، كان المكان في مأمن من أي دخيل، من يجرؤ على اقتحام عرين السلطان؟

دخلوا إلى إيوان ضخم، يتصدره مقعد مطعم بالذهب بفصوص الجوهر، تتناثر حول الأرائك والحشايا، قال الأخ الأكبر: هذا هو العرش، وهذا مجلس السلطان، ولا بد أن غرفته قريبة من هنا.

نظروا إلى الأبواب المطلة على القاعة واختاروا أكبرها، كان يشبه مقعد العرش مطعما بفصوص الجوهر والذهب، دفعوه ودخلوا إلى غرفة واسعة تضيئها الشموع وتتسدل على نوافذها ستائر من حرير، ولكنهم لم يهتموا إلا بالفراش الضخم الذي يتوسطها، بالجسد الضخم الملقى عليه والذي يصدر عنه شخير عالٍ، اقتربوا منه بحذر وحدقوا في وجهه وفي لحيته الحمراء المتوهجة، كان هو السلطان الذين شاهدوا موكبه؛ الهدف الذي جاءوا من أجله، قال الأخ الأصغر: فلنقتله، قال الأكبر: جئنا لنعاقبه لا لنغتاله، يجب أن يعرف لماذا جئنا.

في هذه اللحظة فتح السلطان عينيه وبحلق فيهم مرعوبا، لم يحاول أن يتحرك أو يصرخ، نظر إلى هيئتهم الرثة المبللة، ووجوههم الغريبة، كيف جاء سكان الحواري إلى قصر السلطان؟ قال لهم مندهشا: كيف جئتم إلى هنا؟ كيف دخلتم القلعة؟

قال الأخ الأكبر: عن طريق البئر؛ بئر يوسف.

هز السلطان رأسه في استسلام: كنت أعرف ذلك، قالت لي العرافة إنني سأحكم النيل ولكن سوف يأتيني منه الموت، لقد ابتعدت عنه طوال عمري، ولكن ها هو يأتي إلى حافة فراشي.

قال الأخ الأكبر: ليس النيل وليست العرافة، ولكن أعراض الناس التي انتهكتها، وأختنا التي قتلتها، قال: ولكنكم تعرفون أنكم لن تخرجوا من هنا أحياء، قال الأوسط: يكفينا حياتك ثمنا لذلك. حاول السلطان أن ينهض من الفراش، أن يصرخ عاليا، ولكن الأكبر هوى بالكلابة الحادة على رأسه، وهوى الأوسط على عنقه، ورشق الأصغر كلابته في صدره، وشهق السلطان وانتفض جسده، وظل ينتفض حتى سكن تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

من دفاتر المقريزي

أحس «المقريزي» بكلابة الحديد وهي تخترق ثيابه، وبسنها الحاد وهو يمرق في ظهره، وقبل أن يفطن لما حدث وجد نفسه يرتفع من على الأرض والدفاتر تتساقط من يده. يا خفي الألطاف، نجنا مما نخاف. هناك من يجذبه من أعلى، من فوق الجدار الذي كان يسير بجانبه، أحس بأن ثيابه تضيق حول عنقه وتوشك أن تخنقه، لم تتمزق ولم يسقط أرضا، وجد نفسه فوق سطح المنزل وشخصان غليظا الملامح يطلان عليه من أعلى. حالما استرد أنفاسه صرخ فيهما: لماذا تفعلان بي ذلك؟

اقترب أحدهم من وجهه: ألم تفهم بعد؟ لقد اصطدناك.

تقدم الثاني، كان يحمل سكينا بالفعل، وقال في صوت كالفحيح: نحن لم نأكل منذ أربعة أيام.

لم يكن يبدو جائعا، ولكنه شرس ومهدد. شعر المقريزي بخوف حقيقي: هل تنويان أكلي؟

قال الأول: ماذا تفعل لو كنت مكاننا؟

على الأقل كان واحد منهما يحب النقاش، لم يبدُ جائعا بدرجة مميتة، قال: أعرف أن المجاعة قد طالت الجميع، ولكن كان عليكما أن تحسنا الصيد، ألم تلاحظ حالة الهزال التي أنا فيها؟

أومأ الأول موافقا: فعلا، شعرت بأنك خفيف جدًّا ونحن نرفعك.

ولكن الثاني رد معترضا: ولكننا لم نجد أفضل منك اليوم، ولم يعد لدينا مجال للصبر.

وبدأ يسن السكين، ولكن المقريزي لم يفقد الأمل: ستكون عظامي جافة ولحمي مُرًّا، أنا أدرى بحالي. شخص مثلي يحب العزلة، ولا يجيد غير الكتابة، ماذا تتوقعان أن يكون طعمي؟

ولكن الأول قاطعه في اهتمام: ماذا تكتب بالضبط؟

قال: تاريخًا؛ تاريخ هذا البلد التعيس الذي لا ينهض ولا يموت. وليست هذه أول مجاعة تمر بنا، ولن تكون آخرها، لقد رصدت في كتابي ٢٦ مجاعة على هذه الدرجة نفسها من الشدة.

صاح الثاني حتى يوقف النقاش: وماذا استفدنا من ذلك؟ ما زلنا جوعى ولا بد أن نأكل.

ولكن المقريزي ظل مصرًّا على الكلام: أن نأكل بعضنا البعض ليس حلّا، علينا أن نعرف سبب هذه المجاعة حتى لا تتكرر.

قال الثاني في سخرية: وما السبب يا فريد عصرك؟

شعر بالراحة لأن الثاني أخيرًا اشترك في الكلام وكف عن التهديد بالذبح: إنهم الحكام، المماليك الذين يسكنون القلعة، لقد أغلقوا أبوابها الآن على أنفسهم بعد أن خزنوا كميات كبيرة من القمح والطعام، وتركونا هنا في الأزقة نتصارع على الفتات.

قال الأول: وهل تتوقع مني أن أذهب لأكل السلطان؟ أنت تعرف أنه من المستحيل الوصول إليه أصلا.

قال المقريزي: حتى لو أكلتموني اليوم، فماذا ستفعلون غدا؟

زفر الثاني أنفاسه وعاد لسن السكين: يفرجها ربنا.

عاد المقريزي يقول في يأس: لديَّ اقتراح آخر، تعالا معي إلى البيت.

قال الأول في تشكك: أنت تستدرجنا لفخ ما، أليس كذلك؟

قال: كلا وأقسم على ذلك، ولكن زوجتي سمينة جدًّا وضخمة الحجم، وقد أوصدت بابها ولا تخرج من البيت تقريبا. في الأيام العادية كانت تأكل كل الطعام ولا تترك لي إلا أقل القليل، ستجدانها شهية ومشبعة.

نظرا لبعضهما البعض، ثم نظرا إليه، لم يكن المقريزي إلا كومة عظام هرمة متكومة أمامهما، ولكن اقتراحه كان وجيها.

قال الأول مستفسرا: وهل ستفتح لنا الباب؟

قال المقريزي: طبعا ستفتح حين أكون معكما.

قال الثاني: وأنت، ماذا ستفعل إذا بدأنا في أكلها؟

قال: ربما أشارككما الطعام، أنا أكثر جوعا منكما.

قال الأول مندهشا: ألا تحبها؟

أكد المقريزي: أحبها طبعا؛ لذلك سأحتفظ بها في بطني.

بعد مناقشة قصيرة بينهما اقتنع الشخصان وهبط الثلاثة معا، لم يكن يعرف اسميهما، ولم يكن ذلك مهمًّا، الشوارع خالية لا توجد جثث ملقاة، فقط روائح العفونة هي الباقية، لا قطط، لا كلاب ضالة، كل هذا تم أكله، الفئران تحمل الطاعون وتواصل الاختباء، هذا ما يحدث في كل مجاعة، ورغم تكرارها تفاجئهم المجاعة وتحصد الآلاف من الأرواح قبل أن تمضي، المرة النادرة التي استعد فيها المصريون للمجاعة كانت عند بزوغ فجر الزمان، عندما استعد نبي الله يوسف وخزن القمح في السنوات السبع السمان قبل أن تأتي السنوات السبع العجاف، غير ذلك كان الحكام والتجار يتحكمون في المصائر، يخبئ الحكام أقواتهم في القلعة ويخزن التجار بضائعهم في الأقبية، ويتركون الناس يموتون في الطرقات، حاكم واحد لم يرضه ذلك، الحاكم بأمر الله سيئ السمعة، أخرج كل ما في مخازن القلعة من قمح، ولما لم يكن كافيا ركب بغلته وأخذ يطوف في الأسواق وخلفه تابعه برجوان، يفتش في دكاكين ومخازن التجار، كل من وجد عنده بضاعة مخزنة أو يغالي في الأسعار يأمر برجوان بعمل الفاحشة فيه فورا وعلى رءوس الأشهاد، كان هذا حلًّا ناجزًا، أصبح كل التجار يخشون الفضيحة، وعلى الفور أخرجوا بضائعهم وعدلوا أسعارهم، غير ذلك ظل بقية الحكام على الدرجة نفسها من الأنانية والشح.

وأخيرًا بعد سير قصير وحزين بين الحواري المقفرة وصلوا إلى بيت المقريزي، طرق على الباب ومن الداخل جاء صوت الزوجة من الداخل يسأل في قوة عن الطارق، اهتز الرجلان من قوة

الصوت، ولكن باب المنزل فتح، دخل المقريزي وأشار لهما بالدخول، كانت الزوجة تقف بجرمها الفارع في مدخل المنزل، تطلعا إليها في خشية وهما يدخلان، أشارت نحوهما وهي تسأل المقريزي: من هذان؟

قال: لا أعرفهما جيدا، ولكنهما جائعان وجاءا هنا حتى يأكلاكِ.

لم تسأل أو حتى تستفهم، ولكنهم جميعا فوجئوا بها وهي تمسك مقلاة من الحديد الزهر، لا أحد يدري كيف وصلت ليدها بهذه السرعة، هوت بها على رأس الأول ثم الثاني. ترنحا معا في رعب، وسقطت السكين من يد الثاني، وقبل الضربة الثانية أسرعا بالهرب، وأسرعت هي خلفهما، وظل المقريزي واقفا في مكانه حتى عادت إليه وهي تلهث وتقول: لو أنني أمسكت بهما لمزقتهما بأسناني.

قال المقريزي: الله وحده هو الذي أنقذهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابن خلدون.. عاشق التتار

أصلا.. لم يكن يريد أن يكون في هذا المكان ولا في هذه المدينة في مثل هذه الظروف، كيف يسير المرء بقدميه إلى مدينة محاصرة؟ يجتاز «ابن خلدون» شوارع دمشق الضيقة وهو يعلم أن التتار موجودون خلف الجدران، متأهبون للانقضاض عليهم في أي لحظة، لا يدري ما الذي يؤخرهم، ولا إذا كانوا سيتركون أحدا على قيد الحياة أم لا، همهم لنفسه مؤكدا: سيفعلون بنا كما فعلوا بحلب، سيقتلون الجميع وسأكون أنا أولهم. كان مفزوعا وحتى عندما سار في أروقة المسجد الأموي لم يغادره فزعه، وجد فقهاء دمشق يجلسون في حلقة في باحة المسجد فانضم إليهم، كانوا يتحدثون مثل الجميع حول تسليم المدينة لتيمورلنك، لا مفر من ذلك خاصة بعد أن تخلى عنهم جيش المماليك، كان هو واحدا من الذين تخلى عنهم الجيش.

من أيام قليلة كان يعيش في مصر آمنا، منذ أن غادر تونس وهو يعمل قاضيا وفقيها في الجامع الأزهر، ولكن عندما سقطت حلب في يد التتار وأحرقوها، أدرك السلطان فرج بن برقوق أن دمشق ستكون التالية وكان عليه أن يهب لنجدتها، لم يجمع المحاربين من جيشه فقط ولكنه أصر على جمع لفيف من الفقهاء أيضًا، وعبثا حاول ابن خلدون الاعتذار عن السفر معهم، فهو مجرد رجل فكر وقلم ودواة ليس له في الحرب ولا القتال، ولكن السلطان أصر على اصطحابه، علل نفسه قائلا إن هذه يمكن أن تكون تجربة جديدة يضيفها إلى كتابه العبر، ولكن الأمر لم يكن كذلك، جاء التتار واشتبك معهم جند السلطان في معارك جانبية صغيرة، انتصروا فيها جميعا، وبدأ الاستعداد للمعركة الكبرى التي سترد التتار إلى الوراء، ولكن بال السلطان كان مشغولا بما يحدث في مصر، كان الحمام الزاجل يحمل له كل يوم أخبارا غير مطمئنة؛ تحركات ومؤامرات وأصدقاء يكشفون عن وجوههم المعادية، ينتهزون فرصة غيابه للانقلاب عليه، ومثل أي سلطان مملوكي كان همه الرئيسي وربما الوحيد، البقاء على العرش، قرر أن يسحب جيشه ويعود للقاهرة تاركا دمشق وحيدة تواجه مصيرها، وتاركا ابن خلدون في وسط المسجد الأموي حائرا لا يعرف كيف ينجو بنفسه. قال أكبر الشيوخ: فلنذهب إليه جميعا هكذا، نطلب منه الأمان، نتوسل إليه أن يعفو عن مدينتنا ويجنبنا العقاب.

قال ابن خلدون: هل يجدي التوسل؟ لا بد أن أهل حلب فعلوا ذلك ولم يفلتوا من العقاب.

قال الشيخ: وما العمل؟

قال ابن خلدون: نتفاهم معه، فليعرف أنه إذا كان يريد أن يكون ملكا فعليه أن يفعل ذلك على الأحياء وليس على الجثث والمدن المحترقة.

قال الشيخ في عجز: ومن الذي يجرؤ على النقاش معه؟

قال ابن خلدون: أنا أفعل، ولكن ساعدوني على الخروج من المدينة.

كانت هذه هي المشكلة؛ أبواب المدينة مغلقة، والوالي المملوكي الذي يحكم من القلعة لا يسمح بالدخول ولا الخروج، ولكن الفقهاء اتفقوا على خطة بسيطة، فلينتظروا حتى تحين ساعة الفجر وتغفو عيون الحرس ثم يجعلوا هذا الشيخ المغامر يتدلى من فوق السور بواسطة حبل. وقبل ابن خلدون بهذه المخاطرة، يمكن أن ينجو أو يقتل مباشرة، المهم أن يتخلص من موات الانتظار.

كان السور عاليا، والحبل المتدلي خشنا، واضطر أن يخلع مركوبه، وبعد معاناة وألم وصل إلى الأرض دامي اليدين حافي القدمين، سار زائغ العينيْن حتى تلقفته أيدي جنود التتار، قال متوسلا: أريد أن أقابل الخان العظيم. أخذوه إلى إحدى الخيام وأعطوه مركوبا ثم قادوه إلى خيمة تيمورلنك، كان يجلس في صدرها وهو يتناول طعام الإفطار، صحائف الطعام تتغير من أمامه والخدم لا يكفون عن الحركة، مد يده في تكاسل فانحنى ابن خلدون وقبلها وشم فيها رائحة الدسم، أشار إليه أن يجلس واستدعى أحد فقهاء خوارزم حتى يترجم بينهما، قال له إنه سمع عنه، وأسعد ابن خلدون كثيرًا أن تصل سمعته للغازي العظيم، شعر بثقة وبنوع من الغرور، كان تيمور مستغربا أن يأتي فقيه من المغرب البعيد حتى الشام. وبدأ ابن خلدون يروي له قصة حياته بإيجاز، وكان الغازي صبورا معه ما دام لم يعطله عن تناول الطعام. أخذ يسأله عن تفاصيل بلاد المغرب، لمعت عيناه كأنه يفكر في غزوها، وأمر ابن خلدون أن يكتب له عنها كلها؛ أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها حتى كأنه يشاهدها، تجاهل ابن خلدون لمعة عينيه ووافق أن يكتب كل هذا بالتفصيل، عند ذلك رضي الغازي عنه وأمر له بالطعام.

وبعد أن أحس بالشبع قرر ابن خلدون أن من واجبه أن يدخل في وصلة من النفاق العظيم، قال: أيدك الله، منذ ثلاثة وأربعين عاما وأنا أتمنى لقاءك.

نظر إليه تيمور مستغربا: وما سبب ذلك؟

قال: لسببين؛ أولهما أنك سلطان العالم وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر منذ بدء الخليقة إلى اليوم ملك مثلك. ولست أتجاوز الحقيقة؛ فأنا من أهل العلم. أنتم تعرفون أن أكثر أمم الشرق فرقتان؛ العرب والترك، وأنت ترى حال العرب الآن بعد أن تصارعوا مع بعضهم البعض، أما الترك فقد زاحموا ملوك الفرس وانتزعوا ملك خراسان من أيديهم، أين الفرس من الترك؟ وأين الروم من الترك؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادعيته من عظمة ملكك. أما السبب الثاني فهو ما سمعته من المتنبئين في المغرب بولادة تيمورلنك ووصوله إلى الحكم، وهيمنته على ديار الإسلام.

ظل ابن خلدون يواصل هذا النوع من الكلام، كان دارسا ومؤرخا وعارفا بصعود الدول وانحطاطها، ومع ذلك تجاهل كل ذلك. تجاهل أيضًا كل الفظائع التي ارتكبها التتار في كل مدن الإسلام التي نهبوها ثم أحرقوها. جلس في خيمة صغيرة بجوار خيمة الخان وأخذ يدون له كل المعلومات عن المغرب بدقة واستفاضة، دون أن يسأل نفسه: لماذا يريدها هذا الرجل الذي لا يكف عن الزحف على الدول الأخرى؟ سمع تهليلات جنود التتار وهم يهنئون بعضهم البعض؛ لأن دمشق قد استسلمت، حفنة من فقهاء المدينة خرجوا للغازي وسلموه مفاتيحها على أن يهبهم الأمان، استقبلهم بحفاوة وأعطاهم كل الوعود التي يريدونها، ولكن قلعة المدينة لم تستسلم، كان قد اقترب منها بما يكفي فأخذ يدكها بالمجانيق حتى استسلمت، وانتشر التتار في المدينة ينهبون كل شيء؛ يخربون الحوائط وينبشون القبور بحثا عن أي مال مخبأ، يغتصبون النساء ويسبون الأطفال، ويقطعون رأس كل من يعترض. ورغم ذلك كله ذهب ابن خلدون للغازي يسلمه الأوراق التي كتبها، ويستأذنه في السفر إلى مصر. كان قد اشترى بغلة هي التي ستحمله في رحلته، ولكن تيمورلنك أبدى إعجابه بها، ظل يتأملها كأنه لم يشاهد بغالا قبل الآن، قال: هل تبيعها لي؟

قال ابن خلدون: أنت ملك العالم، كيف أبيعك شيئا صغيرا مثل هذا؟ إنها هديتي لك.

تقبلها منه على الفور وكأنه لا يوجد في جيشه ما يكفي من الجياد والبغال، واضطر ابن خلدون أن يؤجل سفره حتى يشتري بغلة أخرى، ولكنه في اليوم التالي عرف سبب تعمد تيمورلنك تأجيل سفره؛ لقد أراده أن يشاهد دمشق وهي تحترق، أن يتأمل ألسنة النيران الضارية وهي تلتهم بيوت المدينة ومساجدها، ويملأ صدره من الدخان المتصاعد من الجثث المتفحمة. لله الأمر من قبل ومن بعد، لقد عاد إلى مصر بطريقة أو بأخرى، وبعد أيام طويلة جاء له رسول من ملك التتار يحمل له ثمن البغلة التي أخذها منه.

∞∞∞∞∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفيل الأبـيض

أرسل تيمورلنك خان التتار العظيم رسالة يعتذر فيها لسلطان مصر الناصر فرج بن قلاوون؛ لأنه قتل الآلاف وأحرق دمشق وحلب وحماة، وقال إن هذا كله كان قضاء مقدرا، وهو يريد أن يبدأ مع السلطان صفحة جديدة، ويطلب الإفراج عن صهره الأمير «أطلمش» الذي كان أسيرا في مصر منذ عهد السلطان برقوق. ولكي يثبت تيمورلنك حسن نياته فقد أرسل للسلطان هدية؛ فيلًا أبيض صغيرًا لم يرَ السلطان أجمل منه. كان السلطان في الخامسة عشرة من عمره المديد، وظل مترددا إن كان يستطيع أن يقفز فوق ظهر الفيل أم لا، جمع السلطان الأمراء والأتابكة وقرأ عليهم الرسالة وقال: ما رأيكم في طلب تيمورلنك يا أمراء؟

قالوا جميعا: لنرَ ما يفعله الفيل أولا.

بدأ الفيل يمارس ألعابه الغريبة؛ وقف على قدم واحدة ثم رفع الأقدام الثلاث الأخرى في الهواء، وكانت ألسنة اللهب قد بدأت تخبو أخيرًا في دمشق بعد أن استمرت شهرا كاملا لم يخفف منها عصف الريح ولا هطول المطر. لم تبقَ من المسجد الأموي إلا أعمدة منتصبة فارغة كشواهد القبور، ومن مقصورته العظيمة إلا تلة سوداء، أما الجثث المحترقة فكانت ممتدة على طول المدى. وعندما هدأت النار قليلا دخلت الضباع المدينة وتسيدتها، وكان الفيل قد أخذ بخرطومه الصولجان من يد الملك، وضرب به الكرة فهلل الحاضرون، لعب بالكرة كأمهر الأمراء، وقال السلطان: لم أكن أعرف أن التتار يجيدون لعب الكرة والصولجان.. كانوا يجيدون حنث الوعود وقصف الرقاب.. أعطى تيمورلنك الأمان لمدينة حلب، وحين مثل بين يديه نواب المدينة خلع عليهم الأقبية الحمراء وقال لهم: أنتم نوابي.. ثم قتلهم في اليوم التالي ونهب كل ما حول المدينة من قرى وقطع كل شجرة واقتحم المدينة كالطاعون، وأخذ جنوده يغتصبون العذارى داخل المساجد تحت أعين آبائهم، ويبقرون بطون الحوامل، ويضعون الرضع تحت سنابك الخيل.

وكانت أقدام الفيل تدوس على سور القلعة في تناسق عجيب، يضع قدميه على حافة السور ويرفع الأخريَيْن في الهواء ثم يبدلهما ببطء ونعومة، ولو أن توازنه اختل للحظة واحدة لهوى في خندق القلعة، ولكنه لم يفعل بل قفز من فوق السور برشاقة طفل صغير حتى وقف أمام السلطان الذي هتف ضاحكا: يقولون إن تيمورلنك في نفس ضخامته ونفس رشاقته.

كان تيمورلنك يعاني من عرج في وركه اليمنى، وكانت الرجال تحمله إذا أراد أن يركب جواده. كان قصير القامة، غليظ الجسد، ثقيل الحركة، ولكن كان له سعد خارق حتى جرى منه ما جرى، فملك البلاد وقهر العباد ويتم الأطفال.

وانقضت الليلة والسلطان في غاية الدهشة من هذا الفيل، وعندما نام ظل يلاحقه في أحلامه، وفي صباح اليوم التالي أخرج «أطلمش» من سجنه وحمله الهدايا الثمينة والتحيات الطيبة إلى صديقه تيمورلنك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

سلطان الأنس

جاء رسول السلطان مسرعا من القلعة إلى قصر الأتابكي «يلبغا» نائب السلطان وهو يهتف: مولانا السلطان يبكي منذ الصباح.

ونهض يلبغا مسرعا للقلعة وكان السلطان قد اعتزل الديوان وجلس في الحريم يبكي وحده، حتى عندما وقف الأتابكي أمامه ظل يبكي. كان السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» في الرابعة عشرة من عمره عندما تولى العرش، وهتف في نائبه: خلاص لم أعد أطيق العرش لا بد لي من التنازل، أنا لا أصلح لأن أكون سلطانا.

هتف يلبغا وقد خاب أمله: أتتنازل بهذه السهولة؟ أتدري ماذا صنعنا حتى نجعلك سلطانا؟

كانت الجثث التي صنعت طريقه إلى العرش كثيرة أولها جثة عمه السلطان السابق وآخرها غير معلوم جثة قائد الحرس، كل شيء أصبح ملوثا بالدم، ولا أمان؛ فالسلطان لا يجب عليه أن يأمن للأصدقاء ولا للندامى قبل الأعداء، ولو غفل للحظة لانقصفت رقبته، ومنذ أن أخرج «يلبغا» الغلام السلطان من الحريم ووضعه على العرش وقد أدخله بوابات الرعب؛ يبدأ يومه كل صباح بخبر مؤامرة على حياته، وفي الظهر كان عليه دائمًا أن يرسل نصف أقارب الأمراء إلى السجن ويخنق النصف الآخر، وعليه أيضًا أن يرسل الجيوش لتأديب نوابه وحرافيشه الجائعين، واليوم فقط عرف أن أمه شخصيًّا تتآمر عليه لكي تجلس أخاه الأصغر على العرش؛ وهنا لم يطق السلطان كل هذا فانفجر في البكاء.

وعبثا حاول الأتابكي أن يثنيه عن عزمه؛ فالسنوات الأولى من حكم أي سلطان يجب أن تكون دموية هكذا، وبعد ذلك يصفو الجو ويفرض السلطان هيبته على الأصدقاء والأعداء. ولكن السلطان الغلام كان مصرًّا على التنازل، وهبط «يلبغا» ثائرا يبحث عن سلطان جديد، وكان لا بد من الدخول في دائرة جديدة من المساومات والمؤامرات والاغتيالات الجانبية، وظل الناصر محمد معتصما بالحريم حتى اكتشفوا سلطانا جديدا من نسل قلاوون وانزاح عبء السلطة عنه أخيرًا، أعلن أنه لن يغادر الحريم أبدا من بعد اليوم.وتحولت الكوابيس فجأة إلى أنس وبهجة، ولم يعد يفيق من السكر صباحا ومساء. وتوالى على العرش أكثر من عشرة سلاطين اغتيل نصفهم وسجن النصف الآخر ومُثِّل بجثثهم ونهبت دورهم وقسمت نساؤهم، وكان السلطان الناصر هو السلطان المملوكي الوحيد الذي مات في سن الستين، وكان يحلو له أن يسمع أغنية قام هو شخصيًّا بتأليفها تقول:

كل الملوك تسلطنوا بالملك والسلاح

وأنا قنعت منه بالراح والملاح

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

موكب الشموع

أخيرًا جلس السلطان «الأشرف خليل بن قلاوون» على العرش، زال المنافسون وخضع الأمراء وأقسم الجميع يمين الطاعة أو تظاهروا بذلك وبقيت آخر المشاكل «التقليدة»، أي الأمر بتقليده على العرش؛ وهي وثيقة يكتبها القضاة ثم يقدمونها للسلطان الذي يوافق عليها ويضع عليها ختمه، ويحدد فيها من الذي سيتولى العرش من بعده، وكان القضاة يحفظون هذه الوثيقة حتى يموت السلطان ويأتي ولي عهده وتكون سلطنته كاملة من كل الوجوه.

ولكن القاضي حين فتح «التقليدة» اكتشف الجميع أنها خالية من ختم السلطان الأب، وزمجر الأشرف من الدهشة والغضب، وأقسم القاضي إنه قدم الوثيقة إلى السلطان السابق ثلاث مرات وفي كل مرة كان السلطان يرفض ختمها، ثم هتف في القاضي: أيها القاضي، أنا لا أولي خليلا على المسلمين.

لأمر ما لم يكن السلطان راضيا عن ترك العرش لابنه، ولكن كل الورثة كانوا قد ماتوا أو اغتيلوا أو أصيبوا بالجنون، ولم يبقَ إلا خليل الذي تناول التقليدة الخالية ومزقها وهو يقول: لقد امتنع السلطان عن أن يعطيني العرش، ولكن الله أعطاني إياه.

وبدأ عهده..

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة؛ فالتقليدة الناقصة جعلت سلطنته ناقصة، كان السلطان يحس بذلك في عيون الأمراء والأتابكة، في تفسيرات الفقهاء وفي نكات العامة، قبض على القاضي ووضعه في أسفل السجون، وألغى نظام التقليدة، وقبض على معظم أمراء أبيه، ثم لم يجد بدًّا من أن يدعو الجميع للخروج للجهاد ضد الفرنجة.

كان الصليبيون ما زالوا يحتلون أهم قلاع الشام، ذلك الإخطبوط القديم الذي قطع له صلاح الدين ذراعا فنبتت له عشرة أذرع، وقطع السلطان بيبرس خمسة فنبتت عشرون، بعد كل كبوة يستقدمون من أوروبا المزيد من القوات وينهضون من جديد، وعندما دعا الأشرف خليل للخروج للجهاد تذكر الناس أن السلاطين وحدهم لا يمكنهم قتل الأخطبوطات، لا بد من وجودهم، لا بد من حرافيش المدن وصعاليك الشوارع ومن الفلاحين والصيادين، ورغم مماليك الأشرف الكثيرة فقد كان المتطوعون من عامة الشعب هم الأغلب، لم يبالِ أحد إن كان الأشرف يريد أن يلفت الأنظار بعيدا عن بيعته الناقصة أم لا، المهم أنه يدعو الجميع إلى شيء جدير بالاستجابة له.

صنع النجارون المجانيق الضخمة التي تستطيع أن تحمل طنًّا من الأحجار، وصنع الحدادون دبابيس الصلب القادرة على اختراق أي جدران، وحمل الفلاحون الفئوس وساروا جميعا إلى «عكا».

كان الفرنجة قد اتخذوا منها نقطة تحصينهم الأساسية ولكن السلطان وجنوده حاصروها، قذفوها بالأحجار حتى ثقبوا جدرانها، أغرقوا المراكب التي تحمل لهم المؤن، وأخيرا استسلمت عكا، وخرج الفرنجة محنيي الرءوس في مثل اليوم الذي أخذوها فيه وفي الساعة نفسها، ثم سار إلى «صور» تسبقه شهرته، وكانت صور مدينة منيعة لم يحاول أحد فتحها منذ أن سقطت، حتى ولا صلاح الدين، ولكن منظر الجيوش المهيب وذكرى سقوط عكا جعلاها تسقط دون قتال، ثم سار إلى صفد فخرج ملك الفرنجة يبكي، وهرب حكام طرطوس وألقوا بأنفسهم في البحر قبل أن يصل إليهم. كان بناء

الفرنجة الهش ينهار تحت أقدامه، كأن قلاعهم رمال تذروها الرياح، حتى صلاح الدين لم يفعل بهم كما فعل الأشرف في هذا العدد القليل من الشهور.

وكان متعبا منهكا من كثرة القتال، وما زال خائفا من العودة إلى القاهرة حيث ما تزال مزق التقليدة غير المكتملة، وفضل أن يتوجه إلى دمشق. وصل إلى المدينة في منتصف الليل ولكنه ما إن دخل من باب النصر حتى وجد أهلها جميعا في انتظاره، لم ينم منهم أحد حتى الأطفال والشيوخ والمرضى، جميعا خرجوا إليه، كل واحد منهم يمسك في يده شمعة ليضيء بها طريق السلطان المجهد وطريق جنوده الذين حاربوا بلا هوادة. خيم على المدينة جو من الجلال والهدوء بعد صخب المعارك، أحاطتهم أضواء الشموع المرتعدة كأنها وجيب كل القلوب، دروب المدينة كلها كانت مضاءة من باب النصر حتى باب الوقيد، والشموع ترسم في الظلام حروفا مجهولة كأنها تعلن بيعته من جديد، وتتوِّجه سلطانا رغم كل الأختام الناقصة؛ ربما لأنه من السلاطين القلائل الذين أدركوا أين يوجد العدو الحقيقي؛ وربما لأن كل السلاطين الذين يتحرشون بنا الآن ما زالوا عاجزين عن استكمال بيعتهم الناقصة، وما زالوا عاجزين عن اكتشاف الطريق الصحيح لاستكمال هذه البيعة.

∞∞∞∞∞

فريق متميزون
E-BOOK

ضمان الغواني

كان القاضي «بهاء الدين» يعرف الكثير من الأحكام، ويُعرَض أمامه العديد من القضايا، ولكنه لم يكن يعرف إلا أقل القليل عن «ضمان الغواني».

بدأ الأمر كمشكلة صغيرة ثم تطور إلى فضيحة كبيرة. في صباح أحد الأيام اكتشف القاضي غياب ابنته الوحيدة «ياسمين»، لم يمس فراشها؛ مما يعني أنها قضت الليل كله خارج البيت، وعندما فتش الغرفة لم يجد ثيابها ولا مصاغها، واكتشف أيضًا ضياع عدة أكياس من المال من خزينته، وبدت حقيقة الفضيحة أمام عينيه ولا سبيل لردها.

كان القاضي بهاء الدين وقورا مهيبا، لم يستطع أي مملوك أو حتى السلطان نفسه أن ينتقص شيئا من هيبته أو يفرض عليه حكما أو يغريه بمال. قاضٍ باتر يبحث عن العدالة المجردة، مستقيم كحد السيف، ولكن ها هي ياسمين تهدم كل شيء، وتضع رأسه في الوحل. لم يذهب لمجلس الحكم هذا اليوم، ولزم الصمت، وأمر أهل منزله كلهم بأن يلزموا الصمت وألا يذهبوا للبحث في أي مكان حتى لا يثيروا الأقاويل، وأخذ يفكر حتى كلت دماغه. اكتشف أنه كان بعيدا عن البيت أكثر مما ينبغي، وأن ياسمين نضجت دون أن ينتبه، أصبحت امرأة وهو يعتقد أنها طفلة، ولكن.. لماذا فعلت كل هذا؟ لم تكن هناك مشكلة ذات بال، ولم يتقدم لها أحد، ولكن أتراها هربت مع رجل، أم أن هناك سرًّا غامضًا يحيط باختفائها؟

لم يلجأ إلى والي القاهرة أو صاحب الشرطة، كان يعرف أنهما سوف يفضحانه ولن يسعيا إلا إلى مكاسبهما الشخصية. لجأ إلى امرأة كانت تعمل معه أحيانا، والمرأة أكثر حساسية في مثل هذه الأمور فهي «دلالة» وتحفظ طرقات القاهرة مثل كف يدها، وتعودت أن تساعده دائمًا في الكثير من القضايا الشائكة التي كان رجال الشرطة يفشلون في التحري عنها، أخبرها بالقصة وأعطاها أوصاف ياسمين، وطلب منها أن تبحث عنها بأقصى قدر من السرية.

وبعد أربعة أيام عادت المرأة، وجهها كئيب مسود، ولمحها القاضي وهي تجلس أمامه فانقبض صدره، ظلت صامتة فتنهد في توجس: هل ماتت؟

ترددت المرأة قليلا ثم قالت: ليت الأمر كان كذلك، إنها في بيت «الحاظ» بالأزبكية.

وهتف القاضي في دهشة: بيت الحاظ، وماذا تفعل هناك؟

ولم تحر المرأة جوابا، وفهم القاضي ماذا يعني هذا فشهق: يا لطيف اللطف يا رب.

ووضع رأسه بين يديه وأخذ جسده كله يهتز بالبكاء، ونهضت المرأة مبتعدة وتركته وحده.

لم يذهب القاضي إلى بيت الحاظ من قبل، ولكن اسمه تردد أمامه في العديد من قضايا البغاء والفساد، ولم يتصور أن تصبح ابنته قضية من هذه القضايا السيئة، ولكن ما الذي قاد الصغيرة ياسمين إلى هذا المكان؟ عجز عن أن يجيب لنفسه عن هذا السؤال بصراحة، لم يتصور أن تذهب لكي تبيع جسدها للحرافيش والعوام وصغار الجند بإرادتها، لا بد أن هناك من خدعها، استولى على عقلها، استدرجها، وعليه أن يذهب هناك ويواجه الحاظ ويسترد ابنته الصغيرة. كان مساء حزين قد نام على القاهرة

عندما بدأ القاضي يجر خطواته المتثاقلة إلى بيت الحاظ، سمع الكثير عنها، ولكنها المرة الأولى التي يسير فيها إليها، كلما سأل عن البيت نظروا إلى هيئته وعمامته فيحس بخجل عميق، وزادت هذه الرحلة من إحساسه بالمرارة، وصل إلى المنزل، كان يقف بالقرب منه بعض من حرس السلطان، كان واضحا أنهم يحرسونه ويحاولون توفير الأمان لرواده، ونظروا إليه في استغراب وهو يدفع الباب ويدخل مرتعدا كأنما أصابته حمى، واجهته امرأة ضخمة، أدرك من أول نظرة أنها الحاظ الضامنة، تأملته قليلا وأدركت أنه زبون ضل طريقه، ولكنها هتفت في لهجة عملية: خمسة فضة، ثم قل لي بعد ذلك من التي تريدها.

قال القاضي وهو يلملم العباءة حول جسده: أريد ابنتي.

وحدقت فيه دون أن تفهم، وزادت رعدة القاضي وهو يكاد يصرخ: أنا القاضي بهاء الدين، وأريد ابنتي «ياسمين»، وأنا أعرف أنها هنا.

قفزت المرأة من الدهشة وصفرت في صوت خافت وهي تهتف: ابنة القاضي مرة واحدة، بنت الإيه! قالت لي إنها من عائلة كبيرة، ولكني لم أتصور أنها ابنة القاضي، ولكن لماذا تريدها؟ لقد جاءت هنا بإرادتها.

ارتجف القاضي أحس أنه يطعن فصرخ فيها: كذب، كذب، ستعاقبين على ذلك، أعطني ابنتي.

وأسرعت المرأة إلى خزانة صغيرة في الحائط، فتحتها وأخرجت منها كيس نقود تعرف عليه على الفور، إنها نقوده، وصرخت المرأة هي أيضًا: أنا لست غانية، أنا ضامنة معي تصريح من الوالي والسلطان، وهذه هي النقود التي أعطتها لي لأكون ضامنتها، وهي الآن في عهدتي.

تمتم القاضي دون أن يصدق أي شيء: أريد ابنتي، وإلا سوف أغلق هذا المكان.

قالت المرأة بوقاحة: نحن ندفع المعلوم المتفق عليه للوالي والسلطان؛ ألف فضة شهريًّا، وأنا ضامنة رسمية، من الذي يجرؤ على إغلاق هذا البيت؟

أسرع القاضي إلى الخارج، صرخ في أحد رجال الشرطة أن يذهب ويحضر الوالي، وتعرف الشرطي عليه فظل يحدق فيه ببلاهة ثم جرى إلى بيت الوالي، بقي القاضي واقفا في برد الليل أمام باب البيت يشاهد الزبائن ويسمع الضحكات، أي من هؤلاء سوف يكون زبون ابنته، وأي من هاتي الضحكات تخص ابنته؟ تعصر الأفكار قلبه وتزيد برودة الليل من رجفته، وجاء والي القاهرة أخيرًا، كان غاضبا لأنه انتزع من مجلسه، هتف بالقاضي: لقد أحسنت اختيار المنزل، فما هي المشكلة؟

أوشك أن يبكي، تضاءل أمام الوالي وهو الذي كان دائمًا شامخا، قال: ابنتي داخل هذا المنزل، والحاظ الضامنة ترفض تسليمها لي.

وأخذ الوالي يعيد تقييم الموقف في خياله، ثم هتف في بلاهة: ألم تدفع؟

وأوشك القاضي أن يجن، صرخ في حنق بالغ وهجم على البيت ثم قفز فوق رقبة المرأة السمينة، ودخل الوالي ورجال الشرطة وأخذوا يحاولون تخليصها، وظل القاضي يصرخ: أريد ابنتي.

وخلصت المرأة رقبتها من أصابع القاضي والتفتت إلى الوالي وهي تقول: قل له يا سيدي الوالي إنني ضامنة رسمية، لقد جاءت الفتاة إليَّ ودفعت المعلوم، وهي تعمل بجد ودون مشاكل، وليست الوحيدة، كل نساء الأسر يجئن إليَّ، فما هي المشكلة هذه المرة؟

وصاح القاضي كالحيوان الجريح: لا بد من غلق هذا المكان.

قال الوالي في برود: لا بد من أمر من السلطان.

وهتف القاضي في عجز: اللعنة عليك وعلى السلطان، وعلى إبليس الذي ابتدع نظام ضمان الغواني.

وذهب القاضي بهاء الدين لمقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، لم يكن وحده هذه المرة، كان في صحبته قضاة المذاهب الأربعة وبضعة من شيوخ الأزهر، كان يعرف أنه إذا ذهب وحده فسوف يأكله السلطان كما أكله الوالي، ولم يكن هناك سبب لإخفاء الحكاية فالسر أصبح مشاعا، والقاهرة كلها تتحدث عن ابنة القاضي التي ذهبت تبيع جسدها في بيت الحاظ، وقد أحدث هذا شهرة كبيرة للبيت جعلت الزبائن يتدفقون إليه ويطلبون ابنة القاضي بأي ثمن.

كان السلطان يعرف سبب مجيئهم ويريد أن يفوت عليهم فرصة الصدام؛ لذا فقد استقبلهم ببرود شديد وتوجه بالقول إلى القاضي بهاء الدين: لم تكن هناك ضرورة لتعب المشايخ والعلماء، ابنتك سوف تعود إلى بيتك اليوم أو لعلها عادت بالفعل.

ولكن ثورة الشيوخ كانت متأججة، تقدم قاضي الشافعية وقال في حزم: هذا ليس كافيا يا مولانا السلطان، يجب أن تغلق كل هذه البيوت وأن يلغى نظام الغواني هذا.

وتشجع قاضي الحنابلة فهتف بنفس القوة: تكفي الفضائح التي حدثت وبنات الأسر اللاتي ضعن، ونساء الأشراف اللاتي هربن إلى هذه الأماكن دون أن يقدر أحد على إخراجهن.

ورد السلطان في عنف: أليس هذا أفضل من أن يفعلوها على الأرصفة؟

وزمجر المشايخ في حنق بالغ، وارتفعت أصواتهم، وتراجع السلطان قليلا ولكنه ظل مصرًّا على رأيه: ولكن ماذا أفعل يا مشايخ؟ إن هذه البيوت تدر على الخزينة دخلا كبيرا، وأنا محتاج إليها لتجهيز الجيش ومحاربة أعداء الدين.

صاح قاضي الحنابلة وقد كاد يغمى عليه من فرط وقاحة السلطان: أتحارب أعداء الدين من فروج النساء؟

واشتبكوا في الصراخ مرة أخرى، وتحفز الحرس خارج القاعة، وأعد والي القاهرة القيود، والسلطان يصرخ: هذه البيوت هي مصدر دائم للدخل، كل شيء في مصر له موسم إلا هذه البيوت فموسمها دائم، ألا يكفي أنكم أخذتم ابنة القاضي؟

وصرخ القاضي بهاء الدين أنه لا يريدها، وأنه سيقتلها لو دخلت بيته ولكنه يريد صالح الدين والرعية، وأن كل ضامنة تدفع للسلطان ألف فضة في مطلع كل شهر ولا يوجد مصدر آخر يدر مثل هذا الربح بمثل هذا الانتظام، ولكن الشيوخ لن يتراجعوا حتى ولو وضعهم في السجن، ولم يكن هناك

مفر من المساومة، من الوصول إلى صفقة مناسبة للطرفين، والسلطان ماهر في التجارة مهارته في تدبير المؤامرات، قال لهم: أعطوني إذًا جزءا من ريع الأوقاف على سبيل التعويض.

وارتفع الصراخ مرة أخرى؛ فنقود الأوقاف هي من أجل خدمة الدين لا من أجل خدمة السلطان، ويكفيه ما يأخذ من ضرائب، ولكن السلطان صمم لأن خسارته المالية سوف تكون فادحة إذا أغلق هذه البيوت، وصرخ في المشايخ: ألم توضع نقود الأوقاف لخدمة الإسلام، وإغلاق هذه البيوت أكبر خدمة له؟ لم يعد لديَّ وقت.

وأخيرا لم يكن أمامهم إلا الموافقة، كان السلطان متشبثا بأطراف الصفقة، وأغمض القاضي بهاء الدين عينيه وزفر زفرة حارة حين أصدر السلطان أوامره لوالي القاهرة بإغلاق هذه البيوت وإلغاء نظام الضمان، وأحس أنه انتصر وسط هزيمته الشاملة، ولكنه لم يكن يعرف كيف يستطيع أن يواجه ابنته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملك من المغول

دمر هولاكو بغداد وخرب حلبَ وأحرق دمشقَ، وقضى على مئات القرى والمدن، كوباء لا يستطيع أحد أن يوقفه، وبدأ يستعد لغزوته النهائية والحاسمة؛ الهجوم على مصر. لم يكن يؤمن فقط بقوة السيف، ولكن بأن قوة القدر العشوائية تقف أيضًا في صفه؛ لذا فقد جمع العرافين والمنجمين، ووضع أمامهم أسماء كل أمراء جيشه وقواد الفرق وسألهم: أخبروني، أي واحد من هؤلاء سوف يملك مصر ويجلس على عرشها؛ حتى أستطيع أن أجعله في المقدمة؟

وانهمك المنجمون في مراقبة النجوم وحسابات الفلك وقراءة الطوالع، كانوا قد جاءوا من سهوب آسيا، يحملون كل عنف المعرفة البدائية، ويحملون داخل أقدارهم طاقة هائلة على البطش والانتقام، ثم اتفق العرافون على اسم واحد وهتف كبيرهم نصر الدين: إنه كتبغا أيها الخان العظيم، لن يجلس على ملك مصر إلا هذا الاسم.

وسر هولاكو بهذه النبوءة، كتبغا كان زوج ابنته وأقرب القواد إلى قلبه، وكان يخشى أن تفرض النبوءة عليه اسما آخر من صغار القادة. جمع جيوشه - التي كانت تنتشر في الأرض كالجراد - خلف كتبغا، وتوجهوا إلى بقعة صغيرة من أرض فلسطين اسمها «عين جالوت».

كانت المعركة ضارية وللمرة الأولى قابل التتار جيشا مدربا ذاق طعم الانتصار وخاض عشرات المعارك ضد الصليبيين وأخذ يخطط نظاما للفروسية سوف يستمر لسنوات طويلة. كان المماليك في زهو تألق الصعود، والعوام من المصريين مفعمي النفس بدعوة الجهاد، وخرجوا جميعا ليوقفوا هذا الزحف الدامي، وتبدد جيش «كتبغا» وحاصرته السيوف ثم اخترقت جسده الرماح، ولم تمنحه النبوءة أي قدر من الحماية. كانت النبوءة كالرقية الفاسدة؛ لأن كتبغا لم يمس حتى تراب مصر، وغضب هولاكو على نصر الدين فأمر بقتله.

ولكن كان هناك غلام أسير، ليس أكثر من حامل للنبال، يقف مرتعدا في الصفوف الخلفية، غلام مغولي لا ذكر له ولا صفة ولا أهمية، كل ما في الأمر أن اسمه هو أيضًا «كتبغا»، ربطوه من عنقه بحبل وقادوه إلى مصر وهناك كان من نصيب أحد مماليك قلاوون، الذي أخذه فقص خصلته وألبسه ثيابا نظيفة وأعطاه طعاما وسيفا وجوادا، وهكذا دخل كتبغا في لعبة السلطة التي لا تهتم بالأصل ولكن بمضاء السيف، وتفوق ليصبح من مقدمي العشرات ثم المائة ثم الألف، وعندما أصبح أستاذه قلاوون سلطانا أصبح هو أميرا، وبدأ يتعلم كيف يتآمر في أروقة القلعة وكيف يقسم علنًا وينقض سرًّا، لم يكن يذكر النبوءة، ولم يكن يعرف أنها تعنيه ولكنه وجد العرش مطية لمن يريد أن يقفز، وكان أستاذه قلاوون قد مات ولم يترك سوى أبناء صغار يخلطون بين الجلوس على العرش والجلوس على المرحاض، فقفز على ابن أستاذه وأخذ منه العرش وتسلطن وأصبح اسمه الملك العادل زين الدين كتبغا. وتحققت النبوءة الغريبة في البلد الغريب، وسبحان من يجعل غلاما من المغول يتولى على شعب هو الوحيد الذي هزم المغول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

البركة

توقف النيل عن الزيادة، مرت خمسة عشر يوما على موعد الوفاء ولكن أمواجه لم تفِ، ظلت غائضة، بعيدة عن المستوى اللازم لري الأرض وخصوبتها، وبدأ القلق يسري في نفوس الجميع من أول الفلاح في أرضه الذي رآها تتشقق من فرط شوقها للمياه إلى السلطان على عرشه الذي أدرك أن خزانته سوف تعاني من الإفلاس.أما في شوارع القاهرة فقد كان رد الفعل سريعا؛ شحت الغلال وارتفع سعر القمح إلى ألف درهم عن كل أردب، ودب الفزع في قلب السلطان «الناصر خشقدم» فأصدر أوامره إلى قضاة المذاهب الأربعة والمشايخ والعلماء أن يذهبوا إلى مقياس النيل الموجود في جزيرة الروضة ويقضوا فيه ليلتهم يقيمون الصلوات ويقرءون القرآن لعل الله يستجيب ويرفع الغمة. وذهب المشايخ والقضاة، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وقرءوا القرآن والبخاري وذكروا كل الأدعية، ولكن صفحة المياه الزرقاء ظلت تحت مستوى المقياس، لم يبدُ على النيل أنه قد تأثر بتلك الحركات الموسمية.

وقضى المشايخ عدة أيام دون جدوى، وأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى أحد أكابر الفقهاء يستفتيه في هذه المسألة، وكانت الفتوى غريبة، قال الشيخ: اجمع الخليفة العباسي وأهله، وكل أقاربه من الرجال والنساء من أصغرهم إلى أكبرهم ودعهم يضعون في أفواههم شيئا من الماء ويمجونه في إناء ثم يصبونه في فسقية المقياس. واستغرب السلطان من الفتوى، فهو لم يكن يرى أي فائدة في هذا الخليفة العباسي الذي يسكن في القلعة بلا حول ولا قوة، ولكنه استدعاه فجاء مرعوبا، وعندما سمع الفتوى استغرب أيضًا أنه ما زالت هناك حاجة إليه لأداء أي عمل من الأعمال، واجتمعت بقايا بني العباس في صحن القلعة، ورفعوا الأعلام السوداء للمرة الأولى منذ أن زالت دولتهم، وتوجهوا إلى المقياس أخذوا حفنات من الماء المبارك ثم بصقوها، وانصرفوا وقد انتابهم خوف عظيم من ألا تحدث الزيادة ولا تحل البركة ويكون في هذا نهايتهم.

ولكن البركة حدثت، استجاب النيل لبصاق آل عباس وارتفع إصبعين كاملتيْن وبعد ثلاثة أيام ارتفع ذراعا كاملا، وهلل الناس وأقيمت صلاة الشكر في المساجد، وأحيط الخليفة بهالة مفاجئة من القداسة، فظن الناس أن هناك بضعة من أثر الرسول الكريم يعيشون وسطهم في القلعة دون أن يأبه بهم أحد، فتدافع الجميع تحت البرج الذي يسكنه يلتمسون منه البركة، ونظر إليهم الخليفة مدهوشا، وفي الجانب الآخر كان السلطان خشقدم يراقب كل ذلك بحقد وغضب وهتف لمن حوله: ذلك الوغد الخليفة، أهون عليَّ أن تجف البلاد وتفرغ الخزائن، خير من أن يتدافع الناس إليه بهذه الطريقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الناس تعرف الكثير

للسلطان «قايتباي» هواية غريبة، ليست الصيد ولا القنص ولا الطرب، متعته هي الخروج ليلا. تعود دائمًا أن يرتدي زي المغاربة ويلف رأسه ووجهه بعمامة بيضاء، ثم ينزل من القلعة دون أن يشعر به أحد ليهبط إلى قاع المدينة، إلى أماكن السهر المختلفة، ثم يختتم الليلة بصلاة الفجر في الجامع الأزهر ليعود مرة أخرى إلى القلعة العالية. كانت المشكلة التي تؤرقه يصوغها في سؤال واحد يسأله لكل من يقابله: ما رأيكم في سلطانكم قايتباي؟

وعندما رد عليه أحدهم: إنه سلطان جيد، لولا أنه يهوى خنق الأمراء.

تمتم السلطان في نفسه: لو لم أبادرهم بالخنق لخنقوني؛ فالصراع كان ضاريا في أروقة القلعة، مع كل أمير يبرز كانت تبرز قوة جديدة تتحدى السلطان وتنقص من سلطانه، كان يخنق الأمراء حقًّا، ولكن من الضروري أن يخنق بعضهم أحيانا وإلا اكتظت الأرض بهم؛ فالأرض تريد الكثير من الفلاحين والقليل القليل من الأمراء.

في ليلة ثانية سهر في أحد مقاهي الحسين وشرب القرفة مع أحد التجار وسأله نفس السؤال، فقال الرجل في تأكيد: سمعت أنه ما زال مملوكا لم يعتق بعد!

وارتعب السلطان، لم يكن يدري إن كان ما زال مملوكا أم أن الأشرف برسباي السلطان الذي اشتراه، قد أعتقه. كان غلاما عندما جاء من بلاد الجراكسة، سار به النخاس عبر السهوب الواسعة حتى يباع في مصر بخمسين دينارا، ومنذ ذلك الحين وهو يواصل الصعود والترقي. وجاءت فرصته أخيرًا فقفز على العرش وطوال الوقت كان في أوج قوته، لم يبالِ قط أن يعرف إن كان ما يزال حرًّا أم مملوكًا، ولكنه الآن يشعر بالخوف من أن تتسرب هذه الكلمة، وأن تتسلل إلى ألسنة المشايخ والمماليك وتكون فيها نهايته. وأمسك السلطان قايتباي أعصابه في أعجوبة وانتظر حتى انصرف الرجل ثم تسلل خلفه وتأكد من مكان بيته. وفي صباح اليوم التالي، كبس الجنود على بيت الرجل وساقوه إلى أعمق مكان في سجن «المقشرة»، ولم يسمح له بتبادل أي نوع من الحديث مع أي مخلوق.

وفي ليلة ثالثة لم يستطع السلطان أن يمسك أعصابه، كان قد أمضى ليلة طويلة مليئة بالإحباطات، تجول كثيرًا وقابل الكثيرين، وكانت إجاباتهم جميعا قاسية مليئة بالاتهامات، بعضها كان صحيحًا وكان يحسب أنه أجاد إخفاءها، وبعضها لم يكن صحيحا وإن كان في نيته أن يقوم بها. كل شيء قد أثار أعصابه لم يتصور أنهم يعرفون عنه كل هذه الأشياء، كأنه يعيش وسطهم، وليس بعيدا فوق رءوسهم في القلعة، كانوا يعرفون ببذاءة شديدة كيف يجرحون مشاعره، كأنهم يستكثرون السلطنة عليه، وانتهى به المطاف إلى صلاة الفجر في الجامع الأزهر. كان هناك مقرئ يقرأ القرآن بصوت عذب والجميع يستمعون في سكون، ولا يدري أحد ما الذي طرأ على ذهن السلطان وجعله يميل على الرجل الجالس بجانبه، ليسأله سؤاله التقليدي: ما رأيكم في سلطانكم قايتباي؟

وقال الرجل في تأكيد لا يليق بقدسية المكان، يقولون إنه ينام مع أخته خوند فاطمة.

وصعق السلطان فهو لم ينم مع خوند فاطمة ولكنه فكر في ذلك عشرات المرات، وأحس بالغيرة والمرارة لأنها أخته وسوف تذهب لمن هو أقل منه، كان يتمنى لو تحدث المعجزة وتصبح خوند فاطمة امرأة غريبة يستطيع أن يمتلكها، ولكن هذه الرغبة تحولت في داخله إلى شعور بالقنوط، هذه الرغبة لم يبح بها لأحد حتى لنفسه، فكيف أصبحت بهذا العلن المرعب؟ وفقد السلطان أعصابه وصرخ في الرجل: أهو أنت الذي تنام مع أختك يا حرفوش؟

وقفز كل واحد منهم على عنق الآخر واشتبكا في صراع ضارٍ، وتوقفت القراءة وأخذ المصلون يضربونهما معًا دون تمييز، وألقوا بالسلطان خارج المسجد، مشجوج الرأس مجروح النفس، وعاد مخذولا متخفيا إلى القلعة العالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

حاجة تجنن

عام ٨٧٤ هجريًّا، الموافق ١٤٦٩ ميلاديًّا..

عام نادر في تاريخ مصر، اجتمع فيه شيئان لا يجتمعان أبدا؛ العدل والرخاء. كان سلطان الزمان هو «الأشرف قايتباي»، وفي بداية العام اغتصب الأمير برسباي قائد الألف في جيش السلطان، بيتا لامرأة عجوز لا سند لها ولا يعرف أحد كيف وجدت الطريق إلى مجلس السلطان، ولا بأي لغة بليغة عرضت قضيتها، ولكن رد الفعل كان حارًّا. استدعى السلطان الأمير ووبخه وألزمه بإعادة البيت ودفع التعويض، وصاح مهددا كل الأمراء والجنود والمماليك من التعرض للرعية أو محاولة أكل حقوقهم. كان هذا أول حكم من نوعه تشهده المدينة التي شهدت أغرب الأحكام، ولكن المفاجآت توالت. بعد عدة أيام طاف المنادون في أسواق المدينة ينادون بأن السلطان قد أبطل عدة مكوس وضرائب وأنه أسقط الديون القديمة وكل الأحكام الجائرة. وهلل الناس من الفرح وارتفعت الأدعية للسلطان الذي وكل في الخامسة والخمسين من عمره عاقلا رزينا رفض العرش كثيرًا، وحين تسلمه اشترط ألا يعطي أعطية للجنود، وأن يفرج عن كل الذين في السجون.

وفي منتصف العام تراجع الأمراء العصاة في حلب والشام، أعلنوا طاعتهم للسلطان وهرب العاجزون منهم إلى بلاد بني عثمان، وعادت كل المدن إلى حكم السلطان دون أن يحتاج إلى إخراج تجريدة لمحاربتهم، وبعد أن كان الجيش قد جمع الطعام والقمح والشعير لإعداد المئونة، عادوا وفرقوا هذه الأشياء على الناس بأرخص الأسعار. وبلغ العدل والعطاء بالديار المصرية أقصى درجاته، حتى بيع رطل الخبز بدرهم وبيع فدان البرسيم الأخضر بدينار، وكثرت اللحوم والأجبان وانحط سعر سائر البضائع. ووقعت نادرة غريبة حين أعاد السلطان كل الأموال التي صادرها إلى أصحابها دون أن يطالبه أحد بذلك، وأشيع بين الناس أنه رأى في المنام الرسول الكريم يحضه على ذلك، وجاءت الأنباء من مكة المشرفة أن العين التي أجراها السلطان إلى عرفات قد انتهى العمل بها، ووصل ماؤها إلى عرفات بعد أن ظلت معطلة لأكثر من سنتين.

وفي نهاية العام صعد شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائي إلى المنبر لكي يخطب في صلاة الجمعة، فأخذ يتحدث عن عدل السلطان ورخاء البلاد ويلهج بالشكر، وهو الذي طالما جأر بالشكوى، وطالب المصلين بأن يقدموا شكواهم فلم يقدم أحد شكوى، وأخذ الشيخ يصرخ في انفعال زائد: عدل ورخاء، عدل ورخاء. وهبط من على المنبر وهو يرتعد وقد تكومت على شدقيه حلقات من الزبد الأبيض، ولم يستطع أن يقيم الصلاة، ولكنه خرج من المسجد وهو يصرخ ويخلع ملابسه ويردد الكلمتين، وتمكن بعض أتباعه من الإمساك به وأدخلوه إلى «البيمارستان»، ولا زال به حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

رأس القديس مرقص

الأمير صلاح الدين الحاجب يجلس مضجعا فوق الحواشي وهو يراقب إحدى الراقصات، كان يأكل، منذ أن وصل إلى الإسكندرية وهو لا يتوقف عن الأكل، مدينة فاتحة للشهية، ليس للطعام فقط ولكن للنساء والأموال أيضًا، هكذا كان يفكر وهو يتحسس بطنه، أي راقصة سيختار ليقضي معها الليل قبل أن يبدأ العمل في الصباح؟ كان قد جاء للمدينة نائبا عن السلطان المؤيد شيخ المحمودي، لا ليدعم قلاعها أو أسوارها، ولا ليمنع عمليات السرقة من البحر وخطف المراكب، ولا حتى ليحميها من هجوم الأعراب عليها، ولكن ليجمع منها الضرائب والمكوس، كان معه ثلة من الجند، يستخدمهم فقط من أجل تهديد التجار وتحذير السكان. كان يريد أن يعتصر المدينة حتى آخر درهم، يريد أن يجمع لسلطانه أكبر قدر من المال ليستخدمه في بناء أكبر مسجد تشهده البلاد. هدف مروع يضمن به السلطان الغفران وحسن المآل، ولكن واحدا من أتباعه اقتحم الحفل وأوقف الراقصة، نظر إليه الأمير ممتعضا، ولكن التابع همس له في سرعة: إنهم يسعون للقبض عليك يا أمير. وصل الفرنجة إلى الشاطئ واستولوا عليه، وليس لهم هدف إلا القبض عليك، نهض الأمير مفزوعا، أمر أتباعه بأن يجهزوا الخيول على الفور ويجمعوا ما يقدرون على جمعه من المتاع ويتحركوا سريعا، لم يسأل عن الفرنجة ولا عن مدى قوتهم، لم يفكر في جمع الرجال للمقاومة، انحصر كل تفكيره في الهرب وترك المدينة لمصيرها.

ولكن الإسكندرية لم تكن قد سقطت بعد، وكانت السفن القادمة من فينسيا لا تحمل إلا بضعة من القراصنة والأفاقين، لا يعرفون شيئا عن هذا الأمير الهارب، يبحثون عن أي غنيمة سهلة ولم يجدوا سوى هذه المدينة البائسة التي لم يكن فيها جيش يحرسها، ولا قوات بحرية تحمي شواطئها، ولم يكن السلطان يتذكرها إلا إذا كانت هناك ضرائب يريد جبايتها أو هناك متمردون يضعهم في سجنها، وغالبا كان يتركهم حتى يتعفنوا. هرب المماليك ولكنَّ حمَّالي الميناء تحملوا الصدمة، وقفوا في وجه القراصنة بالعصي وأسياخ الحديد، خاضوا معركة كبيرة حتى أغلقوا باب البحر في وجوههم، سقط من الحمالين غير المدربين عشرون قتيلا، وسقط من القراصنة قتيل واحد فقط، لم يمنعهم هذا من مواصلة الانتشار على طول الساحل، هاجموا البيوت والنساء واختطفوا مجموعة من الأطفال، لم يكن هناك من هو قادر على مقاومتهم، ولكن الأسوأ لم يكن قد حدث بعد؛ توغل القراصنة في أرجاء الإسكندرية حتى وصلوا إلى الكنيسة المعلقة، كنيسة عتيقة عمرها مئات السنين ولكن يوجد فيها مقر الكرازة المرقسية؛ مقر بابا أقباط مصر وزعيمهم الديني، دون أي حماية حقيقية، لم يقدر حراس الكنيسة على إيقافهم، وجدوا فيها العديد من الأيقونات الثمينة والتحف والصلبان، وفي غرفة صغيرة وجدوا ما هو أهم؛ صندوقًا صغيرًا يحتوي على جمجمة، وعندما عرضوا أحد خدام الكنيسة للتعذيب اعترف بأنها تخص القديس مرقص، هتف قائدهم في انتصار: الآن اكتمل الجسد.

وصلت الأخبار للقاهره فهاج الجميع، وعندما وجدوا المماليك متخاذلين بدأ الناس في التطوع، انضم العشرات في تجمع ضخم بدأ السير للإسكندرية، كانوا يحملون عصيًّا وسيوفًا وسكاكين، ولكن الزمن كان ضدهم، عندما وصلوا إلى المدينة المكلومة كان كل شيء قد انتهى، قتل القراصنة ما قتلوا ونهبوا ما نهبوا ثم تركوا المدينة تلعق جراحها، وسرقوا جمجمة القديس مرقص وتركوا مرارة أشد في قلوب كل أقباط مصر. للمرة الثانية تصيبهم نكسة فقدان أيقونتهم الغالية، وفقدت مصر كلها واحدا من

أثمن كنوزها. كان مار مرقص من حواريي السيد المسيح، واحدا من كتبة الأناجيل الأربعة، ورفيقا حول مائدة العشاء الأخير، ومبعوثه لنشر الديانة المسيحية في مصر، ولكن مهمته لم تكن سهلة، كان الرومان يفرضون سيطرتهم على مصر، ومثلما صلبوا المسيح أخذوا يطاردون كل ما يمت له بصلة، وعندما وقع مار مرقص في أيديهم لم يرحموه، لم يكتفوا بسجنه ولكنهم عرضوه لتعذيب هائل، تحمله الرجل دون أن يرتد عن عقيدته، وبلغ الغيظ بهم أن قطعوا رأسه وفصلوه عن جسده. اعتقدوا أن هذه نهاية هذا الدين الجديد، ولكن الدين انتشر وساد العالم القديم وما زال متواصلا. بقي الجسد في مصر، وبنيت من أجله كنيسة المغارة في الإسكندرية، ولكنها كانت تابعة للرهبان الروم؛ أي اليونانيين، كانت صلة الأقباط المصريين بهم مبتورة بسبب الخلافات المذهبية، لم يستطيعوا الاقتراب من الجسد أو احتواءه في كنائسهم، كانوا أضعف من ذلك.

وعندما جاء الفتح الإسلامي لمصر تغيرت الأمور قليلا لصالحهم. تقول الحكاية إن عمرو بن العاص لم يكن يعرف كثيرًا عن هذا الأمر، لم يعرف شيئا عن القديس، ولا عن الانشقاق المسيحي، كانت مصر بالنسبة إليه بلدا قديما ومعقدا، تختلط فيه الأساطير بالواقع، ولكنه بينما كان يستعد للإبحار من الإسكندرية لمكان آخر، أبحرت كل السفن إلا سفينة واحدة ظلت رابضة في المياه لا تستجيب لضرب المجاديف ولا لامتلاء الأشرعة بالهواء، واستراب ابن العاص في الأمر وأمر بتفتيشها، وفي القاع وجدوا صندوقا ثمينا محلى بالذهب ورأس القديس موجود بداخله، واعترف أحد البحارة بأنه تسلل إلى كنيسة المغارة واعتقد أن هذا الصندوق يحتوي على أشياء ثمينة، ولكن خاب أمله فلم يجد فيه غير هذه الجمجمة. وضع عمرو الرجل في السجن لكنه احتار إلى من يسلم الصندوق، قالوا له إن بابا الأقباط الذي يعترف به الجميع هو الأب بنيامين ولكنه هارب في أعماق الصعيد خائف من العرب ومن دينهم الجديد، وأرسل له عمرو بالأمان وطلب منه العودة، وجاء البابا فسلمه الصندوق وأعطاه عشرة آلاف دينار حتى يبني له كنيسة، وامتلك الأقباط المصريون رأس القديس للمرة الأولى، وبنوا له الكنيسة المعلقة التي تمت سرقتها للمرة الثانية بواسطة القراصنة دون أن تتعطل سفنهم، وكان تجار فينسيا قد سرقوا جسد القديس نفسه قبل ذلك، ليس بالقوة ولا العنف ولكن بالخديعة وربما بالرشوة أيضًا، فقد تسلل قبطان إحدى السفن إلى كنيسة المغارة حيث كان جسد القديس موجودا في رعاية اثنين من الرهبان اليونانيين، وأخذ يحدثهم كيف أن هؤلاء العرب يحملون دينا آخر، وسوف يهدمون كنائسهم واحدة إثر أخرى، وستكون البداية بتدمير هذا الجسد المقدس؛ فاستطاع أن يثير فزع الراهبين اللذيْن كانا مرعوبين بالفعل، وأخذ يواصل الحكي عن وقائع التعذيب التي تعرض لها رهبان الأديرة الأخرى. لم يكن الراهبان يعرفان أي شيء عنها، بينما هو في فينسيا يعرف كل شيء، استغل سذاجتهما وقلة خبرتهما بالعالم للإقناع، حتى إنهما ساعداه على نقل الرفات، أحضرا عمودا مجوفا من الرخام وضعوا فيه بقايا الجثمان القديم ثم لفوه بأشرطة من حديد لين وحملوه إلى السفينة ومعهم الراهبان. خرجت الجثة من مصر دون أن يعلم أحد إلا بعد عدة أسابيع، في الوقت الذي كانت الاحتفالات تعم مدينة فينسيا؛ فقد حصلت على قديسها وراعيها وستنقش اسمه في كل مكان، وتبني حول رفاته «سانت مارك»؛ واحدة من أضخم الكنائس في التاريخ.

انضمَّ الرأس لباقي الجسد بعد ٥٨٨ سنة كاملة، اكتمل الجسد على أرض غريبة، هي التي أنجبت الرومان الذين قتلوه، رغم أنهم يقدسونه الآن. وعلى طول القرون وتوالي السنين لم ينسَ أقباط مصر قديسهم، تغير الزمان وذهب الرومان والمماليك والقراصنة وظل المطلب الديني متواصلا، وقد جعل

البابا كيرلس السادس من استرداد الجسد قضيته، وبعد حوالي عشرة قرون كاملة عاد الجسد إلى موطنه. وفي عام ١٩٦٨ حطت في مطار القاهرة طائرة تحمل الرفات الكامل لجسد القديس؛ حيث احتضنته كاتدرائية العباسية أخيرًا، وانتهت عملية واحدة من أكبر السرقات في التاريخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كسوة الكعبة

مثل كل صباح يستيقظ المعلم صالح الخطاط مع أذان الفجر، يظل يردد الأدعية وهو يتوضأ ويصلي ويتناول بعض الطعام البسيط الذي تركته له زوجته، ثم يعاود الوضوء للمرة الثانية قبل أن يتوجه لعمله في حي الخرنفش، يحرص على السير بحذر متجنبا أوساخ الطريق وحفر المياه الصغيرة، ويزداد حذره عندما يدخل شوارع الحي، يريد أن يصل إلى المبنى الحجري وهو تام النظافة وعلى وضوئه، المبنى الذي يقصده، كان نظيفا؛ نظيفا من كل جهة، ويقف ببابه حراس يراقبون الصناع الذين يصل عددهم إلى الستين الداخلين بعيون ثاقبة. عليهم أن يتركوا نعالهم عند ركن من المدخل، وأن يظهروا للحرس أياديهم النظيفة ولحاهم المشذبة، ثم يدخلوا إلى القاعة الأولى في الدار؛ حيث توجد أماكن لأمهر الخياطين والمطرزين وأصحاب المقص في مصر، تتصدرها الطاولة المطعمة بالعاج التي يجلس عليها المعلم صالح، عليها الصحائف التي يخط عليها، وأقلام البوص ودَوَيات الحبر، وغير بعيد عنه يجلس أتباعه من الخطاطين والنقاشين.

بجانب هذه القاعة توجد قاعة أصغر تستخدم في عملية صباغة الأقمشة باللون الأسود، كل قطعة على حدة. كان المعلم صالح يقدس العمل الذي يقوم به، يخط آيات القرآن بكل تبتل، يرتعد وهو يكتب، يعرف أن كل حرف سيطرز ويعلق على أستار الكعبة ويراه الحجاج الذين يأتون من أرجاء الدنيا، هذه مكافأته الحقيقية، سبب البركة التي تحل عليه وعلى أهله، أي عمل أكثر تشريفا وتقديسا من أن يخط آيات الله وأن توضع على أستار الكعبة؟ وكان على النقاشين أن ينقلوا هذه الكلمات إلى الأقمشة السوداء، ويقوم الخياطون بتطريزها بخيوط الذهب والفضة، هذه قمة الفن في الكسوة وهي التي تحدد شكلها النهائي. في هذا اليوم بالذات، كان على المعلم صالح أن يكتب الجزء الختامي الذي سيتم تطريزه «صنعت في مصر المحروسة في عهد السلطان الظاهر جقمق حفظه الله».. ولكن قبل أن يتم بقية الديباجة، ارتفع صوت خشن يصيح في الجميع: توقفوا عن العمل.

التفتوا في دهشة لمصدر الصوت، شاهدوا عند باب القاعة اثنيْن من مماليك السلطان، ينظران نحوهم في صرامة، وعاد أحدهم يهتف: بأمر السلطان، ستغلق هذه الدار، لا توجد كسوة لهذا العام.

استمع الجميع في ذهول وظلوا عاجزين عن الحركة، دخل عدد آخر من مماليك السلطان بأحذيتهم وأخذوا يدفعون العمال إلى الخارج، ودفع أحدهم المعلم «صالح» فانسكبت دواة الحبر على الصحيفة المكتوبة وطمست اسم السلطان. وبعد مقاومة واهنة وجد الجميع أنفسهم خارج الدار، والمماليك يغلقونها بمصاريع من حديد. ضرب المعلم صالح كفًّا بكفٍّ، هل لا يوجد حج لهذا العام؟ هل الكعبة بخير، أم هدمتها السيول؟ هل هناك من سيقوم بصنع الكسوة غيرهم؟ بالتأكيد لا يوجد. ظل العمال واقفين واجتمع سكان الحي حولهم، وانتشر الخبر في بقية الأحياء الأخرى «دار الكسوة أغلقت»، وبدأ الناس من جميع الأحياء يتدفقون على المكان. لم تكن الكسوة تخص ذلك البيت العتيق في وسط الصحراء فقط، ولكن تخصهم أيضًا، سبب البركة عندما يخرج المحمل كل عام بما يتبعه من بضائع وغلال وكِسْوات للفقراء، والمؤن التي يجمعونها ويرسلونها في قافلة الحج كل عام، كل هذا يعني انقطاع البركة وعدم تأدية فرض الزكاة. انتشر الخبر وأحدث ضجة مرعبة في كل أرجاء القاهرة، ولم يتجمع الناس أمام الدار المغلقة فقط ولكن تجمعوا أيضًا في ميدان القلعة، لعل صياحهم يصل

لآذان السلطان، وحاول الحراس إبعادهم فقذفوهم بالأحجار. كانت المدينة على وشك الثورة، وعندما وصل الخبر إلى «أطغاي» أمير الحج في العام السابق، هبَّ من بيته وصعد مسرعا نحو القلعة وذهب من فوره إلى مجلس السلطان جقمق.

رغم كل التوتر الذي يبدو على الجميع كان السلطان العجوز هادئا، ويعرف الجميع أنه مهما يحدث فسيظل هادئا، قال: لن ينقلب العالم وستظل الكعبة في مكانها، لن تخرج الكسوة هذا العام ولكنها ستخرج العام القادم.

ارتفعت أصوات الأمراء بالحديث، فإذا كانت الكسوة تمثل للعامة والحرافيش نوعا من البركة فإنها تضفي على المماليك مسحة من الشرعية، تنقلهم من مستوى العبيد المجلوبين إلى مستوى حماة الدين ورعاة بيت الله، ولكن السلطان كان مصرًّا على رأيه، عاد يقول: لقد استجبت لطلب أخي «رخ شاه» سلطان سمرقند، سألني بكل احترام أن أسمح له بكسوة الكعبة هذا العام، وقد سمحت له، نحن السلاطين يجب أن يجامل بعضنا البعض.

قال أتابك العسكر: هذا السلطان ابن تيمورلنك الذي أحرق دمشق وحلب والعديد من مدن المسلمين، كيف يكتب اسمه على الكعبة التي يطوف حولها كل المسلمين؟ ماذا سيقولون عنا؟ عجزنا عن كسوة بيت الله.

وظل النقاش متواصلا عن غرض رخ شاه غير البريء، ومحاولته اكتساب الشرعية على حسابهم، ورغبته في تنصيب نفسه أميرا للحج وسلطانا على المسلمين، هذا التتري الذي لم يدخل الإسلام إلا أول أمس يقوم بهذه الخطوة الواسعة نحو الكعبة المشرفة. ماذا يقول عنا بقية المسلمين، وقد غاب اسم سلطاننا من على الكعبة؟ فأل سيئ لسلطان يبدأ به عهده. انتفض السلطان أخيرًا حين سمع كلمات الفأل السيئ، أحس بأن العرش يهتز من تحته، صاح في يأس: وماذا أفعل يا أمراء، الكسوة الآن في طريقها إلى مكة.

هنا تدخل أطغاي، حان الوقت للاستفادة من خبرته في معرفة طرق الحج، لا يستطيع السلطان أن يسحب كلمته، ولكنهم يقدرون على منع الكسوة من الوصول إلى هدفها، وعليهم أولا تهدئة المدينة الغاضبة. هبط أطغاي بنفسه إلى ساحة القلعة، صاح في الجميع أن دار الكسوة سوف تفتح من الغد، ومن الغد أيضًا جمع حراس قافلة الحج؛ الجنود الذين يعرفون الطريق الصحراوي جيدا، خلعوا ثياب المماليك وارتدوا ثياب الأعراب وتوجهوا من فورهم إلى العقبة، كانت هذه هي النقطة التي تلتقي فيها كل طرق الحج القادمة من مصر أو من الشام، كان عليهم أن يربضوا في الصحراء ويختفوا خلف الصخور. لم يشأ أطغاي أن يترك شيئا للمصادفة، بحث عن الأدلاء من قبيلة بني صخر، كانوا أشد القبائل شراسة ومعرفة بمسالك الصحراء، وكانت كل قوافل الحج مرغمة على الاستعانة بهم، وتدفع الأموال لتأمن شرهم وليدلوها على الطريق.

استغرق الأمر أربعة أيام كاملة حتى يرصدوا قافلة التتار، لم تكن جيدة الحراسة. واضح أن خبرتهم بالمخاطر الموجودة في طريق الحج كانت قليلة، وكان من السهل رصد الصندوق الضخم الذي يضم الكسوة محمولا فوق ظهر جمل يسير في وسط القافلة، هذا هو هدفهم. لا يريدون قتل الكثير منهم بقدر ما يريدون الوصول إلى هذا الجمل، ساقه الطويلة التي لا بد من عقرها، وبالفعل لم يقتربوا من

الحجاج، ولم يحاولوا قتل الحراس، ولكنهم وجهوا سيوفهم نحو قوائم الجمل المسكين، شاهدوه وهو يهوي بحمله على الأرض، وتقدم أطغاي بنفسه وسكب عليه علبة من قطران النفط وأشعل فيه النار. ارتفع صوت رغائه متوسلا، ولكن النار كانت قد اشتبكت في جسده وفي الصندوق الذي فوق ظهره. وسأل أحد المماليك أطغاي: هل نقتل أحدًا منهم حتى تبدو وكأنها إحدى غارات الأعراب؟ ولكن أطغاي هز رأسه نافيا: إنهم ذاهبون للحج، دعنا لا نتحمل ذنبهم.

وانصرفوا بعد أن تركوا الجمل كتلة متفحمة فوق الرمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طوبى لك يا تنيس

وقف الخليفة العباسي «عبد الله المهدي» في وسط قاعة عرشه وهو يتفحص أنواع الأقمشة المختلفة، غابة من الألوان مفرودة على أرض الديوان أو متكومة في الأركان، تراجع التجار للوراء تاركين الفرصة للخليفة ليختار ويقرر ماذا يريد. كانت هناك حرائر من دمشق، وديباج من حلب، وقَبَاطيّ من مصر، وأثواب ملونة بالزهر من اليمن وفارس، وكانت هناك حرائر من طبرستان التي تم فتحها حديثا. كل قطع النسيج تكاد تنطق، كل حرفاء النسيج في العالم قد وضعوا أمامه آخر خبراتهم في الصبغ والغزل والنسج، وشعر بأنه يتجول وسط مملكة واسعة فيها أمهر الصناع، أخذ يفحص قطع النسيج بنفسه، يتحسسها ويجذبها ويرى مدى نعومتها ومتانتها، في الوقت نفسه، توقف أمام إحدى القطع، كانت قطعة متوسطة الطول من القماش الحرير ضاربة إلى الزرقة، فيها لمحة من الشجن المخزون، تفحصها قليلا ثم تركها ومضى يتفحص بقية الأقمشة ولكنه عاد إليها، أمسكها ورفعها أمام عينيه وتأمل خيوطها المتداخلة؛ شمسًا زرقاء لا يوجد فيها عيب واضح، وجهها مثل ظهرها بلا شوائب ولا بقايا للخيوط، رفع رأسه وهتف في التجار: من الذي أحضر هذه القطعة؟

تقدم واحد منهم مائل للسمرة وقصر القامة: أنا يا مولاي، وقد أحضرتها من مدينة تنيس في مصر.

قال المهدي: أي مدينة هذه؟ لم أسمع عنها من قبل.

قال الرجل: إنها مدينة صغيرة يا أمير المؤمنين، أو بالأحرى جزيرة صغيرة وسط بحيرة في شمال مصر، وهي مشهورة بصناعة أجود أنواع الأقمشة الحريرية، حتى سفن بلاد الروم تأتي للشراء منها.

عاد المهدي يتأمل القماش وهو يقول: هل يقدرون على صناعة كسوة الكعبة كل عام؟

قال الرجل: يستطيعون صناعة أي شيء، إن لديهم جميعا موهبة فطرية ولدوا بها.

كان موسم الحج على وشك الاقتراب، وكان المهدي قد ذهب إلى مكة في زيارة سريعة ووجد البيت الحرام في حالة مزرية، وعليه عشرات الكسوات البالية الممزقة التي تزحف العثة داخل أنسجتها، كل كسوة جديدة تضاف إلى القديمة فتنقل إليها العثة أيضًا وتتطاير الأنسجة البالية في كل مكان؛ لذلك أمر بإزالتها كلها وأصبحت أحجار البيت عارية للمرة الأولى منذ أمد طويل، منذ أن كساه قصي بن كلاب الجد الأكبر للرسول، عاد الخليفة يسأل: هل يستطيعون كسوتها كل عام؟

قال الرجل: إنه شرف عظيم لا يستطيع أحد أن يتأخر عنه يا أمير المؤمنين.

وفي الحال أمر الخليفة وزيره يعقوب بن داود أن يأخذ وفدا تحت إمرته ليذهب بصحبة ابن جعفر النساج إلى مصر، وأرسل معهم رسالة إلى واليه هناك حتى يسهل مهمتهم. كان يعقوب هو أشهر الوزراء عند المهدي وتوليه هذه المهمة وحده كان دليلا على أهميتها. بدأت الرحلة إلى مصر في الحال، بعد رحلة الصحراء الطويلة استطاعوا الوصول إلى غزة، وبدءوا ينحدرون جنوبا على الطريق الساحلي؛ أقرب الطرق إلى مدينة تنيس على ساحل المتوسط. أرسلوا فارسا ليعلموا والي مصر بالمهمة التي جاءوا من أجلها، بينما ظلوا هم على طريق الساحل وقد بدأت المدن المصرية في

الظهور؛ العريش ثم الفرما ثم العديد من القرى الصغيرة حتى وصلوا أخيرًا إلى حافة بحيرة هائلة. قال لهم ابن جعفر إنها بحيرة تنيس، أعطتها المدينة اسمها. تركوا الخيول وركبوا قوارب الصيد، كانت كثيرة وكان الصيادون يسحبون الشباك مليئة بالأسماك، وكانت هناك قوارب أخرى تسبح نحو الجزيرة مليئة بأقفاص الخضار والفاكهة وقوارب أخرى تحمل المواشي والحيوانات، أحس مندوب الخليفة بأنها ليست جزيرة فقط ولكنها عالم كامل من الخصب، وتأكد من ذلك عندما هبط إلى الشاطئ.

أوقف ابن جعفر غلاما كان يمر بهم راكبا حماره، أخبره بأن يسرع إلى بيت شيخ البلدة ويخبره بأن هناك ضيوفا مهمين من عند الخليفة العباسي قد هبطوا على أرض الجزيرة، وبعد فترة جاء الشيخ مسرعا. كان شيخا ضخما لحيته المسترسلة تسبقه وهو يدق الأرض بعصاه، لم يصدق أنه يقف في حضرة الوزير العظيم، وكاد يغمى عليه عندما عرف أنه مبعوث إليه لعقد صفقة من أجل كسوة الكعبة مرتين في كل عام، صفقة لا تحلم بها أي مدينة كبرى. سار معهم يرشدهم إلى معالم جزيرته، كانت ترسو على الجانب الآخر من البحر سفن أكثر ضخامة، مليئة بالبضائع وقال لهم إن القوارب تنطلق من هذه الجزيرة إلى غزة وجبل لبنان وسواحل الشام حاملة كل شيء تقريبا؛ الغلال والخضار والفاكهة والمنسوجات الفاخرة وحتى الأزهار. ساروا بعد ذلك مساحات ممتدة بمختلف أنواع المزروعات، ممتدة حتى حافة الجزيرة وتكاد تلامس الماء، ثم ساروا إلى غابة من أشجار النخيل العالية تتخللها أشجار التوت الباسقة، هذا هو سر الجزيرة ومصدر قوتها، تلك الدودة النحيلة الملتوية التي تتغذى على أوراق التوت. رأى الوزير الدود وهو يتلوى على غصون الشجر، الآلاف منها وهي تزحف على الأغصان، وأصر الشيخ على أن يشرح للوزير كيف يحصلون على الشرنقة وكيف يقتلون الفراشات بواسطة البخار قبل أن تمزق خيوط الحرير، ولكن الوزير كان مشغولا بحساب كيف يزيد الضرائب على هذه الجزيرة المنعزلة، وأخيرًا اصطحبهما إلى قلب القرية حيث توجد عشرات القاعات الرطبة المليئة بالأنوال الخشبية التي تعمل بدقة ورقة وانتظام وهي تنسج أقمشة الحرير. اجتمع الصناع من كل مكان، واستمعوا للوزير وهو يخبرهم بأن الخليفة شخصيًّا هو الذي اختار نسيجهم كي يكسو به بيت الله الحرام.

وهكذا بدأت تنيس الصغيرة المنعزلة وسط بحيرة في شمال مصر تنتج أكثر الأنسجة تشريفا في عالم الإسلام، وازدهرت القرية وتوافد عليها صناع الحرير والنساجون والخياطون وأرباب الصباغة من كل مكان في مصر، وفي كل عام يقام احتفال ضخم وتقوم القوارب بنقل صندوق الكسوة كي تحمله الجمال إلى مكة في قلب الصحراء. أكثر من ٤٠٠ سنة وتنيس تكسو الكعبة، ولكن الزمن أخذ في التغير وتغير الأعداء أيضًا، لم يعد هناك مغول ولا تتار، هؤلاء الذين يزحفون على الأرض. بدأ أعداء جدد يقبلون من البحر، حملات لا تتوقف تحمل شعار الصليب، وسفن لا تكف عن الإبحار من أوروبا قاصدة الأراضي المقدسة في فلسطين والشام، وقد أدركوا من خلال حروبهم أنه حتى تستقر ممالكهم في الشرق عليهم أولا أن يكسروا شوكة مصر. لم تتوقف محاولتهم للنزول على الشاطئ، وقرر السلطان صلاح الدين أن يحول تنيس إلى منطقة عسكرية، وكان مغرما ببناء القلاع فقد أمر ببناء قلعة وسور حتى لا تصبح موطئ قدم للغزاة، وهكذا مُحيت العديد من الأراضي المزروعة واقتلعت أشجار النخيل العالية وأشجار التوت الباسقة، وامتلأت الجزيرة بالكتل الصخرية، وجاء البناءون ثم جاء الجنود، وبدأ الأهالي يرحلون عن هذه المنطقة الخطرة، حتى أصبحت المدينة خالية

من السكان. ولكن الوضع ظل مضطربا وازدادت هجمات الصليبيين، وحاولت سفنهم الدخول إلى البحيرة؛ فأمر السلطان محمد بن العادل الأيوبي بتخريب تنيس تمامًا؛ هدمت البيوت، وتكسرت الأنوال التي تنتج أفخر المنسوجات، واقتلعت الأشجار وجفت ثمار التوت ونفقت ديدان القز، أصبحت مجرد أطلال صامتة، وبدا واضحا أنها كانت القلب النابض في هذه البحيرة الواسعة.

اختفى اسم تنيس كما اختفت المدينة، وأصبح اسمها بحيرة المنزلة، وتقلص حجمها بعد الردم إلى سُبْع مساحتها الأصلية، وامتلأت بالغاب والأعشاب البرية، وقلت جودة المياه وسكنتها العصابات الإجرامية، وفقدت مصر واحدة من أجمل مدن العالم التي كانت تصنع المنسوجات في العصور الوسطى، وأثبتت أننا قادرون على تخريب أي شيء جميل.. فطوبى لك يا تنيس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

دنانير مغشوشة

مشاجرة في السوق بين جزار وواحد من جنود المماليك، الجزار يريد استعادة اللحم لأن الدنانير التي أعطاها له المملوك مغشوشة، خفيفة وناقصة الوزن ولو ضغط عليها بأصابعه لانكسرت. والمملوك يصر على أن هذه دنانير السلطان فخر الدين عثمان، قبضها بنفسه من مندوب الخزانة داخل القلعة، دراهم جديدة لم تتداول بعد، فكيف تكون مغشوشة؟ طال الجدل بينهما، وفي النهاية انتصر المملوك كالعادة وأخذ اللحم دون أن يدفع شيئا، وشاع الأمر في السوق كله، المماليك يحملون دنانير مغشوشة، وفي الحال سحب التجار بضائعهم وأغلق الباعة الدكاكين وأصبح السوق خاليا لا توجد فيه إلا الكلاب الضالة وبقايا القمامة، وأسفل القلعة اجتمع جنود المماليك. كانوا جميعا قد حدثت لهم وقائع متشابهة، كل الباعة رفضوا قبول الدنانير، رغم أن بضائعهم أخذت رغما عنهم، أمسك الجنود الأكياس فوجدوها خفيفة.

رغم أن سلب الأموال هو مهارتهم الأساسية، لم يتصوروا أن النفقة التي تأخرت عليهم لمدة ثلاثة أشهر يمكن أن تأتي إليهم ناقصة الوزن، لم يتسلطن السلطان فخر الدين عثمان حفيد السلطان قلاوون إلا منذ أيام قليلة، مناسبة مثل هذه كانت تستحق أن يبدر فيها الأموال فوق رءوس الجميع، ولكن هذا لم يحدث. يقال إن الخزائن حين تسلمها كانت فارغة، ويقال أيضًا إنه كان بخيلا فوق العادة، ولكن أن يغشهم أيضًا في النفقة؟ تجمع الجنود وبدءوا يصيحون في صخب وهم يحاصرون القلعة من كل جانب، واستيقظ السلطان مذعورا، كان فقط في التاسعة عشرة من عمره، وينام مؤرقا، وفي الواقع لم يوجد أي سلطان مملوكي يستطيع أن ينام ملء جفونه، فهناك دائمًا تمرد أو محاولة لدس السم في طعامه، أو قطع رقبته، ولم يكن غريبا أن يفاجأ بتمرد الجند وغلق الأسواق، بداية غير مبشرة. استدعى المشرف على بيت المال، قال الرجل: وماذا كنت أفعل؟ الخزائن خالية والجنود مفلسون والناس منهكون من كثرة الضرائب التي تراكمت عليهم، كان لا بد من صك عملة خفيفة يكون الذهب فيها أقل.

لم يكن هناك حل إذًا، الدنانير المغشوشة جاءت من أعلى، ولم يعد السلطان المحاصر قادرا على فعل أي شيء، ولكن الجنود لم يفكوا الحصار، وكانت القلعة تستطيع الصمود طويلا، ولكن الجنود ذهبوا إلى بيت الأتابك؛ أي قائد العسكر إينال العلائي، حملوه على جواده وذهبوا به للخليفة العباسي الذي يقيم في مصر، ومعهم قضاة المذاهب الأربعة، وخلعوا السلطان القديم الذي ما زال جديدا وعينوا إينال سلطانا بدلا منه، أصبح هناك سلطانان، وبدأ القتال يدور حول أبواب القلعة، ومن أجل الاستيلاء على السلطة لا بد من منفذ خلف الجدران الصخرية، لمدة سبعة أيام وهم عاجزون عن اقتحام القلعة.

وفكر السلطان في الاستعانة بقبائل الأعراب في الشرقية والبحيرة، كانت صلته بهم جيدة من أيام أبيه السلطان جقمق، ولكن رئيس حرسه الأمير قاني بك هتف به ساخرا: أتريد أن تأتي بالعربان حتى يحكمونا؟ وانصرف عنه وانضم للثوار، سلمهم باب السلسلة بالقلعة مفتوحا دون أي حراسة، وهكذا تدفق إينال العلائي بجنوده، وانضم إليهم جنود فخر الدين عثمان، لا أحد يريد أن يقبض دنانير مغشوشة، وتم إنزال السلطان من القلعة مقيدا بالسلاسل بعد أن حكم مصر لمدة ٤٢ يوما فقط. كان يبكي ويرتعد، كان غلاما لم يبلغ العشرين من عمره بعد، وضع دون أن يدري في طاحونة الحكم

الضروس، لم يشأ السلطان الجديد قتله، ولكنه أرسله بعيدا إلى سجن الإسكندرية؛ واحد من أسوا السجون ومن النادر أن يعود شخص منه على قيد الحياة، ولكن فخر الدين استطاع أن يقاوم؛ قاوم التعذيب واعتداءات المساجين، وقرض الفئران، ولحسن حظه لم يصب بالطاعون، وعندما رحل السلطان وجاء سلطان آخر أفرج عنه بعد عدة سنوات، ولم يصدق أنه يعود للشمس والهواء الطلق من جديد، وظل يتجول مذهولا في شوارع الإسكندرية يعيش على صدقات المحسنين، رافضا أن يمسك دينارا أو درهما في يده، تحولت ثيابه إلى أسمال، وغطى جسده تراب الطرقات.

عندما جاء السلطان قايتباي للحكم أراد أن ينقذه من هذه الحياة البائسة، كان من مماليك أبيه، ولم يرد أن يرى ابن أستاذه مهانا، استدعاه إلى القاهرة وأعطاه جوادا وكِسْوات ومالا، ولكنه رفض أن يلمس المال، ولم يرد أن يتولى منصبا داخل القلعة، أراد فقط أن يبتعد عن أسوارها. لجأ للجامع الأزهر، يدرس مع الطلبة والمجاورين ويعيش على خبز الجراية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ابن الطبال

في منتصف رمضان، بعيدا عن ليلة القدر، وعن أي ليلة مقدسة أخرى، كان ابن الطبال يمارس مهنته مثل كل عام، يدق الطبلة بقوة ليوقظ كل النائمين كالموتى: السحور يا عباد الله، ثم يذكر كل الأسماء التي يحفظها، كل أسماء سكان حي الخليفة الأحياء والموتى، الأرواح دائمًا حاضرة، كانت الطرقات الضيقة كلها منيرة، كل بيت وُضِعَ أمامه سراج صغير ممتلئ بالزيت حتى يظل مشتعلا حتى الصباح، شيء من سحر رمضان. في حارة شبه مسدودة رفع يده ليدق الطبلة ولكنه توقف مذهولا، كانت هناك عصبة من جند المماليك يتعاركون معا؛ أربعة فرسان؛ اثنان يمسكان بذراعي الثالث حتى يشلا حركته والرابع يوجه لبطنه طعنات نافذة، رأى ابن الطبال وجه الرجل وقد تجمد، لم تخرج الصرخة من فمه ولكن انفجر من بطنه شلال من دم، شهق مرعوبا، وخرجت صيحته عالية جعلت القتلة الثلاثة يلتفتون نحوه، وتركوا القتيل يهوي على الأرض. رأى ابن الطبال سيوفهم وهي تخرج من أغمادها، متوهجة تحت أضواء السراج. أسرع يعدو وهم خلفه، المصادفة قادته للمكان الخاطئ، وشهد ما لا يجب أن يشاهده، كان يلهث دون أن يستطيع التوقف، ميزته الوحيدة أنه يعرف مسالك هذه الحارات جيدا، حتى الجزء المظلم والموحل منها، كان أشبه بمتاهة لا يعرفها سوى أهلها، بعد فترة اختفى وقع أقدام مطارديه، وساد هدوء ما قبل الفجر على الحواري، لم يجرؤ على دق الطبلة، ولم يكن يعرف أحدا من المماليك الأربعة، ويتمنى ألا يعرفوه، انصرف إلى منزله وهو يرتعد، وقلبه يدق مع كل صوت.

جاء الصباح فإذا المدينة كلها تعيش حالة من الرعب، فرسان المماليك يهبطون من القلعة بأعداد هائلة، ينتشرون في الشوارع والأزقة، يغلقون المحال والأسواق، ويضربون كل من يقابلهم بالسياط، وسار ابن الطبال بجانب الحائط مرعوبا، لا يريد أن يراه أحد حتى وصل إلى بيت شيخ طائفة المسحراتية، كان الرجال في مجلس بيته بجانب النافذة، يراقب حركة المماليك في الشارع، وقال لابن الطبال: عندما ينتابهم الجنون يمكن أن يفعلوا أي شيء.

قال ابن الطبال وهو يرتعد: لقد رأيتهم بالأمس قبل الفجر في حي الخليفة.

هز الشيخ رأسه هازئا: ماذا؟ هل كانوا يصلون الفجر حاضرا؟

هز ابن الطبال رأسه: كانوا يقتلون واحدا منهم.

ترك الشيخ النافذة وحدق فيه: هل رأيت القتيل؟ هز رأسه بالإيجاب، قال الرجل: هل تعرفت على وجهه؟ قال ابن الطبال: وكيف لي أن أعرفه؟ كان مملوكا مثلهم أكثر سمنة، وله وجه شديد الإحمرار، ولا بد أنه كان معبأ عن آخره بالدم.

قال الشيخ: أتعرف من كان هذا؟ الأشرف العلائي الجودري سلطان مصر.

قال مندهشا: وماذا يفعل السلطان في حي الخليفة؟

قال الشيخ في اقتضاب: مصيره التعس.

وظل الاثنان صامتين، وعاد الشيخ يراقب حركة الخيول، ويشاهد الجنود وهم يختارون بعض البيوت ليقتحموها، وعاد يلتفت للمسحراتي: هل شاهدك أحد منهم؟

أحنى ابن الطبال رأسه: شاهدوني وطاردوني، ولكني أفلت منهم في الحواري المظلمة.

قال الشيخ: يا للمصيبة وسكت، ولكن أعداد فرسان المماليك كانت في ازدياد، ألوان ملابسهم مختلفة؛ مما يعني أن كل طوائفهم قد تركت القلعة وهبطوا إلى الشوارع، وراقبهم ابن الطبال بعض الوقت: هل يبحثون عن القاتل وهو منهم؟

قال الشيخ في برود مميت: أو ربما يبحثون عنك، لا أحد يحب أن يكون هناك شاهد على جريمته.

ارتعب المسحراتي ونهض واقفا، أحس بأن المماليك يعلمون بوجوده، وأنه من الممكن أن يهاجموا البيت في أي لحظة، قال في يأس: وماذا أفعل يا شيخنا؟

قال الشيخ: اختبئ ولا تظهر إلا بعد زوال الغمة.

قال: وماذا عن الذين ينتظرون أن أوقظهم للسحور؟

قال الشيخ وقد نفد صبره: فليصوموا دون سحور، أو ليفطروا.

انصرف مخلوع القلب، يحاول أن يتوارى خلف أي شيء، ترك خلفه كل الأحياء القديمة وذهب إلى حافة النيل وقفز في أول مركب على وشك الإبحار حتى يلقيه في واحدة من قرى الصعيد، وهدأت نفسه أخيرًا.

ولكن القاهرة لم تهدأ، انتشرت حكاية المسحراتي الذي رأى كل شيء في كل مكان، وزاد هياج الجميع؛ أنصار السلطان المقتول يفتشون في كل مكان للعثور على هذا الشاهد الوحيد، قبضوا على شيخ طائفة السحرتية وضربوه ضربا مبرحا، وعرفوا مكان المسحراتي واقتحموا بيته، ولكنه لم يكن موجودا، وفي الوقت نفسه كان أنصار القاتل يقلبون الأرض بحثا عنه ليتخلصوا منه، خاصة بعد أن عرفوا أنه شاهد وجه أميرهم، وحدث الأمر نفسه مع قاضي القضاة الذي جمع قضاة المذاهب الأربعة وقال لهم: سيطلبون منا أن نولي سلطانا جديدا، ولا نريد أن يكون هذا السلطان هو القاتل؛ لذلك اعثروا على هذا الشاهد قبل أن يجدوه. وانتشر أتباع القضاة من ذوي العمائم وطلاب الأزهر يشاركون في البحث، ولم يعجب الحال فتوات الدرب الأحمر فأرسلوا لفتوات بقية الأحياء واجتمعوا كلهم تحت الربع وصاح كبير الفتوات: إنهم يبحثون عن ابن بلدنا ليقتلوه لأنه شاهد حق، ولن نسمح بذلك، يجب أن نحميه قبل أن يقبضوا عليه، وانطلقوا هم أيضًا يبحثون عنه.

مرت أيام رمضان سريعا وجاءت ليلة القدر وانقضت دون أن يشعر بها أحد، وأصبح العيد على الأبواب وكان على أمراء المماليك أن ينهوا خلافاتهم التي لا تنتهي ويختاروا سلطانا جديدا، ولم يكن هناك إلا الأمير جقمق أتابك العسكر، الغاضب دائمًا. كان أقواهم وأقدرهم على تحريك الجنود للقتال، ويمكن أن يسبب المشاكل لأي سلطان غيره. انتهى الصراع، وبدأ وقت الاحتفال، وخرج المسحراتي من مخبئه وعاد إلى المدينة التي هدأت أخيرًا وإلى مسكنه الخالي بصحبة طبلته التي لا يفارقها أبدًا. وعندما جاء موعد الاحتفال بتنصيب السلطان الجديد هبط مثل الجميع إلى ساحة القلعة، كانت

الرايات الملونة تملأ الساحة، وقارعو الطبول في كل مكان ودفعات متتابعة من الحمائم البيضاء تتدفع محلقة من خلف الأسوار، ثم دقت الصنوج عالية إيذانا بنزول السلطان من على سلم القلعة حتى يراه الجميع. كان ينزل بتمهل الواثق من أن الجميع شغوفون لرؤيته. كان يلبس عباءة من فراء السمور، ناعمة ولامعة ولا مثيل لها، يتابعه حامل المظلة يوجهها نحوه حتى لا تسقط الشمس على وجهه، ورغم الزحام وتدافع الأيدي استطاع المسحراتي أن يقف ويرى وجهه بوضوح، رفع يده وأخذ يدق الطبلة، رغم الهتاف ودق الصنوج وحمحمة الخيول فقد ارتفع صوت الطبلة عاليا، توقف السلطان مصدوما، وارتبك حامل المظلة، وبحلق كل أمراء المماليك في بعضهم البعض، وضرب القضاة الأربعة كفًّا بكفٍّ. أدركوا جميعا أن الشاهد الوحيد قد ظهر، وأنه قد تعرف على القاتل، وأنه يعلن عن ذلك من خلال هذه الدقات، وهتف قاضي القضاة حانقا: لو أن هذا المسحراتي ظهر مبكرا بعض الشيء ما ولينا هذا الرجل سلطانا علينا.

السلطان غاضبا

يطل السلطان «الظاهر جقمق» من نافذة مجلسه على ساحة القلعة، مماليك شبان يتدربون، سيوفهم حادة، حين تصطك يتصاعد من نصالها شرر خفي، سيوف حقيقية وتدريبهم أقرب للقتال الحقيقي، يخرجون ما في داخلهم من حنق ورغبة وطموح. تتعالى صرخاتهم حين يصابون بجروح صغيرة، تتناثر حبات عرقهم مختلطة بنثار من دم. صراع يومي، يظلون هكذا حتى بعد أن يكبروا ويتحولوا إلى أمراء. الصراع هو الذي يزكي حياتهم، يموت معظمهم وهم صغار دون أن يعرفوا سكون الشيخوخة، ولكن من منهم سيخون أولًا؟ وسط كل صديقين منهما يوجد خائن، وخلف كل صاعد للعرش يربض طامع. يجلس السلطان على حافة الثقة والشك، الرفاق موسومون بطابع الخيانة، ولا بديل أمامه سوى القتل، الصديق الذي يوثق به فقط هو الصديق الميت.

يرفع رأسه، يراقب والي الشرطة، يدخل كعادته دون صوت إلى داخل القاعة، يقف بعيدا بالقرب من الباب، متهيئا للفرار إذا ما ثار السلطان غاضبا، يحدق فيه «جقمق» بوجه جامد وعيون نافذة، ربما لم يكن عليه أن يختار واليا للشرطة على هذه الدرجة من الجبن، يسمع صوته وهو يقول: هرب أتابك العسكر إلى الشام.

يجتاح الغضب السلطان. يصيح فيه: كيف يهرب منك؟ ألم أطلب منكم أن تأخذوه بغتة؟ أين كان البصاصون الذين لديك؟

يتراجع والي الشرطة للوراء، يقف على حافة الباب، يقول: هم الذين أبلغوني بهربه، هناك من حذره من هنا، من داخل القلعة.

خائن آخر، لا ينتهي عدد الخونة، يقول السلطان متشككا: من أدراك أنه فرَّ إلى الخارج؟ ربما كان مختبئا، كامنا في مكان ما حتى يضرب ضربته.

يرتبك صاحب الشرطة، يدرك السلطان أن كل ما لديه هي معلومات غير مؤكدة، ربما أخبره البصاصون بذلك حتى لا ينهكهم في البحث، يصيح فيه وقد شاهد ارتباكه: اذهب وابحث عنه جيدا، لا

أريد أن أجده بجانب فراشي في الليل، يراقب والي الشرطة وهو ينصرف ويحمد الله أنه خرج على قدميه.

يقبل عليه الليل محملا بكل المخاطر، وهو وحيد كما لم يكن من قبل، ينصرف الجميع من مجلسه؛ أصدقاء ومغنون وشعراء، يخبرهم الحراس بأنه معتل المزاج. كان «الأتابكي» هو نديم كأسه ومحل سره، أخرجه «جقمق» من السجن الذي وضعه فيه السلطان السابق، جعله مقدم ألف، ثم أتابكًا للجيوش، كان ظهيره الذي أقسم ألا يخونه أو يوالس عليه، ولكنه فعلها، حشد جنده في ليلة مظلمة لينقض عليه، لكن عيون السلطان كانت أسبق. قبض على القتلة قبل أن يتحركوا، وفرَّ الأتابكي في اللحظة قبل الأخيرة. إلى من يأمن المرء إذا كان بعض من نفسه يخونه؟ يسير السلطان إلى جناحه، لا يكلم أحدا، يدخل إلى جناح نومه فيجد فتاة صغيرة في فراشه، طازجة وجميلة لم يرها من قبل، من المؤكد أنها ما زالت عذراء، يتذكر أن هذه ليلة الخميس، كما تعود في كل أسبوع يحضرون له فتاة عذراء، لا تجرؤ أي من الجواري والمحظيات القدامى على الاقتراب من جناحه، ولكن هذه الفتاة كانت أجملهم، هادئة ووديعة لدرجة تثير القلق، تحدق فيه بعينيها الواسعتين اللتيْن تحتلان معظم وجهها، يجلس أمامها محدقا في وجهها، يأمرها أن تخلع ثيابها، تفعل ذلك وهي ترتجف تحت أنظاره. كان الفراش باردا، يتفحص جسدها، هل خبأت فيه أي سلاح خطر؛ قطعة سم أو مخدر؟ لم يعد يأمن لشيء، يأمرها بالانصراف، ربما دسها عليه واحد من الخونة، لن يضاجع الليلة إلا الكوابيس، يطفئ الشموع ويجلس في الظلمة، لا يواتيه النوم، يتقلب في الفراش حتى يشعر بالوهن، لو جاء القتلة الآن فلن يمنعهم أحد؛ خائن هارب، وآخر في القصر، وربما ثالث تحت فراشه، من الخطر أن يكون وحيدا في ليلة كهذه، لا بد أن يدفع أحد ثمن كل هذه الخيانات، ينهض، يرتدي ملابس سوداء، ويضع على رأسه عمامة صغيرة، يهبط سلمًا حجريًّا يقوده إلى الإسطبل، يستيقظ السياس فزعين، يطلب منهم أن يعدوا له جوادا دون فضة ولا زرد، مجرد سرج من الجلد، يفتح باب القلعة ويخرج منه بلا جلبة ولا أبهة.

يترك جقمق نفسه لليل المدينة وطرقها الضيقة ورائحتها التي تعبق أنفه، كان يعرف الدروب جيدا حتى في أشد الليالي ظلمة، يعرف أماكن السهر ومواخير بائعات الهوى والكمائن التي يقيمها اللصوص، سار متمهلا بجواده، يدرك أنه سوف يقابل «الأتابكي»، هو شخصيًّا سيكون الطعم الذي يخرجه من مخبئه. يجلس في أول مقهى صادفه، يظل شاردا والحركة تموج من حوله، بائعو حمص الشام والبليلة وحلوى البسبوسة والقرنفل والمزهر، زبائن يتصايحون بصوت عالٍ ويحكون عن أدق علاقتهم مع حريمهم، غجرية ترقص في ساحة قريبة، وشيخ أعمى يعزف على الربابة، بائعة فل نحيفة كعصاة تتمسح به، شحاذون يتجولون وسط المقاعد، وشيوخ معممون يؤكدون أن ساعة القيامة قد حانت، ألعاب الليل التي يمارسها الجميع كلما هبط الظلام، بعد ذلك سيذهبون للنوم دون أحلام ولا كوابيس، هو الوحيد الذي له عدو مختبئ بينهم، يتواطئون معه، وأنه لم يهبط هذه الليلة إلا ليقابله.

يقترب منه رجل لا يشبه «الأتابكي» كثيرًا، يقول له باختصار: عندي طلبك، ما النوع الذي تفضله: رومية، أم حبشية؟ ينظر إلى الرجل طويلا، هل يتلاعب به؟ يقول السلطان: أريد رجلا، يحدق فيه مندهشا، يقول: لم أتصور أنك من هذا النوع، أنت ضخم وقوي، ولكن المظاهر خادعة. طلبك عندي رغم ذلك، اتبعني، يعطيه بعض النقود ويسير خلفه، يدخلان حارة ضيقة، يتوجهان إلى بيت معلق

عليه قنديل مشتعل، البيت الوحيد المضاء، يدخل إلى حوش واسع تحيط به شرفات علوية، يقول الرجل: انتظر هنا قليلا، سأوفر لك طلبك. يختفي داخل رواق معتم، يظل السلطان واقفا متوفزا، يتأمل لهب القنديل المتراقص، يتلوى مثل لسان الأتابكي وهو يتلو عهود الخيانة، تتناهى إليه تأوهات وضحكات ماجنة، يقشعر جلده ويرتجف، ماذا سيفعلون إذا عرفوا أن سلطان مصر والشام يقف في فناء دارهم؟ يعود الرجل ومعه رجل أسود اللون فارع الطول، لا يشبه أمير الجيوش كثيرًا ولكنه هو، مهما تنكر فلن يكون أفضل من هذا، حان وقت تصفية الحساب والتخلص من عدو مؤكد، قبل أن يتبادلا كلمة واحدة يرفع السلطان سيفه ويهوي على الرجل الأسود، ضربة قاضية لا تحتاج لأخرى، يشهق مباغتا، يقع على الأرض بينما تتشنج مفاصله، يهتف الرجل الآخر مذعورا: ماذا تفعل يا أحمق؟ لقد قتلت متعتك، يستدير نحوه ويغرس السيف مباشرة في عنقه. خائن آخر، يتحشرج صوته وهو يهوي. يشعر السلطان ببهجة غريبة وهو يرى الدم يغطي صفحة سيفه، يسير إلى خارج البيت ويهوي به على أول رجل يقابله، يسير متجها للمقهى الذي كان يجلس فيه منذ قليل، مسافة بالغة القصر ولكنها امتلأت بثلاث من الجثث، كشف عن وجهه وهو يدخل المقهى، كان يصرخ في انتشاء وهو يهوي بسيفه على كل من يجده أمامه، لا يبالي أين يقع ما دام يعود إليه مخضبا بالدم. صاح أحدهم وهو يفر: إنه يشبه السلطان، وصاح آخر إنه السلطان وقد أصابه السعار، أخذ الجميع يعدون، كلهم يشبهون «الأتابكي»، لن يتخلصوا من ملامحه إلا بعد أن يتحولوا إلى جثث، أجساد مطروحة فوق المقاعد وعلى الأرض، دماؤهم سوداء كلون الليل، لا يجرؤ أحد على اعتراضه وهو يسير نحو جواده، لا يتبعه أحد وهو يدخل من باب القلعة الرئيسي، يتنفس في ارتياح بعد أن يغلق الباب خلفه، الجميع دفعوا ثمن حنقه وغضبه، يسير متجها إلى جناحه غارقا في العرق، ملوثا بالطين والدم، أشعث بشعا، يقتحم جناح الحريم ويصرخ فيهن: والآن.. أين الجارية التي كانت في فراشي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

العرقانة

.. لكن المساجين نقبوا جدار العرقانة، ثم هربوا.

لم يعلن أحد هذا الخبر، كان الباشا مذعورا، وجنود الإنكشارية والينجرجية أشد رعبا، انتشروا في المدينة يهاجمون كل البيوت، لم يقولوا السبب، ولكن الناس كلها كانت تعرف أنهم يبحثون عن سجناء العرقانة. انتشر في المدينة إحساس خفي بالغبطة، لا تفسير له، فلم يكن أحد يعرف من هم بالضبط المساجين الذين هربوا. قد يكونون بعض أمراء المماليك الذين تمردوا على السلطان وحاربوا معركتهم الأخيرة الخاسرة أو باعهم زملاؤهم لقاء كيس من الدنانير وحفنة من الشعير. قد يكونون من العربان الذين يتعرضون لقوافل الحج، أو من أولاد الناس الذين يبقون طلقاء أو من شيوخ الأزهر الذين رفضوا أن يعطوا الوالي الفتوى التي يريدها ليأكل بها أموال اليتامى، أو يكونون من مظاليم الناس الذين سجنوا بلا سبب وما أكثرهم. قد يكونون أي شيء، ولكنهم نقبوا جدار «العرقانة» فتحوا فيها طاقة تنفذ منها الشمس والرغبة في الحياة.

«العرقانة» قطعة من الظلام البهيم، تفوح من تحت أبوابه رائحة الطاعون وكان الذين يدخلونه سواء أكانوا سجناء أم مسجونين لا يرون الشمس مرة أخرى إلا جثثا هامدة، ولم تكن المسافة بين العرقانة وكرسي الباشا في القلعة كبيرة، كانت أشبه بخطوة مختصرة تدخل الرِّجل من الديوان إلى الزنزانة، وسواء أرسل منافسه من يقوم بخنقه أم لا، فالعرقانة تقوم بالمهمة.

والغريب أن المساجين لم يذهبوا إلى بطن الجبل، ولا إلى أقصى الصعيد ولكنهم ظهروا وسط شوارع المدينة بملابسهم الرثة وعيونهم الغائرة ووجوههم التي تكسوها مسحة من الحزن والموت. وأسرع الناس يحتضنونهم، ويقدمون لهم الطعام والمأوى وانتشر جنود الباشا مرة أخرى فلم يجدوا شيئا، وأصبح الذين نقبوا «العرقانة» أغنية على لسان الأطفال، ونفحة من الأمل في أن الحياة يمكن أن تستمر رغم وجود سجن «العرقانة». ذاب المساجين في الناس، ولعل بعضهم قد عاد لارتكاب جرائمه مرة أخرى، ولعل بعضهم خان الأمانة أو غدر بمن آواه، ولكنهم ظلوا في الشارع وسط الناس، يقولون لهم إن الدور قد حان على القلعة، من الذي ينقبها وينفذ إلى كرسى الباشا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

بركاتك يا شيخنا

السلطان «الغوري» غريق وتعلق في قشة، جاء إليه صديقه «ابن الرماح» وأخبره أن الشيخ الدشطوشي قد عاود الظهور، وفي أول الأمر لم يصدق السلطان، فذلك الولي الطيب المليء بالبركات الذي كان السلطان يتفاءل به كثيرًا قد مات، ومنذ أن مات والمصائب تتوالى على رأس السلطان، فلا تكفي متاعبه الداخلية مع الأمراء والمشاكسين، ولكن ها هو ابن عثمان يخترق الحدود ويجتاح المدن. ولكن ابن الرماح قال في تأكيد: إنه ولي من أولياء الله يا مولاي، والأولياء لا يموتون، إنهم يأخذون فقط سنة من الراحة ثم يعاودون الظهور، وهو يظهر كل ليلة في القرافة في حضن المقطم.

وقال السلطان في لهفة: أريد أن أراه.

وفي الليل سار السلطان وابن رماح وحيدين وصعدا في طرقات جبل المقطم الصعبة ثم انحدرا إلى القرافة الكبيرة التي يعتقد الجميع أن يوم البعث سوف يبدأ منها، وظلا يقتربان حتى وصلا إلى زاوية مهجورة من زوايا الدراويش، وهناك وسط الظلام الذي كان يخيم على كل شيء، رأى السلطان شخصا جالسا، وارتجف بشدة حين اكتشف أن هذا الشخص هو فعلا الشيخ الدشطوشي، وهبط من على فرسه وهرع مهرولا. كان الشيخ جالسا ورأسه في عبه، انحنى السلطان في تواضع جم وقبل أقدامه المليئة بالأوساخ والعطانة، كان مستعدًّا لتحمل أي شيء، وأخذ يهتف: يا سيدي الشيخ باركني، ساعدني في حملتي ضد ابن عثمان.

ولكن الشيخ استدار بعيدا عنه وهو يهتف في صوت حازم: وأنت ما ترجع عن ظلم العباد؟

وزاد هذا الإعراض من توسل السلطان فأخذ يقول: الرعية طماعة يا شيخنا، وأنا سلطان طيب القلب ووراني حرب.

كان السلطان الطيب القلب قد احتكر تجارة الملح والسكر والخمور في طول البلاد وعرضها، وفرض المكوس الباهظة على القوافل والضرائب على الفلاحين، كان يترجم كل ثانية من ثواني حكمه إلى دنانير لا يكف عن جمعها في شراهة، مشكلته هي فقط ابن عثمان الذي يريد أن يأخذ منه الدجاجة التي تبيض ذهبا، ولكن الشيخ الدشطوشي لم يكن ينوى مساعدته، كان دائم الاعتراض، وأخرج السلطان كيسا كبيرا فيه ألف دينار من الذهب، ولأن السلطان كان بخيلا فقد تمزق قلبه والشيخ يُعرض عن الكيس، فأخذ يقول له متوسلا: فرِّق ذلك على الفقراء.

ولم يرضَ حتى بعد أن أخرج السلطان الكيس الثاني، وظل معرضا حتى برز الكيس الخامس، وأدرك الجميع أن السلطان لم يعد في وسعه أن يدفع المزيد، ساعتها رضي الشيخ عنه قليلا وقال متلطفا: اذهب فسوف تهزم العثمانيين.

وقبل السلطان يده فرحا ثم امتطى جواده وانصرف إلى قصره، وقد أيقن من النصر الذي لم يكلفه إلا خمسة أكياس ذهبية.

ولكن الحراس قبضوا في اليوم التالي على ابن الرماح شخصيًّا وهو سكران في إحدى الحانات، كان ينفق الذهب بسخاء ويحكي كيف خدع السلطان وأحضر له شخصا يشبه الشيخ الدشطوشي، وكيف جعل السلطان يقبل قدميه المتسختين. واغتاظ السلطان، فأمر بالقبض على الذين خدعوه، وضربهم بالمقارع بين يديه، ورسم بحلق ذقن ابن رماح والشيخ المزيف وإشهارهما في القاهرة على حمارين، ثم وضعوهما في سجن المقشرة، وماتا معًا في نفس اليوم الذي سافر فيه السلطان إلى حرب ابن عثمان، ماتا قبل أن يشهدا هزيمة الغوري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آخر السلاطين

فتح السلطان «طومان باي» عينيه للمرة الأولى فجأة فوجد شيخ العربان يحدق فيه، لا تضيء الخيمة إلا شعلة واحدة، ينعكس لهبها في حدقتي الأعرابي فتبدوان عميقتي الغور، مفعمتيْن باحتمالات الولاء والغدر، يقول في همس: أرى أنك ما زلت عاجزا عن النوم يا مولاي.

يرد السلطان في ضيق: بعد كل ما مرَّ بي، كيف يمكن أن يأتيني النوم؟ يكفي أن أشم رائحة الدم والبارود التي تنبعث من ثيابي حتى تتبدد راحتي.

أصبحت هذه هي رائحته الدائمة، ثلاثة أشهر وهو يخوض هذا الكابوس، يدافع عن عرش لم يكن يريده، معلقٍ في عنقه مثل ذنب أزلي. يقول الأعرابي حسن بن مرعي: لقد حاربت بما يكفي يا مولاي، أخذت نصيبك من الكر والفر، وآن لك أن تعطي جسدك الفرصة ليرتاح، هل أحضر لك امرأة تشاركك ليلتك؟

يحدق فيه مستغربا ومندهشا، سؤال لا يحتاج لإجابة، لا المكان ولا الزمان يسمحان بذلك، يفهم ابن مرعي مغزى نظرته: أعرف أن الأمراء والسلاطين لا ينامون إلا في أسرَّة مليئة بالسراري والجواري، قال طومان: أنا لست في حاجة للنساء، أنا في حاجة للأمان.. يقول ابن مرعي بسرعة: كل الأمان لك بين قومي وتحت خيمتي.. يحمل المشعل ويرفع طرف الخيمة ويخترق الليل، يسود ظلام كثيف، يجعله لا يرى بقية جسده، هذا الأعرابي هو الملجأ الاخير بعيدا عن جنود العثمانلي، فهل تعمى أعينهم عن هذه الخيمة؟

يغمض عينيه، فتتدفق من خلال الظلمة كل الحوادث الجسام التي أطاحت بعالمه المستقر، عندما دوت مدافع بني عثمان في الشام تردد صداها في القاهرة، اهتزت البيوت والتكايا والمساجد وكساها البارود. زحفت العتمة على مدينة الزمان، يخرج عمه السلطان الغوري حتى يقابلهم في الشام وهو لا يكف عن الهمهمة: «يا بصير.. يا بصير». يخوض في ظلمته الخاصة. فعليًّا لم يكن يرى شيئا، لا يجرؤ أحد على أن يكتشف أن السلطان الذي حكمهم طوال هذه السنوات لم يكن يرى من يحكمهم أو يسرقهم، كان يغش أكبر تجار الغورية دون أن يجرؤ أحد منهم على اعتراضه، يجمع أكبر جيش من رجاله، ويأخذ كل أمواله ونفائسه، ويصادر كل ما يقدر عليه من ذهب من بيوت خاصته، يقوده قدره الأعمى إلى «مرج دابق»، يسمع دوي المدافع دون أن يراها، ودون إرادة منه يركض جواده بين صفوف الأعداء قبل أن يهجم جيشه، ويتكفل قائده خاير بك بالتقهقر ليترك ثغرة في قلب الجيش. يا بصير، لا يبصر جثته أحد، تنسحق وسط آلاف الجثث التي سحقها البارود وسنابك الخيل، لا يبقى إلا أمير الغيبة طومان باي الذي عينه عمه ليرعى عرشه في غيبته، لا يبقى إلا جيش ممزق مهزوم وخزائن خاوية ونفوس راجفة، لم يكن يريد شيئا من كل هذا، كان متأكدا أن من خانوا خاله سيعودون لخيانته هو أيضًا.

ظل يتأبى على العرش، ولكن البلد كان ينهار؛ الأسواق تنهب، والبيوت تقتحم، والجوعى يتصارعون على الفتات، نشبت الحرب في الداخل قبل أن يأتي العدو من الخارج، يجتمع كل الأمراء عند شيخ مبروك ويقسمون على المصحف ألا يخونوه، ولكنهم كانوا عازمين على أن يخونوه، حتى «جان

بردي الغزالي» الذي قاد قواته تركها عند غزة وفرَّ هاربا، يقبل عليه بقية الأمراء مرعوبين، يثنون من عزمه عن ملاقاة العدو خارج الحدود، كلما جمع جيشا هزمته الخيانة، جيش السلطان العثمانلي لا يكف عن التقدم، لا تقاومه حتى الرمال، تهبط الأمطار فتتماسك رمال سيناء، يعبرونها بسهولة دون عاصفة واحدة.

كان يمكن لطومان باي أن يخونهم جميعا، أرسل السلطان سليم إليه خطابا يدعوه للدخول في طاعته وسيبقي عليه آمنا، من الممكن أن يقبل، ولكنه لم يكن خائنا، ولم يرد أن يخون، كان مصيره أن يقاوم. نظرات الناس المتعلقة به في الطرقات، وأدعية المساجد له بالنصر، والذين يريدون أن يحاربوا خلفه بعد أن تخاذل الجند، كلها تطالبه بأن يقاوم، يأخذهم جميعا خارج القاهرة في الريدانية ومكانها العباسية الآن، يأمر كل مشاغل الحديد في البلاد أن تصنع مدافعَ، يعطي الأمراء الخونة فرصة أخرى لعلهم يغسلون عارهم، كان في الرابعة والأربعين، واقعيًّا وواهمًا في الوقت ذاته، مصرًّا على مواصلة الحياة لدرجة الموت، لا ييأس من طلب الانتصار؛ خلاصه الأخير من كل الخيانات، الحرب المستحيلة المتواصلة هي التي يولد منها النصر، حتى ولو كان ضئيلا، سيوقف بني عثمان، سيحرمهم من التقدم ومن العودة أيضًا. يقرر أن يحفر خندقا طويلا بينه وبين قواتهم، ربما يكون قبرا لهم وللخيول التي تحملهم، لا يحث الجنود فقط على مواصلة الحفر ليلا ونهارا، لكنه يهبط معهم، يحمل أجولة الأتربة فوق ظهره، تتعفر لحيته وتتسخ عباءته، لا يسترد أنفاسه إلا بعد أن يرى الخندق وقد اكتمل، ثعبان طيب يلتف حول مقدمة جيشه ويعطيه مناعة طبيعية، يراقب في اطمئنان جحافل بني عثمان وهي تقترب من الفخ، ولكنها والحسرة تعتصر قلبه لا تقترب، تتوقف، وتتجمع، وتستدير مبتعدة، تذهب بعيدا عن ملاقاته. مرة أخرى أخبرت طيور الخيانة سليما عن مواقع جيشه، عن خندقه، عن كامل خطته، أعطته أيضًا الطريق البديل؛ دائرة كاملة من الغدر، طريق يدور حول المقطم ليفاجئه من الخلف. يخوض طومان باي معركته دون أن يعترف بأنها محكومة بالخسارة، يأمر قواده بالاستدارة، ويقفز بجواده وسط جنودهم قاصدا خيمة السلطان، يشق بسيفه رأسا عليها عمامة ضخمة تتوسطها زمردة زرقاء، لكنها لم تكن رأس السلطان، كانت رأس الرجل الثاني؛ الوزير، الصدر الأعظم، لو صحت ضربة السيف لانتهت المعركة، لو استطاع أن يشعل مدافعه لحصد جموعهم، ولكن المدافع كانت ثقيلة، مغروسة في الرمل بدرجة مريبة، لم ينطلق من المدافع المائة إلا مدفع واحد، لمسة خيانة أخرى حتى تكتمل الصورة، كل الذين أقسموا على المصحف، تخلوا عن قسمهم، عن البلد الذي كانوا يحكمونه، وفضلوا أن يسيروا أذلاء في ركب بني عثمان.

يخسر معركته الأولى، ولكنه يظل يعتقد بأنه في حاجة إلى ضربة واحدة تمكنه من كسب هذه الحرب؛ رأس السلطان، يقاوم لثلاثة أشهر، في كل مرة يكون أقرب ما يكون إليه، ولكن قدره يقاومه، يحتل الإنكشارية مساجد المدينة، يصعدون إلى مآذنها، يقتنصون الناس بطلقات الرصاص، كل يوم تشهد شوارع المدينة مذبحة جديدة، تزهق أرواح العشرات والمئات والآلاف؛ كأنهم يسعون لإفناء الجميع وليس جنوده فقط. يدفع الجميع ثمن هروبه من دمائهم، يذوق طعم الخسارة قبل أن يخوض أي معركة، يصبح سيفا وحيدا مثلوما ومطاردا، لا مكان له إلا بين العربان الذين يسكنون الصحراء، بعيدا عن أعين الترك، ومخالبهم، يبحث عن واحد لن يخونه، شيخ العربان حسن بن مرعي، كان خاله السلطان الغوري قد سجنه طويلا، ولولا أن طومان باي توسط لبقي في سجن «العرقانة» حتى

يتعفن، لكنه توسط له وأخرجه للشمس والحياة، أعاده إلى قبيلته، كان مدينا له بحياته وحريته، وكان هو فرصته الأخيرة؛ من أجل هذا لجأ إليه، دخل إلى خيمته، وأغمض عينيه.

ولكن عندما فتحهما للمرة الثانية، كان الإنكشارية حاضرين فوق رأسه، أغمض عينيه وأعاد فتحهما فلم يختفوا، كيف جاءوا بهذه السرعة؟ هل تتبعته الطيور الخائنة إلى هذا المكان؟ ينهضونه في عنف ويفتشون ثيابه، يضعون قيدا غليظا حول رقبته ويجذبونه خارج الخيمة، ينظر إليه جواده في دهشة، ويتبعه حسن بن مرعي وعلى وجهه ابتسامة غريبة، دون رثاء أو تشفٍّ، يسير بجانبه عدة خطوات، يبادره بالقول: أنا الذي وشيت بك منذ اللحظة التي وطئت فيها أرض القبيلة، وقد أرسلت نجابا لسلطان الترك. أعرف أنك قد أخرجتني من السجن، ولكني لن أدعك تكون سببا في رجوعي إليه، لا يمكنك أن تتصور مدى بشاعة «العرقانة»، أدعو الله أن يسرع سلطان العثمانلي بشنقك بدلا من أن يضعك في هذا السجن.

يدفعه العسكر بعيدا، يواصلون السير وطومان وسطهم، يتعثر فينغزونه بالرماح، لايتصور أحد بعد ثلاثة أشهر من الكر والفر أن يسقط بهذه السهولة، بعد سير طويل مجهد، وإذلال متواصل يشدونه من رقبته إلى المدينة التي كانت عاصمة ملكه. دخان الحرائق يعبق سماءها، يحرق الإنكشارية كل مكان حاربهم فيه، بيتا كان أو مسجدا أو ساحة. تصاب المدينة بطاعون الحرائق، يجتازون به الحواري وسط عويل النسوة، لم يكن قد مضى على موكب تنصيبه للعرش إلا خمسة أشهر، وها هم يشهدونه ذليلا دون موكب ولا أبهة، يرغمونه على صعود سلالم القلعة، يدفعونه بشدة ليقع تحت أقدام السلطان سليم الذي كان جالسا على عرشه، غير مصدق أنه قد تخلص من أسوأ كوابيسه، يشير له أن ينهض واقفا، يتأمل طوله الفارع ولحيته المعفرة بالرمل، وأقدامه الحافية المتورمة، يقول في صوت مكتوم: لم أكن أعتقد بأنك قابل للهزيمة، وما زلت لا أصدق كيف أفلت من سيفك.

رغم ضراوة القتال بينهما كان يكن له إعجابًا خفيًّا تولد من شرارات الصراع، لا ينبس طومان باي بكلمة، لا يتوسل ولا يستعطف ولا حتى يحني هامته، يشير لهم بأن يأخذوه بعيدا، ليس إلى المشنقة ولا السجن، ولكن إلى غرفة في أسفل القلعة، غرفة عادية تحت حراسة قائمة. لا يقرر قتله بعد، رغم أنه لا يوجد حل غير ذلك، يتوقف القتل والحرق في الشوارع، ويهبط القناصة من فوق المآذن، يحتل قادة السلطان بيوت الأمراء السابقين ويشاركون حريمهم الفراش، يفرضون ضرائب جديدة للتعويض عن تكاليف غزوهم للبلاد، يخرج الناس في كل يوم للقلعة، يتوقعون أن يشاهدوا جثة سلطانهم معلقة على أسوارها، لكن طومان باي يظل مختفيا، لا يعرفون إن كان حيًّا أو ميتًا، تنتشر الأخبار بأن سلطان الترك قد جمع كل صناع مصر وبنائيها وخطاطيها عازما على نقلهم إلى إسطنبول، هو نفسه سيترك البلاد لنائبه ويعود لعاصمة ملكه. ينتاب الفزع ثلاثة من الأشخاص، ثلاثة من الخونة: خاير بك، وجان بردي الغزالي، وشيخ العرب حسن بن مرعي، يسرعون جميعا بالصعود للقلعة والتوسل للسلطان سليم، يقبلون قدميه واحدا بعد الآخر، يتوسلون إليه وهم على وشك البكاء، يقول خاير بك: لا تتركنا وهو على قيد الحياة، سينكل بنا جميعا. ويضيف جان بردي: سيجعلنا ندفع ثمن خدمتنا لك وخيانتنا له، ويؤكد ابن مرعي: لن يريحنا بأن يقتلنا ولكن سيضعنا في أسفل السجون، لن تهدأ مصر لك وهو على قيد الحياة. يحدق فيهم جميعا، كانوا مجرد فئران مذعورة، ولكنهم على حق، في كل يوم يتأمل ساحة القلعة وهي تموج بالناس، تداري حنقها وغضبها المكبوت، ينتظرون صيحة منه، إشارة

عما ينوي أن يفعله، وسيعاودون النهوض خلفه، أدرك أنه أخطأ لأنه ترك له كل هذا القدر من الحياة، عليه أن يقتله ويجعل الجميع يعرفون ذلك، ينظر إلي وجوههم المتوسلة، يقول في صوت مكتوم: أين تعودتم أن تشنقوا الناس؟ يردون في صوت واحد ودون اتفاق: باب زويلة.

في اليوم التالي تعرف القاهرة كلها أن سلطانهم سيشنق على باب زويلة، يصعد القناصة مرة أخرى على المآذن، وينتشر الإنكشارية بخيولهم وسيوفهم المقوسة، ويكون جند العثمانلي نقاط ارتكاز في كل الشوارع المحيطة بالباب.

يهبط طومان باي من القلعة بالثياب نفسها التي تم بها القبض عليه، رثة ولكنها متماسكة حول جسده، يسير في هدوء دون أن يحني رأسه، يشهد جموع الناس التي تبكي في عويل متصل، فيبتسم في وهن، يقترب من الباب الصخري الصلد، يشاهد المئذنتيْن المعلقتيْن على برجيه، ومن منتصف القوس الحجري يتدلى جسد شخص يابس، يهتز في الهواء ويحط عليه الذباب، يشيح بوجهه يلتفت للناس ويقول بصوت عالٍ غير مرتعد: اقرءوا الفاتحة على روحي.

ويردد الناس الآيات وهم يبكون، يقرءونها ثلاث مرات، ويقرؤها معهم، يمسح بيده على وجهه، يلتفت للجلاد الذي يقف في انتظاره ويقول له بهدوء: شوف شغلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شم النسيم

في يوم شم النسيم هدأت ريح الخماسين فجأة وبدأت القاهرة تتنفس أولى بشائر الربيع وامتلأت الحدائق بالناس، وخرجت السيدة «صفية» زوجة أكبر تاجر في «الغورية» وست أخريات من نساء التجار وركبن الحمير، وفي طريقهن مررن على الست «آمنة الجنكية» التي أخذت آلة «الجنك»؛ وكانت أحسن من تغني وتضرب عليها وأحضرت معها أيضًا غلاما صغيرا هو أبرع ضارب للدفوف في القاهرة، وركبت الحمار وركب الغلام خلفها وسرن جميعا.

كانت حديقة الأزبكية ممتلئة عن آخرها بالناس الرعاع ولم يكن هناك مكان لهؤلاء النسوة الأكابر، ذهبن إلى باب اللوق فكان الزحام أشد، عدن إلى ناحية الأزبكية عند غيط الأعاجم، وأخيرا وجدن مكانا رائعا مختبئا خلف الأشجار عند قنطرة الدكة.

وبدأت النسوة يحتفلن بهذا اليوم الوحيد الذي يأتي مرة واحدة كل عام. بدأن يتحررن من أيامهن الطويلة خلف الأبواب المغلقة، كانت آمنة تعزف على «الجنك» والصبي يضرب الدف، وبلغ من طرب السيدة صفية أنها نهضت وأخذت ترقص في نشوة، وفجأة بينما السيدة صفية تدور دورتها الأخيرة، شاهدت وجوها تطل عليهن من خلف الأشجار، شهقت في فزع ولكن اكتشافها كان متأخرا، فقد ظهر الرجال من خلف الأشجار وهم يمسكون السيوف، كانوا إنكشارية، سراجين، لا ينتمون لأمير بعينه، وهتف أحدهم في صوت ثمل: نريد نصيبنا من الحظ يا هوانم.

وهجم السراجون، حاولوا أن ينتزعوا عقود اللؤلؤ والجواهر من صدورهن، كانوا سكارى رائحتهم نتنة وأصابعهم غليظة، وصرخت النسوة في فزع، وهددهن السراجون بالسيوف فازدادت الصرخات، ولكن كانت هناك أصوات أخرى قادمة من خلف الأشجار، ودب الرعب في قلوب اللصوص فأخذوا كل ما قدروا عليه وأسرعوا بالفرار.

وصل الخفراء يتقدمهم «أودة باشا القنطرة» رئيسهم. وجدوا النسوة في حالة يرثى لها، ممزقات الشعر وقد ضاع منهن نصف مصاغهن، أخذن يروين للأودة باشا ما حدث في لهجة باكية، ولم يفكر الأودة في مطاردة اللصوص أو محاولة التظاهر بذلك، وقال لهن في عتاب: أنتن نسوة أكابر، أليس معكن من يحرسكن؟

قالت السيدة صفية باكية: كلا، ليس معنا أحد، أردنا أن نأتي هنا وحدنا كي نأخذ حريتنا بعيدا عن أعين الرقباء.

وأجال الأودة بصره فيما حوله وهتف في تأكيد: لا أحد على الإطلاق؟

وصاحت الست صفية وهي تعاود البكاء: قلنا لك: لا أحد، لا أحد.

وهتف الأودة باشا فجأة: يا قوي.

وهجم الخفراء عليهن، وبدأت عملية السطو من جديد، لم يأخذوا ما بقي من الجواهر فقط ولكنهم نزعوا الخلاخيل من أقدامهن وأغطية الحراير، والطواقي المطعمة باللؤلؤ من على رءوسهن، وحين

اكتشفوا أن ثوب السيدة صفية والسيدة آمنة مطعمان بالدر والجواهر نزعوهما وتركوا السيدتين عاريتين، حتى الغلام لم يرحموه وأخذوا دفه وجلبابه وحملوا صرة الطعام أيضًا وانصرفوا.

وظلت النسوة يرتعدن حتى جاء المساء وعاد المكارية بالحمير فأحضروا لهن ثيابا من بيوتهن، وانتهى يوم شم النسيم على خير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

يوم القيامة

لم تكن القيامة إلا حالة فريدة من النشوة الغامرة والحسرة والهياج تعيشها مدينة القاهرة، من المؤكد أن القيامة ستقوم يوم الجمعة السادس والعشرين من ذي الحجة عام ألف ومائة وسبعة وأربعين من الهجرة؛ فالكواكب كلها سوف تقترن ببرج واحد هو برج السرطان، وستهب ريح السموم المحرقة، ويبدأ اضمحلال العالم من هذه اللحظة.

الموت دين مؤجل، ولكن الكثيرين لم يعترفوا بذلك، حتى شيوخ الأزهر أصابتهم رعدة، وأكلوا أرغفة الجراية بنهم، وهتفوا: يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف، وانتقلت الرعدة إلى أوصال المدينة كلها، وقال الناس لبعضهم في حزن: بقي لنا من العمر يومان، يومان فقط.

لم يكن الخوف طاغيا، ولكن هناك إحساسًا عامًّا بالنقصان، لا يعرف أحد من الذي تنبأ بهذه النبوءة، لكنها انتشرت دون أن يجرؤ أحد على إنكارها. وغمرت المدينة حالة من الهياج، وازدحم الناس في الشوارع، ومر الليل دون أن يغمض أحد عينيه، وفتحت المحال أبوابها تبيع كل شيء بأي سعر، واشترى الناس ثم ألقوا ما اشتروه وعادوا للشراء من جديد، وأخذ الناس يتصالحون ويتعاتبون ويبكي كل واحد منهم على كتف الآخر؛ وبدأ أكثر الناس جدية في التصرف، بدءوا يحفرون الخنادق ويضعون فيها الأغذية التي تكفيهم لمدة طويلة، حتى إذا جاءت ريح السموم استطاعوا تجنبها وبقيَ لهم بعد ذلك ميراث العالم، ولكن الناس الأقل جدية، خرجوا إلى الغيطان والمتنزهات رجالا ونساء، أخذوا يشربون في نهم ويرقصون في جنون، ويطلقون العنان لكل الرغبات، ويضحكون في أصوات صاخبة يريدونها أن تصل إلى أعلى حيث تقترن الكواكب السيارة، كانوا يهتفون: دعونا نأخذ حظنا من الدنيا قبل أن تأتي القيامة.

وبدأت الدنيا في الإظلام من يوم الخميس، خرج كل سكان بر الجيزة رجالا ونساء، خلعوا ثيابهم وهبطوا جميعا إلى النهر، غاصوا في المياه الباردة لعلهم يحصلون على لحظة نادرة من التطهر، بكوا كثيرًا وهم يشاهدون لحمهم العاري دون رغبة. وفي الليل هوى العجائز على وجوههم، وأغلق الباشا القلعة على نفسه وبكى بحرقة. وفي منتصف الليل ارتجت مئذنة ابن طولون، ثم ارتجت المدينة كلها ارتجاجًا خفيفًا، فأخذ الناس يصرخون في الشوارع، وهتف المجاذيب ينادون الست الطاهرة، وبال الوالي على نفسه، وظل إيقاع الفزع يتزايد مع مضي ساعات النهار، ولم تهب الرياح ولكن الليل أقبل عليهم كئيبا مليئا بالنذر، وظلت السماء تحدق فيهم ساكنة ومحايدة تمامًا، وأقبل صباح السبت أخيرًا على المدينة المؤرقة. ومثلما انتشرت قصة النبوءة انتشرت قصة الشفاعة؛ لقد تشفع سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي في الناس وقبل الله شفاعتهم وأجل القيامة قليلا، وهتف الناس: قليلا أو كثيرًا، المهم أننا ظفرنا بفترة نشبع فيها من الدنيا.. واستردت القاهرة أنفاسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

واقعة الطلاق

لم يكن مصطفى بك أحد أمراء المماليك يحب الفقراء والمتعممين، وفي كل مرة يتخذ فيها تصرفا ما كانت الطرق تقوده للتصادم معهم. كانت البداية عندما بنى بيته الجديد على بركة الفيل واستمر يعمر فيه خمس سنوات، انشغل خلالها عن كل الفتن المملوكية بالاستيلاء على البيوت التي تجاور بيته بالشراء أو الغصب، ثم هدمها كلها ليدخلها في بيته، ثم عارضه مسجد خاير بك. وعبثا حاول أن يهدم هذا المسجد أو يشتريه أو ينقله حتى يوفر أمام بيته باحة واسعة، ولكن الفقهاء والمتعممين وقفوا في مواجهته، أخرجوا له عشرات الفتاوى التي تكفره وتلقي به في سابع جهنم لو تجرأ على مسِّ المسجد، واضطر للتراجع وترك بيته بلا باحة لائقة.

ووقع الصدام الثاني في موسم الحج، وتطور أيضًا في غير صالحه. ولكنه في هذه المرة الثالثة استطاع أخيرًا أن يمسكهم من أعناقهم، وكانوا قد ارتكبوا غلطة فاضحة لا تجدي فيها أي فتوى ولا يدفع عنها أي اعتذار، كان المشايخ حماة الشريعة قد خالفوا الشريعة.

جاء إليه أحد تجار «النحاسين» يشكو له من أنه متزوج بابنة أخت الشيخ عبد الباقي العفيفي أحد كبار علماء الأزهر، وأنه سافر في تجارة له وغاب شهرا ترك خلاله لزوجته نفقة بيتها، ولكنه حين عاد من السفر اكتشف أنها قد طلقته بمعونة خالها الشيخ عبد الباقي وزوَّجها بآخر، وصاح الأمير في دهشة: طلقتك؟ هل كانت العصمة في يدها؟

قال التاجر: كلا، ولكنه طلقها على المذهب المالكي على يد الشيخ الجداوي المالكي وزوجها بآخر.

وجدها مصطفى بك فرصته السانحة أخيرًا، أرسل جنوده إلى منزل الشيخ عبد الباقي خال الزوجة، وضربوه أمام أهله ثم وضعوا الحديد في رقبته وجروه في الشوارع مهانا، حتى حبسوه في السجن مع أرباب الجرائم. ووصل الخبر إلى الأزهر، أوقف مشايخ المذاهب الأربعة الدروس وأبطلوا الأذان، وركب الشيخ علي الصعيدي، والشيخ الجداوي، والعديد من الفقهاء والمتعممين بغالهم واتجهوا إلى منزل مصطفى بك، الذي كان يجلس وحوله أصحابه من الأمراء.

هتف به الشيخ الصعيدي: ما هذه الأفعال يا أمير؟

صرخ مصطفى بك: أفعالكم يا مشايخ أقبح.

قال الشيخ: هذا قول في مذاهب المالكية معمول به.

صاح الأمير في ثورة وهو يشهد بقية من بالمجلس على المشايخ: من يقول إن المرأة تطلق زوجها إذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وتصرفه، ثم يأتي الزوج من غيبته فيجدها مع غيره؟ من يقول هذا؟

صاحوا جميعا في وجهه: نحن أعلم بأحكام الشريعة منك.

لوح بقبضته مهددا: لو رأيت الشيخ الذي فسخ الزواج.

تقدم الشيخ الجداوي وهو يقول: أنا الذي فسخت الزواج على قاعدة مذهبي.

ونهض مصطفى بك وهو يصيح: والله كسرت رأسك.

فوقف الفقهاء في وجهه صفًّا واحدًا، وصاح فيه الشيخ الصعيدي: لعنك الله، ولعن اليسرجي الذي جاء بك، ومن باعك، ومن اشتراك، ومن جعلك أميرا.

وكادت المسألة أن تتحول إلى مأساة لولا أن توسط بينهم الحاضرون من الأمراء وهدَّءوا من حدة الجميع، وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه معهم وخرجوا وهم يسبونه أمام الجند والخدم، وأحس مصطفى بك بأنه انهزم مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفاء النيل

كان إسماعيل باشا يصيح كلما أعوزه المال: متى يأتي الرخاء يا أمراء؟ وكان كل من حوله يجيبه في هدوء: عندما يفي النيل يا باشا. تولى إسماعيل باشا أمر مصر بعد سلسلة طويلة من الباشوات الأفاكين واللصوص كانوا قد سرقوا كل شيء وقبضوا الضرائب لعدة سنوات قادمة وأشعلوا كل أنواع الفتن، ثم تركوا البلد له غريقًا مفلسًا. وأحس إسماعيل باشا بأنه أخيب الباشوات، كان يسمع عن المبالغ التي قبضها من كانوا قبله، وهو حتى الآن لم يرَ منها درهما واحدا، ولم يكن أمامه إلا أن ينتظر لعل النيل يفي بالخير على اللصوص والشرفاء في وقت واحد.

وعندما بدأ موسم الفيضان وتغير لون المياه الفاتر إلى الأحمر الدافئ، كان إسماعيل باشا يخرج كل يوم ليراقب مقياس النيل عند الروضة ويحاول أن يطمئن بنفسه كم ذراعًا وصل، وكم ذراعًا باقيًا. ثم أعلنت البشائر لقد وفي النيل واكتمل المقياس سبعة عشر ذراعا، وسوف يكون هذا العام من أزهى الأعوام في مصر، وخرج موكب وفاء النيل من القلعة إلى فم الخليج حيث يفتح السد ثم يعطر مقياس الروضة بماء الزعفران، وتزينت المدينة بأبهى الزينات، وخرج الباشا في موكبه الفخم يعبر الشوارع ويسمع دعاء الناس له. بدأ الباشا يعطر المقياس، وبلغت الحماسة ذروتها، وأطلق فرسان المماليك الأعيرة النارية في الهواء ولكن وسط هذا كانت هناك صيحة ألم، وبقعة دم وجثة تسقط؛ لقد أصابت رصاصة مملوكية طائشة واحدا من أولاد البلد، هبطت على نافوخه فخرقته وانفض الناس في ذعر وتلف الاحتفال المهيب، ونظر الباشا في غضب بالغ وأمر جنوده بأن يتحفظوا على الجثة، وخيم على المدينة وجوم الاغتيال.

وجاء أهل الشاب القتيل، كانوا يريدون جثة ابنهم ليدفنوها، ولكن الباشا رفض أن يسلمها، بل إنه صاح فيهم: لقد أتلفت هذه الحادثة الاحتفال، ويجب أن تدفعوا خمسمائة فضة.

ودهش أهل القتيل وصرخوا في وجهه: هذا بدلا من أن تبحث عن القاتل وتعاقبه.

قال إسماعيل باشا في برود: القاتل ضاع وسط الزحام، ولكن الجثة موجودة ويجب أن آخذ حقي كاملا.

وعبثا حاولوا أن يقنعوا الباشا، أن يتوسلوا إليه، كان مفلسا لدرجة لم يستجب معها لأي ابتهال، وذهب الأهالي ثم عادوا، باعوا كل ما قدروا على بيعه واقترضوا ما أمكنهم اقتراضه، وعادوا يحملون مائتي نصف من الفضة، فصرخ فيهم: أتشترون جثة ابنكم بمائتين من الفضة؟ هل هان عليكم لهذه الدرجة؟ أقسموا للباشا إنهم لا يملكون إلا هذا المقدار من المال. وظل الباشا مصمما حتى اكتشف أنهم سوف يتركون له الجثة كي يدفنها بمعرفته؛ فرق قلبه وقبل المبلغ وسلم الجثة، وتحسس الأنصاف الفضية في حنان وهو يقول لنفسه: هذه أولى بشائر وفاء النيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

لعنة البيت

كانت مشكلة طبان باشا التي تؤرقه أنه أقل حظًّا من كل الباشوات الذين سبقوه على حكم مصر، كانوا جميعا قد استطاعوا أن يوفقوا بين القدر الهائل من الذهب الذي يرسلونه للسلطان العثماني، وبين القدر الذي يقتطعونه لأنفسهم، ولكن مشكلة طبان باشا أنه كلما أخذ المبلغ الذي يناسبه نقص مبلغ السلطان، وظل العكس صحيحا دون أن يستطيع ضبطه، كان يعرف أن الباشا الذي لا يخرج ثريًّا بعد حكم مصر لن يكون ثريًّا أبدًا، ولم يكن طبان يرضى بأن يكون باشا خائبا.

في وسط هذا الهم وصل قاصد من الأرض الحجازية، وقف أمام الباشا وهتف في جزع: السيول دخلت على مكة المشرفة وهدمت كل شيء، وصدعت البيت وانهدمت أركانه.

كان هذا هو ما ينقص الباشا، فصرخ: لا تقل لي أريد مالًا للعمارة، السلطان أخذ كل شيء ولم يبقِ لي شيئا.

وانصرف الرسول مخذولا، ووصل الخبر إلى الشارع فضج الناس بالبكاء، لجئوا إلى المساجد يدعون الله أن يصون بيته الحرام، كانوا يحسون بأن العالم كله قد فقد أساسه وأصبح على وشك الانهيار، وعندما عرفوا أن الباشا رفض أن يدفع قرشا واحدا لعمارة البيت الحرام؛ جن جنونهم من الغيظ وصعد إليه وفد من المشايخ يطالبونه بالتحرك، ولكن الباشا واصل شكواه التقليدية: أنا مفلس يا مشايخ، والخزينة فارغة. أقرضوني لأعمر البيت، ثم أرد لكم القرض حين أجمع الضرائب.

كان الباشا قد استوفى ضرائبه بالفعل، وأرهق الناس بما يكفي حتى إنهم كانوا يعيشون على حافة الإملاق، ولكنهم بدءوا يجمعون الدراهم الصدئة والقروش الشحيحة المنال من أجل عمارة المسجد، كانوا يريدون أن يعيدوا للعالم توازنه. وصمت الباشا تمامًا وصمت الأمراء تبعا لذلك، وأخذ الناس يقتطعون من قوتهم اليومي كما تعودوا دائمًا.

ولكن النيل لم يصمت، أخذت مياهه تغيض وجاء ميعاد الفيضان فلم يفض. وبدأت الأرض تتضور عطشا وماتت البذور في باطنها وارتفعت الأسعار. وبدأ الباشا يشعر بالذعر؛ لأن هذا يعني أنه لا توجد ضرائب جديدة، واستنجد بالأمراء والمشايخ حتى يقيموا صلاة الاستسقاء لعل النيل يرضى ويفي، ولكن المشايخ صرخوا في وجهه: هذه لعنة البيت الحرام يا باشا، يجب أن تعمره أولا، وأن تساهم فيه بمالك الشخصي قبل أن تنتظر وفاء النيل.

وأدرك الباشا أن عليه أن ينفق النقود مرغما، أحس بأن هذا البيت يتحكم فيه؛ في قدرته وفي حلمه بالثراء، ولم يعد يستطيع أن يحلم مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الذين أسلموا

الريح العاصفة هي التي دفعت بسفينة الإفرنج الضخمة إلى دمياط، ولم يكن هناك أي فضل للأسطول العثماني، وكان ما عليها من جنود الإفرنج نصف أحياء يعانون من العطش والجوع، وخرج أهل دمياط يجذبون السفينة ويثبتونها على الشاطئ، ولم يكن باقيا من الجنود إلا أربعة وعشرون جنديًّا في حالة يرثى لها من الجوع والعطش والإجهاد.. كان أهالي دمياط يحملون في داخلهم مرارات قديمة من غزوات الفرنجة، وهذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها سفينة لهم طائعة. لم تكن الغزوات تفعل أقل من حرق بيوتهم واغتصاب نسائهم، ولكنهم أعطوا الأسرى الطعام والشراب وتركوهم دون قيود وأرسلوا للباشا العثماني في القاهرة ليرى رأيه، ولكن وجود الأسرى أصبح يمثل مشكلة للباشا؛ فهو لا يستطيع أن يقتلهم خوفا من انتقام الفرنج، وهو لا يستطيع أن يتركهم لأنهم في حرب مع السلطان، وأخذ يتداول مع بقية الأمراء ولكنهم لم يصلوا إلى حل حتى وصلوا إلى دمياط، ولكن الأسرى حلوا مشاكلهم بأنفسهم، ما إن أشرف الباشا عليهم حتى اندفعوا وانحنوا أمامه على الأرض، وقال أحدهم في لهجة عربية منكسرة: مسلم، مسلم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وارتج على الباشا والأمراء، لم يدروا من هو الخبيث الذي أوحى لهم بالفكرة، ومن الذي لقنهم هذه الكلمات بالعربية. ولكن الأمور كانت قد حسمت بالفعل، ودخل الجنود دين الإسلام وأصبح من المحرم قتلهم أو أسرهم، وأمر الباشا أن يأخذوهم جميعا إلى القاهرة لكي يعلنوا إسلامهم على شيخ الأزهر. سبقتهم الأخبار إلى القاهرة فأعدت استقبالا حافلا للمسلمين الجدد. رفعوا الزينات والورود، ووقفت النساء في النوافذ يتطلعن إلى هؤلاء المسلمين ذوي العيون الزرق والشعور الشقر، وارتفعت معنويات الأسرى من هذا الاستقبال الحافل؛ تغيرت حالتهم من بؤس الأسر إلى زهو المنتصر. ذهبوا إلى شيخ الأزهر، رددوا الكلمات كالببغاوات، وأقيمت لهم الولائم، وانهالت عليهم الهدايا، ثم حانت لحظة الختان.

وفي بادئ الأمر لم يفهم الأسرى - أقصد المسلمين الجدد - معنى الختان، حاول جنود الباشا أن يشرحوا لهم الأمر بالإشارة فاصفرت وجوههم ووضعوا أيديهم على أعضائهم في خوف وظلوا طوال الليل بلا نوم، ورغم أن طبيب الباشا بنفسه هو الذي أشرف على عملية الختان يعاونه في ذلك أبرع حلاقي القاهرة فإن المشهد كان رهيبا.. سيقوا واحدا وراء الآخر، صرخ بعضهم وبعضهم لم يصرخ، بعضهم نزف كثيرًا وبعضهم هرب دمه مع أول نقطة، ولكنهم خرجوا جميعا منكسي الرءوس، شاعرين بالهزيمة الساحقة، وعبثا حاول من يحيطون بهم أن يشرحوا لهم أن هذا الأمر لن يؤثر على قواهم الجنسية، ولكنهم كانوا يرتعدون، ومات منهم اثنان في اليوم الثالث، ثم اختفى الباقون، قيل إنهم ذابوا وسط الناس، وقيل ضاعوا في الصحراء ولم ينجح أحد في العودة إلى بلده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

السفاح

بدأ السفاح نشاطه في القاهرة بقتل طفلة صغيرة، قتلت ليلا بوحشية بالغة حتى إن أهالي «الصليبية» الذين شاهدوا الجثة أفرغوا ما في بطونهم، ولكن أحدا لم يرَ السفاح إلا بعد أن ارتكب جريمته الرابعة؛ فقد انقض على رجل وامرأتين كانوا عائدين في الليل، ومات الرجل وامرأة واحدة وظل في المرأة الثانية رمق من حياة لتصف السفاح بأنه فارس تركي سمين يركب جوادا مطهما، وعلى رأسه عمامة كبيرة، وفي يده سيف باتر. انتشر الفزع في المدينة وعمَّ الذعر في كل الأحياء واجتمع المشايخ والأعيان، صعدوا إلى القلعة لمقابلة حسين باشا والي السلطان العثماني، وكان صاحب الشرطة حاضرا، ورغم غضب المشايخ البالغ في اختلال الأمن، فقد نظر إليهم الباشا بسخرية شديدة وهو يقول: الناس يتخيلون يا مشايخ، ما الذي يرغم فارسًا تركيًّا كالذي تصفونه على النزول للحواري لقتل العامة والحرافيش.. وظل الباشا يسخر منهم حتى انصرفوا خائبين، وتقدم صاحب الشرطة يطلب الإذن منه أن يزيد من عدد الحراس، ولكن الباشا رد بلا مبالاة: لا ضرورة لذلك، من يخرج في الظلام فعليه أن يتلقى جزاءه.

واستمر السفاح طليقا في شوارع القاهرة وتكاثرت ضحاياه، لم يكن يخطئ في ضربة سيف ولا رشقة رمح، وكانت جرائمه في أول الأمر تتم في الأحياء المجاورة للقلعة ثم امتدت لبقية الأحياء، وارتفعت درجة الرعب فسار أهل المقتولين في مظاهرة حاشدة وقذفوا منزل الوالي بالحجارة، واشتكى الوالي للباشا الذي قال متبرما: السفاح، السفاح، فليدفعوا ما عليهم من ضرائب أولا!

وهبط الوالي فأصدر أوامره بزيادة عدد الحراس في الليل، وبلغ جنون السفاح أقصاه حين أقيم أحد الموالد في بولاق، ورغم حالة الرعب التي منعت المدينة من السهر فقد استمدوا الشجاعة من تواجد عدد كبير من الناس، إلا أن السفاح هجم، اخترق زحامهم بجواده المجنون وداسَ على ثلاثة عشر شخصا، وأوشك على الهرب كعادته لولا أن جواده كبا وألقاه به. وانتهز الحراس المذعورون الفرصة وانقضوا عليه، أمسكوه فأخذ يسبهم بالتركي سبًّا مقذعًا، هددهم بأنه سوف يقتلهم جميعا ولكنهم اقتادوه للوالي. ومد الوالي يده ورفع الغطاء الذي كان يغطي به وجهه وهتف في دهشة: حسين باشا، واندفع حسين باشا في سباب عنيف، وجرى الجنود في خوف، وأخذ الباشا يخور ويهدد بقتل كل الأوباش والحرافيش الذين كانوا السبب في فساد العالم، وهدد الوالي بالقتل لأنه لم يطع أوامره ووضع الحراس دون علمه. وارتج على الوالي فأخذ يحاول تهدئته قائلا: اقتل بهدوء يا باشا.. واحد، واحد يا باشا.. ولكن الباشا لم يهدأ، ولم يعد في حاجة للتخفي بعد الآن، كان يظل ساكنا في القلعة طوال اليوم، حتى إذا جاء الليل فارت دماؤه وهبط إلى شوارع المدينة، وتعود الحراس أن يتجاهلوه، ولكن الأهالي لم يتعودوا على منظر القتل كل صباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ثمن الجوع

لم يحس علي باشا السلحدار بالجوع كثيرًا؛ فالباشوات لا يجوعون حتى في أيام المجاعات. كان النيل غائضا والغلاء فاحشا، والعامة تتخاطف أرغفة الخبز في شوارع القاهرة، والأطفال ينامون جوعى ويستيقظون أكثر جوعا، وكلما قلت مياه النهر ارتفعت الأسعار. وقف الجنود على أبواب المخابز يمنعون الناس من الهجوم عليها، وهجر الفلاحون أرضهم العطشى، وبدءوا يصرخون من أجل الخبز، ولكن السلحدار باشا كان يفكر بطريقة مختلفة. كان يحتكر تجارة البهار في البلاد كافة، ولكن في مثل هذه الأزمة لم يكن هناك ما يطبخ؛ لذا فقد كسدت التجارة وقل الوارد على الباشا، ولكن الجنود بدءوا يلاحظون أن الإفرنج الذين يعيشون في القاهرة أخذوا في التردد على القلعة بصورة منتظمة، ولاحظوا أنهم يشترون كمية كبيرة من البهار من وكالة السلحدار أسفل باب القلعة، يأتون بأكياس كبيرة من الجلد يملئونها ثم ينصرفون في صمت، ومهما وجهت إليهم من أسئلة كانوا يبتسمون وتزداد حمرة وجوههم.

فكر الجنود طويلا، كان الأمر مريبا؛ فالإفرنج هم أقل الناس استعمالا للبهار، ما هو إذن سر هذه الأكياس الكبيرة؟ فكر الجنود طويلا دون جدوى ثم قرروا أن يترصدوا لواحد منهم، شاهدوه وهو يهبط من القلعة في يده الكيس الجلدى المنتفخ، سألوه ماذا يحمل. لكن الرجل الإفرنجي احمر وجهه وحاول أن يتخطاهم وهو يردد عدة كلمات غامضة، وأخرج أحد الجنود سيفه وهوى به على الكيس الجلدي، انفتح الكيس ولكن بدلا من أن يسقط البهار انسال خط من القمح الأصفر. أجل، قمح كبير مكتمل النمو يحلم به أي جائع، وصرخ الجنود: يا أغوات الباشا يبيع للإفرنج، الباشا يبيع قمح العنبر الشريف.

وهاج الجنود، لم يتصوروا أن الأمر يصل إلى هذا الحد، فهذا القمح الذي يُجمع من مديريات الوجه القبلي في الصعيد يُخزن لحاجة الدولة، تصرف منه الجرايات والعليق للجيش، ثم بعد ذلك يطرح ما بقيَ منه للأهالي عند حدوث المجاعات، ولم يكن يجوز بأي حال بيعه للإفرنج إلا إذا توفرت الغلال وعَمَّ الخير.

صعد الجنود للقلعة ووقفوا أمام السلحدار باشا، صرخوا فيه: كيف تبيع القمح للإفرنج، والناس تأكل بعضها من قسوة الغلاء والمجاعة؟

رفع الباشا حاجبه وقال في هدوء: تجارة يا أغوات. سوق البهار كاسدة والإفرنج يشترون القمح بستين فضة، بينما الحرافيش لا يأخذونه بأكثر من عشرين.

وأخرج الجنود سيوفهم، فأخرج الباشا أكياس الذهب، وبدءوا يتساومون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الباشا والألوان

كان إسماعيل أغا كبير تجار الأقمشة بالغورية يلح في مقابلة الباشا منذ الصباح الباكر، قالوا له إن الباشا نائم، وبعد ساعتين قالوا إنه في الحمام، وبعد ثلاث ساعات قالوا إنه قد مرَّ على الحريم، وأخيرا سمحوا له بالدخول. كان الباشا ما زال يتناول قهوته؛ لأنه لا يتناول أمور الدولة إلا بعد الظهيرة، ولكن وجه إسماعيل أغا كان مرهقا، لم يذق طعم النوم، أخذ يقول في سرعة: خراب بيتي يا باشا. اشتريت سفينتين من إسطنبول، كلها حرائر ومنسوجات ناعمة للنساء والسادة وللعمائم الفخمة، ثم وصلت السفينة الأولى، كلها لا تحمل إلا قماشًا أحمر اللون خشنا. دفعت الثمن كله مقدما يا باشا، وسوف تقضي هذه الصفقة عليَّ. رفع الباشا حاجبيه في دهشة وهتف به: لماذا دفعت الثمن مقدما؟ لماذا لا ترجعها إلى التاجر الذي اشتريتها منه؟

قال إسماعيل أغا: اشتريتها من سنان باشا يا باشا، من ميعة الباب العالي، والباب العالي لا يرد.

وانفجر الباشا ضاحكا، كان يعرف مدى قدرة سنان باشا على الغش؛ فهو يغش حتى أروام إسطنبول، وكانت صلته بالسلطان قوية لدرجة لا يستطيع أحد أن يرد له أي صفقة. وتوقف الباشا عن الضحك وأكمل شرب قهوته، وخيم صمت ثقيل قبل أن يقول: ادفع ثلاثة آلاف دهب بندقي.

شهق إسماعيل أغا وقال: إن هذا كثير.

فقال الباشا ببرود: أربعة آلاف، ادفع وبع بالسعر الذي تحدده.

وفي اليوم التالي طاف المنادي في الأسواق ينادي بأن على جميع يهود مصر المحروسة أن يلبسوا الطراطير الحمراء؛ تمييزا لهم عن بقية خلق الله، واحتج اليهود، ولكن الجنود أسرعوا يضربون رءوسهم العارية بالمقارع، وبعد لحظات لم تعد المقارع تفرق بين رأس ورأس، ومنذ الصباح الباكر خرج اليهود برءوسهم المشجوجة واشتروا القماش الأحمر الخشن بثمن باهظ.

وبعد شهر واحد صعد إسماعيل أغا إلى القلعة، كان يحمل في يده أربعة أكياس من الذهب وضعها تحت قدمي الباشا، وهو يقول في صوت لاهث: وصلت السفينة الثانية، غشني سنان باشا للمرة الثانية يا باشا، كل حمولة السفينة من القماش الأسود الخشن.

وقال الباشا وهو يركل الأكياس الأربعة بقدميه: ثمانية.

توسل إسماعيل أغا: ولكن يا باشا.

قال الباشا: عشرة.

وفي صباح اليوم التالي طاف المنادي على الأسواق ينادي بأنه على كل نصارى مصر المحروسة لبس «البرانيط» السوداء؛ تمييزًا لهم عن بقية خلق الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

المغاربة ضربونا

كان رجال مصطفى القرذغلي يجرون في فزع وهم يرددون: المغاربة ضربونا.

ونهض القرذغلي بك وأمر جنوده بالهجوم على شوارع القاهرة لأن الفتنة قد قامت. والحقيقة أنه لم تكن هناك فتنة ولا يحزنون؛ فالمدينة تستعد ليوم «المحمل»، عندما يخرج الجمل من «بيت الكسوة» ويطوف في الشوارع حاملا كسوة الكعبة المشرفة، كان الناس يستحمون ويلبسون أجمل ثيابهم ويتعطرون قبل أن يخرجوا لرؤية الموكب.

في المقدمة كان المغاربة يسيرون وفي أيديهم العصي الطويلة، لا يسمحون لامرأة متبرجة أو لحانة مفتوحة أو لشخص يدخن بالتواجد في طريق الكسوة، وكان أهالي القاهرة يحترمون هذه التقاليد ولا يفكر أحد في عصيانها.

ولكن عندما اقتربت الكسوة من باب المتولي، شاهد المغاربة بعض الترك وهم يدخنون الغلايين بلا مبالاة، وكان التعرض لتركي أيام السطوة العثمانية معناه الانتحار، ولكن الدم كان قد فار في عروق المغاربة فاندفعوا بالعصي وأهووا على رءوس المدخنين بالضرب، وبدأت الواقعة حين رمى أتباع القرذغلي غلايينهم وأخذوا يجرون صارخين.

هجم جنود القرذغلي على موكب الكسوة، ووقف المغاربة بعصيهم أمام السيوف، وهاج الناس لأن الترك لم يحترموا الموكب فهاجوا هم أيضًا، وظل الجمل واقفا في الوسط حائرا، تدور حوله معركة تستخدم فيها السيوف والعصي والحجارة، ولم يتمالك نفسه إن سار لوحده، لا يعرف أحد إلى أين ذهب.

وانتهى اليوم وقد قبض على عشرين من المغاربة ووضعوا في سجن «العرقانة»، أسوأ السجون المملوكية، وسافرت الكسوة متأخرة عن ميعادها إلى الحجاز، وانتهى موسم الحج وعاد الجميع ولم يتذكر أحد أن العشرين مغربيًّا لا زالوا في السجن. كانوا غرباء بلا أهل فلم يصعد إلى الباشا من يشفع لهم، ولم يكتشف وجودهم إلا بالمصادفة حين قبض الباشا على عدد كبير من أعوانه المتمردين وأمر بإخلاء سجن العرقانة؛ فخرج من السجن من كان باقيا منهم على قيد الحياة وكانوا لا يزيدون على خمسة؛ شهق واحد منهم فور خروجه من السجن واستنشاقه للهواء العذب مات في الحال، وسار الأربعة في شوارع المدينة يحاولون أن يفتحوا أعينهم في ضوء الشمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثمار اللارنج

ظهر الوباء في المدينة يوم الجمعة، كان الباشا قد هبط من القلعة متوجها للصلاة في الأزهر، فشاهد كومة عالية بالقرب من باب زويلة مغطاة بالذباب، حسبها كومة من أكوام القمامة، ولكنه حين اقترب اكتشف كومة من الجثث، وقال له معاونه في اختصار باتر: إنه الطاعون يا باشا.

أدار الباشا جواده في سرعة، وترك الجمعة لخالق الجمعة، وعاد إلى القلعة وغسل نفسه عشرات المرات وأغلق كل الأبواب والنوافذ وجلس يرتعد، حتى جاء الطبيب فهتف به: أخبرني بسرعة ما علاج الطاعون؟ قال الطبيب: إنه قدر من الله يا باشا لا ينفع معه علاج، ولكن الناس تعودوا أن يأكلوا ثمار اللارنج، وهذه هي الطريقة الوحيدة المعروفة لمقاومته. صرخ الباشا في رئيس الشرطة: أحضروا لي اللارنج. أحضروا أكبر كمية منه، صادروا كل ما في الأسواق.

هبط الجنود للسوق لم يجدوا ثمرة واحدة، كانت المدينة التي يسودها ذعر الموت الأسود قد اكتسبت الخبرة من فرط معاناتها من الأوبئة وعسف الحكام، كان اللارنج ينبت مجاورا للبرتقال ويحمل شكله في كل شيء إلا الطعم؛ مُرّ وغير مستساغ، ولكن الناس كانوا يزرعونه كل عام ويجمعونه وينتظرون الوباء، فإذا مرَّ العام بخير ألقوا باللارنج للحيوانات أو وضعوه في الملح. ولكن الوباء جاء هذا العام وأسرعت المدينة تأخذ ترياقها، ووصل ثمن اللارنجة الواحدة إلى خمسة أكياس وعشرين نصف فضة، وحين هبط جنود الباشا محملين بأكياس الفضة لم يجدوا اللارنج وعادوا للباشا فارغي الأيدي، فصرخ فيهم بحنق: اكسروا البيوت وافتحوا خانات الفاكهة، لا بد من اللارنج.. وترك الجنود أكياس الفضة وحملوا السيوف والمعاول، وهبطوا إلى المدينة واقتحموا البيوت. داسوا فوق أجساد المحتضرين، وانتزعوا الثمار من أفواه الأطفال والنساء، وحاصروا الفلاحين على أطراف المدينة، صادروا ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه. ولم يهدأ خاطر الباشا إلا بعد أن وجد أمامه غرفة مليئة حتى آخرها بثمار اللارنج. أمر بإغلاق القلعة فلا دخول ولا خروج، وترك المدينة لمصيرها التعس، وطاف الطاعون بالمدن والقرى والضياع ولم يترك خلفه إلا جثث الناس والحيوانات النافقة. وعانت المدينة من أهوال الجوع والموت، وظل الباشا بعيدا عن قلعته يراقب المدينة ثم يواصل التهامه لثمار اللارنج، ولم يهدأ الطاعون إلا بعد عدة أشهر وبعد أن حصد نصف السكان ومعظم الحيوانات، وأصدر الباشا أوامره بفتح القلعة أخيرًا، واستعد من بقي من السكان ومعظم الأمراء للصعود إلى الباشا لتهنئته على النجاة، ولكنه كان مستلقيا على فراشه خامد النفس. تحول جسده إلى اللون الأصفر القاتم، كذلك كان لون عينيه الجاحظتين، وكانت تحيط به تلة هائلة من قشور ثمار اللارنج.

∞∞∞∞∞

فريق متميزون
E-BOOK

عهدة الجثث

كانوا عشرين مجرما..

قطاع طرق وقتلة وثوارًا وفلاحين، جاءوا من كل السجون البعيدة وساقهم الحراس إلى باب زويلة حتى يتم شنقهم دفعة واحدة. كان يجب أن تتراص أجسادهم بجانب بعضها البعض لتكون عبرة لكل من يفكر في السرقة أو الثورة، وعند الغروب سيق المجرمون، كانوا جميعا هَزْلى، رثي الثياب ونفوسهم منكسرة.

علقوا على المشانق فكسرت رقابهم أيضًا، أطلقوا صرخات مكتومة، وظلت أجساد بعضهم ترتجف، حتى اضطر الحراس للتعلق في أقدامهم وجذبها لتسكن آخر رجفة، وجاء سكون الليل على الموتى والأحياء.

كان الأمير شهاب الدين والي القاهرة هو الذي وضع لمسات هذا الشنق الجماعي بدقة ونظام؛ بحيث تفاجأ المدينة عند صلاة الجمعة بهذا المشهد، وعندما تمت عملية الإعدام انصرف راضيا إلى بيته وترك الخفراء يحرسون الجثث حتى الصباح.

رغم الظلام كانت العيون الجاحظة لا زالت تحدق في الخفراء، كانت الليلة باردة فتجمع الخفراء خلف «جامع المؤيد»، وأخذ كل واحد منهم ينهض كل ساعة ليدور دورة يحصي فيها الجثث ثم يعود إليهم، وفي منتصف الليل شهق أحد الخفراء من الرعب والدهشة، وأخذ يعدو وهو يصرخ: تسع عشرة فقط، تسع عشرة.

ونهض الخفراء في فزع، وهتف الخفير وهو يكاد يبكي: انسرقنا، الجثث تنقصها جثة.

ركضوا جميعا، كل واحد منهم يحصي الجثث، من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت بلا فائدة، فالجثث تنقصها جثة دون شك، أخذوا يبحثون في كل مكان. ثم عادوا، تكوموا وقد ازدادت برودة الليل، ضربوا كفًّا على كفٍّ، اشتكوا من سوء الحظ الذي جعل الشيء المستحيل يحدث، ماذا سيقولون للوالي في الصباح؟ كيف سيبررون نقص العهدة؟ كانت كرامتهم قد ضاعت، وقد يعلق الوالي واحدًا منهم من رقبته بدلا من الجثة الضائعة؛ تحسس قائد الخفراء رقبته في قلق وهو يقول: يجب أن تكتموا سر ما حدث الليلة، وسنحاول استكمال العهدة الآن.

ونظروا إليه غير فاهمين، وواصل القائد القول: سوف نكمن جميعا خلف المسجد، وننتظر مرور أول عابر سبيل، ونشنقه عوضا عن الجثة المفقودة ولا من شاف ولا من دري.

فكرة رائعة، هلل الخفراء ثم كتموا أنفاسهم واختبئوا جميعا خلف جدار مسجد المؤيد ينتظرون مرور أول عابر سبيل.

كان عابر السبيل العاثر الحظ يسير بمهل، ويغني بصوت خافت، رجل خالي البال نال من الشراب كفايته، اقترب من بوابة الموت، توقف عن الغناء وظل يحدق في الجثث باستغراب، وقبل أن يفهم ما يحدث كان الخفراء قد انقضوا عليه، كمموا فمه حتى لا يصرخ وقيدوا ذراعيه وعلقوا مشنقة سريعة أدخلوها في رقبته فأخذ يصرخ حتى خافوا أن يوقظ القاهرة كلها. وأخذ نصف الخفراء يجذبون الحبل

بكل حمية، والنصف الآخر يجذبه من قدميه حتى سكن كل شيء وتوقفت صرخات الرجل، وأصبحت عهدة الجثث كاملة، وجلسوا جميعا بجانبها حتى لا تنقص مرة أخرى.

وفي الصباح كان منظر المدينة مقبضا وانفض السوق سريعا بعد أن شعر الجميع بالغثيان، وجاء الأمير شهاب الدين والي القاهرة مزهوًّا تحيط به كوكبة من أمراء المماليك ليريهم آخر انتصاراته، وكان منظر الجثث بشعا تغير لونها، وأصبح الذباب يطوف حولها في جنون، وقال أحد الأمراء في استغراب: ولكنها إحدى وعشرون جثة مشنوقة يا أمير شهاب الدين.

نظر الأمير في دهشة ونظر الخفراء إلى بعضهم في حيرة، ومرة أخرى بدءوا يحصون الجثث من فوق لتحت، ومن الشمال لليمين، كانت إحدى وعشرين جثة ما في ذلك شك، وصرخ شهاب الدين: هل يمكن أن أعرف لمن هذه الجثة الزائدة؟

وظل الخفراء مبهورين، وعندما زمجر الوالي قال رئيسهم مرتجفا: يا أيها الأمير، أحصيناها في الليل فوجدناها ناقصة، وانتظرنا حتى مرَّ أحد الرجال فأمسكناه وشنقناه معهم.

وخيم الصمت وتوقع الجميع من الأمير شهاب الدين رد فعل عنيفًا، ولكنه قال في هدوء: أروني ذلك المسكين الذي أوقعه سوء طالعه في أيديكم.

وساروا جميعا حيث الجثة الأخيرة، كانت أكثر شحوبا، على وجهها إحساس قاهر بالفزع والغدر وترتدي ثياب أولاد البلد القاهريين، ثيابًا ليست فقيرة ولا ثمينة، وخيم على الجميع إحساس عميق بالذنب، لولا أن أحد الأمراء هتف: لا شك أنه هو أيضًا كان قاطع طريق وإلا ما كان هذا مصيره.

وهتف آخرون: أو لعله كان قاتلًا أو متهربًا أو ثائرًا على السلطان أو حتى يفكر في الثورة، لعله كان مجرما بطريقة أو بأخرى، أو في سبيله لارتكاب جريمة. على أي حال، اتفق الجميع على أنه من الخير أنه قُتل بهذه الطريقة، وهنأ الأمراء الوالي، وهنأ الوالي رئيس الخفراء، وذهبوا جميعا لصلاة الجمعة في الجامع ، وظلت الجثث معلقة لمدة ثلاثة أيام حتى أكل الذباب منها وشبع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

خبز الجراية

في البدء كان الخبز، فلما تكاثر اللصوص كان الجوع.. في هذا اليوم كان الأزهر جائعا رغم وجود أرغفة الجراية السوداء، كان الطلبة الفقراء والمجاورون المساكين الذين تجمعوا من كل فجاج الأرض يطوون بطونهم الخالية ويرفضون هذه الأرغفة المحرمة.

بدأت المشكلة عندما عزل حسن كتخدا محتسب القاهرة من منصبه، وتولى الحسبة بدلا منه رضوان أغا. الأغا الذي أعطى الرشاوى للجميع من أول الباشا في القاهرة حتى الصدر الأعظم في الآستانة ليظفر بهذا المنصب، بدأ يعد نفسه ليسترد من الناس كل درهم دفعه، ولكن المحتسب السابق أخذ يقيم له العقبات، وأولى هذه العقبات أنه كان متكفلا بجراية الجامع الأزهر، فهل يستطيع الأغا أن يقوم بهذا الأمر؟ وتحداه رضوان أغا، وقَبِل أن يورد خبز الجراية، وأضاف تكلفتها ببساطة إلى الضرائب الباهظة التي يدفعها الناس.

وثار الأزهرية، لم يكونوا يعرفون أن متولي الحسبة هو الذي يصرف لهم الجراية؛ فالأزهر له أوقاف وأموال تصرف عليه. ذهب الشيوخ إلى الأغا يسألونه عن مصير هذه الأموال، فهتف فيهم ساخرا: أوقاف إيه يا مشايخ؟ الباشا استولى على أوقاف الأزهر من زمان، بل إن السلطان نفسه يقاسمه فيها.

هتف الشيوخ في دهشة: وعيش الجراية، ومصاريف الدروس؟ صاح الأغا: كلها تأتي من السرقة يا مشايخ، كلها سحت كما تقولون.

خمسة آلاف فضة كانت تسرق كل يوم من أموال الناس لتعطى للخبازين، ويسرق الخباز نصفها ويصنع بالنصف الآخر خبزا أسود يؤكل بالكاد للمجاورين والمنقطعين في طلب العلم، بينما يذهب الدخل الحلال إلى بيت الباشا والسلطان. وعندما جاء خبز الجراية رفض الطلبة استلامه وظل ملقيًّا على باب الأزهر وحوله الذباب والمتسولون، هاجت القاهرة فنزل جنود الباشا وحاصروا المسجد، ولم تأتِ أرغفة جديدة في اليوم التالي ويبست الأرغفة القديمة، وبدأ الجوع يطل من عيون المجاورين الفقراء. كانوا قد تجمعوا من القرى والنجوع البعيدة، وعبروا البلاد على أقدامهم، كانوا يهربون من الظلم اليومي الواقع على آبائهم، يبحثون خلال التعليم عن فرصة أفضل، وعندما جاءوا إلى القاهرة وجدوا الأزقة في انتظارهم، والمماليك يتحكمون في أرزاقهم، وظلوا يصبرون ويعلمون الناس الصبر، ولا يكفون عن الحلم.. وفي اليوم الثالث، لم تأتِ أرغفة الجراية وازدادت قتامة الأرغفة الأولى حتى إن الذباب عفَّ مبتعدا عنها. وصعد المشايخ الكبار إلى القلعة وصرخ فيهم الباشا في ضيق بالغ: كل خبزنا سحت يا مشايخ، حتى أنا والسلطان، فماذا تريدون؟ كل شيء وله ثمن يا مشايخ حتى خبز الجراية. وانصرف المشايخ مخذولين، وحين رأوا وجوه المجاورين الشاحبة وأجسادهم الضامرة، والعسكر الذين يحاصرون الجامع في إحكام، قال لهم الشيخ العروسي في أسف: الضرورات تبيح المحظورات يا مشايخ.. وهجموا على الجراية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

النهب

كان بونابرته غاضبا فأمر باجتماع الديوان، ودخل الشيوخ الذين يكونونه كأنهم مساقون إلى المقصلة، على رءوسهم عمائم ضخمة، وعلى صدورهم شارة الجمهورية المثلثة التي لا أحد يعرف معناها. كانت دماء المماليك ما زالت طازجة، والريح تهب من إمبابة محملة برائحة البارود والجثث المتعفنة من أثر المعركة التي خسروها، ونابليون يتحدث في عصبية بلغته الغريبة الممطوطة المؤنثة، وكان المشايخ قد تعودوا على الرطانة التركية فأوكلوا أمرهم إلى الله، وصرخ نابليون، فصاح المترجم: كيف يستمر النهب في المدينة هكذا؟ ما فائدة هذا المجلس إذن؟

قال الشيخ الشرقاوي: هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس.

كان يريد أن يقول: إن هذا دائمًا شأن المدن المهزومة، عندما تسقط.. تتعرى، تستباح.. تغتصب، ولكن نابليون واصل صراخه: انتهت الحرب، وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها.

وكان الشيخ الشرقاوي رغم أنه لا يجيد الفرنسية، قد أدرك من البداية أن هذا المجلس ما هو إلا مسخة لا حول له ولا قوة؛ فالفرنسيس يفعلون ما يريدون تمامًا كما كان يفعل المماليك، وقال الشرقاوي: هذا أمر لا قدرة لنا على منعه، وإنما ذلك من وظيفة الحكام.

وهدد نابليون الجميع بمن فيهم أعضاء الديوان. كانت المدينة ما زالت لا تصدق أنها بعد قرون طويلة تعيش بلا مماليك، وأنهم إما جثث محترقة بالبارود وإما هاربون في الصعيد، وهجموا على القصور التي لم يكونوا يجرءون على الاقتراب من أسوارها رغم أنها بنيت من دمائهم؛ فالمماليك منذ أن اعتقت رقابهم لم يعتقوا لمصر رقبة، ومنذ أن تسيدوا أذلوا الجميع، وأخذ الناس يسلبون الرياش والأثاث، كل قطعة منها كانت من دم عشرات الفلاحين وعرق الصنايعية وإتاوة الفقراء، كان المماليك قد ذهبوا ولكن الفرنسيس قد جاءوا وما زال الكابوس مستمرًّا.

أصدر نابليون أوامره للجنود بالنزول إلى شوارع المدينة ليقبضوا على كل الأوباش، ويختموا البيوت، ويحاولوا استعادة الأسلاب. وللمرة الأولى بدأ الفرنسيس في اقتحام حواري القاهرة وأزقتها بوجوههم الناصعة وشعرهم الأشقر. قبضوا على الأوباش، كوموا الأسلاب في كومة واحدة ثم اقتحموا بيوت الأمراء، وهناك هالهم الحلم الشرقي الغريب، رعاع الثورة الفرنسية الذين أصبحوا جنودا للجمهورية الأولى، يعانون في لمحة واحدة من تجسيد سحر الشرق الغامض والترف الذي لم يحلم به إنسان؛ أبهاء رخامية، نوافذ معشقة بالزجاج، نافورات وأبسطة وطنافس، وتوقفوا مبهورين، تذكروا كل أوامر نابليون وتناسوها في نفس اللحظة، ثم بدءوا النهب من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الغرامة

هبط المماليك القرية، كان الوقت ظلاما وبدا الجنود أشبه بالكابوس، ذهبوا إلى بيت العمدة ورمحوا بخيولهم في الشوارع وصرخوا بالتركمانية حتى استيقظ الجميع، وجاء العمدة وهو يرتجف، أوقفوه أمام زعيمهم إسماعيل كاشف بك الذي صرخ فيه: بلغنا أنكم تعاونتم مع الفرنسيس.

وضرب العمدة كفًّا بكفٍّ وهتف في حرارة: أنتعاون مع أعداء الله الكفرة؟ والله هذا لم يحدث!

ولكن إسماعيل كاشف هتف في حدة: الأمر ثابت عليكم، ولا بد أن تدفعوا جميعا الغرامة.

غرامة مالية فادحة، فالمماليك لم يعترفوا بعد أنهم هزموا، ورغم أنهم فقدوا القاهرة والقصور والقلاع، فإنهم كانوا منتشرين في الريف المصرى كالجراد، وظل العمدة يرتجف من التهمة ومن فداحة الغرامة. لم يقدم للفرنسيس أي نوع من المعاونة، كل ما في الأمر أن بضعة من فرسانهم مروا بالقرية يبحثون عن أي مملوك مختبئ، وعندما هالهم فقر القرية وقذارتها انسحبوا بسرعة إلى حاميتهم في المدينة المجاورة. وظل العمدة واقفا قليلا ثم هتف: على العموم الغرامة لكم خير من دفعها للفرنسيس، ولكن هذه مسألة يطول جمعها، والرأي عندي أن تنزلوا في ضيافتي تأكلون وتشربون في أمان حتى نجمع الغرامة من الأهالي.

نظر المماليك إلى بعضهم البعض، كانوا متعبين من كثرة المطاردة، لم يأكلوا لقمة هنية ولم يناموا نومة مريحة، وهم أول من يعرفون أن التهمة ملفقة، وأن الغرامة مفتعلة، وقد قبلوا ضيافة العمدة إلى صباح اليوم التالي، على أن تكون الغرامة جاهزة عند الفجر. وانتابت العمدة نوبة من الكرم الغامض فذبح الدجاج والحمام والبط، وارتفعت روائح الطهي والطبخ، واستكان المماليك قليلا، وحين رأوا الفلاحين يتحركون بين أيديهم، استعادوا بعضا من أبهة الزمن الغابر حين كانوا أسيادا. وجاء الأكل فأكلوا بنهم كما لم يأكلوا من قبل، وهمسوا لبعضهم أن هذه القرية الفقيرة القذرة فيها من الأسرار ما لم يتخيلوه، وإذا كان مذاق طعامهم هكذا فما بالك بمذاق نسائهم؟ وعزموا على البقاء، حتى لو قبضوا الغرامة فسوف يتعللون بأي علة ويفرضون غرامة جديدة من اللحم الحي، وهتف إسماعيل كاشف في استرخاء: ليتك لم تأتِ يا بونابرته.. ولكن بونابرته جاء عند الفجر في ميعاد دفع الغرامة نفسه، جاء جنوده من الفرنسيس بثيابهم الزرقاء، حاصروا بيت العمدة، وكان العمدة هو الذي دلهم بنفسه على القاعة التي ينامون فيها، نظر المماليك إليه في غيظ، فهز كتفيه، على أي حال فهم الذين أوحوا إليه بفكرة التعاون مع الفرنسيس. أخرجوهم مقيدين في حبل طويل وساقوهم إلى القاهرة، ونظر العمدة طويلا في أثرهم، وهمس له أحد الفلاحين متسائلا: هل سيقتلونهم؟ وهز العمدة كتفه باستخفاف وقال وهو يعود للدار: فليأكلوا بعضهم بعضا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

العودة إلى التراب

هم الذين طلبوا منه القيام بهذا الأمر، وهم الآن الذين يريدون قتله لأنه قام به على خير وجه. اسمه محمد أفندي الطويل، مهنته كاتب الفرنساوية، تهمته الخيانة. كانت القاهرة تشتعل بالثورة عندما استدعاه «كليبر» بنفسه وقال له بوضوح: عليك أن تذهب إلى «بولاق» وتتظاهر بأنك معهم، ثم تأتي لنا بأخبارهم كل يوم.

كانت بولاق هي حيه القديم، أول تراب لمسته قدماه، ولكنه حين تبع الفرنسيس سار طويلا؛ ترك البيت القديم وسكن في أحد قصور الأزبكية، وترك الزوجة القديمة وأخذ بعضا من نساء المماليك، وتعلم شرب البراندي والرقص بخطوات منتظمة، وعندما طلبوا منه العودة إلى بولاق أحس بالغربة الشديدة كأنه يعود إلى كوكب جديد. لمست قدماه التراب، شمت أنفه الرائحة وأحس بقلبه يقفز من صدره، إيه يا بولاق ماذا جرى لك؟ كانت فقيرة تفوح رائحة العفونة من كل ركن من أركانها، أكانت هكذا قديما؟ من أين أتت لها كل هذه التعاسة؛ المتاريس في كل مكان، والناس خلفها، شبان وشيوخ، يقوم الأطفال والنساء على خدمتهم، في أيديهم بنادق خشبية ونبابيت وعصي وفئوس، يتناقلون قدور البارود الرديئة الصنع التي تنفجر فيهم قبل أن تنفجر في أعدائهم؟

واغتاظ محمد أفندي الطويل من شدة حماقتهم، كيف يعتقدون أنهم بمثل هذه الأشياء البدائية، يستطيعون مقاومة مدافع الفرنسيس الرهيبة؟ ألم يروا المدافع المنصوبة فوق تلال المقطم، والتي يمكن أن تدك المدينة على رءوسهم؟

في الليلة الأولى من اليوم الأول، قام محمد أفندي الطويل بواجبه فأخبر الفرنسيس عن مكان المتاريس ومداخل الحارات الآمنة، فاقتحمها الفرنسيس وباغتوا المدافعين من الخلف وذبحوهم جميعا، ثم هجموا على البيوت المجاورة واغتصبوا بعض البنات الصغيرات، كانت أمهاتهن جيرانا لمحمد أفندي، وإن لم يشهد بنفسه ولادتهن، على أي حال، هذا جزاء الحماقة. اليوم الثاني أرشدهم محمد أفندي إلى مكان المصنع الذي يصنعون فيه البارود، ووصف لهم موقعه بدقة، حتى إن الفرنسيس وجهوا مدافعهم نحوه وأطلقوا عليه «القنبر» فارتفعت ألسنة الجحيم. وشاهد محمد أفندي عاقبة الحماقة من جديد؛ شاهدهم يجرون ولحمهم يحترق، شاهد الأطفال الذين تفجرت عظامهم، والأرامل اللائي متن خنقا تحت الأقدام، شاهد العجائز وهم يجرون في الشوارع صارخين: «يا خفي الألطاف.. نجنا مما نخاف».

ثم أخذ «القنبر» يتساقط عليهم كالمطر كأن السماء تهطل موتا، وشاهدهم محمد أفندي وهم لا يفارقون المتاريس وهم يموتون خلفها قبل أن يكملوا، شاهد جثة امرأة تشبه أمه ورجلا يشبه أخاه وشيخا هو أبوه. بكل تأكيد كان الموت يرافق كل خطوة من خطواته؛ الفرنسيس يقتلون بكل حقد، والمدافعون يموتون بلا حول ولا قوة وبلا تراجع أيضًا. كانت بولاق تعاني كلها من الجوع ومن وطأة الحصار ومن التهديد بانتشار الأوبئة ولكنهم ظلوا يدافعون ضد الكفرة، ووجد محمد أفندي نفسه يصرخ معهم، يمسك «نبوتا» ويهشم رأس أول جندي فرنسي يعبر المتاريس، لم يعد يقوم بواجبه ولم يعد يبلغهم بأى شيء، ونسي أن له بيتا في الأزبكية، وأخذ يتكلم بنفس اللهجة البولاقية كأنه لم يغادرها

لحظة واحدة، وظل يدافع باستماتة حتى انهزمت المدينة كلها وسقطت بولاق نصف محترقة ونصف ميتة، ونظر إليه كليبر طويلا قبل أن يأمر جنوده بتنفيذ حكم الإعدام فيه.

ملكة مصر.. الأكثر تعاسة

زواج سيئ وطلاق، يعقبه زواج أسوأ، فماذا يمكن أن تفعل ابنة تاجر الأرز وهي تطل من خلف المشربية على مجلس الرجال؟

عمائم وقبعات، وجوه ملتحية مائلة للسمرة، وأخرى منتفخة ومحمرة وحليقة، يتحدثون بألسنة مختلفة؛ عربية وفرنسية، ولكنهم يتحدثون عنها، عن الشرط الذي وضعته أمام أبيها؛ هذا الضابط الفرنسي الذي يريد أن يتزوج بها يجب أن يعلن إسلامه أولا، وأن يدون ذلك في وثيقة. كانت تعتقد أن هذا سيوقف الزواج، ولكن الضابط الغريب وافق على الفور، لم يكن الدين يعني له شيئا، الشرط الذي حسبته صعبا ومعجزا تبين أنه أسهل الشروط، لم يكتفِ الضابط الفرنسي بجمع شيوخ رشيد ولكنه أحضر أيضًا شيوخا من الأزهر لتكون الوثيقة شرعية معتمدة، ينهض الضابط الفرنسي واقفا، يردد خلف الشيخ الحمامي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

لهجته مدغمة ومتعثرة، وهو لا يعنيها بالتأكيد، ولكنهم يطلقون التكبيرات العالية، يبتسم أبوها في تواطؤ، رأت هذه الابتسامة عندما عقد قرانها على الأغا التركي، وضمن مصلحته التجارية المؤقتة يتحدث الضابط الفرنسي، ويستمع الجميع إلى كلمات المترجم: قد غيرت اسمي منذ الآن، لم أعد جاك مينو النصراني القديم، ولكن عبد الله مينو المسلم الجديد. يعاودون الهتاف وينهض أخوها «عليّ» صائحا: بل أنت الشيخ عبد الله مينو، يهبه اللقب بالأريحية نفسها التي سيهبه بها أخته، يشم رائحة مصلحته الخاصة دائمًا، ويعلم أن رشيدا ستسلم قيادها له ولأبيها بسهولة، مثلما سلمت نفسها للفرنسيين دون قتال وقابلتهم بالورود بدلا من السلاح.

بعد ذلك بأسبوعين كانوا يجهزونها للزفاف، الضابط الفرنسي كان متعجلا، يريد امرأة إفريقية مختلفة في فراشه. يتم توقيع عقد الزواج في المسجد، وتكتب وثيقة يحفظها القاضي، زواجها الأول كان دون وثيقة، وكان الأغا التركي خشنا، لايصل إلى ذروته إلا بعد أن يضربها، ولكن الأمور تتم الآن بمزيد من الحفاوة، عندما تبدي ترددا يصيح فيها أخوها: ألا ترين ماذا يحدث لتجارتنا؟ الفرنجة يصادرون سفن الأرز ويأخذونها بلا ثمن تقريبا، عندما يكون ساري عسكر رشيد نسيبا لنا لن يجرءوا على ذلك.. تصيح فيه: هذا ما قلتوه لي في الزيجة الأولى، كنت طفلة وقتها وأرغمتموني على الزواج من هذا التركي، يقول وهو يشيح بوجهه: أيامها كان الأتراك هم الذين يحاكمون ويصادرون، الزمن يتغير والأزواج يتغيرون.

حين أقبلت سفن الفرنسيس على شاطئ الإسكندرية لم يقدر أحد على مقاومتها، اكتشف الجميع أن القلاع كلها مهدمة مليئة بالثغرات، والمدافع صدئة ترتد منها القذائف لتصيب من يطلقونها، ولكن عندما دوت مدافع الفرنسيس تردد صداها على طول الشاطئ، وأصيب حاكم رشيد «عثمان خاجا» بالرعب الشديد، ترك قصره وجنوده وفرَّ هاربا، ودخل هذا الفرنسي الدميم وسط ثلة ضئيلة من الجند، كان يمكن أن يضيعوا في الحواري الضيقة لولا أن المدينة كانت مستسلمة أكثر من اللازم، تنتظر من يحكمها. جلس جاك مينو على نفس التخت الذي كان يجلس عليه «عثمان خاجا»، وأخذ

يفكر بطريقته نفسها، وبدأ تجار المدينة وأعيانها يلتفون حوله، يبادلونه الرأي والمشورة رغم أنه لا توجد لغة مشتركة بينهم، ولكن من الذي أتى على ذكرها أمامه؟ لا أحد يدري، ولكن منذ أن أشيع في المدينة أن الفرنسي يبحث عن زوجة محلية، يريد أن يجرب صنفا جديدا من النساء، لسن بيضاوات ولا شاحبات، وقد سارع أهل المدينة بتزويج بناتهن العذارى الأبكار لأقاربهن، لم تبق إلا هي، تعاني من آثار التجربة الأولى وتنتظر الثانية.

كان بيت العرس يخص «عثمان خاجا»، مثلما كانت هي تخص أغا تركيًّا سابقًا، كل شيء يتوارث، ولكنها لا تطيق وجه هذا الفرنسي المحتقن. يقترب من فراشها فتشيح بوجهها، يمسك جسدها حتى لا تسحبه بعيدا عنه، يتمكن من الاستيلاء عليها بسهولة ودون عنف، تلاحظ أنه مختلف؛ جسده معطر، ولمساته أقل خشونة، يهتم بجسدها كله وليس بذلك الجزء الصغير المخفي بين فخذيها، يقبل كل جزء منه، ويهمس في أذنها بكلمات لا تفهمها، يستخدم لسانه جيدا، كلاما ولمسا، تدرب جيدا على أسرَّة غواني أوروبا، ويعرف أن كل شيء مباح في سبيل المتعة. لم يكن قويًّا مثل زوجها التركي الأول، ولكنه كان ماهرا، منفتحا بلا حدود، يعبث في مكامن جسدها لدرجة تبعث على الخجل. أصرَّ على أن تتعلم الفرنسية لتفهم فقط ما يقوله لها وهما في الفراش، لم يكن هناك الكثير ليقال، كان جسدها خصبا، تلقى بذرته الأولى في تشوق، وسرعان ما انقطعت عادتها الشهرية، وأدركت أن كل الظروف السيئة التي دفعتها لهذا الزواج قد تحولت إلى شيء جيد داخل رحمها، ولكن الأمور لم تكن كذلك خارج فراشها.

جسد مصر كله كان يغلي، عاجزا عن قبول هؤلاء الفرنسيس الكفرة، رغم أنهم استناموا طويلا تحت حكم العثمانيين المسلمين وتقبلوا منهم كل أصناف الذل والهوان، كأن عبوديتهم للترك قد تأصلت في نفوسهم، كانوا في مأزق حاد من الفرنسيس، وكان نابليون وجنوده في المأزق نفسه. فبعد طول بحث في عرض البحر المتوسط، عثر الإنجليز على سفن الأسطول الفرنسي راسية في ميناء أبي قير، وأدركوا أن عدوهم اللدود نابليون الذي طالما دوخهم موجود في هذا الجزء من إفريقيا، وأرادوا حبسه فيه إلى الأبد، قاموا بتدمير كل سفنه، صبوا عليها نيران مدافعهم فلم يبقوا منها إلا كتلا خشبية طافية. في أقل من نصف يوم تحول الفاتح العظيم إلى فأر محبوس داخل مصيدة صحراوية لا يوجد حوله إلا أناس يكرهونه، وتأكدت هذه الكراهية عندما ثاروا عليه، حاول أهل القاهرة اقتلاع جنوده من مدينتهم، ملئوا شوارعهم بالمتاريس، وخرجوا بأسلحتهم البدائية؛ سيوف وفئوس وسكاكين وغدارات قديمة، ولكن نابليون كان يمتلك المدافع الفاتكة، نصبها فوق جبل المقطم وأخذ يصلي المدينة بنيران حارقة، أطاح بنصف مآذن القاهرة، وهدم أحياء بأكملها، وضعت خيوله روثها على حصر الجامع الأزهر، وتعفنت الجثث دون أن تجد من يدفنها، وهدأت القاهرة بعد أن دفعت الثمن غاليا، ولكن نابليون لم يهدأ. تدمير المدينة لم يحل مشكلته، كان ما يزال فأرا محاصرا.

كان يجب أن يعود إلى فرنسا، وقرر أن يهرب بواسطة مركب صيد صغير، لن يأبه به الإنجليز كثيرًا، وقبل أن يرحل جمع أكبر قواده: الجنرال عبد الله مينو والجنرال جان كليبر. أراد أن يختار منهما القائد الذي سيشغل مركزه، وفوجئ مينو بأن نابليون قد اختار كليبر بدلا منه، رغم أنه الأذكى والأقدم. الحقيقة أن كليْهما كان غبيًّا، كليبر يؤمن بأنه لا بقاء لهم في هذه البلاد، ولكنه لا يملك أي وسيلة للجلاء عنها، ومينو يؤمن بأنه من الضروري البقاء والصمود رغم أنه يسبح وسط محيط من

الكراهية، لكنه عاد إلى رشيد حانقا، يراقب بطن زوجته الذي يكبر ويدرك أنه لاجدوى، سيظل الرجل الثاني رغما عنه، ستدفن مواهبه في هذه المدينة الساحلية النائية.

لكن الزمان سريع التقلب، فوجئت زبيدة به ذات يوم وهو يتخلى عن حنقه وإحباطه، يدخل غرفتها وعلى وجهه ابتسامة واسعة، يصيح عاليا: مدام.. تهنئتي.. لقد أصبحت ملكة مصر. لم تفهم، ولكن زوجها كان قد أصبح ساري عسكر عموم مصر، حاكمها الفعلي، فرعونها الفرنسي، إذا سئل الجنرال «مينو» الذي أصبح ساري عسكر الفرنسيس عن أي شيء يكرهه فسوف يكون جوابه غريبا، فهو لا يكره أولئك المصريين المتخلفين الجهلة الذين لا يكفون عن الثورة في وجه جنوده، حتى إنه أحرق مدينتهم مرتين بسبب ذلك. ولم يكن يكره المماليك الذين كانوا يريدون العودة إلى الحكم معه بأي طريقة وينصبون الفخاخ لأي جندي فرنسي يضل طريقه. ولم يكن يكره العثمانيين الذين تربض جيوشهم في الصحراء يريدون عبثا أن يقاسموه الغنائم. ولم يكن يكره الإنجليز الذين يسدون عليه منافذ البحر ويجعلون عودته إلى فرنسا أمرًا أشبه بالمستحيل.

كان يكره شخصا واحدا، هو زميله ورفيقه في السلاح؛ الجنرال «كليبر»، كل الأعداء السابقين كانوا يمثلون فقط المرحلة الأخيرة من حياته، ولكن كليبر هو العدو الذي عانى منه في كل مراحل حياته، دائمًا يسير في مقدمته إذا جاءت الفرصة كان هو أول من يظفر بها، وإذا قيلت الكلمة يتم الإنصات لكلمته، يظفر دائمًا بالترقيات بدلا منه، ويتلقى مديح نابليون بدلا منه، وتوضع أكاليل الغار على رأسه بدلا منه، دائمًا بدلا منه، وعندما فرَّ نابليون من مصر عائدا إلى فرنسا، عيَّن كليبر ساري عسكر لمصر بدلا منه. وكظم مينو غيظه وهو يرى كل السلطات تتحلل من بين أصابعه، وهو يرى عدوه يركب مدافعه ويقصف بها القاهرة بدلا منه، وهو يراه يأمر وينهي ويستولي على الغنائم ويسكن قصر نابليون بدلا منه، وكاد أن يجن من فرط الغيظ والحنق، لولا أن شابًّا شاميًّا نحيفًا جاء من حلب، ودخل إلى الحديقة التي كان يتنزه فيها كليبر وتظاهر بأنه يريد أن يقبل يده ثم طعنه بسكين حادة قضت عليه.

من هذه اللحظة لم يعد هناك كليبر، بدلا منه أصبح هو ساري عسكر، وبدلا من أن يقتل سليمان الحلبي على الفور أخذ يعد لمحاكمة صورية معروف حكمها سلفا، كان يريد أن يبقى سليمان لأكبر وقت ممكن، يتأمل وجهه الشاحب الهادئ الذي جاء من بلد بعيد ليثأر لمدينة مهزومة محترقة، وللحظة شعر بأن ملامحهما يمكن أن تكون واحدة.

تخيل أنه قد أصبح سلطانًا شرقيًّا بالغ المهابة، وأخذ يحض جنوده على أن يفعلوا مثله، أن يكفوا عن أحلامهم بشوارع باريس الرطبة وأن يغتنموا الفرصة في هذه الجنة الاستوائية التي لن تتكرر، واكتمل حلمه السلطاني عندما بدأ بطن زبيدة في الارتفاع، أحس بأنه قد ضرب جذوره في هذه الأرض، وأن القادم هو ولي عهده بلا شك، هو الذي سيمد حدود دولته حتى تحكم كل الصحراء. كان عليها أن تترك رشيدا مدينة عمرها وتذهب إلى عاصمة ملكها في القاهرة، ملكة حاملا ثقيلة الخطى. كان كليبر قد دفع ثمن شراسته وإسرافه في قتل عوام الناس، تم اغتياله على يد طالب علم من حلب يدعى سليمان. كان مينو أسعد الناس بسماع هذا الخبر، نظر إلى بطنها مبتهجا وهو يقول: إذا كان المولود ذكرا فسأسميه سليمان، وسيكون ملك مصر المقبل.

ولد سليمان وسط البكاء والعويل، كانت المدينة قد ضاقت بمغتصبيها وتاقت لأي نوع من الخلاص، لم تهتم بهذه الملكة الرشيدية كثيرًا، يكفيها ما مرَّ عليها من حكام، مينو وحده الذي كان يحلم بأنه سيصبح فرعونا جديدا، سوف يقنعهم بإسلامه ويجعلهم يسيرون خلفه لمحاربة جنود السلطان والإنجليز على السواء، يحتاج فقط لبعض الوقت، فرصة ليرسم خططا لمملكته الجديدة، ولكن الحوادث كانت تسابقه، جنود العثمانلي يتقدمون في سيناء، والإنجليز ينزلون جنودهم في الإسكندرية، سيسير إليهم أولا، هم الأخطر، ولو هزمهم فسيخيف السلطان وجنوده.

كانت هذه معركته الأولى التي يخوضها كقائد أوحد، حاول أن يباغت الإنجليز ولكنهم كانوا مستعدين له، ليسوا بُلْهًا كالأتراك، ردوه على أعقابه وأسروا جنوده وقتلوا منهم عددا كبيرا، هزيمة صادمة، جعلته يفقد زهوه مبكرا، ولم يكن يستطيع التراجع للقاهرة لأنه يدرك أنهم سيلاحقونه، هم والأتراك سيطبقون عليه كالكماشة، ظل واقفا في مكانه عاجزا عن الصمود وعن التراجع، وجاء عرض الصلح من الإنجليز لمرة واحدة، إذا قبلت بالرحيل فسنوفر لك السفن اللازمة، وإذا رفضت فسنتركك تتعفن في هذا البلد الحار، رأى عيون جنوده المتعبة، وجروحهم المستعصية على الشفاء، ماذا كان أمامه غير أن يقبل بكل شروطهم؟

مرة أخرى تجد زبيدة نفسها مرغمة على الرحيل، عن رشيد أولا، ثم عن مصر كلها بعد ذلك، لا تدري حقًّا ما يدور حولها، ولكن ما تعلمه حقًّا أنها قد فقدت كل مستقر لها، حتى هذا الزوج الذي تتبعه رغما عنها أصبح يتباعد عنها، وسيزداد ابتعادا عندما يعود إلى بلده الأصلي. لم تكن منهم، تعلمت لغتهم وأنجبت ابنا لهم ولكنها ليست منهم. رحلة مجهولة إلى أرض مجهولة، يتركها زوجها في «مارسيليا» ويتجول كثيرًا، يعود أحيانا ولا يعود في أغلب الأحايين، لا يبدي أي اهتمام بها، ولكنه في إحدى المرات يأخذ منها ابنها، يرسله بعيدا حتى تربيه إحدى الأسر على التقاليد الفرنسية. يحاصرها الفراغ من كل جانب، بعيدة عن بلدها وابنها، حتى زوجها كفَّ عن زيارتها أو إرسال المال اللازم لها، تسمع أنه ترك فرنسا وأصبح حاكما على فلورنسا، تسمع أنه اتخذ من إحدى الراقصات عشيقة له، ورفعها حتى أصبحت حاكمة بأمرها في تلك المدينة الإيطالية البعيدة. من المؤكد أنه نسيها، سقطت من ذاكرته مثلما سقطت من ذاكرة الجميع، ملكة الحطام. تهبط إلى رصيف الميناء، جائعة وتعيسة ومنبوذة، تتأمل السفن الراسية أو التي تتأهب للرحيل، ألا توجد سفينة واحدة، واحدة فقط، تحملها إلى رشيد؟ تجلس حائرة فوق لفة من الحبال المالحة، يتأمل البحارة العابرون شكلها الغريب. في كل الموانئ يوجد دائمًا هذا النوع من النساء الوحيدات، يتوقف أمامها أحد البحارة، يتطلع إليها فتقول له بفرنسية متعثرة: ألا توجد سفينة تأخذني إلى رشيد؟ يقول لها على الفور: بالطبع توجد، تعالي معي. تتبعه إلى سفينة راسية، تهبط خلفه إلى قاعها حيث لا توجد إلا العتمة والرطوبة، يسجيها على حشايا لها طعم الملح. تصرخ فلا أحد يسمع صوتها، ويرفع ثوبها ويعري جسدها، تدرك أنها مهما قاومت فلن يستمر ذلك طويلا. تشهق وهي تستسلم له، ويشعرها هذا بالدفء لمدة قصيرة، وباللزوجة لبقية الليل. تشهق بالبكاء وهي تجد نفسها على الشاطئ من جديد، ليس في يدها إلا بضع عملات صغيرة من الفضة، تظل ترتعد طوال الليل عاجزة عن النوم، لا بد أن هناك سفينة ما سوف تحملها. تهبط إلى الميناء في اليوم التالي، وتسأل السؤال نفسه لبحار ثانٍ فيأخذها إلى قاع سفينة مختلفة، يطعمها الخبز وجرعات من شرب «الروم»، مهما اختلف البحارة فلا

ترحل السفن ولا يدوم الدفء طويلا، ولكن السؤال يتواصل كل يوم، والإجابة دائمًا واحدة؛ المضاجعة بدلا من الرحيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مشاجرة بسيطة

القاهرة متوترة، تعيش حالة غريبة لم تشهدها مدينة أخرى؛ فهي على وشك التخلص من أحد جيوش الاحتلال، وتستعد لاستقبال جيش احتلال آخر، وخلق هذ جوا من التوتر والتوجس ساد الجميع؛ الفرنسيس يريدون ثمنا باهظا حتى يخرجوا في سلام، والعثمانيين يطلبون ثمنا باهظا حتى يدخلوا دون نية انتقام، والمصريين هم الذين سيدفعون في الحالتين.

في هذا الجو وقعت مشاجرة بسيطة بين امرأة فقيرة سليطة اللسان وبين غلام صغير أبوه يملك محلّا لبيع الزيوت. كانت المرأة تريد أن تشتري بدرهم زيتًا، الغلام يقف في الدكان مؤقتًا حتى يفرغ أبوه من الصلاة، وقال الغلام للمرأة إنه لا يوجد في الدكان زيت، وألحت المرأة عليه وأصرَّ الغلام، فقالت المرأة محتدة: أظنك تخبئ الزيت حتى تبيعه للعثمانلي.

وقال الغلام غاضبا: أجل، سأبيعه للعثمانلي رغما عن أنفك وأنف الفرنسيس.

وتبادلا عدة كلمات غاضبة أخرى وانصرفت المرأة واشترت الزيت من دكان آخر ولكن الحكاية لم تنتهِ، تطايرت أنباء المشاجرة وأضيفت إليها عشرات التفاصيل. زاد عمر الغلام وأصبح رجلا ناضجا، ودخلت أطراف أخرى في المشاجرة وتحول ابن الزيات إلى أخطر جاسوس عثماني استطاع أن يتسلل إلى المدينة ويتحكم في أقواتها، ووصل الأمر إلى وكيل الفرنسيس الذي كان يبحث عن حجة يؤدب بها المصريين، فرفع الأمر إلى القائمقام وأصدر أوامره بالقبض على الغلام فأرسلوا إليه فرقة من جند الفرنسيس تكفي للقبض على حي بأكمله. وصرخ الأب، لم يستطع أن يقاوم الجنود فهرع إلى المشايخ أعضاء الديوان، واستمع الشيخ الشرقاوي إلى الحكاية وهو يعبث بلحيته ثم قال: بسيطة، الولد لم يقل إلا كلمة عابرة.

قال الأب في خوف: أخشى أن يقتلوه!

قال الشرقاوي مؤكدا: كلا، فالفرنسيس لا يقتلون بالشبهة، لا بد من عقد محاكمة وسماع الشهود، وسوف أسعى في الأمر إلى ساري عسكر الفرنسيس.

وصلت أخبار الغلام إلى ساري عسكر قبل أن يسعى الشرقاوي لمقابلته، كانت المدينة كلها تتحدث عن الجاسوس، رأوا فيه أملا غريبا للخلاص ودليلا على قوة العثمانلي وتمكنهم من التغلغل داخل البلاد رغم أنف الاحتياطات الفرنسية. وارتعب ساري عسكر فأصدر أوامره بأن يعذب الجاسوس حتى يكشف سر بقية زملائه وبقية المخازن التي يخفون بها الأقوات. وعندما جاء الشرقاوي إليه لم يستمع لرجائه، وطلب من القائمقام أن يأتيه بالجاسوس حتى يستجوبه بنفسه، وكان موقف القائمقام مخجلا حين اكتشف أن الوكيل لم يأتِ له بأكثر من غلام لا يصلح لأي شيء، ولم يجد بدًّا من إدخاله إلى ساري عسكر، الذي نظر إلى الغلام في دهشة ثم استغرق في الضحك المتواصل.

استمع إلى حكايته فازدادت ضحكاته، وغمر العرق البارد الوكيل والقائمقام، وتخلص الأخير من ذلك وسأل ساري العسكر: هل نطلق سراحه؟

ولكن ساري عسكر توقف عن الضحك بصعوبة وهو يقول: بعد هذه القصة الهائلة التي نسجت حوله، أتريد أن يقول الأهالي إننا نشعر بالخوف من العثمانيين وغير قادرين على تأديب جواسيسهم؟ كلا، يجب أن يقتل في الحال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مقصوفة الرقبة

هبط الشيخ البكري بجلالة قدره وعمامته الضخمة إلى القبو الموجود في منزل ساري عسكر الفرنسيس، لم يأتِ لزيارة نابليون بونابرت كما تعود أن يفعل كل عدة أيام، ولكنه ذهب مباشرة إلى «الطواشي» القيم الذي يشرف على إدارة المنزل الضخم، نظر إليه القيم في اندهاش، لم يكن متعودًا على زيارة كبار الزوار، يكفيه أنه ينظم حركة الخدم والجواري ويتعامل مع موردي الفاكهة والخضار واللحم، ولكن أن يأتي واحد من المشايخ أعضاء المجمع العلمي فهذا شرف فوق طاقته، ولكن الشيخ قال له بشكل مباشر: علمت أنك ذهبت إلى سوق العبيد واشتريت سبعًا من الجواري. لم يكن الأمر سرًّا، قال الطواشي: أنت تعرف أنها ليست لي ولكن للجنرال نابليون، قال الشيخ: بالطبع، ولا أحد يعترض، أريد فقط أن أضيف فتاة ثامنة لبقية الفتيات. بلغت الدهشة أقصاها للطواشي وهو يتساءل: هل تريد أن تبيع لنا جارية؟ هل تمارس هذه التجارة؟ قال الشيخ باختصار: إنها هدية دون مقابل، إجابة غير مقنعة. عاد الطواشي يسأل: لماذا لا تهديها بنفسك؟ أنت لست بعيدا عنه. قال الشيخ في غموض: أريد أن أترك له الفرصة للاختيار، والمقارنة بينها وبين الأخريات. استدار الشيخ واستعد للانصراف، ولكنه التفت إليه وقال مؤكدا: لا تعرض الجواري عليه قبل أن أحضر الفتاة، وانصرف مسرعا.

وجد الطواشي أنه لا مناص أمامه إلا الانتظار، ربما تكون الجارية القادمة قبيحة جدًّا أو عجوزًا فيرفضها بسهولة ولا تحدث مشكلة، ولكن الفتاة التي أحضرها الشيخ في اليوم التالي لم تكن لترفض، حين وضعها الطواشي وسط الجواري السبع وجد أنها تتفوق عليهن جميعا، لم تكن تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، نضرة، مشرقة كشمس الضحى، خجولة، لا تدري لماذا جاءت إلى هنا، ولا ماذا سيحدث لها. اقترب منها الطواشي مندهشا من سحر الصبا المنبعث منها، قال: أنتِ لست جارية، هيئتك لا تدل على ذلك، من أنتِ بالضبط؟ قالت بصوت خافت: أنا ابنته، هتف مندهشا: أنت بنت الشيخ البكري، حرة شريفة، ألا يعلم ماذا سيحدث لك في هذا البيت؟ لم تجب، وبدا واضحا أنها لا تعلم، ولكن أباها يعلم بالتأكيد، فقد جالس الفرنسيس طويلا، منذ أن دخلوا مصر وهو يسير في ركابهم. كلا.. خلفهم ببضع خطوات، يتعلم لغتهم ويشرب النبيذ معهم صرفا ويخلطه مثلهم بالكونياك، يشاهدهم وهم يرقصون ويفسقون. كيف يتأتى له أن يُدخل ابنته الغريرة في هذا المستنقع ويطلب منها السباحة وحدها، بل إنه يهب جسدها للتمساح الأكبر بونابرت؟

قبل أن يفيق الطواشي من أفكاره، فوجئ بالجنرال وهو قادم بنفسه ليستعرض الجواري الجدد، أسرع يضعهن في صف واحد، رتب ثيابهن وشعورهن بسرعة ثم وقف محني الرأس أمام الجنرال القصير القامة. توقف نابليون يتأمل الجارية الأولى ثم انتقل سريعا للثانية ثم الثالثة ثم توقف وظهرت علامات الامتعاض واضحة على وجهه، هتف ممتعضا: ما هذه الأوزان الثقيلة؟ من أين جئت بهاتي البنات السمينات؟ لم يكن الطواشي يعرف شيئا عن الذوق الفرنسي في النساء، احتار ماذا يفعل؟ قال: هذا هو الذوق السائد، اعتقدت بأن هذا النوع سيعجبكم. هزَّ نابليون رأسه رافضا، واقترب من الرابعة وشم شعرها ثم هتف: ما هذه الرائحة غير الطيبة؟ كلهن لهن الرائحة نفسها، ماذا يأكلن وماذا يشربن؟ لم يكن راضيا، أحس الطواشي أن مستقبله على وشك الانتهاء، ولكن نابليون بدلا من أن ينفجر في وجهه التفت للناحية الأخرى، إلى حيث تقف الفتاة الأخيرة، الأطول قامة والأشد نحافة والأفتح بشرة،

تخطى البقية ووقف أمامها، ملأ رئتيه من رائحتها، ودار حولها يتأمل قوامها. لم تكن تلبس إلا ثوبا بسيطا من الحرير المقصب، منسدلا على جسمها دون أي بروزات نافرة، سألها بالفرنسية فلم تفهم ولم ترد، وأسرع الطواشي يقول لها: إنه يسألك عن اسمك. قالت بخجل: زينب، أخذ يردد الاسم كأنه يحاول أن يعرف ماذا يعني، سأل الطواشي: من أين أتت؟ تلعثم الطواشي قليلا ثم قال: إنها ليست جارية عادية، إنها ابنة الشيخ البكري، حتى نابليون لم يستطع أن يخفي دهشته، التفت للقادة المصاحبين له، قال: كأننا في مأساة إغريقية، هذا الشيخ مستعد للتضحية بأي شيء من أجل منصب ما، ضحك القادة جميعا، والتفت هو إلى الطواشي: اصرف هاتي القبيحات، وخذ هذه الجميلة إلى الداخل دعهم يزينونها ويصنعون لها ثيابا ويعلمونها الفرنسية والرقص، وانصرف مسرعا كعادته، ولكن زينب دخلت عش النسر.

في اليوم التالي كان على الشيخ البكري أن يذهب لمقابلة ساري عسكر، وكان على نابليون أن يسمح له بهذه المقابلة. أراد أن يعرف ماذا يدور في عقل هذا الشيخ ذي العمامة الضخمة، مجرد أن يعتني بمقابلته هذا يعني أنه قد قبل الهدية؛ لذلك بدا الشيخ مرتاحا وهو يتحدث عن محبته للفرنسيس وحرصه على راحتهم. فكر نابليون في أنه شيخ ماكر ولكن مكره مفضوح، لذلك سأله بشكل مباشر: أنت مقرب منا بما يكفي، ولكن قل لنا ماذا تريد؟ كان الشيخ البكري بالفعل عضوا بالمجمع الذي يضم كل المشايخ البارزين وكانوا يجتمعون مع العلماء الفرنسيين أسبوعيًّا ولا يفهمون شيئا مما يدور حولهم، ولكن الشيخ كان يريد ما هو أكثر. أخذ يحدث نابليون عن منصب نقيب الأشراف، هؤلاء الذين ينحدرون من صلب الرسول، وكيف أنه الأحق بهذا المنصب من الجميع منذ أن هرب النقيب السابق عمر مكرم إلى الشام. لم يفهم نابليون في أول الأمر، ولكنه فهم قليلا عندما عرف أن هذا المنصب يدر أموالا وله بيوت وأراضٍ تابعة له. كان الشيخ يؤكد أنه الوحيد الأحق بالمنصب ولكن عائلته حرمته منه بسبب ولعه بالغلمان الصغار، رغم أن هذا لا يتعارض مع دماء الأشراف التي تجري في عروقه، في النهاية لم يكن يهم نابليون من سيتولى أمر هذا المنصب الغامض، ولكنه قرر أن يعطيه لهذا الشيخ اللحوح الذي قدم ابنته قربانا له.

كان الشيخ سعيدا، انتقل إلى بيت النقيب الفخم وبدأت أراضي الوقف تدر عليه الأموال، ولكن زينب لم تكن بالسعادة نفسها، لم تكن راضية عن الملابس التي أعدوها لها؛ تلك الطبقات من الملابس الخشنة الثقيلة، وذلك القفص من الأعواد الرفيعة التي تجعل الثياب منفوخة وتبعدها عن جسمها، تجعلها تشعر بفراغ مرعب في نصفها السفلي، ولم تكن أيضًا تحب دروس الرقص، لم تفهمها ولم تقدر على عدِّ الخطوات.

ثم جاءت اللحظة التي يهيئونها لفراش الجنرال، أدخلوها غرفته قبل أن يجيء بوقت، جردوها من كل ملابسها ووضعوا عطرا على أماكنها الحساسة، وطال انتظارها في الفراش فأحست بأنها بردانة ووحيدة ومنبوذة أيضًا. غفت قليلا ثم فتحت عينيها ووجدته في الغرفة، يقف بجانب فراشها وهو يتأملها، مرتديا كامل حلته العسكرية بكل الأزرار والألوان والنياشين وهي عارية، يتفحصها بعين النسر، لا تدري هل يرغب فيها أم يوشك أن يطردها، يشير لها أن تظل في مكانها، بدأ هو يخلع ثيابه، مع كل قطعة يخلعها كانت هيبته تقل، وعظمته تنخفض، وعندما أصبح عاريا تمامًا بدا شكله مضحكا، قصيرًا، له بطن بارز وكتفان ضيقتان، كتلة أقرب إلى المربع تتحرك على ساقين

قصيرتين. يقفز فوق فراشها ويزحف على جسمها أشبه بسحلية عملاقة، يضع شفتيه على كل جزء منها كأنه يمتص رحيق الشباب من جسدها، جسده أيضًا كان يتحرك بعصبية. كانت تشعر بألم بالغ في نصفها الأسفل، ولا تستطيع الحركة حتى تتخلص منه أو تتجنبه، تسمعه وهو يلهث وتشم رائحة الخمر في أنفاسه، ثم ذلك الألم المتواصل في أسفلها، من حسن الحظ أنه كان يهدأ سريعا، ينزاح من فوقها ويستلقي بجانبها وهو يلهث، يهتف أنه متعب.. دائمًا متعب، ينسحب لينام على فراش آخر في غرفة أخرى، ويستمر فراشها باردا. في الصباح اكتشفت بقايا الدماء بين ساقيها والعديد من العلامات فوق صدرها؛ أظافره، أسنانه، لا تدري ولكن كل جسدها كان يؤلمها، كانت تفكر فقط في أمر واحد، لماذا لا يأتي أبوها الشيخ الجليل ليأخذها من هذا المكان؟

لم يأتِ الشيخ البكري، كان مشغولا بحصد ريع الأملاك والفدادين التي انتقلت إليه، كان يضع جوهرة نفيسة في قمة عمامته، ويرتدي عباءة من الحرير ويلبس مركوبا من جلد التمساح، ويبدو أنه قد نسي ابنته تمامًا، الجنرال هو الذي ظل يواصل المجيء إلى فراشها كل ليلة، وكانت تترك له جسدها الغض فريسة سهلة، لا تشكو ولا تتذمر، ولا تفشي سر الليالي الذي كان يبكي فيها على صدرها مثل طفل صغير. لم تشاركهم الأحاديث ولا حفلات الرقص، ولم تحب أصناف طعامهم، أحبت فقط النبيذ الذي كانوا يشربونه باستمرار، كان يخفف من وجع جسمها ويساعدها على النوم دون كوابيس. ولكن الزمن لا يدوم على حال، حاصر الإنجليز نابليون وحطموا أسطوله، حبسوه داخل حدود مصر مثل فأر في مصيدة، وكان لا بد أن يهرب، يركب سفينة صيد عادية ويهرب تحت جنح الظلام إلى فرنسا. لم تعرف زينب بهروبه إلا بعد أيام طويلة، كانت مندهشة من أن فراشها أمسى خاليا ليلة بعد أخرى. في البداية أحست براحة تغمر جسدها، التأمت كل جروحها ولم تعد في حاجة لشرب المزيد من الخمر، ولكن ضابطًا فرنسيًّا آخر احتل فراشها، كان أصغر وأكثر كفاءة من الجنرال. وفي الليلة التالية احتل فراشها ضابط آخر، لم تحفظ أسماءهم، ولم تميز وجوههم، فقدت إحساسها بالوقت والمكان، ظلوا يتوافدون على فراشها. الغريب بعد مرور هذه الأشهر التي قضتها أسيرة هذا الفراش، لم تستطع أن تألف هذه الأجساد، لكنها لم تعد تثير تقززها كما كان مع الجنرال، كانوا أقل غرورا وأكثر شغفا، وكان جسدها ينضج رغما عنها، يصبح غريبا عنها، كأنه ينتمي لامرأة أخرى.

ولكن الفرنسيس أيضًا بدءوا يتغيرون، يأتون تباعا لكن بنفسية مختلفة؛ أقل ثقة بالنفس، وأقل إقبالا على الحياة، لم يعودوا مزهوين كما كانوا في السابق، ولا يتحدثون عن الانتصارات، كانوا متعبين، محبطين، الخناق يطبق عليهم؛ الإنجليز في البحر والأتراك في البر، وأيامهم قد آذنت بالغياب، ومرة ثانية تعودت أن تنام وحيدة في فراشه أخيرًا، ثم لم يعد أحد منهم يأتي إلى البيت أصلا، وبدأ الخدم والعبيد في الهروب. كانت تبدو غافلة عما يدور في العالم خارج المنزل، ولكن امرأة أخرى همست في أذنها وهي تستعد للرحيل: غدا سيرحل جنود الفرنسيس خارج مصر، وسيصبح هذا البيت بلا حماية، عليكِ أيضًا بالهرب.

كأنها أفاقت من كابوس طويل، بدأت تبحث عن ثيابها القديمة؛ جلباب الحرير المقصب، غطاء الرأس، والمركوب الذي جاءت به. ألقت بالملابس الفرنسية وارتاحت أخيرًا وهي ترتدي ملابسها القديمة، لم يمنعها أحد وهي تغادر البيت، غادرته قبل أن يتم اقتحام المنزل بأيام قليلة، فور أن ذهبت فلول الفرنسيس إلى الإسكندرية من أجل العودة إلى فرنسا حتى بدأت الناس الغاضبة في مهاجمة

البيوت التي كانوا يسكنون فيها، وكان هذا المنزل أولهم. سألت حتى عرفت مكان بيت أبيها الجديد، فوجئت به وقد شاخ، أصبح غريبا، أكثر سمنة وهرما وحدة في الطبع، لا يفيق تقريبا من شرب الخمر، خائفا ومرتعدا وهو يسمع عن عمليات الانتقام اليومية التي تحدث في الشوارع من كل الذين تعاونوا مع الفرنسيس، ربما مركزه وهيبته الدينية هما اللذان منعاهم من الوصول إليه، اختبأت زينب أيضًا، لم تجرؤ على مواجهة أمها، وكانت مشمئزة من أبيها ولا تريد أن تقابله، كانت تريد أن تستعيد جسدها، جسدها الذي لم يغتصب أو يمتهن.

كان أول قرارات الوالي التركي هو البحث عن كل الذين تعاونوا مع الفرنسيس وقتلهم، ولم يكن هناك أشهر من زينب البكري، قربان سهل لإرضاء الغضب وتحقيق انتصار. اقتحم جنوده منزل الشيخ البكري، ومثلما كان أبوها نذلا في البداية، كان نذلا في النهاية أيضًا، فقد صاح عاليا: أنا بريء منها ومن كل ما فعلته، خذوها واقصفوا رقبتها. تعالت الصيحات الوحشية وهم يقودونها، كانت ما تزال جميلة، تتحدث بهمس وتغضي في خفر، كانت فقط طويلة الرقبة، ولا يوجد من يدافع عنها، وسط صرخات الانتقام والبحث عن ضحية. وفي ميدان القلعة، لم يتورع الجلاد عن قطع هذه الرقبة الجميلة، وأصبحت بنت البكري أول مقصوفة رقبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الجراد

جاء كاتب الديوان لمقابلة محمد علي باشا، عرض أمامه الدفاتر الضخمة المليئة بالأسماء والخطط والمساحات، وقال للباشا: ها هي كل أراضي مصر يا أفندينا الباشا، لقد مسحنا كل أرض وقسنا كل قدم، ولم نترك قيراطا على النهر، أو تحت النهر.

وهمهم الباشا في رضا، أحس أنه قد امتلك مصر أخيرًا، تخلص من كل المماليك القدامى بالذبح أو المطاردة ثم صادر كل ما كانوا يملكونه من أراضٍ وضياع، ثم استدار على أراضي الأهالي وطالبهم بإخراج سندات الملكية كي يثبتوا أحقيتهم في الأرض التي كانوا يزرعونها منذ آلاف السنين. كانوا في مجملهم جهلة فقراء، يدفعون الضرائب الباهظة دون مجادلة، ولكنهم لم يعملوا قط حساب هذا الباشا الأفاك الذي جاء من بلاد ألبانيا البعيدة كي ينازعهم في ملكية أرضهم. لم يكن الباشا يناقش أحدا، كل من لم يثبت ملكيته بالأوراق الرسمية سارع بمصادرة أرضه وضمها إلى أراضي الدولة، وليس أمام الفلاحين في هذه الحالة إلا أن يشتغلوا فيها سخرة لمصلحة الباشا. ثم استدار محمد علي إلى الأوقاف، كان الذين يضعون أيديهم عليها لا يدفعون منها إلا النزر القليل، ولكنه كان يكفي لإقامة الشعائر في المساجد ولصرف الجراية في الجامع الأزهر، ولكن محمد علي وجد أن هذا ليس مبررا كافيا فصادر كل شيء، وحين جاء المشايخ يستغيثون ويقولون إن هذا كفيل بإغلاق كل المساجد، صرخ في وجوههم: ألا تريدون أن تخلصوا الكعبة من الخوارج؟

كان يعلق كل شيء على حربه مع الوهابيين، ولم يكن المشايخ يدرون ممن يجب حماية الكعبة، وأيهما أشد خطرا عليها؛ محمد علي أم الوهابيين.

جمع الباشا في يده كل خطط مصر وسندات ملكيتها، ونظر إلى خزينته وهتف: احسبوا لي حصيلة هذا العام.

وانهمك الكتبة والمحاسبون في حساب كل خراج مصر وكل أراضيها، كان النيل قد وفى؛ الخضرة في الحقول وافرة، والفلاحون يعملون بهمة من فرط حبهم للباشا، ومن شدة خوفهم من السياط، قدموا للباشا رقمًا فلكيًّا فابتسم في رضا، وأدرك أنه لن يحارب الوهابيين وحدهم ولكنه سوف يحارب العالم كله.

ولكن الجراد جاء، هبط على مصر مثل سحابة سوداء داكنة، حطَّ على الأشجار والحقول وأسطح الدور، ولوَّن كل شيء بلون أجنحته السوداء، ثم أخذ يلتهم كل شيء؛ يلتهم الزرع وعرق الفلاحين وأحلام الصبايا وخضرة التعب الطويل وأطماع الباشا الذي لم يصدق أنه بعد أن دان كل شيء له بالطاعة، يجرؤ ذلك الجراد على التهام الوليمة التي أعدها لنفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الجهاد

في منتصف شهر رمضان بدأ جيش محمد علي باشا يستعد للسفر إلى البلاد الحجازية لمحاربة الوهابيين، وأخذ الأتراك ينتشرون على أبواب المدينة وهم يصيحون: نحن ذاهبون للجهاد.

وكأن هذا كان مبررا لكي يأكلوا ويشربوا في نهم واضح وسط النهار. وشعر الأهالي الصائمون بشيء من الاشمئزاز ومن الخوف أيضًا، فهتف قائد الأتراك وهو يدخن نرجيلته: أبشروا يا مسلمون، نحن ذاهبون لنخلص الكعبة.

إن للبيت ربًّا يحميه.. كانت حرب محمد علي مع الوهابيين على أشدها، وفي كل شهر يطلب نجدات جديدة، وكان موسم الحج معطلا منذ ثلاث سنوات، ولكن من الغريب أن يأتي خلاص الكعبة على يد هؤلاء. كانوا يطوفون بالأسواق ويجلسون على المصاطب وفي أيديهم قصبات الدخان ويجوسون في حارات الحسينية يبحثون عن المقاهي، وإذا وجدوا مكانا مغلقا فتحوه عنوة وعبثوا بكل شيء حتى يأتي القهوجي رغما عنه ليقوم على خدمتهم.

نصبوا لهم معسكرا خارج المدينة أخذوا يجمعون فيه كل ما يقدرون عليه من جنود وأسلحة ومؤن، وبسرعة انتصب بجانبهم معسكر موازٍ، خيام قديمة وأخصاص من القش لم تكن تخفي ما يدور بداخلها، تضم الخواطي والبغايا والراقصات والغلمان والعبيد السود وبائعي البوظة والعرقي وتجار المخدرات، ثم انضم إلى المعسكر الفتوات والعياق من أبناء البلد والمتعطلون والشواذ. وكوَّن كل هذا جمعا غريبا من الناس يدخنون الحشيش ويشربون الخمور ويقفزون على النساء والغلمان أو يستخذون تحت العبيد السود، ولا يفرقون بين الليل والنهار.

شعرت المدينة كأن هؤلاء لعنة قد سلطت عليها، وأخذ الناس الذين أضناهم الصوم يلجئون إلى المساجد يدعون الله أن يزيح هذه اللعنة التي استشرت، ولم يجد الشيخ المحروقي هو وجمع من المشايخ بُدًّا من الذهاب إلى معسكرهم خارج المدينة. كان زعيمهم محمود بك المهدار جالسا على حشية من الريش وهو يدخن نرجيلته في استمتاع واضح، وهتف به الشيخ المحروقي: حرام عليك يا مهدار نحن في عز رمضان.

ولكن المهدار لوح في وجهه بوقاحة وهو يقول: نحن ذاهبون للجهاد يا شيخ، يعني خطايانا مغفورة مقدما، سوف نخلص لكم الكعبة، فابحث عمن يخلصكم من خطاياكم.

وأحاط الجنود بالمشايخ، خرجت النسوة من الأخصاص يضحكن بصوت عالٍ، وأخذ الشيخ المحروقي يسبهم، ولكنه لم يجرؤ على الدعوة عليهم بالهزيمة خوفا من أن يسمعه الباشا ويسجنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفتوى

جاءت الفتوى في زمن حرج فأثارت ضجة كبيرة، صاحب الفتوى هو الشيخ علي الميلي المغربي؛ أحد المشايخ الذين وفدوا على مصر، واستقر في الأزهر وأصبح شيخًا رسميًّا لرواق المغاربة، وقالت الفتوى: «إن ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة، ولا يجوز على المسلم أكلها».. وانتشرت الفتوى من القاهرة إلى الإسكندرية ثم إلى بقية المدن. كانت مصر في خلال هذه الأيام الأولى من حكم محمد علي باشا مفتوحة الذراعين لكل أنواع الأجانب من مغامرين وأفاكين. كانت وفود الأروام تهبط على الأحياء الشعبية كالجراد وتقاسم الناس في الخبز والسكن، وتحولت حوانيت القاهرة القديمة إلى خمارات، والفرنسيون يدسون أنوفهم في كل شيء من أول ترسانة السفن حتى عصير العنب، وكان هناك الطلاينة واليونانية والبلغار أقل شأنا ولكنهم يتصارعون على الساحة ويحاول كل واحد منهم أن يفوز بنصيب كبير من الضحية.

وجاءت الفتوى كأنها نوع من المقاومة العاجزة في مواجهة هذا الطوفان، محاولة يحاول بها المصري المسلم الفقير أن يتستر خلفها بعد أن تعرى تمامًا أمام الغزوات المتتابعة من عثمانيين إلى فرنسيين إلى إنجليز، ثم جاء هذا الشتات الجائع المفلس ليندس في لحمه ويقيم وسط بيته. وكان رد الفعل سريعا فكفَّ الناس عن التعامل مع هؤلاء الأجانب وقاطعوا محالَّ الجزارة الأجنبية، بل قاطعوا كل أنواع المأكولات التي لها صلة بالأجانب، ووصل الأمر إلى الباشا - الذي كان يعمل لقناصل الدول ألف حساب - فأصدر مرسوما إلى كتخدا بك بجمع كل المشايخ للتحقيق في هذه المسألة وإبطال الفتوى بطريقة حاسمة. وجمع الكتخدا المشايخ وعلى رأسهم حسن العطار، ولم يكن الشيخ الميلي المغربي قد وصل بعد، وقال الشيخ العطار ملطفا: لا أحد ينكر فضل وعلم الشيخ الميلي، إلا أنه حاد المزاج، والرأي عندي أن نجتمع وحدنا لنتناقش ونصل إلى نتيجة ثم نخبركم بما توصلنا إليه.

ورفض الكتخدا الاقتراح فأوامر الباشا صريحة؛ إبطال الفتوى أمام عينيه وهو لا يستطيع أن يترك المشايخ لأنهم أهل فتنة، وربما أضافوا إلى الفتوى فتوى أخرى. وأرسل الكتخدا بعض الرسل كي يحضروا الشيخ الميلي، ولكن الشيخ الميلي رفض الحضور، رفض هذا التهديد المستمر وقال: إنه على استعداد للحضور إلى مجلس علم، وليس مجلس ترك.. وثار الكتخدا فأخذ يسب كل المشايخ ورد عليه الشيوخ، فأمر بالقبض عليهم ووضعهم في السجن، ثم ركب بنفسه وخلفه ثلة من الجنود ليحضر الشيخ قهرا ولكنه لم يجده بالمنزل. ثار الكتخدا وطرد زوجة الشيخ والأولاد من المنزل، وسمَّر الباب، ووضعوا عليه الشمع الأحمر وأخذوها إلى السجن ولم يظهر الشيخ الميلي. كتبوا أن الفتوى باطلة وأخرجوا الشيوخ من السجن ليوافقوا على ذلك، إلا أنهم أصروا على أن ذلك لا يتم إلا في حضور الشيخ الميلي، وخرجت الزوجة من السجن بعد مدة طويلة ولم يظهر الشيخ الميلي.. وظلت الفتوى قائمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

السادات يموت

مات الشيخ السادات؛ أكبر شيوخ عصره، إحدى العمائم القليلة التي حافظت على رأسها وسط زمن متقلب ومليء بالفتن، قاوم سلطة المماليك والعثمانيين وحاور الفرنسيس ثم ثار ضدهم وذاق سجنهم، وأخيرا وضع يده في يد محمد علي باشا وانتظر الخلاص.

كان الباشا في الفيوم عندما بلغه خبر موت الشيخ السادات، فأمر أتباعه ألا يتعرض أحد لبيته ولا لورثته حتى يعود، وظن الناس أن محمد علي يعمل بأصله ويرد للشيخ الجميل، الذي عاونه حتى صعد إلى العرش وكان معه في صراعه ضد الأمراء، ثم ضد المشايخ وانحاز إلى جانب الباشا حين احتدم الخلاف بينه وبين السيد عمر مكرم، وعندما عزل السيد عمر من منصبه كنقيب للأشراف أصبح السادات نقيبا بدلا منه ونفى السيد عمر إلى دمياط، وبقيَ السادات في القاهرة بجانب الباشا.

وعاد الباشا إلى القاهرة بعد أسبوعين، وقبل أن يعدي النيل ويذهب إلى القلعة، أمر أتباعه بالختم على بيت الشيخ وأسرع الكتخدا في هجوم جارف فختم مجلس الحريم ومجلس الرجال وخزائن المال بل خزائن الطعام أيضًا، وقبضوا على الكاتب القبطي وعلى الخدم والفراشين.

وفي صباح اليوم التالي صعد الباشا إلى القلعة وكان أقارب السادات وبقية المشايخ في انتظاره وهم ما زالوا تحت الصدمة، تحدثوا جميعا للباشا قالوا له: إن بيوت الشيوخ مكرمة ولم يحدث أن خَتمَ بيتا من بيوتهم، فكيف ببيت السادات وهو الذي كان أعظم المشايخ؟

استمع محمد علي طويلا، كان قد تعود أن يستمع ويقتنع ثم يفعل ما يريد، وقال: إننى لم أقصد إهانتكم، ولست أطمع في شيء من الإرث، ولكن لا أخفي عليكم أن الشيخ السادات - رحمه الله - كان طماعا وجماعا للمال؛ فقد طالت مدته وحاز التزامات وإقطاعات عديدة، وأنا أعرف أنه لم يكن له أقارب، لقد كتب كل شيء لزوجته وهي جارية لا يزيد ثمنها على ألف قرش، ربما أقل، فلا يصح أن تختص جارية بذلك كله، والخزينة أولى لاحتياجات مصاريف العسكر ومحاربة الخوارج وخزينة السلطان، ولكن سوف أرفع الختم إكراما لخواطركم.

ودعا له الجميع وانصرفوا، قد حسبوا أن الشيخ السادات سوف يهدأ في قبره. وفي اليوم التالي حضر الكتخدا بالفعل ورفع الختم، ولكنهم قبضوا على البنَّاء الذي بنى البيت. ثم عادوا مرة أخرى وقصدوا إلى أحد الجدران ونقبوا وأخرجوا من جوفه العديد من الأواني النحاسية والفضية. وعادوا في اليوم التالي وهدموا جدارا آخر وأخرجوا منه كمية كبيرة من النقود بلغت مائة وعشرين كيسا. ثم عادوا وقبضوا على زوجة الشيخ السادات وعلقوها من شعرها وأخذوا يغرقونها في النيل عدة مرات لتعترف بمواضع الأموال التي خبأها الشيخ، ولم يهدأ الباشا إلا بعد أن أخذ كل دراهم رفيقه القديم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الجبرتي يتحدى الباشا

يصعد الشيخ «عبد الرحمن الجبرتي» إلى محمد علي باشا في قصر الجوهرة، لم يكن يحب مجلسه، ويكره دخان أرجيلته، وتثير لحيته الكثة ارتباكه، لكنه يواصل الصعود، يشعر أنه عاش أكثر من عمر رجل واحد، وشاهد أكثر مما يستوعبه عقل يقظ، ولا ينقصه ذلك الوالي الألباني الجديد الذي يقيم الدنيا ولا يقعدها. ها هو يجلس الآن على عرش مصر الذي كان يحكمه الفراعنة، عرش هان على أصحابه حتى أهدوه إلى قائد «أورطة» جاء إلى البلاد بشكل عابر، لم يكن مقدرًا له أن يبقى طويلا، المشكلة أن من يصل إلى هذا العرش يبقى عليه طويلا، الله وحده هو القادر على إزاحته.

يوقفه الحراس عند باب القصر ويفتشون ثيابه بدقة، يتعامل الحراس بخشونة كعادتهم، لكن هذا أمر طبيعي فأعداء الباشا يتكاثرون كل يوم، يسير في ممر من الخشب المعشق، تحدث أقدامه صوتا مسموعا، أراده الباشا هكذا خصيصا حتى لا يتسلل أحد إلى غرفته دون أن يسمع صوت أقدامه. يفضي به الممر مباشرة إلى القاعة التي يجلس الباشا في صدرها، لا يدخن، يجلس متحفزا، تجعله لحيته الكثة أشبه بأسد متأهب دوما للوثوب، يحدق فيه بعينيه النافذتين وهو يواصل الاقتراب حتى يصبح أمامه، يقول الجبرتي: احتراماتي يا باشا. يواصل الباشا التحديق فيه صامتا، يكمل متحرجا: بلغني أن حضرتكم تريدون رؤيتي. يندفع الباشا في الكلام فجأة، لم يكن يعرف من العربية إلا كلمات متفرقة، ولكن الجبرتي يعرف التركية، يفهم حتى ذلك المستوى المتدني الذي يتكلم به الباشا؛ لغة العسكر والإنكشارية: حضرتنا استدعيناك من قبل، أعطيناك ثقتنا، ومنحناك الإذن بالنزول إلى قبو المحفوظات، كل الوثائق والعقود والفرمانات والحجج أصبحت متاحة لك، هل تنكر ذلك؟

كيف له أن ينكر، كانت هذه نقطة تحول في حياته، كتب كثيرًا عما سمع ورأى، ولكنه يقترب الآن من الحقيقة المجردة، مدونة بلا تنميق وتزويق؛ تعيينات الولاة، كشوف الضرائب، أعطيات الجند، جزية الباب العالي، المال الذي يُجنى، والذي يختفي دون سبب، كيف تدير الدولة أمورها وتخفي أسرارها وتبيض وجهها، كل هذا كشفته وثائق المحفوظات الرابضة في القبو. يقول الجبرتي: فضل أعترف به، وثقة أعتز بها.

يهيج الباشا قائلا: لا فضل ولا ثقة، أنت تدمر دولتنا وتفتري علينا. ينظر الجبرتي إليه مندهشا، كيف يفتري عليه هكذا؟ طول عمره وهو يتوخى الموضوعية ويبحث عن الحقيقة المجردة، هكذا كان دأبه وهو يسجل سنوات الحوادث الجسام عندما جاء الفرنسيس بجيوشهم، وثار العوام ضدهم، كان حريصا دائمًا على أن يلجأ للتحقق من كل واقعة، يقول: لا أكتب سوى الحقيقة.

يمد الباشا يده وهو يمسك برزمة من الأوراق، يلقيها في الهواء، تتساقط بالقرب من أقدام الجبرتي، يدرك فجأة أنها أوراق المخطوط الذي يكتبه، عليها خط يده، كيف خرجت من خزانة داره؟ وكيف وصلت ليد الباشا؟ من الذي ترجم له كلماتها؟ ولكن الباشا ما زال يهدر صائحا: أتطلق على دولتنا دولة الظلم والنهب والسرقة؟ أتتهم جنودنا الذاهبين للحجاز لمحاربة المارقين على السلطان بأنهم أقل دينا؛ يفطرون في نهار رمضان وينهبون الناس؟ تتهمني أنا شخصيًّا بأنني أفرض ضرائب جديد، وأنتزع الأراضي من ملاكها. تتهمني أيضًا بأنني انقلبت على المشايخ بعد أن تعاهدت معهم.. ألم تكتب كل هذه الأكاذيب؟

يواصل الجبرتي التحديق فيه مبهوتا، يريد أن يرد على كل ما يقوله، لم يكتب فقط إلا ما شاهده بعينيه.

كانت حملة مكونة من أفاكين ومرتزقة ومحترفي حروب، تجمعوا خلف ولده الأصغر «طوسون» الذي كان يقود الحملة، في نفس ليلة خروجهم قام الباشا بحبس المماليك في القلعة وذبحهم جميعا، وقبلها جمع حجج كل الأراضي الزراعية، وأرغم الفلاحين على التنازل عن قطع الأرض التي كانوا يمتلكونها منذ آلاف السنين، رأى الجنود وهم يسوقونهم مرغمين، كل من رفض كان مصيره الجلد والسجن. كان الباشا يتحول ليصبح أكبر مالك للأراضي، يريد أن يستحوذ على كل شيء لأسرته وأولاده، وعندما واجهه المشايخ أطاح بهم جميعا، أطاح بنقيب الأشراف عمر مكرم؛ الرجل الذي اختاره للحكم، وأخذ عليه عهدا بأن يسير بين الرعية بالعدل؛ لا يصادر أرضا، ولا يستولي على مال ولا عقار، ولكنه نقض كل عهوده، وعندما اعترض الشيخ عليه نفاه بعيدا، منعه من دخول القاهرة. كل هذا وأكثر كان الجبرتي متأكدًا منه، وعليه أن يكتبه، يقول هادئا: هذا عهدي أمام الله يا باشا، أن أسجل الحقيقة.. فقط الحقيقة.

يثور الباشا أكثر، ينهض وهو يواصل الصياح: لم أقربك مني لأجل هذا، لم أدخلك القلعة وأترك بين يديك كل هذه المحفوظات حتى تهاجمني، ولكن لتكتب كتابا عني وعن عهدي وأسرتي، يكفي أنني تنازلت ووافقت على حكم هذا البلد التعس.

يظل الجبرتي صامتا، يرتعد في أعماقه، يتأمل الزبد الذي يتناثر من فم الباشا، لا يتوقف عن الصياح وقد احتقن وجهه، يقول في صوت متقطع: اختفِ عن وجهي الآن، لا تعد إلا ومعك الكتاب الذي أريده.

لا يصدق الجبرتي أنه خارج على قدميه، يوقن أنها المرة الأخيرة التي يرى فيها الباشا، لن يبقيه حيًّا دون أن ينفذ طلبه، ومن جهته لن يستطيع أن يخطَّ حرفا مما يريده، حتى لو كان الثمن حياته. يغادر الممر الخشبي، ويهبط الدرج الحجري، ويغادر البوابة الضخمة المطعمة بالزرد. في الساحة الواسعة يقف خليل ابنه الوحيد في انتظاره، يمسك بعنان بغلته، يساعده على ركوبها، يشعر بمدى حزنه وتثاقله، ماذا بك يا أبي؟ هل أساء الباشا إليك؟ لا يرد، لا فائدة من إثارة قلقه، عليه فقط أن يفكر في كيفية الهرب، يفعل ذلك دون أن ينطق بحرف واحد؛ فالجدران تتنصت عليه، هناك في داخل بيته من يستمع لهمساته ويسرق أوراقه. تدق البغلة بحوافرها الطرق المتربة، يقول خليل: سأخرج غدا للصيد يا أبي، إن أذنت لي، فسأذهب مع بعض رفاقي إلى شبرا؛ للصيد في الخلاء هناك، سآخذ بغلتك إن لم تكن في حاجة إليها.

لا يرد عليه، يبدو أنه لم يسمعه أصلا، تعرف البغلة طريقها إلى بيته في «الصنادقية» ، وفور أن يدخل من الباب يدرك من هو الجاسوس. يرى في انتظارهما الجارية الشركسية التي أهداها له الباشا. فعل ذلك في بداية التعارف والصداقة التي لم تكتمل، تتقدم بقوامها النحيل الذي لا يكفّ عن التلوي، وجدائل شعرها الأشقر وعينيها الزرقاويْن، تسير بجانب خليل وهو يقود البغلة إلى حظيرتها، تميل نحوه وتحك مؤخرتها به، يتلامسان في حميمية كأن بينهما كل أسرار الليل، متى حدث كل هذا؟ كان قد نسيها فور دخولها إلى بيته، ضاعت وسط الخدم، لم يدرِ أنها ستؤثر على ابنه. يختفيان معا في

عتمة الحظيرة، بعيدا عن أنظاره، من المؤكد أنها هي التي سرقت صحائفه ونقلتها للباشا. ينبعث صوت ضحكاتهما من داخل الحظيرة، يصيح وهو واقف في مكانه: يا خليل، يخيل إليه أن روحه ستخرج من حلقه. تمر لحظات قبل أن يظهر خليل وهو يعدل ثيابه، يقف أمامه متسائلا، لا يشعر بأنه قد ارتكب خطأ. تخرج الشركسية تتطلع إليهما قليلا ثم تواصل سيرها إلى الحرملك، ولكن الجبرتي يصرخ فيها: احزمي ثيابك وارحلي من بيتي، عودي للباشا الذي جلبك. لا يصدر عنها صوت، خليل هو الذي يشهق محتجا: ولكن يا أبي.. يتجاهله الجبرتي، يوجه حديثه إليها فقط: لن تقضي الليلة تحت سقف بيتي. يعاود خليل الاحتجاج ولكن أباه يحدجه بنظرة قاسية، لم يكن قاسيا معه قط، كان كل ما يملك من حطام العالم، خاصة بعد أن غادرته أمه وهو صغير، ولكنه لم يكن ليترك جاسوسة الباشا تدمر حياتهما معا، لم يكن ليدعها تراه وهو يستعد للهرب. تضرب الجارية الأرض بقدميها، يمتلئ وجهها ببغض واضح، ولكنه يشعر بأنه قد فعل الصواب.

يتوجه الجبرتي لغرفته، كان متعبا وفي حاجة للراحة، يستلقي على فراشه ويغمض عينيه، إلى أي مدى سيتأخر جنود الباشا؟ عندما تعود إليه الجارية سيعرف أنه مُصر على رأيه، لن يفكر فقط إلا في معاقبته، عليه أن يفكر في أي مكان سيغادر، ليس هناك إلا الشام والصعيد البعيد، عليه أن يترك العالم الذي دوَّن كل أحداثه خلف ظهره. سيهرب مع فجر اليوم القادم، سيركب في أول مركب متأهب على النيل ويبحر بعيدا، يغمض عينيه متعبا، يدخل في ظلمة قلقة، يستيقظ مفزوعا على صوت أذان الفجر، حان وقت الرحيل، سيأخذ فقط ما خف وزنه وغلا ثمنه، سيأخذ مخطوطاته، على الأقل ما بقي منها، وسيأخذ معه خليلا. يهبط إلى ساحة البيت، ينتشر الضوء الرمادي، فليبدأ بخليل، هذا كل ما يهمه. يسير إلى غرفته، فراشه خالٍ، ماذا حدث؟ أين ذهب؟ هل غضب منه لأنه طرد الجارية؟ يهبط سريعا إلى الحظيرة، لا يجد البغلة أيضًا، هل فرَّ مع الجارية؟ يصرخ في الجميع حتى يستيقظوا، تأتي إليه الخادمة العجوز، كانت تخاف الموت؛ لذا لم يكن يغمض لها جفن طوال الليل، شاهدت خليلا وهو يرحل قبل أن يؤذن للفجر. يشعر الجبرتي ببعض الراحة، رحل بإرادته إذن وكان وحده. تتردد في ذهنه كلمات خليل عن رحلة الصيد في شبرا، لم يفطن لها وقتها، كان ذهنه محملا بأقصى مما ينبغي، يصلي الفجر وهو يدعو ويبتهل، تتأجل لحظة الهرب، عليه أن يبقى في انتظاره، مهما كلفه من ثمن، يجلس أهل الدار جميعا في الانتظار.

لا يعودان إلا بعد أذان العصر؛ خليل والبغلة. تسير البغلة ببطئها المعتاد، تحرك قوائمها في خجل كأنها تخشى عبور الطريق وفوق ظهرها هذا الحمل، تتجه مباشرة إلى البيت دون حاجة لمن يوجهها. لم يكن خليل قادرا، كان مسجى فوق ظهرها، رأسه في ناحية، وقدماه في الناحية الأخرى، جسده مسترخ تمامًا، أطراف أصابع يديه وقدميه متهدلة، تكاد تلامس تراب الأرض، تدب فيه زرقة طارئة، آخذة في الانتشار. يتوقف نزيف الجروح التي كانت في صدره، جفت الدماء واستنزفت. ينزلونه أمام البيت، يحاولون إزاحة الذباب عن عينيه الجاحظتين. يحدق الجبرتي في الجسد المسجى عاجزا عن الصراخ أو البكاء، يتقدم الرجل النحيف الذي ظل يتبع البغلة طوال الطريق، يقول: لم أعرف من هو حقًّا يا سيدي، كانت أفضل الطرق للاهتداء إلى أهله هي أن أضع جسده على ظهر البغلة وأتركها لتسلك الطريق وحدها. هي التي قادتني إليك يا سيدي. ينصت الجبرتي له ذاهلا: كيف قتل؟ يقول الرجل: كنت بعيدا بعض الشيء، حتى ولو كنت قريبا ما كان في وسعي منع المقدور.

كانوا ثلاثة من جنود الأرناؤوط، شرسين ومتأهبين، لا يفيد حذر من قدر، كانوا يترصدونه عند أطراف شبرا، لا أعرف من هم، ولماذا اختاروه بالذات، ولكن هذه الحوادث دائمًا ما تقع يا سيدي.

ولكن الجبرتي كان يعرف جيدا من هم، من حرضهم وأمرهم. لقد عاقبه الباشا، عصر روحه وفتت كبده، جعله يدفع الثمن مضاعفا، قتلهما معا بضربة واحدة. يطلب من المغسلين عندما يحضرون أن ينظفوا جسده من الروث والدماء، أن يعيدوه جميلًا وفتيًّا كما كان، وأن يحشو جروحه المفتوحة بالمسك والزعفران، وألا يبكيه أحد حتى لا تزداد شماتة محمد علي فيه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أسرار دير سيناء

فلنسافر إلى مصر..

هكذا قررت الأختان في صوت واحد تقريبا، كانتا في حاجة إلى كثير من الضوء والدفء، بعيدا عن «كليبرشان» البلدة الإسكتلندية المعتمة التي تضم بيتهما وقبر أبيهما. كانت التوأم أنجيس وشقيقتها مرجريت يعيشان في ظل أبيهما المحامي الثري جون سميث، وكان بينهما اتفاق، كل لغة يتعلمانها يسافران لبلدها. تعلمتا الفرنسية فأخذهما إلى فرنسا، ثم إلى إسبانيا ثم إلى إيطاليا، لكنه مات فجأة بعد أن زرع فيهما حب السفر واكتشاف الأماكن الغريبة.

«أنجيس» الكبرى هي التي طرحت فكرة السفر لمصر، كانت قد هبطت للعالم قبل أختها بعشر دقائق تقريبا، وكانت أكثر ارتباطا بالكنيسة وقصص الكتاب المقدس، وتريد أن ترى الأرض التي وقعت فيها أحداث هذا الكتاب. لم تكن هناك معلومات مؤكدة عن ذلك البلد غير أن النيل يجري فيه، ويحكمه تركي اسمه الخديوي إسماعيل، وهو مليء بالأماكن الغريبة التي تستحق الزيارة، ولكن كانت هناك أخبار أخرى؛ مشروع قناة السويس قد أوشك على الانتهاء، ستتصل مياه البحر الأبيض بالأحمر وسيختصر طريق إنجلترا إلى الهند لنصف الوقت، وكانت إنجلترا قد تنبأت بفشل المشروع، معتقدة بأن الأرض سوف تنشق وتغوص مياهها في الأخاديد العميقة أو أن جوانبها ستنهار وتغرق كل ما يمر بها من سفن، ولكن مرت عشرة أعوام من عمر المشروع، وتواصل الحفر ولم تحدث الكارثة المنتظرة.

في ديسمبر ١٨٦٩وصلت الاثنتان إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، وأمسكت «مرجريت» أنفها وهي تهتف: يا إلهي، هذه المدينة لها رائحة غريبة جدًّا. ولكن انطباع «أنجيس» كان مختلفا، فرغم أن الإسلام قد دخل مصر من أكثر من ألف عام فإنها رأت فيها مدينة الكتاب المقدس، تخيلت أنها ستصادف سيدنا يوسف وهو يتجول وسط الأزقة الضيقة، أو سيدنا إبراهيم ومعه زوجته راشيل وهما متجهان للسوق، أو تسمع صوت النبي موسى وهو يتجادل مع البائعين. وحين رأت واحدا يقود حماره تخيلت أنه يحمل السيدة مريم وعلى ذراعها الطفل يسوع وهما هاربان. وعندما جلست في فندق شبرد وامتدَّ أمامها النيل وهو ينساب، تخيلت أنها سوف ترى السلة التي وضعت فيها أم موسى طفلها وتركتها تسبح مع الموج.

كان النيل مزدحما بالسفن التي ترحل جنوبا، للشلال الأول عند أسوان، وكانتا تشعران بأن هذه رحلة العمر ويجب أن تكتشفا كل مكان في أرض التوراة القديمة، واقترح عليهما بعض نزلاء الفندق فكرة استئجار «ذهبية»؛ سفينة صغيرة تسبح على النيل وتتوقف عندما تشاءان، وهكذا بدأتا في البحث عن ترجمان محترف، وظهر لهما المستر «كيرتيزا»؛ أحد رعايا جزيرة مالطا الذي يجيد العربية والإنجليزية والفرنسية، استولى عليهما في لمحة واحدة، وقبل أن يتناقش معهما في شيء أو يكتب أي عقد كان يقودهما عبر الأزقة الضيقة والمساجد العتيقة والكنائس المليئة بالأيقونات. خلف ضجيج الشارع والقمامة المتناثرة أخذهما إلى عالم من الجمال المختبئ تحت ركام الزمن، واستطاع أن يستأجر «الذهبية» وطاقم البحارة الذي سيعمل معهم بمن فيه «الريس» الذي سيقود الجميع، وقبل موعد الرحيل أطلق فيها ثلاثًا من القطط حتى تصطاد الفئران المختبئة بين الأخشاب.

أصبحت «الذهبية» جاهزة للرحيل. ولأن أعياد الكريسماس كانت قريبة، فقد زين السفينة بالورود وسعف النخيل وجعلها تبدو كعروس. وبعد عدة أيام من الرحيل بدأ مظهر الآنستيْن في التغير، لم تلوح الشمس وجهيهما فقط ولكن بدلت ألوان ثيابهما أيضًا. كانت النسوة في القرى التي يمررن بها هن اللاتي يقمن بغسل ثيابهن، ومن النادر أن يستخدمن الصابون، حتى أصبحت كلها مائلة للون البني، ولكن هذا لم يكن ليمنعهن من التمتع بصفاء النيل، والشطآن الخضراء التي لا تقطعها سوى كثبان الرمال.

لكن ذروة الرحلة كانت عبور الشلال الأول عند أسوان، لم يكن كيرتيزا راغبا في المضي أبعد من أسوان ولكن الأختيْن أصرتا على اجتياز الشلال والدخول في بلاد النوبة. كانت السفن مكدسة بالفعل ولا تستطيع العبور، كانت هناك سفينة أخرى ضخمة غائصة في الطين وسط جلاميد الصخور، وأخذ كيرتيزا يصيح بهما أن سفينتهما سوف تتحطم مثلها تمامًا إذا أصرتا على المجازفة، واستمر زحام السفن العاطلة لمدة ثلاثة أيام حتى ظهر ضابطان من جيش الخديوي، وأحضرا خمسين رجلا من النوبيين الأشداء، وقفت الأختان مبهورتين تتأملان أجسادهم السوداء اللامعة وهم يحيطون السفينة المغروسة بالحبال ثم يبدءون في جذبها وهم لا يكفون عن الغناء: «يا مهون.. هونها علينا».

انزلقت الذهبية أخيرًا إلى بلاد النوبة؛ أرض «كوش» القديمة كما ذكرتها التوراة، وسط جلاميد الصخر المحفور عليها أسرار الحياة، الصخور نفسها التي رآها نبي الله موسى في طفولته. وبعد أسبوع من الإبحار وصلتا إلى نهاية مصر الفرعونية.

بعد عام كامل من التجوال عادت الأختان إلى لندن، لم تعد قريتهما الصغيرة كافية لهما، خرجتا لعالم واسع وحياة جديدة، وبدأت أنجيس في تأليف كتاب عن رحلتها للشرق. كانت في أعماقها مؤلفة روائية، كتبت روايتين قبل ذلك لم يكتب لهما النجاح، ولكن كتاب «الحج للشرق» لفت الأنظار إليها، وبدأت تجني بعض الشهرة، وفي الوقت نفسه وقعت مرجريت في الحب، تقابلت مع جيمس جيبسون الذي يكبرها بسبعة عشر عاما، كان إسكتلنديًّا مثلها ويتشارك معها في تجربة السفر إلى مصر، خاصة صحراء سيناء، تزوجته سريعا. وجدت أنجيس نفسها وحيدة للمرة الأولى في حياتها، وكعادتها عكفت على دراسة اللغات وخاصة العربية. كانت لغة صعبة، ولكن جَرْس الألفاظ أعاد إلى ذاكرتها رحلتهما لمصر، وبدأت تفكر جديًّا في العودة إليها، لكن الحرب كانت مشتعلة هناك، انتبهت بريطانيا فجأة إلى أهمية قناة السويس، وأحست بأنها أخطأت حين تركت منفذًا بحريًّا مهمًّا مثل هذا، وأخذت تتحين الفرص حتى تقفز عليه، وتمكن جيشها بالفعل من هزيمة جيش الفلاحين الذي يقوده عرابي.

رحلت أنجيس وحدها لليونان ولكنها لم ترتح لها كثيرًا، كانت أثينا مليئة بالخمارات أكثر مما ينبغي، وغادرتها إلى قبرص، وعندما كانت تجلس أمام الميناء وجدت الكثير من السفن تتجه إلى مصر. كانت قناة السويس قد غيرت كل خطوط الملاحة، ووجدت نفسها تقفز في إحداها وتهبط في السويس؛ أقرب نقطة تستطيع العبور منها إلى سيناء. كانت قد سمعت كثيرًا عن دير سانت كاترين، وعن الرهبان اليونانيين الذين يقيمون فيه، والمخطوطات النادرة الموجودة في خزائنه، وكان زوج أختها جيبسون قد حكى لها الكثير عن مشاهداته في أثناء رحلته لمصر، ولأنه يهتم كثيرًا بالمخطوطات القديمة؛ فقد حكى لها كثيرًا عن العالم الألماني فون تشندروف وقصته مع رهبان الدير؛ فقد اكتشف

في مكتبتهم أقدم إنجيل معروف على وجه الأرض. كان باحثا ورسامًا ألمانيًّا، تخصص في البحث عن الأناجيل القديمة النادرة، سافر إلى باريس وفينيسيا ولندن يفتش في مكتباتها القديمة، وقد وجد أن أقدم إنجيل في أوروبا يعود فقط للقرن العاشر؛ لذلك قرر أن يتجه للشرق؛ مهد المسيحية. زار الأديرة الموجودة في الصحراء، ثم قرر أن يذهب إلى أقدمها، دير سانت كاترين الموجود في وادي سيناء، كان الإمبراطور الروماني «جستنيان» قد بناه في القرن السادس تخليدا لروح القديسة كاترين التي استشهدت في الإسكندرية.

جاء «تشندروف» يحمل خطابا من أسقف الدير الموجود في القاهرة، وسمح له الرهبان بالدخول. وسمحوا له بالإقامة داخل الدير لمدة أسبوع واحد، والبحث في مكتبة الدير التي كانت مليئة بالمخطوطات التي لم ترتب ولم تفحص، ولم تلفت نظره المجلدات المتراصة فوق الأرفف، ولكن كومة من الأوراق كانت ملقاة في أحد الأركان ومجهزة للحرق هي التي استأثرت باهتمامه. طلب أن يفحصها ووافق أمين المكتبة بلامبالاة، بدأ يقلب في الصفحات المتناثرة؛ كتابات باللغة السريانية والآرامية واليونانية، مختلطة بصفحات أخرى مكتوبة بالعربية، أعاد ترتيبها لعلها تؤدي به إلى شيء، جمع خمسين صفحة متشابهة في العمر ولون الورق، مكتوبة باليونانية، ولكنه لم يكن متأكدا أنها تمثل شيئا ذا أهمية، كان في حاجة إلى مزيد من البحث، ومزيد من الأدوات التي لم يكن يملكها في الدير، ولكن أيام ضيافته كانت قد انتهت، وغادر الدير ومعه الخمسون صفحة التي جمعها. وفي بلدته «ليبزج» اكتشف أنه يجب أن يعود للدير من جديد، كانت الصفحات جزءًا من إنجيل قديم يعود تاريخه للقرن السادس الميلادي، أقدم من أي إنجيل آخر رآه. كان يريد أن يقلب مكتبة الدير رأسًا على عقب حتى يعثر على بقية المخطوط، ولكنه كان في حاجة لسلطة أقوى حتى لا يعيق الرهبان طريقه. سافر إلى روسيا لمقابلة القيصر؛ الراعي الأكبر للدير، وتمكن من مقابلته وأراه الصفحات التي جمعها، وأرسل معه القيصر خطابا لكبير الأساقفة يطلب تسهيل كل وسائل البحث لتشندروف. عاد تشندروف للدير دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض على وجوده، أخذ يفتش في الأماكن التي يريدها حتى اكتشف بقية المخطوط، كان كتابًا ضخمًا يضم الأناجيل الأربعة باليونانية، المشكلة أنه كان مملوكا للدير، وواحدًا من نفائسه التاريخية ويجب أن يبقى فيه، ولكن تشندروف كان يريد أن يأخذه ليدرسه ويعيد طباعته. أثر نفيس مثل هذا يجب ألا يبقى حبيس الصحراء، وبعد طول مفاوضات كتب تعهدا على نفسه أن يعيد المخطوط مرة أخرى للدير. ولم يكن كبير الرهبان قادرا على رفض طلب مندوب القيصر، سمح له بالخروج ومعه المخطوط. وانتشر الخبر في كل أرجاء أوروبا، أصبح تشندروف بطلا، انفتحت أمامه أبواب مراكز البحث التاريخية والدينية، ودعيَ لإلقاء المحاضرات في محافلها العلمية.

ولكن أهم الدعوات جاءت من القيصر الأعظم لروسيا، كان يريد أن يرى المخطوط الأثري، وعندما ذهب إليه كان القيصر مهتمًّا بفحصه، تناوله منه ووضعه على ركبتيه، قال له إنه كان يتمنى لو أن هذا المخطوط مكتوب بالروسية القديمة، ثم أشار لتشندروف بانتهاء المقابلة والمخطوط ما زال على ركبتيه. انحنى الباحث أمامه أكثر من مرة، ولكن القيصر ظل يراقبه بعينين باردتين، وعندما خرج من القاعة انتظر طويلا في الردهة متوقعا أن يخرج أي خادم حاملا المخطوط، وظل في الفندق ينتظر لأيام طويلة، لم يأتِ أي رسول من القصر، بعد طول إلحاح استطاع أن يقابل مسئولًا روسيًّا رفيعًا، وأفهمه المسئول ببساطة أن الدير كله تحت رعاية القيصر، وهذا المخطوط بطريقة أو بأخرى

يُعد من ممتلكاته، ولم يجد تشندروف سبيلا غير مغادرة روسيا محسورا. اختفى المخطوط تمامًا عن أعين العالم، لم يظهر بعد ذلك إلا بحوالي تسعين عاما، في عام ١٩٣٣ عندما اتصل جوزيف ستالين بالحكومة البريطانية يعرض أن يبيع لها إنجيل سيناء الذي اكتشفه تشندروف. كانت روسيا في أشد الحاجة للعملة الصعبة، وباعت الكثير من كنوزها الفنية من متحف «الأرميتاج» للثري الأمريكي أندرو مالون؛ مؤسس متحف المتروبوليتان الشهير في نيويورك، وكان الثمن المطلوب في الإنجيل هو مائة ألف جنيه إسترليني، أعلى من سعر أي مخطوط في العالم، وفتحت بريطانيا باب الاكتتاب العام واستطاعت أن تجمع نصف المبلغ من التبرعات ودفعت الخزانة البريطانية النصف الثاني، وانتقل الإنجيل إلى المتحف البريطاني، وما زال لا يقدر بثمن.

خيل لأنجيس أنها يمكن أن تحقق حلما مثل هذا، ترحل إلى الدير وتكتشف مخطوطا مماثلا، ولكنها اضطرت إلى أن تترك السويس سريعا وتعود إلى لندن. كان مرض جيبسون قد تفاقم، لم يستطع أن يقاوم داء الصدر، غادرت الروح جسده العليل، وعادت الأختان وحيدتيْن مرة أخرى، وكانت مرجريت شديدة الحزن، ولكن أختها لم ترد منها أن تعيش حياة الأرملة، ولم يكن هناك من تعزية غير الرحيل بعيدا عن لندن الكئيبة، وهكذا بعد سبعة أشهر فقط من وفاة جيبسون قررت الأختان معاودة حلمهما في الذهاب إلى مصر، إلى دير سانت كاترين على وجه التحديد. رحلة صعبة وخطرة، ولكنهما كانتا متحمستين، سوف تستكملان جغرافيا الكتاب المقدس، وتريان جبل موسى وشجرة العليق المحترقة، وتشربان من الآبار التي تفجرت حتى تسقي قومه، وتلمسان التربة التي صنعت منها ألواح الوصايا العشر. ولكن دخول الدير لم يكن سهلا، كيف تقتحم امرأتان عالم الرهبان المتبتلين؟ عكفتا على تجهيز خطابيْن للتوصية؛ خطاب من جامعة كامبريدج، وخطاب من أسقف الكنيسة الإنجليزية. وعندما وصلتا للقاهرة سارعتا بمقابلة أسقف سيناء والحصول على خطاب ثالث منه، وخطاب رابع من المعتمدية البريطانية بطبيعة الحال.

كانتا سعيدتي الحظ حين عثرتا على الترجمان المناسب، واشترتا خيمتين كبيرتين من جلد الماعز، واتفق الترجمان مع رجال البدو الذين سيقودونهما، وساعدهما في إحضار المعدات التي شحناها من لندن؛ فلتر متحرك لتنقية المياه، وكاميرا للتصوير وحوالي ألف فيلم فوتوغرافي، وقام غير ذلك بتجهيز بقية معدات الرحلة التي من المقرر أن تستغرق حوالي خمسين يوما؛ تسعة منها للرحلة والباقي داخل الدير. وهكذا سافرتا سريعا إلى ضفة القناة ونقلتهما القوارب للضفة الأخرى؛ إلى سيناء، وكان في انتظارهما أحد عشر جملا؛ أربعة للركوب والباقي لحمل الأمتعة والصناديق والخيام والطعام وأقفاص الدجاج الحية، وصندوق للأدوية والمعدات الطبية، وموقد للطهي، إضافة إلى أحد عشر بدويًّا يقودهم شيخهم، يرتدون جميعا عباءات بيضاء، وكان ركوب الجمل لمدة طويلة عملية غاية في الإرهاق؛ لذلك فضلتا السير، وبعد يوم من السير المتواصل وصلوا إلى أول نقطة في الرحلة؛ عيون موسى، واحة صحراوية صغيرة تروى من البئر التي تتدفق منذ آلاف السنين، وحيث شربت العذراء مريم في رحلة هروبها من فلسطين. وبعد سبعة أيام من السير الحثيث أطلوا من فوق التلال العالية على الوادي السحيق الذي يوجد فيه الدير، ساروا في الممر المؤدي للدير، تحيط بهم أشجار السدر والزيتون. كان ديرًا صحراويًّا بسيطًا، لا يقاس بالكنائس الضخمة التي تركاها خلفهما في أوروبا، يحيط به سور عالٍ متين ليحميه من غزوات البدو رغم أنها قليلة ونادرة. واستقبلهما الرهبان بالترحاب، خاصة بعد أن اكتشفوا أن أنجيس تجيد التحدث باليونانية وتعرف الكثير عن

أخبار العالم الخارجي، ولكن لم يكن من الممكن السماح لهما بالإقامة داخل الدير بين رهبان عاشوا معظم أعمارهم دون أن يقتربوا من امرأة حقيقية، سمحوا لهما فقط بنصب الخيام في الحديقة بجانب سور الدير، والتردد على المكتبة خلال النهار.

كان الأب جلاكتون أمين المكتبة قد التحق بسلك الرهبة وهو في التاسعة من العمر، دخل إلى عالم مغلق من الرجال لا همَّ لهم إلا الصلاة والتعبد؛ لذا وجد نفسه منجذبا بشدة للبقاء بجانب التوأم لأطول فترة من الوقت، لا يستطيع أن يقاوم أي طلب لهما، كانت أنجيس تحدثه باليونانية عن عالم غريب لا يعرفه، ولا يتصور وجوده. أخذهما في جولة داخل الدير وأراهما معالمه: البئر التي تعرف فيها سيدنا موسى على زوجته حين رفع الحجر الذي كان يسد فوهته، وشجرة العليق التي أمر الله موسى أن ينظر إليها فإذا النار مشتعلة فيها دون أن تحرقها. وفي اليوم التالي أخذهما للمكتبة، أخذتا تفحصان المجلدات المختلفة، كان هناك العديد من المخطوطات ولكنها ليست نادرة، لا توازي المخطوط الذي عثر عليه تشندروف. شعرتا بخيبة أمل حقيقية، لم تثمر هذه الرحلة الطويلة الشاقة شيئا، ولكن الإقامة في الخيمة كانت غاية في الصعوبة، خاصة في الليل عندما تهبط درجة حرارة الوادي إلى ما دون الصفر، ولكنهما لم تفكرا في الرحيل.

وأخيرا اعترف لهما في خجل بأن هناك خزانة في بدروم أسفل المكتبة، لم يهبط إليها أحد منذ سنوات، منذ أن مات الراهب الأخير الذي كان يعرف اللغة السريانية، تلك اللغة الشرقية القديمة التي لم يعد أحد يستخدمها. وعلى ضوء الشموع هبط ثلاثتهما على الدرج الصخري، كان القبو حارًّا خانقًا دون نسمة هواء، والخزانة الخشبية منزوية في أحد الأركان وسط بقايا أثاث محطم وصخور ناتئة، بداخلها صندوقان من الخشب محفور عليهما خطوط غائرة مليئة سوداء؛ الصندوق الأول كان مليئا بصور وأيقونات قديمة، أما الثاني فيحتوي على مجلدين ضخمين.

الأصغر منهما كان مكتوبا باليونانية القديمة، وبدا من قراءة العنوان أنه منقول عن أحد كتب الفيلسوف أرسطو، أما الثاني فقد كان ملتصق الصفحات، مكسوًّا برماد أسود، ومن الصعب فتحه بالقوة وإلا تفتتت الصفحات. حملوه في حذر إلى الخارج ليفحصوه تحت الضوء، في الخيمة المنصوبة في الحديقة، جلس الثلاثة متقاربي الرءوس وهم يفتحونه، كان مكتوبا بالسريانية، صفحاته ملتصقة ببعضها البعض، كتلة مغطاة بتراب الزمن، ولكن كانت لهما خبرتهما الخاصة من مشاهدة وسائل حفظ الكتب في كامبريدج. أشعلا النار تحت وعاء صنع الشاي، والراهب يراقبهما مندهشا وهما تعرضان الصفحات الملتصقة للبخار، والغبار يذوب بنعومة دون أن يمس تماسك الصفحات، وبعد فترة بدأ المخطوط الغامض يكشف عن أسراره، كان مخطوطا عن حياة القديسات، شعرت مرجريت بخيبة أمل شديدة، كانت قد أحضرت معها كل هذه الأفلام الفوتوغرافية عبثا، ولكن تعرض صفحات المخطوط للضوء والهواء النقي فعل شيئا غريبا، أصبحت السطور الظاهرة باهتة وكشفت عن سطور أخرى خلفها، كان هناك نصّ حديث نسبيًّا مكتوب فوق نص آخر أكثر قدما. في بعض الصفحات عثرتا على عنوان الصفحة، وفي صفحات أخرى عثرتا على عدة سطور في أسفلها، ومن جمَّاع هذه السطور اكتشفتا أن النص القديم هو الإنجيل؛ الأناجيل الأربعة المعروفة مكتوبة باللغة السريانية، اللغة نفسها التي كان يتكلم بها السيد المسيح؛ هذا يعني أنه ربما كان المخطوط يعود للقرن الأول الميلادي، قبل أن تتغير اللغة ويتغير العالم، توقف الثلاثة مبهورين وهم يلتقطون أنفاسهم في

صعوبة، لقد عثرتا على أقدم مخطوط مسيحي في التاريخ، ولكن كيف يمكن إثبات ذلك؟ كيف يمكن إخراج الإنجيل الحقيقي المخفي في طيات هذه الصفحات؟ كانتا تعرفان أنه من المستحيل أن يخرجا بهذا الكتاب من الدير، تجربة الرهبان مع تشندروف لا يمكن أن تتكرر مرة أخرى، ومهما قيل لهم من وعد فلن يثق الرهبان بالعالم الخارجي، كان التصرف الوحيد أن يتم تصوير كل صفحة من المخطوط تحت ضوء الصحراء الساطع لعله حين يتم تظهير الصور تظهر سطور الإنجيل. كانتا في حاجة إلى معجزة حتى يتم هذا الاكتشاف، كان لا بد من تخليص الصفحات من بعضها ثم تصويرها، عمل شاق تواصل على مدى أربعين يوما في تلك الخيمة الصغيرة في حديقة الدير.

ألف صورة فوتوغرافية غير واضحة، مكتوبة بلغة مندثرة، سطور واضحة تخفي سطورا مطموسة، اكتشاف لا أحد يعرف إن كانت له قيمة أم لا، تملكه أختان ليس لهما أي درجة علمية ولا يعترف بهما أحد، هذه كانت حصيلة الأربعين يوما وليلة. وهكذا عادتا إلى لندن، لا تدريان كيف تتصرفان بها. كانتا في حاجة لمن يفحص هذه الصور ويفتح لهما الطريق للأوساط العلمية، الطريق لجامعة كامبريدج. كانتا قد تعرفتا على البروفيسور «راندل هاريس» المتخصص في دراسات الإنجيل عن طريق زوج الأخت الراحل، وهو الذي نصحهما بزيارة الدير، لكنه كان في رحلة لأمريكا، أرسلت أنجيس إليه خطابا مطولا، ولأنه لم يكن متخصصا في اللغة السريانية فقد نصحهما بالاتصال بـ«روبرت بنتلي» أكبر متخصص في الدراسات الشرقية في جامعة كامبريدج، ولكنه كان دائم الانشغال؛ مؤتمرات ومحاضرات وسفريات، وفي الواقع لم يكن يرى أي جدوى في مقابلة أختين على أعتاب الخمسينيات من العمر، تبدو عليهما ملامح الهوس بالشرق. وشعرت الأختان باليأس، ولكن تجربتهما في الحياة والسفر علمتهما معنى الإصرار، لا بد من البحث عن صلة وصل.

في صباح يوم أحد ذهبتا إلى الكنيسة التي تصلي فيها الزوجة «مسز بنتلي»، ومعهن بعض الصفحات المصورة، توسلتا لها حتى تدع زوجها يلقي فقط نظرة على هذه الصور. أخذت الزوجة الأوراق ولم تَعِدْ بشيء، لم تكن قادرة على التنبؤ بمزاج زوجها، فقط وعدت بالرد عليهما في الأحد القادم، وانصرفت الأختان محبطتيْن، أمامهما أسبوع كامل من الانتظار، ولكن لم يمر عليهما إلا سواد الليل حتى تلقيا في الصباح المبكر رسالة عاجلة من البروفيسور بنتلي، كان يستأذنهما في القدوم لمقابلتهما هو ومساعده البروفيسور «فرانسيس بيركيت». أدركتا أنهما قد أصابتا الوتر، وأنهما تملكان، رغم غموض الأمر، أثرًا حقيقيًّا. وفي الميعاد المحدد بالضبط جاء الأستاذ ومساعده الشاب، لم يلتفتا للشاي والكعك، كان همهما الوحيد مراجعة الصور بأكملها، معرفة من أين حصلتا عليها، التأكد أن كل شيء حقيقي، أخذا يسألان عن أدق التفاصيل، كانا على أعتاب اكتشاف جديد، ربما يكون أهم وأقدم من إنجيل تشندروف، المهم ألا يتحدثا لأحد حول هذا الأمر؛ لأنه لو شاع فسيتدفق العشرات من كل أنحاء العالم على دير سانت كاترين، لم يكن يعرف السر خارج دائرتهم إلا البروفيسور راندل هاريس. تعددت الاجتماعات، فحصا كل صورة، كانت هناك صفحات شديدة الوضوح بحيث استطاعا قراءة أجزاء من إنجيل متى، وبعد مناقشات لم تدم طويلا، قرر الأستاذان أنه لا بد من رؤية النسخة الأصلية والعمل عليها.

لم يكن في استطاعة الأستاذيْن أن يصحبا معهما سيدتين وحيدتين في رحلة للصحراء؛ لذلك قرر كل واحد منهما أن يحضر زوجته، وعندما عاد البروفيسور راندل هاريس من أمريكا أصرت الأختان

على أن يأتي هو أيضًا معهم، وهكذا تكونت بعثة من سبعة أشخاص تعتزم التوجه لمصر لاستكمال البحث، وحافظوا جميعا على السر، لم يفشوا بأمر رحلتهم لأحد حتى لا يسبقهم أحد للدير، ولم تنسَ أنجيس أن تذهب إلى المتحف البريطاني، كانت قد سمعت عن مادة كيمائية جديدة تحت التجريب يستخدمها المتحف لإزالة الأوساخ عن اللوحات القديمة دون أن تؤثر في ألوانها الأصلية. أخذت زجاجة منها وحملتها في حنان كأنها تحمل طفلا، وتجمع أفراد الرحلة في القاهرة من طرق مختلفة، كانت السكة الحديد قد امتدت نحو السويس، ومنها أخذوا قاربا إلى عيون موسى، وبعد أيام من السير الصعب وصلوا إلى الدير الرابض في الوادي السحيق، وخرج الرهبان يرحبون بهم خاصة الأب جلاكتون الذي سعى للترحيب بأنجيس، قال لها حين عرف بالمهمة إنه لا يعرف الآخرين ولن يتعامل مع أحد منهم غيرها، نصبوا خيامهم في حديقة الدير، وسمح له الأسقف بالتعامل مع المخطوط شريطة ألا يحاولوا أخذه خارج أسوار الدير.

بدءوا في العمل. كان المخطوط أصغر مما بدا في الصور، وصفحاته أكثر هشاشة، ظلوا يتأملونه محاولين أن يحددوا زمنه، ولكن الإضاءة داخل مكتبة الدير كانت ضعيفة، وسمح لهم جلاكتون بأن يأخذوه للخارج، ثم كبادرة طيبة منه سمح لهم بأن يحتفظوا به داخل معسكرهم على أن تتولى أنجيس حراسته. وهكذا كان عملهم يبدأ مع شروق الشمس، ولأن المخطوط كان صغيرا، فلم يسمح إلا لشخص واحد بالاطلاع عليه، في الوقت نفسه، قسموا الوقت بينهم وقد أدركوا أنهم أمام أهم اكتشاف في تاريخ الديانة المسيحية، وكانوا في انتظار المعجزة التي تظهر النص المخفي. أظهرت لهم أنجيس المادة الكيمائية التي أخذتها من المتحف البريطاني، ولكن بنتلي حذرها من استخدامها؛ لأنها أتلفت مخطوطا نادرا في باريس. كانوا يحاولون أن يظهروا النص بواسطة خليط من المواد الطبيعية، وسوائل التنظيف ولكن لم يتم شيء، وتشاغلت أنجيس ومرجريت داخل مكتبة الدير لإعداد فهارس بالكتب الموجودة بها وإعادة ترتيبها، وعندما حان دورها في العمل في المخطوط، وبيد مرتعدة أمسكت الفرشاة وغمستها في زجاجة المحلول ثم مرت بها بنعومة على أحد سطور المخطوط، وفوجئت بالطبقة الأولى من الكتابة وهي تتمحي، وتظهر من خلفها سطور أخرى، خط مختلف لونه زيتوني وكلمات مختلفة أيضًا. صاحت أنجيس في دهشة وانبهار، وسمع الجميع صيحتها، خرج الطباخ من خيمته، وأطل الكهنة من نوافذهم الصغيرة، وجاء الترجمان جريا، وأسرعت مرجريت إليها واحتضنتها، أشارت أنجيس إلى السطر النحيل الذي بدا واضحا، بدأ الإنجيل القديم يعلن عن نفسه ببطء، أمسكوا بالمحلول مثل كنز ثمين، والسطور تذهب تباعا، يظهر إنجيل وراء إنجيل؛ متى ولوقا ومرقص ويوحنا. على مدى الأيام ولدت سطور الإنجيل من جديد، واضحة وزاهية كأنها كتبت للتو، تخرج من عمق الزمن.

وكشف الإنجيل عن سره في الصفحة الأخيرة، ظهر التاريخ الذي كتب فيه واسم الشخص الذي كتبه. كان قد كتب في القرن الثاني من مولد المسيح؛ وبذلك يعد أقدم وثيقة تم العثور عليها في أي دين من الأديان. تم تصوير المخطوط تمهيدا لنشره، وتعهد الرهبان بالمحافظة عليه كما حفظوه طوال السنوات الماضية، وشعرت الأختان بحزن بالغ وهما تغادران سيناء، تفارقان حلم عمريهما.

أين مصير هذا الإنجيل الآن؟

هذا الأثر الذي لا يقدر بثمن.. ماذا حدث له؟ هل ما زال موجودا؟ هل تحلل وتلفت أوراقه؟ هل تمكن الرهبان من المحافظة عليه، أم أنه سرق بطريقة غامضة، أم أن إسرائيل قد استولت عليه حين احتلت سيناء؟

الأسرار كلها موجودة خلف أسوار دير سانت كاترين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خمس حكايات عن ثورة ١٩١٩

سلامة أفندي موسى

كان سلامة أفندي في زيارة سريعة لقريته بهنباه بالشرقية، المرة الوحيدة التي يزور فيها القرية منذ أن عاد من أوروبا، أحس بأنه قد انتقل إلى عالم مختلف ينتمي إلى القرون الوسطى، لم تسعفه ذكريات الطفولة بأي شيء إيجابي، وتحولت السنوات التي قضاها في باريس ثم في لندن من مجرد صور زاهية إلى مجرد حلم، كأن لم يكن. كان جالسا في بيت أبيه على مقعده القديم نفسه، يراجع حسابات الأرض التي ورثها منه، سمع صوت صراخ النسوة قادما من الخارج، خرج إليهن مسرعا، كن ثلاث نساء بسمرتهن المدبوغة وأجسادهن النحيلة وخلفهن حفنة من الأطفال الذين تبدو عليهم علامات الجوع، صرخت واحدة فيه: أخذوا رجالتنا يا سلامة أفندي، كانوا يعملون في أرضكم عندما انقضوا عليهم.

هتف مندهشا: من؟ صرخت الثانية: العسكر.. السخرة.

في كلمتين لخصت المرأة المأساة كلها، عادت السخرة رغم أنف الجميع، الإنجليز يجمعون الرجال من كل القرى، لم يكن في حاجة ليعرف أين يذهبون بهم، أحس بأنه مسئول عنهم، ففي النهاية كانوا يعملون في أرض أبيه؛ أرضه. ارتدي ملابسه وأسرع في الطريق المؤدي لمركز البوليس، ولكنه فوجئ بطابور طويل من الفلاحين، كل واحد منهم مربوط بحبال غليظة حول وسطهم، وحولهم رجال الشرطة يمسكون السياط ويسوقونهم، يلوحون بها في الهواء فتصدر حفيفا مرعبا قبل أن يهووا بها على ظهورهم، الكرباج الذي كان اللورد كرومر يتفاخر بأنه قد ألغاه، ولكن الحرب وحاجة قومه الإنجليز للرجال جعلتاه يعود للموبقتيْن القديمتيْن؛ السخرة والكرباج. رأى رجاله الثلاثة بين المربوطين، تقدم من العسكري وأخرج له بعض النقود؛ الأمر الذي ينجح دائمًا، ولكن العسكري هزَّ رأسه رافضًا: لقد تأخرت يا أفندي، المأمور يعرف عدد الأنفار ويقف في انتظارهم. الطابور كله مربوط، لو فككنا عقدة واحدة فسينهار كل شيء، أنا عبد المأمور اذهب وتفاهم معه.

لم يجد سلامة أفندي بدًّا من السير مع الطابور حتى مركز البوليس، وهناك رأى المأساة بصورة أوضح، كأن مصر قد أصبحت قرية على خط الاستواء هبط عليها النخاسون واستولوا على كل ما فيها، ليس البشر فقط ولكن المحاصيل والحمير والجمال أيضًا. ذهل من كمية البشر الذين تمَّ قبض عليهم أو تمَّ اختطافهم من كل القرى، أخذوا كل من يقدر على العمل، لم يهمهم خراب الأرض ولا بوارها، ولا مئات الأسر التي فقدت عائلها الوحيد. كان المأمور واقفا فوق مكان مرتفع كأنه إله وثني قديم، يتدافع الرعايا عند قدميه، شعر سلامة أفندي بالرهبة وهو يقترب منه. نظر المأمور إليه طويلا ثم قال: مرحبا يا سلامة أفندي، سأله في دهشة: هل تعرفني؟

قال المأمور: أعرف أن والدك من الملاك في هذه المنطقة، وأعرف أنك تكتب في بعض الصحف.

ازادت دهشة سلامة: وهل تقرأ لي أيضًا؟ قال المأمور: أحيانًا، ولا أريد أن أكذب عليك وأدعي أنني أفهم كل ما تكتبه، أتابع القليل وأفهم الأقل.

قال: عموما.. ليس هذا ما جئت من أجله. قال المأمور ببساطة: أعرف، جئت من أجل الرجال الذين أخذناهم من أرضك. حدث هذا للجميع يا أفندي، وما زلنا في حاجة للمزيد.

يتحدث في الأمر باستهانة وعفوية كأنه يؤدي مهمة بسيطة، قال سلامة منفعلا: ولكنكم تخطفون البشر ضد إرادتهم. ظل المأمور هادئا: إنها الأوامر، وأنت تعرف أن أوامر الإنجليز لا ترد، خاصة في زمن الحرب.

ما زال سلامة معترضا: أنتم هكذا تفرغون القرى من سكانها وتقتلون الزراعة.

قال المأمور: وماذا نفعل؟ الإنجليز يجهزون لحملة في فلسطين، ولا بد من أنفار يقومون يمد خط السكة الحديد عبر سيناء وتعبيد الطرق ووصل أنابيب المياه. ما يحدث هنا يحدث في كل مكان في مصر، وسوف يحدث طوال الحرب.

أوشك سلامة أن يجن من الطريقة الهادئة للمأمور، صاح فيه: ولكن ما تقوم به جريمة. لقد أعدت السخرة والكرباج، ولا يمكن السماح بذلك، سأفضح هذا الأمر في كل مكان.

حوَّل المأمور بصره عنه وهو يصيح: يا عسكري، جاء أكثر من واحد، أمرهم: ضعوا القيود حول يدي الأفندي، سنرحله معهم إلى فلسطين.

وقبل أن يفطن سلامة إلى ما حدث، كان العساكر يحيطون به وهم يمسكون القيود، انصرف المأمور وتركهم. قبل أن يفيق سلامة من دهشته أيضًا، كان العساكر قد قيدوه بالفعل بسرعة واحترافية، ثم دفعوه وسط بقية الجموع. انتبه لبقية الفلاحين وهم يحيطون به من كل جانب، يشم رائحة عرقهم، ويشعر بنبضات خوفهم، بحث بعينيه عن رجاله الثلاثة، نظروا إليه بخيبة أمل، كانوا يعتقدون بأن بإمكانه أن يفعل أفضل من ذلك، أدرك فجأة أنه واحد منهم، على الدرجة نفسها من الخوف والإذعان، وأن السلطة في مصر مطلقة، لا يهمها معاني الحرية والإخاء التي سمع عنها في فرنسا، ولا القوانين التي تحكم كل البشر كما درسها في إنجلترا، الأمور هنا لم تتجاوز العصور الوسطى فقط ولكنها تغوص إلى جذور العبودية القديمة. ظلت أفواج الفلاحين تتزايد من حوله، أقنان بلا حول ولا قوة، وفي جانب آخر كانت الجمال والحمير التي صادروها، ظلوا هكذا واقفين عطشى وجوعى ومنهكين تحت الشمس، يحيط بهم سياج من العسكر يمسكون الكرابيج، أحس بأنه على وشك أن يفقد وعيه ولكنه نظر طويلا إلى وجوههم الخانعة والصابرة، لم يكن أحد يتذمر أو يحاول الثورة، كانوا مستسلمين لقدرهم، للمقدر والمكتوب كما همس له واحد منهم، بعضهم كان مشفقا عليه، وبعضهم كان شامتا فيه، ومن شدة ذهوله لم يكن يفرق بين الشفقة والشماتة. انكسر فيه شيء ما، ولم تعد هناك جدوى من الكتابة أو الحلم بالاشتراكية العادلة لأنه بالفعل لم تكن هناك عدالة، والاشتراكية كانت في البؤس، سأله أحدهم: أين فلسطين تلك التي يتحدثون عنها يا أفندي؟

قال في صوت خافت: إنها الأرض التي سوف نموت فيها.

أصبحت رائحة الزحام خانقة، ولم يعد هناك هواء صالح للتنفس، ولكنه ظل متماسكا، لا بد من حدوث شيء غير استمرار توافد الناس. اقترب منه أحد الفلاحين الثلاثة وربت عليه وهو يقول: لا عليك يا سلامة أفندي، شدة وتزول، كلمات التصبير التي يرددونها منذ آلاف السنين، ولا تزول أي

شدة إلا بعد أن يدفعوا ثمنها مضاعفا، ثم سرت همهمة بين الجميع وصاح عسكري ضخم الجثة: قفوا في طوابير بنظام يا بهايم، يجب أن نسير لمحطة السكة الحديد. همهم الجميع محتجين ولوح العسكر بالسياط فصمتوا جميعا، ووجد سلامة نفسه مدفوعا للسير معهم، لا يدري كم ساروا ولكنه كان خائفا من لسعة السياط، كان هو الوحيد الذي يلبس حذاء بينما البقية حفاة، ولكنه كان يلهث مثلهم من شدة العطش ومن مشقة السير ومن فقدان الأمل.

ولكن الشمس كانت أرحم قليلا من السياط فخففت من حرارتها، وبدا مبنى محطة الزقازيق العتيق في الانتظار. دفعوهم جميعا إلى الساحة، أحس بأنه نقطة ضئيلة لايراها أحد وسط هؤلاء الخلق، وقف المأمور أعلى سلالم المحطة يتأمل الجميع صامتا، مثل نخاس يتأمل بضاعته، ثم ظهر ضابط إنجليزي، سار بخطوات عسكرية حتى وقف بجانبه ورفع صوته متحدثا للجميع باللغة الإنجليزية، ثم توقف ليترك الفرصة للمأمور حتى يترجم ما قاله، قال المأمور: يقول لكم الميجور إنكم تابعون الآن لجيش بريطانيا العظمى، وعليكم أن تطيعوا أوامره، سنوفر لكم الطعام وسيأخذ كل واحد منكم خمسة قروش كاملة يوميًّا.

سكت المأمور قليلا ليستمع للكلمات الإنجليزية، كان صوت الضابط قد ارتفع واحمر وجهه بشدة، ارتفع صوت المأمور أيضًا: ولكن يجب أن أحذركم، هذه أيام حرب وكل واحد منكم يحاول الهرب سوف نطلق عليه الرصاص.

ظلوا يحدقون في الاثنين دون صوت كأن الأمر لا يخصهم، ولكن العساكر فرقعوا السياط مرة أخرى ودفعوهم داخل المحطة حيث كانت كل القطارات في الانتظار. اندفع سلامة معهم وقد فقد كل القدرة على المقاومة، ولكن المأمور كان واقفا على الباب، أشار للعسكري أن يجره بعيدا عن الصفوف المندفعة ويوقفه أمامه، أمر العسكري: فك قيوده. لم يصدق سلامة أنه أصبح قادرا على تحريك يديه. نظر المأمور إليه في إشفاق: لعلك استوعبت الدرس جيدا يا سلامة أفندي، احمد ربنا أن هناك أشخاصا مثلي عندهم ضمير، يمكنك أن تمضي الآن، وعليك أن تنسى ما حدث، ولا داعي لتكتب عنه.

فرك سلامة يديه لعل الألم الذي أحدثه القيد يخف قليلا، ولكنه لم يستطع أن ينسى، أو يمتنع عن كتابة التجربة التي مرَّ بها، وكانت هذه الكتابات وقودا للثورة القادمة.

الشيخ منصور البراوي

ما إن انتهت صلاة الجمعة في مسجد الحسين حتى صعد الشيخ منصور البراوي إلى المنبر؛ شاب طويل ونحيف، له لحية رفيعة تحيط بوجهه المستطيل، وعيناه كانتا لامعتين كثيرًا رغم أنه لم يكن على وشك البكاء، هتف في الجميع: يا إخوان انتظروا قليلا، ليبقَ كل منكم في مكانه، كان صوته قويًّا وآمرًا حتى إن كثيرًا من المصلين وضعوا الأحذية أمامهم وظلوا في أماكنهم. خيم الصمت فيما كان يلتقط أنفاسه ويستعد للصياح: أنتم تخربون بلدكم يا إخوان. أنتم تعرضون أنفسكم وأولادكم للخطر وتتسببون في قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، أنتم تتحدون الإنجليز الذين هزموا أمم الأرض وأخضعوهم تحت إمرتهم. أنتم جميعا دون أن تدروا تلعبون بالنار.

الكلمات نفسها التي قالها الزعيم عبد العزيز فهمي حين ذهب إليه وفد من طلبة الحقوق وقابلوه في بيت الأمة. كان صاحب البيت غائبا، اعتقلته السلطات البريطانية ونفته إلى مالطا، ولكن فهمي كان سياسيًّا تقليديًّا يرتدي حلة أنيقة وطربوشًا زاهي الحمرة، ويعتقد بأن المفاوضات والكلام المنمق سيجعل الإنجليز يمنحون مصر الاستقلال. والحقيقة أنهم أذاقوها الموت الزؤام؛ فقد قتلوا في هذا اليوم بالذات واحدا وثلاثين من الطلبة المتظاهرين، وقتلوا في الإسكندرية وطنطا ضعف هذا العدد، ولكن الشيخ البراوي النحيل واصل الصراخ: لقد ملأتم عقول هؤلاء الطلبة الصغار بالترهات.عندما جاء الإنجليز إلى هذا البلد كان في حالة خراب، كان عرابي يعصي الدين ويخرج عن طاعة ولي الأمر، الباب العالي نفسه أصدر بيانا أكد فيه أن عرابي خارج عن الملة، يعني أنه كافر، كل ما فعله الإنجليز هو تأديب هذا المارق ونفيه خارج البلاد، استأصلوا رأس الفتنة.

تواصلت المظاهرات كشرر النار وانتقلت من القاهرة واشتعلت في بقية مدن مصر، أضرب المحامون الشرعيون احتجاجا على كثافة القتل، انتفض أيضًا عمال السكة الحديد وأتلفوا العديد من قضبان السكة الحديد، وتعطلت القطارات التي كانت تحمل المحاصيل للجيش الإنجليزي، خرجت أول مظاهرة نسائية، لم تحتمل العديد من السيدات الاختباء أكثر من ذلك، خرجت زوجات زعماء الثورة ومعهن أكثر من ثلاثمائة سيدة، على وجوههن نقب بيض وهن يهتفن مطالبات بالاستقلال، لم يطلق الإنجليز الرصاص عليهن في أول الأمر، ولكنهم أحاطوا بهن من كل ناحية، وتركوهن تحت الشمس الحارقة لعدة ساعات، وأخيرًا تدخل السفير الأمريكي وجعلهم يفكون الحصار، ولكن هذا لم يردعهم عن إطلاق النار عليهن في مرة لاحقة وسقطت أول شهيدتيْن في الثورة، وظل الشيخ منصور يواصل الصياح: كانت مصر تعيش في ظلام المشاعل ولكن الإنجليز أدخلوا الكهرباء، وكنا نعاني من الفيضان والتحاريق حتى بنوا خزان أسوان، لقد حسنوا أحوال مصر السيئة، ولو تركونا نستقل عنهم فسيكون حالنا أسوأ وأسوأ.

غير بعيد عن القاهرة في قريتي العزيزية والبدرشين بالجيزة، قام نحو مائتي جندي بريطاني في الصباح المبكر بالهجوم على القريتين مدججين بالسلاح، وانقسموا إلى فريقين؛ فريق أحاط بمنزل عمدة القرية، والآخر أحاط بالقرية وطلبوا منها تقديم كل ما يملكونه من أسلحة. لم تكن هناك إلا عدة بنادق بدائية في دوار العمدة، ولكن الجنود استولوا على الحُلي والأموال من المنازل والماشية من الزرائب، وقاموا بإحراق القريتين وقتل العديد من الأهالي. وفي الزقازيق حاصرت القوات البريطانية بلدة الشبانات بحجة قتل جندي هندي يتبع القوات البريطانية، وأمر القائد أهل البلدة بالمغادرة لإحراق القرية، واستولوا على ممتلكات الأهالي وقاموا بإحراقِها. حدث الأمر نفسه في بلدة نزلة الشوبك - مركز العياط؛ حيث اقتحم الجنود البريطانيون البلدة بالسلاح وسلبوا منها الحُلي والمال، واعتدوا على أعراض النساء، ولكن الشيخ منصور البراوي واصل القول: الإنجليز يا إخوان أهل عدل وحضارة، ليسوا المماليك الظلمة ولا الشركس الفُجر، فلا تصعبوا الأمر عليهم وعلينا، ما دمنا لا نقدر عليهم فعلينا بطاعتهم، اليد التي لا تقدر على قطعها انحنِ وقبلها هكذا أوصانا الرسول. لا تظاهرات في الشوارع ولا اعتداء عليهم لأنهم من أهل الكتاب، استغفَروا الله يغفر لكم.

ورفع يده وأخذ يهمهم بالدعاء، ونهض المصلون حملوا أحذيتهم واستعدوا للخروج، ولكنهم بعد فترة تكوموا أمام الباب في رعب، كانت هناك مدرعتان إنجليزيتان تقفان في الميدان، في مواجهة باب

المسجد تمامًا، مدافعها مصوبة نحوهم. خيم الذهول للحظات، لم يقطع الصمت إلا صوت الشيخ منصور وهو يعدو في اتجاههم صائحا: إنها ليست مظاهرة، هذه فقط صلاة الجمعة، لا تسيئوا الفهم، أنا معكم.

انطلقت الرصاصة الأولى واخترقت صدره، ثم تلتها عشرات الطلقات، اخترقت صدور بقية المصلين، تتبعتهم وهم يحاولون الهرب، انفجرت الدماء من رءوسهم وصدورهم ولطخت جدران المسجد، استطاع القليل منهم العودة للدخول وهم يرتجفون، وظل الإنجليز يواصلون إطلاق الرصاص على نوافذ المسجد حتى تناثرت شظايا الرصاص واخترقت أجساد المختبئين، واستداروا بمدافعهم وأخذوا يطلقونها على شرفات ومشربيات البيوت القريبة من المسجد. تناثرت الجثث في الميدان وداخل البيوت، كان معظمهم يرتدي جلاليب الصلاة البيضاء، وظهرت بقع الدم واضحة على صدورهم، حتى الحمام الذي كان يسكن أعلى المسجد لم ينجُ من الرصاص، وسقطت عدة حمائم قتلى على الأرض بجوار جسد الشيخ منصور البراوي.

سعد باشا زغلول

قال له الرجل باعتداد، وبلهجة عربية واضحة: يمكنك أن تطلق عليَّ مستر إكس، اسمًا يليق بكل عملاء المخابرات في العالم.

كان شابًّا إنجليزيًّا مرحًا، وهو أمر نادر في نظر سعد باشا؛ فالوقت لم يكن يسمح بأي مزاح، جو حار وخانق، بيوت ملونة من الخارج متهالكة من الداخل تطل على خليج عدن الذي بلا موج، الجو حار أيضًا في غرفة الحاكم رغم المراوح التي تطن في السقف، وكان الحاكم قد أخلاها منذ وقت مبكر حتى يجتمع سعد باشا مع هذا الشاب الذي كان قادما مباشرة من لندن، لم يكن سعد باشا وحده كان معه ستة باشوات آخرين حكم عليهم أيضًا بالنفي، سيذهبون جميعا برفقته إلى جزيرة سيلان، المكان نفسه الذي نفي إليه عرابي، وظل فيه عشرين عاما قبل أن يعود إلى مصر مريضا وعلى حافة الموت، فهل سيكون مصيرهم مثله؟

كانت السفينة التي حملتهم من السويس قد توقفت في عدن حتى تأتي سفينة أخرى لتحملهم في رحلة أبعد إلى جزيرة المنفى، كانت نهاية تعيسة لثورة لم تكتمل، ولم يكن لشيء أن يكتمل والإنجليز جاثمون على الجسد المصري التعيس، كانوا في انتظار ترحيلهم في أي وقت، وكلما ارتفع صوت صافرة سفينة في الميناء اعتقدوا بأن هذه سفينتهم. كانوا يشعرون جميعا بالخوف من المجهول، سعد باشا على وجه الخصوص لم يكن يدري إن كان سيعود من المنفى على قيد الحياة أم لا، ولكن أحدا لم يكن يشكو، كل واحد خبأ خوفه في أعماقه، كانت الثورة في مصرقد التهمت الكثير من الأرواح، معظمها أرواح غضة فتية لم تأخذ نصيبها من العمر، فماذا تساوي أرواحهم أمام هؤلاء؟

ولكن حاكم عدن استدعاهم من عدة أيام، قال لسعد باشا إنه تلقى أوامر من لندن تطلب منه أن يؤجل سفرهم إلى سريلانكا قليلا، هناك شخصية ستأتي خصيصا من لندن لمقابلة سعد باشا، كان الحاكم باردا ومتعاليا ولم يقدم أي تفاصيل أكثر من هذا، ولكن شعاعا ضئيلا من الأمل أضاء نفوسهم جميعا، هل تراجعت بريطانيا عن قرار النفي؟ لا يبدو هذا، ولكن هناك شيئا ما، وبعد الانتظار لعدة أيام جاء

هذا الشاب، لم يكن يبدو موظفا مهمًّا وبالتالي لم يبدُ أنه يحمل شيئًا مهمًّا، كان وجهه على وشك الانفجار من شدة شعوره بالقيظ، الرطوبة تجعل جسده مغطى بعرق غزير، وسعد باشا يرتدي حلة كاملة من الشاركستين الأبيض ومُصر على ارتداء الطربوش الأحمر القاني، كان العميل يؤكد على إظهار مدى أهميته، قال: أنا أعمل في مكتب إم آي ٦، لعلك سمعت عنه؟

قال سعد باشا ببعض المرارة: كثيرًا، وعانيت من تقاريره الزائفة أكثر وأكثر.

رفع العميل يده: أرجوك لا تظلمنا، تقاريرنا دائمًا صحيحة، ولكن السياسيين يتصرفون كعادتهم بحماقة.

هزَّ سعد باشا رأسه وقال: حتى لا نضيع وقتنا، إذا كنت قادما لاستجوابي حول أمر ما، فأنا لست على استعداد لإفادتك بأي شيء.

ضحك الشاب ضحكة جافة وقال: عزيزي الباشا، نحن نعلم عن مصر أكثر مما تتخيلون؛ ولذلك نحكمها منذ عشرات السنين بأقل عدد من الجنود.

شعر سعد باشا بالإهانة من غرور هذا الشاب، وفكر بالفعل في النهوض والانصراف، ولكنه قال: على ضوء أحداث الثورة الأخيرة، فإن كل معلوماتكم خاطئة.

اعترف الشاب في هدوء: ربما لم نعطِ الناس العاديين حقهم في الدراسة؛ لأن صوتهم كان خافتًا دائمًا، ولكننا نعرف جيدا كيف يفكر ساسته وزعماؤه، قال سعد باشا مسلّما: ربما.

وسادت فترة من الصمت وأخذ العميل يتفحصه بعينيه، وبدا الباشا متململا، وأخيرا قال العميل بجدية: أنا أحمل لك رسالة من رئيس وزراء بريطانيا العظمى غاية في السرية، حتى حاكم عدن نفسه لا يعرف عنها شيئا.

لم يتحرك شيء في ملامح سعد باشا ولم يبدُ متلهفا لسماعها، ولكن العميل أخذ نفسا طويلا قبل أن يقول: تريد حكومة جلالتها أن تكون أنت ملكا على مصر.

رفع سعد باشا وجهه مستغربا، همس: أنا.. ملك! وقال في نفسه: اهدأ أنت فلاح ابن فلاح فلا تدع هذا العميل الإنجليزي يتلاعب بك، قال بصوت مسموع: وماذا ستفعلون في الملك فؤاد؟

قال العميل: لقد أدى دوره ولم يعد يتحكم في زمام البلاد، لقد خرجنا من حرب وربما نخوض حربا أخرى، ونريد من يستطيع أن يفرض سيطرته على الشارع.

قال سعد باشا في إيجاز: وما الثمن الذي تريدونه؟

قال الرجل: تقريبا.. لا شيء أكثر مما هو حاصل بالفعل.

قال الباشا: هكذا تكون الصفقة ناقصة، لا بد لها من مقابل.

قال العميل: فعلا، أنت على حق وحتى تكون الأمور واضحة؛ وهذا يثبت أنك ستكون ملكا جيدا. سكت قليلا كأنه يتدبر كلماته ثم قال: نريد أولا: أن تقر بمبدأ أهمية فرض الحماية البريطانية على

مصر، وأن تقدم عن طواعية كل الالتزامات التي نطلبها. وثانيا: ترك السودان لنا نديره بمعرفتنا دون أي تدخل من مصر.

سكت الباشا قليلا كأنما يقيم العرض، ثم قال: يعني هذا أن أقف ضد دعاوى الاستقلال التي يطالب الناس بها، والتي كنت أتصدرهم فيها وأتعرض للنفي الآن بسببها.

أكد العميل: لن يكون هناك نفي، سنبدأ معا صفحة جديدة.

قال الباشا: ويعني هذا أيضًا أن أرضى بالإبقاء على قواعدكم وامتيازاتكم داخل مصر كما هي.

قال العميل: من أجل أن نوفر لكم الحماية اللازمة، نحن خائفون عليكم من قياصرة روسيا الشيوعيين ومن سلاطين تركيا المتخلفين.

قال سعد: وتريد مني أن أوفر لكم أكثر من نصف مليون مصري يعملون بالسخرة خلف خطوطكم الحربية؛ حتى يتفرغ جيشكم للقتال.

قال العميل: ربما نريد أكثر من نصف مليون، الحرب القادمة ستكون أوسع نطاقا.

قال سعد باشا: وتريد أيضًا أن أوافق على أن تأخذوا كل رصيد مصر الاحتياطي من الذهب.

قال العميل: لقد أخذناه بالفعل، وهو أكثر أمنا في خزائننا.

قال سعد باشا: وتريد منا أن نتخلى عن مصير إخواتنا في السودان؛ حتى تتكلوا بهم دون أن نتدخل.

قال العميل: وما شأنكم بالسودان؟ لماذا تتدخلون في عملنا هناك؟

قال سعد بمرارة: إنه ثمن باهظ هذا الذي تطلبونه.

قال العميل محاولا أن يرضيه: أنت تعلم بالطبع أن فؤادًا، الذي أصبح ملكا، حين جاء إلى مصر من إيطاليا كان مفلسا، وكان مدينا بمبالغ طائلة لأناس في مصر وفي إيطاليا أيضًا، ولكننا دفعنا كل ديونه، وهو يعد الآن واحدا من أغنى أغنياء مصر، هذه واحدة من فوائد أن تكون ملكا.

قال سعد: لست مدينا لأحد.

قال العميل: ولكنك مقامر، تدمن لعبة البوكر، وقد خسرت على مائدة القمار الكثير.

رفع الباشا يده: أرجوك توقف، لقد توقفت تمامًا عن هذه اللعبة.

لم يبالِ العميل باعتراضه: بعد أن تصير ملكا يمكن أن تعود إليها وتلعب كما تريد، وسترى كيف يخسر الجميع المبالغ الطائلة أمامك وهم سعداء.

قال سعد وقد بدأ يفقد بعضا من هدوئه: لن أعود إلى أي من خطاياي السابقة، ولا تحاول إغرائي، سكت قليلا كأنه يحاول أن يسترد أنفاسه، ثم صاح فجأة: لماذا أنا؟ لماذا لا تختارون أميرا من أسرة محمد علي؟

قال العميل: لدينا تسعة منهم، مفلسون وعلى استعداد لعقد أي صفقة، ولكنهم بلا فائدة، يشبهون الجالس على العرش.

قال سعد: عليكم أن تواصلوا البحث؛ لأنني لا أصلح لهذا المنصب.

صاح العميل مندهشا: كيف تجرؤ على رفض صفقة مثل هذه؟ إنها صفقة لا ترفض!

قال سعد: إنها تتطلب شخصا متقلبا، قادرًا على الانقلاب على بلده وأهله، والأهم من ذلك أن ينقلب على نفسه وعلى كل الأشياء التي عاش من أجلها. كيف أكون ملكا وأنا أتلقى الأوامر منكم وأعيش تحت ظل حرابكم؟ أنتم تدعونني إلى الانتحار، وتحرضون كل من في مصر على الشروع في قتلي، ولو طاوعتكم فلن نستقل عنكم أبدًا، المنفى أفضل لي أنا ورفاقي.

قال العميل في سخرية: ولكنك لن تذهب إلى سيلان؛ لقد زارها وزير خارجيتنا اللورد كروزون وقال إنها قطعة من الجنة، وقد نفي إليها زعيمكم عرابي وأحضر منها أشجار المانجو.

قال سعد باشا: وأين تذهبون بي إذن؟

قال العميل: سنريكم الجحيم على الأرض، سوف تحملكم السفينة جميعا إلى جزيرة سيشيل.

قال سعد باشا: أي مكان أفضل من العيش تحت ظل حكمكم.

ونهض وسار خارجا من الغرفة حيث كان رفاقه الستة في انتظاره، وفي اليوم التالي جاءت السفينة وحملتهم جميعا إلى سيشيل.

الميجور روبرت فاريل

زحام شديد في أروقة محكمة «أولد بيلي» العتيقة، محامون وكتبة وأصحاب قضايا ومتهمون، ولكن القاعة الكبرى كانت تنتظر قضية الميجور السابق في الجيش البريطاني روبرت فاريل. كانت القاعة أيضًا مكتظة بزملاء فاريل الذين يعملون معه في الترسانة البحرية في منطقة لويشام جنوب لندن، كانت وجوههم الصلبة وعضلاتهم البارزة تسبب نوعا من الإثارة للسيدات اللواتي يجلسن في الشرفة العلوية، ولكن الأكثر إثارة هو دخول القضاة وهم يغطون رءوسهم بالقلانس البيضاء. وصلت المحاكمة إلى فصولها الأخيرة، شرح المدعي العام بالتفصيل ظروف حدوث الجريمة وكيف أن الميجور السابق وقد بلغت به حالة من الهياج أقصاها قام بطعن زوجته السيدة ماريا فاريل عشرين طعنة كاملة، لم يترك جزءا من جسدها إلا وقد طالته الطعنات حتى وجهها وذراعيها، وحسب التقرير الطبي فقد انتابت المتهم حالة من هستيريا العنف ولم يعد يدري ماذا تفعل يداه. بعض الجيران شهدوا بأن الشجار بين الزوجين كان قد ازداد في الآونة الأخيرة وأصبح صوتاهما أكثر حدة وارتفاعا، ثم استمعت المحكمة إلى شهادات متفرقة عن علاقات الزوجة المتعددة مع رجال غرباء، لم تكن تستقبلهم في أثناء ساعات النهار فقط عندما يكون زوجها في العمل، ولكنها كثيرًا ما تعود إلى بيتها في وقت متأخر.

ولكن البعض الآخر من الشهود أكد أن الزوج قد وقع فريسة لإدمان الشراب، وأنه لم يكن يتورع عن التحرش بأي امرأة سواء في الحانة أو الشارع، كما أنه عرضة لنوبات من التخيلات يرى فيها أن زوجته لا تكف عن خيانته. قضية غريبة، مليئة بتفاصيل خفية وشهادات متعارضة، لم يستطع المتابعون لها الانحياز إلى أي طرف، ولكنهم اتفقوا على أن القتل قد تم بصورة وحشية ولا بد من توقيع العقوبة القصوى على القاتل.

لم يدر أحد أن محامي المتهم في ذلك اليوم كان يعد لمفاجأة جديدة، لقد طلب استدعاء الزوج للشهادة مرة أخرى. كان يجلس في قاعة المحكمة خلف منصة صغيرة يحيط به الحراس، كان رجلا نحيلا، لحيته الشقراء قد استطالت ويبدو زائغ النظر متعثر الخطى وهو ينتقل إلى منصة الشهود. كان المحامي يمسك حافظة من المستندات على استعداد لتقديمها وقت الحاجة، ولكنه بدأ سؤال المتهم على الفور: أنت كنت جنديًّا في جيش جلالتها ملكة بريطانيا، كم عاما؟

قال المتهم: خدمت فيه لمدة ست سنوات.

قال المحامي: وخدمت أيضًا وراء البحار، أين كان ذلك؟

قال: معظم سنوات خدمتي كانت في مصر.

قال المحامي: ماذا حدث بالتحديد في عام ١٩١٩؟

قال الميجور: حدث تمرد هائل من كل المصريين خاصة في مدينة القاهرة حيث كنت أعمل، وتجمعت أعداد كبيرة من الفلاحين والرعاع وأخذوا يهاجموننا دون مبرر. كانت الشوارع خطرة، وكنا معرضين للقتل في أي لحظة.

تغير جو المحاكمة وانتبه الجميع، لم تعد مجرد قضية قتل ولكنها تحولت إلى واقعة تاريخية، وفي حركة مؤثرة فتح المحامي حافظة الأوراق وأخرج إحدى الصحف بعناية، كانت أوراقها صفراء وهشة، ولكن المحامي عرض الصفحة الأولى منها. كانت تحتلها صورة كبيرة مليئة بالظلال: هل يمكن أن تشرح لحضرات القضاة هذه الصورة؟

برقت عينا الجندي وهو يتأملها، كان عمر الصورة خمسة عشر عاما، وكان يحتفظ بنسخة منها ولم يتصور أن تكون جزءا من مستندات القضية، قال: هذه صورتي في أثناء الخدمة، كان يقف في جانب من الصورة يمسك بندقية معلقًا فيها «سونكي» طويل، قال المحامي: وماذا في الصورة أيضًا؟

قال: ثلاث جثث للمتمردين المصريين، كانو يحاولون مهاجمة دوريتنا، ولكني أطلقت عليهم النار أولا، ثم طعنتهم بالسونكي حتى أتأكد من موتهم.

كانت الجثث الثلاث متكومة في أوضاع مختلفة فوق بعضها البعض، يرتدون جلاليب بيضاء، عليها بقع سوداء، ربما كانت من أثر حبر الطباعة أو كانت دماء، وكانت ملامحهم متقلصة مشوهة تقريبا، كأن الموت قد أفقدهم آدميتهم، قال المحامي: لماذا قمت بقتلهم؟

قال: لأنهم أوغاد، كانوا يصرخون في وجوهنا طوال الوقت، ويطلبون منا الرحيل، وكانت الأوامر تقضي بإسكات هذه الصيحات الحمقاء، لم يحاربوا ولا يعرفون شيئا عن القتال، وكانوا ناكرين لكل

ما فعلناه من أجلهم.

قال المحامي: لقد اهتمت بك الصحف البريطانية؛ لأنك أنقذت الدورية التي تقودها من الموت، هل قمت بأعمال بطولية أخرى خلال هذا التمرد؟ قال: لا أتذكر.

ولكن المحامي لم يستطع أن يخفي نبرة إعجابه وهو يقول: يبدو جليًّا أنك متواضع، سوف أذكرك ببقية ما فعلت.

أشار إلى شخص آخر كان يجلس مستعدًّا في مقاعد الشهود، كان في العمر نفسه تقريبا، قدمه المحامي للقضاة: هذا جون دافيد؛ صديق فاريل وزميله في الجيش البريطاني في مصر، هل يمكن أن تذكر للقضاة ماذا فعل لك فاريل؟ قال دافيد على الفور: لقد أنقذ حياتي. قال المحامي: هل يمكن أن تشرح كيف حدث ذلك؟

قال دافيد: دخلت واحدا من بيوتهم التعيسة لأبحث عن أحد المتمردين، كانوا يختبئون داخل زوايا الغرف المظلمة حتى لا نقبض عليهم، ولم يكن في المنزل إلا امرأة وحيدة، تتظاهر بأنها لا تعرف شيئا ولم ترَ شيئا. كانت تضع في غرفة نومها مجموعة من مصوغاتها الذهبية؛ ربما لتشتت انتباهي في أثناء البحث، وفوجئت بها وقد أخرجت سكينا من مكان ما وهجمت عليَّ تريد قتلي، ولكن حدثت المعجزة وظهر فاريل في الوقت المناسب، وأفرغ بندقيته في جسدها.

شهقت القاعة من شدة الإعجاب، دقَّ القاضي بمطرقته حتى يهدأ الجميع، وبدا فاريل فجأة في غاية الإثارة في نظر كل السيدات اللاتي كن يهتفن ضده. قال المحامي في صوت عالٍ مخاطبا القضاة: وهكذا ترون أيها السادة، أننا نقف أمام بطل حقيقي من أبطال الحرب، أنقذ الإمبراطورية في لحظات حرجة، وبدلا من أن نكرمه ها نحن نحاكمه بسبب جريمة مبررة من جرائم الشرف. إنني أطمع في عدالتكم أن تتذكروا ماضيه، وأن تهبوه البراءة التي يستحقها.

دوت القاعة بتصفيق لم يستطع القاضي إيقافه، وعندما انسحب القضاة للتداول في الحكم، بدا واضحا أن المحكمة ستصدر أقل حكم ممكن، إن لم تحكم بالبراءة، واقترب دافيد من صديقه فاريل مهنئا، ولكنه قال في تأثر قبل أن يمضي: أنا آسف حقًّا يا صديقي عما كان بيني وبين زوجتك.

المثال محمود مختار

كتب الشحات الكيلاني الذي يعمل فاعلا بالسكة الحديد: «إنني رجل فقير جدًّا، ويوميتي ٧٠ مليما. كنت جالسا أقرأ جريدتكم الغراء، بكيت بكاء شديدا، فسألتني زوجتي عن السبب فأخبرتها عن التبرع لتمثال نهضة مصر ولم تكن معي نقود أتبرع بها خلاف ٢٠٠ مليم، فقالت زوجتي إنها تتبرع بمائة مليم أيضًا، وقالت أمها مثلها، وكذلك فعل أخوها». وكتب كمال التميمي التلميذ بمدرسة خليل أغا: «اليوم علمت بدعوتكم لنكتتب لتمثال نهضة مصر الذي أجاد إتقانه سيدي محمود مختار، ويكون ذلك مكافأة لذلك النابغة وبرهانًا على شعور الأمة الحي. وبما أني أرجو أن أكون رجلًا حيًّا فقد أردت أن أفتتح حياتي بالاشتراك في هذا الاكتتاب المقدس بنصف ما أملك وهو خمسة وعشرون قرشًا. وأقسم بوطنية مختار، وإنه لقسم كما تعلمون عظيم، إني لو كنت أملك مئات الجنيهات لاكتتبت بنصفها ولكن ما باليد حيلة». وكتبت متبرعة تحت اسم حرم حسن الشريف: «إن تنفيذ هذا المشروع الجليل الذي

سيكون شاهدًا على أن المصري والمصرية متكافئان في تقدير الواجب وتشجيع العاملين، وإني أرسل إليكم مع هذا خمسة وعشرين جنيهًا آملة أن يكون ذلك فاتحة اكتتاب كبير تقوم به سيداتنا العاملات حتى تبرهن المرأة المصرية مرة أخرى على أنها لا تتردد في الاشتراك في كل ما يعود على مصر بالنفع والخير». وكتب بعض أهالي كفر معوض بالشرقية، قائلين: «نحن المتبرعين بهذا (١ جنيه و ٦٥٠ مليمًا) فقراء كفر معوض، بندر الزقازيق، نتقدم إلى أغنياء الزقازيق طالبين منهم مشاركتنا في الاكتتاب لتمثال نهضة مصر؛ حتى نكون قد تساوينا بغيرنا من البلدان الأخرى، ولهم الشكر مقدمًا».

تجمعت هكذا قروش فقراء المصريين من أجل أن يقيموا تمثالا، قطعة مشكلة من صخور الجرانيت، في زمن صعب ارتفعت فيه الأسعار وعزت الأقوات، في بلد خرج منهكا من الحرب العالمية الأولى. لم تحارب مصر بشكل مباشر ولكنها استنزفت حتى النخاع، ولم تظفر حتى باستقلالها، ومع ذلك تحول تمثال نهضة مصر إلى رمز لكل الأحلام الضائعة، كثيرون دفعوا نقودهم وهم لا يعرفون ماذا يعني التمثال، ولكنهم انساقوا خلف شعور جارف بالمشاركة والتآزر في صنع شيء يبعث الأمل بعد فشل الثورة.

لم يكن محمود مختار في مصر وقتها، كان قد غادر إلى باريس قبلها بسنوات، وكان يواصل الدرس والنحت يريد أن يصبح فنانًا عالميًّا، اعتقد ذات لحظة يأس بأن مصر لن تعطيه الشيء الذي يستحقه، ورغم أنها هي التي علمت الدنيا فن النحت، فإنها أصبحت تخشاه منه وتستحرم الاقتراب منه؛ فالتماثيل في نظر الكثيرين كانت مجرد أصنام مكروهة، ولكنه عندما عرف بأنباء الثورة، وقرأ عن التضحيات الكبيرة التي يتحملها الناس العاديون من أجل حريتهم واستقلالهم، تغير كل شيء في داخله، أدرك أن القمع لم يزد المصريين إلا نبلا، وأن حريتهم أعز عليهم من نفوسهم. أراد أن يشاركهم رغم بعده، أن يكون قريبا منهم كما يجب أن يكون، بدأ يصنع تمثالا جديدا عن الثورة، استحضر من ذاكرته كل التراث المصري في تشكيل الأحجار، وتحرك إزميله يخلط التاريخ القديم باللحظة الراهنة، صنع تمثالا يشبه أبا الهول الراقد في سفوح الأهرام، لكن دون عجزه القديم، أراد أن يرسم بجانبه فتاة تستحثه على النهوض، نحت جسدا لفتاة تحمل سيفا، ثم اكتشف أنه وقع أسيرا لصورة جان دارك التقليدية، أدرك أن أبا الهول لن ينهض إلا إذا جاءت له فلاحة حقيقية.

الأمر يحدث هكذا منذ آلاف السنين، الفلاحة حقًّا لا ترفع سيفا، لكنها ترفع فأسا صغيرة، وتصنع الخبز لأطفالها، وتحلب البقرة بيد حنونة وتصنع جبنا، تجيد صنع الحياة دون تحدٍّ ولا اقتحام، ليست المرأة التي تعود أن يراها تسير متبرجة في شوارع باريس، لكنها تعاني من خجل فطري لا يغادرها، ويجب أن تكون هناك طرحة على رأسها، تداري بها جزءا من وجهها وتخفي خلفها ابتسامتها الخجلى، تمامًا كما كانت تفعل أمه دائمًا وقريباته وبقية الفتيات في قريته. وما إن اهتدى للفكرة حتى أخذ يعمل في التمثال كل يوم، لم يحتج لأي موديل، كل التفاصيل كانت محفورة في ذاكرته، كان معرض الفنون الجميلة يقترب؛ معرض ضخم تحتضنه باريس كل عام ويضم خلاصة الفنانين في فرنسا، أراد أن يكون بينهم وأن يعرفهم أن في مصر ثورة، وأنها رغم الاحتلال تريد أن تنهض. ولكن الأقدار تلعب دورها أيضًا. كان سعد زغلول في باريس، جاء مع وفد شعبي ليعرضوا القضية المصرية على مؤتمر الصلح، وسمع عن هذا المثال الشاب الذي يزاحم بقية الفنانين بتمثال عن

الثورة، وكان يجب أن يذهب إليه. كان التمثال يحتل جانبا كبيرا من صالة العرض، وقف سعد باشا أمامه مبهورا، شاهد بعثا جديدا للفن المصري والشخصية المصرية في مكان لا يتوقعه، قال: هذا التمثال ليس هنا مكانه، ولا هذا حجمه، يجب أن يكون ضعف هذا الحجم وأن يحتل أهم ميدان في القاهرة.

نظر إليه الفنان الذي بدا شابًّا خجولًا بلحية صغيرة، قال: لن يسمحوا لنا يا باشا، كل التماثيل في كل ميادين مصر صنعها مثالون فرنسيون، وكلها تخص أسرة محمد علي ومن حولهم، لن يسمحوا لفلاحة مصرية أن يعلو رأسها في أي ميدان.

صمتوا جميعا، حتى الباشا نفسه، ثم قال في بطء: أمي كانت هذه المرأة الفلاحة، أمهاتنا جميعا حتى هؤلاء الباشوات، فلماذا لا ندافع عنها؟

كان سعد نفسه قد ابتعد كثيرًا، تزوج امرأة أصولها تركية وأسرتها كانت دائمًا من الذين يحكمون، ولكنه كان في لحظة لا تنسى وقد غسلت الثورة روحه، قال: هذا التمثال يجب أن يتضاعف حجمه حتى يراه الجميع، ويجب أن يكون له مكانه المميز في قلب مصر.

كلمات الزعيم كانت شبه مقدسة، حتى أعداؤه لا يمكنهم تجاهلها. طارت كلماته إلى مصر، وتلقفها كبار الكتاب، وخصصت جريدة الأخبار التي كان يرأسها أمين الرافعي صفحتها الأولى من أجل هذه القضية. اكتشف المصريون بعد أن فشلوا في الحصول على أي شيء من الحلفاء أنهم في حاجة لشيء ما؛ رمز يذكرهم بأن عليهم المطالبة بالاستقلال. وبدأت حملة الاكتتاب، جمع الجنيهات والقروش وحتى الملاليم، ورغم رقة حال المصريين وبساطة دخلهم فقد استطاعوا أن يجمعوا ٦٥٠٠ جنيه. لم يكن مبلغا هائلا ولكنه لم يكن صغيرا، وخضعت الحكومة لرغبة الناس في مناسبة نادرة، وقررت دفع باقي التكاليف، وتكفلت مصلحة السكك الحديد بنقل أحجار الجرانيت التي يختارها مختار من أسوان إلى القاهرة مجانا، وعاد مختار إلى مصر ليدق أول إزميل في التمثال، ولكن الملك فؤادًا كان ممتعضا، حين اطلع على تفاصيل المشروع هتف فيمن حوله: فلاحة مصرية! قصور مصر مليئة بالأميرات الجميلات، ألم تعجب سي مختار واحدة منهن؟ وبين امتعاض الملك وتوق الناس تواصلت رحلة صنع التمثال، تأتي إحدى وزارات الوفد فتسدد النقص في التمويل فيتواصل العمل في ورشة صنع التمثال، ثم تأتي إحدى وزارات القصر فينقطع التمويل، ولا توجد نقود حتى لدفع أجور العمال. ويخيم الصمت على كتل الأحجار فلا تنطق. يتحمل مختار كل هذه التقلبات دون أن يفكر في الهرب، فعل ذلك مرة في شبابه ولكنه لم يعد قادرا على ترك التمثال وحيدا. أيام كثيرة كان يعمل وحده حين لا يوجد معه مال كافٍ لاستئجار العمال، ولحظات أكثر يجلس فيها أمام رأس الفلاحة وهي تشد طرحتها وتبتسم، فيحس بالخجل؛ لأنه غير قادر على منحها الحياة التي تستحقها.

ثماني سنوات من المكابدة والصراع مع الحكومات المتعاقبة، أوقفته هذه الإحباطات قليلا، ولكنه ذات ليلة عندما سمع خبر موت سعد زغلول أفاق إلى نفسه، لم يبقَ إلا هو من أجل هذا المثَّال اليتيم. عاد وحده إلى ورشة العمل وأخذ يعمل حتى الصباح، وعندما بدأت الشمس في الشروق فوجئ بالعمال وهو يعودون وحدهم دون أن يسألوا عن الأجر. كانوا حزانى مثل بقية البلد، ولم يجدوا مكانا ينفسون

عن حزنهم إلا هذا المكان. وببطء بدأ المثال ينهض واقفا، والفلاحة المصرية تصلب عودها، وأبو الهول الساكن يتأهب للوثوب، أزاح الجميع ركام الحزن.

وفي يوم ٢٠ مايو عام ١٩٢٨ أقيم احتفال ضخم في ميدان السكة الحديد، وأزيح الستار عن واحد من أعظم الأعمال الفنية في تاريخ مصر، وجلس الملك فؤاد صامتا وهو يشاهد الفلاحة المصرية تمسك طرحتها وترفع رأسها متطلعة للمستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

القيراط الأخير

في البدء خلق الله مصر، كتلة من الطين.

وعندما شقها النهر وسكنها الإنسان والطير كان لهما نفس لون الطين. لم يقسم الله طين مصر، ولكن الجميع قسموه، عجنوه بالدم والعرق، وتصارعوا حوله بالأظافر حتى أصبح النهر غريبا، والإنسان الذي له نفس لون الطين أشد غرابة.

عندما صعد المماليك وركبوا أعناق أهل مصر قسموا الطين بحد السيف، فأصبحت مصر المملوكة لهم أربعة وعشرين قيراطا بما عليها من أنهار وترع وناس وطير وحيوان.

أربعة قراريط للسلطان إذا كان ضعيفا، وخمسة إذا كان عنيفا، وستة إذا كان شرها، والسلطان الغوري كان أشد هؤلاء السلاطين شراهة، لم يكتفِ بما يملك من أرض وعقار، بل امتلك القوافل ومكوس التجارة، واحتكر توزيع البهار وصناعة السكر والملح، وهبط إلى الوكالات يحاسب التجار والباعة ويغالطهم في الحساب.

وعشرة قراريط للأمراء والعسكر إذا كانوا هادئين، واثنا عشر إذا خرجوا للقتال، وأربعة عشر إذا تمردوا على السلطان الضعيف فيضطر لمراضاتهم. لم يكن هناك أمير من أمراء العسكر يقنع قط بالقراريط المقسومة له، كان دائمًا لديه إحساس مؤكد أن قراريط غيره أكثر خصوبة وأكبر مساحة؛ من أجل ذلك كان لا يكف عن حيك المؤامرات وإحداث الفتن، ولا يتورع حتى عن زج أخيه في السجن من أجل إضافة نصف قيراط إلى أرضه. وقراريط الأمراء كانت دائمة التشكل، في كل مرة يمتلكها أمير يفتحها بحد السيف كأنها لم تفتح من قبله ولم تنهب من غيره، وكل أمير يقبض على قراريطه حتى يموت خنقا أو طعنا، ثم يأتي قاتله ليستولي على التركة ولا يترك له الزمن إلا برهة قليلة من الوقت يسترد فيها أنفاسه حتى تتكون مشيئة القاتل الجديد.

كان هناك قيراطان للترضية، ليس لهما صاحب محدد، ولكنهما موجودان دائمًا لاسترضاء الأمير الأقوى والأكثر غضبا والأقل صبرا. كان السلطان يعطيهما له حتى يلهيه قليلا قبل أن تحين الفرصة ويتخلص منه، لم يدم هذان القيراطان لأحد، ولم يكن هناك أمير يمكن أن يبقى قويًّا وغاضبًا ونافد الصبر إلى الأبد، كانت شراهته دائمًا هي نقطة الضعف التي تقود للنهاية.

وأربعة قراريط موقوفة لاسترضاء غفران السماء العسير المنال، للمساجد والزوايا والتكايا والأسبلة، للشيوخ والمجاذيب والفقهاء وطالبي العلم، للمرضى المقيمين في البيمارستان ولطلاب الأزهر والمجاورين وحفظة القرآن والمتصوفة والمنقطعين، ولكل من يقدر على رفع غفران من أجل ذنوب المماليك الكثيرة.

وثلاثة قراريط ترسل منها الخلع والعطايا والعلوف والتقادم لنواب السلطان وجنوده المبعدين خارج الحدود حتى لا يفكروا في الثورة عليه، ومن هذه القراريط يخزن قمح الجهاد الذي يطلق عليه «قمح العنبر الشريف»، وهو لا يخرج من خزانته إلا في زمن الحروب أو زمن المجاعة.

لم يكن باقيا إلا قيراط واحد لكل الفلاحين. قيراط واحد للذين يزرعون في برودة الشتاء ويحصدون في قيظ الظهيرة ويبنون في كل أوان، ويعانون من السخرة والشظف والجوع في كل موسم. قيراط واحد لكل الذين أقاموا على حافة النهر فشربوا من مائه وفاض من عرقهم فيضانه وقلبوا الأحجار ونقوا الطين وأودعوا الأرض بذرة الخلق وسر القمح والشعير وأسماء الله الحسنى. قيراط واحد لكل الأطفال الذين ولدوا بلا حلم، والبنات اللاتي مضين دون عشق، والفواعلية الذين ماتوا بلا ثمن، للناس الذين جمعوا شتات أنفسهم بعد كل فيضان، وأقاموا الصلاة على موتاهم بعد كل وباء، ورحلوا للمدن فأقاموا القصور الباذخة ثم عاشوا في الحواري الضيقة يواصلون صنع تمائم الحياة ويترقبون - رغم كل شيء - بعث كل الأحلام الجميلة. قيراط واحد للزهرة والقبرة للشعراء والفقراء والمغنين المجهولين والصنايعية والعشاق الصغار. قيراط واحد استطاعوا بأحلامهم الكبيرة وبانتظارهم الدائم للغد أن يجعلوه في اتساع الكون يمتد من حافة النهر حتى مدى الأفق.

القاهرة ٥/ ٨/ ٢٠٢٠

في عزلة كورونا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الكتاب..

فذلكة لا بدَّ منها

عقل الأمة
زرقاء اليمامة
الملوك الطيبون
مكان للسباب
الشموس
نبوءة ملك
مقتل شاعر
الحماة: زبيبة
صفقة الأعمى
آخر الخُطّاب
الشروط
الجرباء
رماد العشق
نداء الشباب
فرط الحنين
حرب الجدائل
الوجه الصبوح
البساط
القميص الممزق
عين الماء
ثماني مرات خالدة
شهادة الحمير
غراس الجنة
ثمن البكاء
خطوبة
مكان للرأس المقطوع
حمائم مكة
من يشتري الموت؟
المغني
الأغنية الأخيرة

إبريق مروان
الوالي يهرب
نبش القبور
بيعة رغم الأنف
حَدّ السكر
دورة العشق
حاجب الخليفة
دورة السلطان
غناء الروح
اللص الراوية
البحث عن جارية
نعل النبي
ضيعتان
في وسط الأحواز
الحجر الأسود يسرق
طوفان نوح
الخليفة جائعا
ابن طولون.. مخبر سري
آخر من مات عشقا
صديق شخصي للسلطان
دية عيسى بن مريم
مرثية لزمن الضحك
كبير اللصوص يطالب بالزكاة
صداق الأجل
الوزير الأحمق
اللص و السلطان
أول من يعبر
لحظة دفء
الجنون يليق بابن الهيثم
ست الملك لم ترَ شيئا
ثأر الأنبياء
صلاح الدين وشيخ الجبل
طوبى للغسالات
قليل من الخمر
وسادة لسيف الدولة
أسوأ حاكم في التاريخ

حمائم شجرة الدر
من أجل حلب
كتاب من قلعة آلموت
عبد الله بن أبي عامر
حطاب غرناطة
خمسمائة عصا
رحلة كل سلطان
آخر الخلفاء
البرج الأكبر
ثلاثة حدادين.. وسلطان
من دفاتر المقريزي
ابن خلدون.. عاشق التتار
الفيل الأبيض
سلطان الأنس
موكب الشموع
ضمان الغواني
ملك من المغول
البركة
الناس تعرف الكثير
حاجة تجنن
رأس القديس مرقص
كسوة الكعبة
طوبى لك يا تتيس
دنانير مغشوشة
ابن الطبال
العرقانة
بركاتك يا شيخنا
آخر السلاطين
شم النسيم
يوم القيامة
واقعة الطلاق
وفاء النيل
لعنة البيت
الذين أسلموا
السفاح
ثمن الجوع

الباشا والألوان
المغاربة ضربونا
ثمار اللارنج
عهدة الجثث
خبز الجراية
النهب
الغرامة
العودة إلى التراب
مشاجرة بسيطة
مقصوفة الرقبة
الجراد
الجهاد
الفتوى
السادات يموت
الجبرتي يتحدى الباشا
أسرار دير سيناء
خمس حكايات عن ثورة ١٩١٩
القيراط الأخير